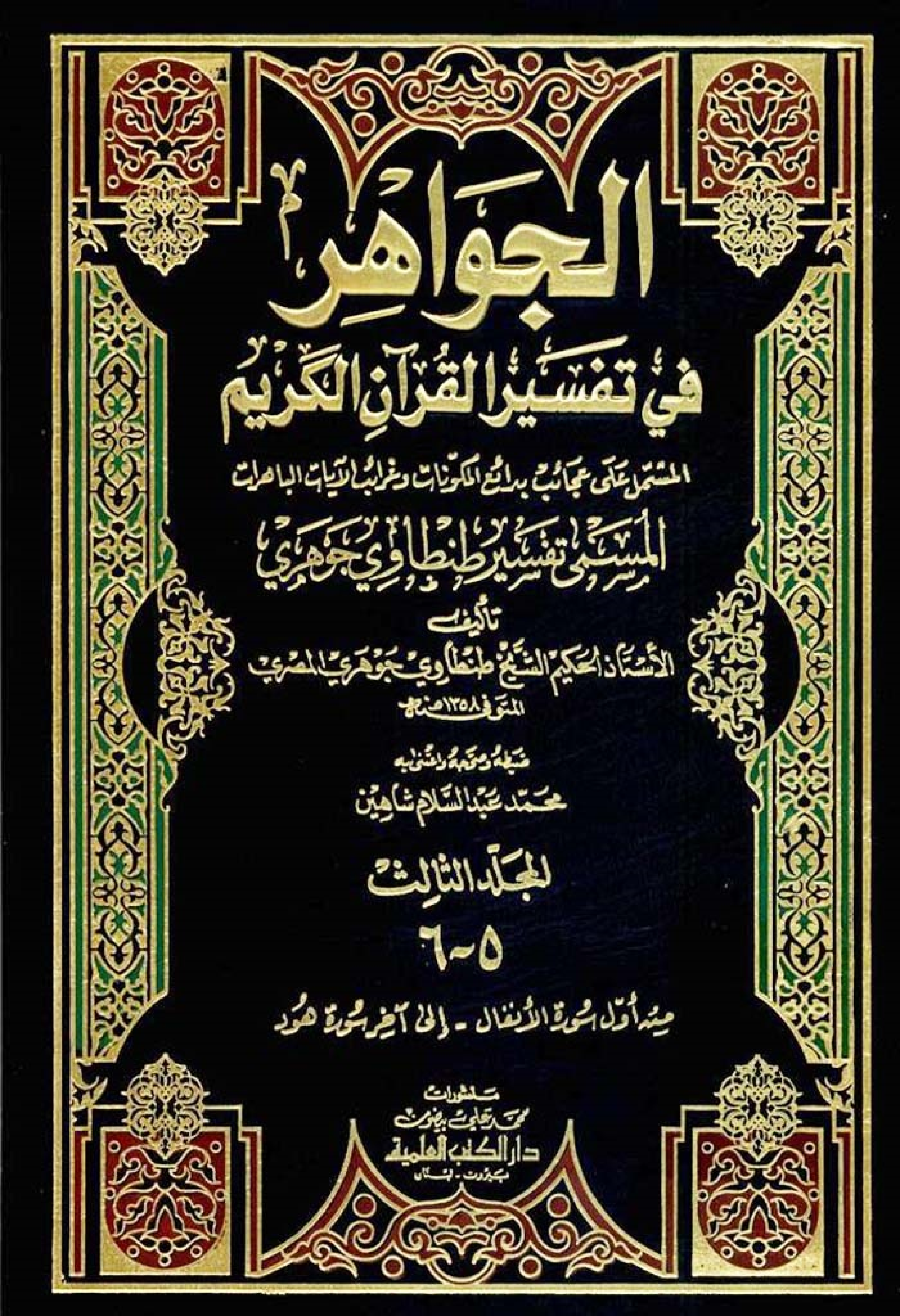


الجواهر
في تفسير القرآن الكريم
المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات
المسمى تفسير طنطاوي جوهري
تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري
المتوفى سنة ١٣٥٨ هـ
ضبطه وصححه واعتنى به
محمد عبد السلام شاهين
المجلد الثالث
٥-٦
من أول سورة الأنفال - إلى آخر سورة هود
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الجواهر في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري

المتوفى ١٣٥٨هـ

ضبطه وصححه واعتنى به

محمد عبد السلام شاهين

الجزء السادس

المحتوى:

سورة يونس وسورة هود

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾[ق: ٣٧]

تفسير سورة يونس
وهي مكية، وهي تسع ومائة آية
وهي سبعة أقسام

القسم الأول: في دلائل معرفة الله تعالى، واليوم الآخر، ونعيم الآخرة. من أول السورة إلى قوله: ﴿ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

القسم الثاني: في أدلة مختلفة على التوحيد؛ من النظر في النفس، والنظر في القرون الخالية. من قوله: ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ﴿١١﴾ ﴾، إلى قوله: ﴿ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

القسم الثالث: في أدلة البعث وأحوال المبعوثين. من قوله: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٤﴾ ﴾، إلى قوله: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

القسم الرابع: في إثبات النبوة، وتقريع الجاهلين وتوبيخهم، مع أدلة إثبات الربوبية. من قوله: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴿٣١﴾ ﴾، إلى قوله: ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

القسم الخامس: قصة نوح عليه السلام. من قوله: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴿٧١﴾ ﴾، إلى قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

القسم السادس: قصة موسى وفرعون. من قوله: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ ﴿٧٥﴾ ﴾، إلى قوله: ﴿ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

القسم السابع: في تقرير ما تقدم كله من القصص والدلائل. من قوله: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴿٩٤﴾ ﴾، إلى آخر السورة.

القسم الأول

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

اعلم أن أول هذه السورة كالمتمم لآخر السورة السابقة، فإن آخر تلك يرجع إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم:

(١) أرسل من العرب. (٢) وهو رؤوف رحيم بالمؤمنين.

(٣) وعلى الله وحده توكله. (٤) ثم وصف الله تعالى أنه رب العرش العظيم.

وفي أول هذه السورة:

(١) أنه ليس من عجب أن يرسل الله للناس رسولاً منهم، وهو متمم للأول من السورة السابقة، فكأنه يقول: أنه ليس للعرب خاصة بل للناس عامة، وكما أنه من العرب هو من سائر الناس، فهو لهم مرسل.

(٢) وأنه يبشر الذين آمنوا أنهم لهم منزلة رفيعة عند ربهم، وهذا في مقابلة الأمر الثاني في السورة السابقة وهو: أنه رؤوف رحيم بالمؤمنين.

(٣) ثم وصف الله بأنه استوى على العرش، وهو في مقابلة الأمر الرابع هناك.

(٤) وقوله: ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ يفيد الوحدانية المستفادة من اختصاص التوكل به، ثم إن هذه السورة جاءت بعد «الأنفال» و«التوبة» اللتين اختصتا بالقتال والغزوات وقسمة الغنائم، وذكر المنافقين ووعيدهم وما حكم عليهم به من العذاب والتوبيخ والتقريع، وفيهما ذكر الصدقات وقسمتها

على المستحقين فهماً للمسائل الفقهية والأحكام العملية، فناسب أن يؤتى بعدهما بما يغذي العقل من الحكمة والعلم، فهناك عمل إسلامي، وهنا علم حكمي، ولذلك ختمت سورة «التوبة» بأن الله ﴿ هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ توطئة لما سيذكر في أوّل السورة من الجمال الإلهي، والحكمة العلمية، وذكر الشمس وضيائها، والقمر ونوره وأقسام منازله، ومعرفة عدّ السنين والحساب، واختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان، والعجائب المصنوعة، والارتقاء من ذلك إلى تغذية الأرواح الإنسانية بهذه العجائب النورية والانزعاج عن العالم الكثيف، والاطمئنان بالعالم اللطيف، فمن الناس من يكتفي بالجنات الجارية وأنهارها، ومنهم من يرتقي إلى سبحات الجلال ومقامات السلامة من المادة وتغيراتها، ثم يرتقي إلى مقام الحمد الذي تتغذى النفس فيه بالمعارف العلمية، ومعرفة ترتيب الكائنات ونظامها.

تفسير الألفاظ

﴿ الٓرۚ ﴾ قد علمت حكمة هذه في أول سورة «آل عمران» واستبان هناك سرّ الحروف التي في أوائل السور، وكيف كانت ١٤ وجعلت في أوائل ٢٩ سورة، وكيف نوّعت إلى أحادية وثنائية وثلاثية الخ، وكيف كان عدد ٢٨ من الأعداد التامة، وهو مما له علاقة بتشريح كثير من الحيوانات الفقرية وفقراتها، وكيف كان في ذلك رموز وإشارات تلائم عقول الأمم التي نزل القرآن عليها؛ لاعتيادها الرموز والإشارات في الكتب السماوية والعلوم القدسية في نظرهم، وكيف اتصل الكلام من ذلك إلى ما هو أتم وأكمل، من حيث إن اللغة العربية النازل بها القرآن ستبقى إلى آخر الزمان لمناسبتها للمنازل الفلكية والفقرات الحيوانية وبعض الأحوال الطبيعية، وكيف وافق ذلك رأي مؤلف ألماني في روايته مستنتجاً ذلك من تغيير اللغات وثبات لغة العرب لبقاء القرآن بها، فارجع إليه إن شئت، ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أي: الآيات المذكورة الآتية في هذه السورة وما تقدمها، ﴿ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ من الحكمة، فهو ذو الحكمة، أو: هو قد وصف بوصف من تكلم به. قال الشاعر:

وغريبة تأتي الملوك حكيمة قد قلتها ليقال من ذا قالها

وهو الحاكم في الاعتقادات، وحكم فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى الخ، وبالجنة لأهلها، وبالنار لأهلها، ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ استفهام إنكار للتعجب، و«عجباً»: خبر «كان»، واسمها ﴿ أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ ﴾ والعجب: حالة تعتري الإنسان من رؤية شيء على خلاف العادة، وقد كانوا يقولون: «العجب أن الله لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب». «أن» هي المفسرة ﴿ قَدَمَ صِدۡقٍ ﴾ سابقة ومنزلة رفيعة، سميت: «قدماً» لأن السبق بها، كما سميت «النعمة» يداً لأنها تعطى باليد، وأضيفت للصدق لتحققها، وفي ذلك تنبيه على أنهم ينالونها بصدق القول والنية، ﴿ لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ﴾ أو: لسحر مبين، أي: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ ﴾ فلما جاءهم بالوحي وأنذرهم قال الكافرون الخ. ﴿ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾ استعلى بالقهر والغلبة، كما جاء في آية أخرى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ۝١٢ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ ﴾[الزخرف: ١٢-١٣]، و«العرش» إما بمعنى: الملك، وإما بمعنى: البناء، فكل بناء يسمى عرشاً وبانيه يسمى عارشاً، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴾[النحل: ٦٨] أي: يبنون، وقال في صفة القرية: ﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾[الحج: ٤٥] والمراد: أنها خلت منهم مع سلامة بنائها وقيام

سقوفها ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾[هود: ٧] أي: بناؤه. ﴿ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أي: بعدالتهم وقيامهم على العدل في أمورهم، وذلك لا يتم إلا بإيمانهم. ﴿ حَمِيمٍ ﴾ الماء الحار. ﴿ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً ﴾ ذات ضياء، ﴿ وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ ذا نور، وما بالذات يسمى ضوءاً، وما بالعرض يسمى نوراً، ﴿ وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾ أي: القمر، وإنّما خصّه لأن سيره أسرع، وبه يعرف انقضاء الشهور والسنين، والشرع اعتبر الأهلّة، أي: قدره ذا منازل ﴿ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ حساب الأوقات من الأشهر والأيام في معاملاتكم وتصرفاتكم. ﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ ملتبساً بالحق مراعياً فيه مقتضى الحكمة، ﴿ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ إذ لا ينتفع به سواهم. ﴿ ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ مجيء كل واحد منهما خلف الآخر، ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ من أنواع الصور والأشكال والعجائب التي لا حصر لعددها. ﴿ يَتَّقُونَ ﴾ العواقب. ﴿ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ لا يتوقعونه لإنكارهم البعث وغرامهم بالمحسوسات عن المعقولات ﴿ وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ لغفلتهم عن الآخرة، ﴿ وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا ﴾ سكنوا إليها مقصرين هممهم على لذاتها وزخارفها، أو: سكنوا فيها سكون من لا يزعجون عنها، فبنوا شديداً وأملوا بعيداً، ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴾ لا يتفكرون فيها لانهماكهم فيما يضادّها، فهم جامعون بين الخصلتين: الانهماك في الشهوات، والغفلة عن عجائب الآيات. ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ بما واظبوا عليه وتمرنوا عليه من المعاصي حتى صار سليقة لهم. ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ ﴾ أي: بسبب إيمانهم إلى سلوك سبيل يؤدّي إلى الجنة أو لإدراك الحقائق، ثم استأنف فقال: ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ حال كونهم ﴿ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾، وقوله: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ أي: دعاؤهم، لأن: «اللهم» نداء لله، ومعناه: يا الله إنّا نسبحك تسبيحاً، ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ ﴾ ما يحيي بعضهم بعضاً، وتحية الملائكة إياهم، وتحية الله أيضاً لهم، ﴿ فِيهَا سَلَـٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ ﴾ دعائهم ﴿ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أي: أن يقولوا ذلك، و«أن» مخففة من الثقيلة. انتهى التفسير.

هذه الآيات التي في هذه السورة والتي تقدمتها آيات القرآن الذي تنزلت فيه الحكمة وحكم فيه بين الحق والباطل والضلال والهدى. يا عجباً للناس كيف يعجبون منا أن أرسلنا رسولاً منهم لينذرهم أجمعين ويبشر المؤمنين؟ أظنوا أن العلم والحكمة والوحي تابعات للمال والبنين فلكل وجهة هو موليها.

أليس الله بأعلم بمن استعد للعلم ومن حرم الحكمة؟ هما ضدان لا يجتمعان، وكيف ينزل الوحي إلاّ على المستعد له. وليس الاستعداد بالعظمة والجاه ولا بكثرة الأتباع، وإنّما هو استعداد في القلوب وعطاء من علاّم الغيوب. فكيف إذن يعجبون ممن أوحينا إليه لينذرهم ويبشر المؤمنين أن لهم منزلة سامية ومقاماً رفيعا ومجداً يوم يلقون ربهم، فلما أرسلناه إليهم قال الكافرون: إن ما جئت به سحر مبين، إن هذا ليس بسحر، بل هو حقّ قام عليه البرهان.

أليس ربكم الذي خلق السماوات والأرض في أزمان متطاولة عددها ستة وسميت أياماً، واليوم عند كلّ بحسبه.

فصل في بيان قوله تعالى: ﴿ سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

فإذا نظرنا لأهل الأرض رأينا اليوم عندهم عبارة عن دورتها مرة واحدة حول نفسها، وكانت هذه المدة معتبرة في أزمان أخرى أنها بسبب سير الشمس حول الأرض كل يوم وليلة من الشرق إلى

الغرب، فلما تبين بطلان هذا استقر الأمر على أنه بسبب دوران الأرض على محورها نفسها، فإذن أهل العقول مستعدّون أن يقبلوا أن يكون اليوم مقدّراً بمقدار سير كوكب حول كوكب آخر، وبناء عليه لو اعتبرناه كذلك ونظرنا لكوكب من الكواكب الثابتة فإنه قد يتم دورته في مئات السنين بل في آلافها ومئات الآلاف وآلاف الآلاف كما تقدم في مواضع من هذا التفسير، فإذا قرأنا في القرآن: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾[الحج: ٤٧]، وقرأنا: ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾[المعارج: ٤]، ونظرنا في علم الفلك الحديث فإنا نقول: إن اليوم إذا اعتبرناه من هذه الناحية ـ وإن لم يكن عندنا كذلك، والعقل الإنساني قبل ذلك سابقاً ـ قلنا إن اليوم قد يكون آلاف الآلاف من السنين، وإذن تكون تلك الأيام المذكورة في القرآن لتفتح العقول إلى البحث، فإذا سمع الناس أن الله خلق العالم في ستة أيام صدّق الجهلاء المؤمنون، وكذب وشك أكثر المتعلمين، وتركوا الدين، وأصبحوا في حيرة وفي شك من ليل الجهالة المظلم، ثم يبحث الحكماء منهم والصابرون في تحقيق ذلك فتكون نتيجة ذلك معرفة علم الفلك، فهو يبحث عن عقيدته عسى أن يجد لها مصدقاً من العلم ولو بالتأويل فينتهي الأمر أن الأمة ظهر فيها عالم بهذا العلم، وهذا هو مقاصد الديانات أن تكون الشكوك مبدأ للمباحث، والبحث يولد الحكمة والفلسفة، وإذن يخرج النابغون في الأمة، فالنابغون في هذا الباب خلقوا، ومن عشّ الشك درجوا، ولا مفرّ من هذه المباحث في الدين ليخرج علماء مختلفون في علوم نافعة للأمة.

واعلم أني قد وفيت هذا المقام حقه في أول سورة «الأنعام»، فلا أعيده هنا، وأبنت هناك كيف كانت تلك الأيام الستة، وساعد على ما ذكرناه هناك آيات كثيرة من القرآن فارجع إليه إن شئت.

واعلم أن الآية هنا أفادت أن خلق السماوات والأرض في ستة أيام كان متداولاً معروفاً عند الناس بدليل التعبير بالاسم الموصول، ولا يكون الموصول إلاّ حيث تكون الصلة معروفة، والصلة خلق السماوات والأرض في ستة أيام.

أقول: إن هذا كان حقيقة معروفاً متداولاً عند اليهود والنصارى مذكوراً في أوائل التوراة، فكانت هذه الجملة شائعة عند رجال الدين، ولأنقل لك ملخصها من نفس التوراة:

قال في الإصحاح الأول من سفر التكوين: في البدء خلق الله السماوات والأرض، ثم شرح بعد ذلك النور والظلمة والليل والنهار، وأن الأرض كانت خربة مظلمة، وروح الله ترفّ على وجه الماء، وقال: إن الماء خلق الله فيه جلداً، فما فوقه صار سماء، ومنه المساء والصباح، والماء الباقي صار تحت السماء، فاجتمع في مكان واحد، وباقي الأرض صار يابساً، وأنبتت الأرض عشباً وبقلاً وشجراً وجعل الله في السماء القمر والشمس والنجوم، وجعل في الماء زحافات ذات نفس، وخلق طيراً فوق الجلد وتنانين كبيرة والحيوانات الدبابة والبهائم والوحوش، ثم خلق الإنسان على صورة الله فسلطه على سمك البحر وطير السماء وعلى البهائم، وجعل الإنسان كغيره ذكراً وأنثى. ثم ختم الإصحاح بما نصه: ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً وكان مساء وكان صباح يوماً سادساً. وقد كان الملخص الذي ذكرته لك مقسماً على الأيام الستة اختصرته مخافة التطويل عليك، وعلى ذلك كانت الأيام الستة معلومة مشهورة من التوراة المتعارفة بين الناس فلذلك ذكرها القرآن بالاسم الموصول.

فصل في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾

أي خلق الله السماوات والأرض في أزمان متطاولة وأحوال متغايرة عدّها ستة وسماها أياماً، ومجرد الخلق ليس تمام القصد، وإنّما أهم الأمور نظام الملك وإحكامه وحسن هندامه، لذلك عطف بـ«ثم» للترتيب الذكري إشارة لتباعد ما بين المرتبتين: مرتبة الخلق، ومرتبة إدارة الشؤون ونظام الأمر فقال: ثم استوى على بنائه الذي بناه بالتسطيح والتشكيل بالأشكال، ورفع السمك ونظام الكرات وإدارتها وتنظيم ما عليها من مخلوقات، وحساب دورانه، ونسبتها إلى غيرها، ونظام أيامها وشهورها وسنيها وغير ذلك، هذا على اعتبارنا أن العرش هو البناء، أو يقال: ثم استولى على الملك الذي شكله في الوجود، وذلك الملك كالفصول الأربعة والمعادن والنبات والحيوان والإنسان وجميع ما خلق الله في الأرض والسماء من الصور والأشكال، على اعتبار أن العرش عبارة عن الملك، والملك عبارة عن المخلوقات، والمعنيان يؤولان إلى مقصد واحد مع فرق دقيق.

فصل في قوله تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ﴾

أي يقدّر أمر الكائنات على ما اقتضته حكمته وسبقت به كلمته ويهيئ بتحريكه أسبابها وينزلها بقدر، والتدبير تنزيل الأمور في مراتبها وعلى أحكام عواقبها لئلا يدخل في الوجود ما لا ينبغي، فهو يدبر أحوال الخلق في ملكوت السماوات والأرض فلا يحدث في العالم السفلي ولا العلوي حادث إلاّ بتدبيره، وقوله: ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ﴾ أي: لا يشفع عنده شافع يوم القيامة إلاّ من بعد أن يأذن له في الشفاعة لأنه عالم بمصالح عباده وبمواضع الصواب والحكمة في تدبيرهم، فليس يجوز لأحد أن يسأله ما ليس له به علم، وفي هذا ردّ على الكفار القائلين بشفاعة أصنامهم.

وتدبير العرش المذكور هنا يقرب منه ما سيأتي في سورة «هود» عليه السلام: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾[الآية: ٧]، فالعرش هنا مقرون بالتدبير، وهناك فوق الماء، والمعنى متقارب، فإن معنى الماء هناك أشار له تعالى في قوله: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[الرعد: ١٧]، فقد جعل الماء هو الذي يبقى في الأرض لنفع الزرع والضرع والإنسان وقد نزع عنه الزبد فصار جفاء، وجعل مثلاً للقرآن والعلم. وجاء في حديث البخاري: «مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً الخ»، فصرّح صلى الله عليه وسلم بأن الماء مثل للعلم. وهكذا جاء في سورة البقرة: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾[الآية: ١٩] الخ، فجعل القرآن هناك كالمطر النازل من السماء، وعليه صار الماء هنا هو العلم والحكمة والتدبير. فافهم هذا المقام تجد أن قوله هنا: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ نظير قوله: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾، فهنا يدبر العرش بالحكمة والعلم، وهناك كان العرش على الحكمة والعلم، وأيضاً إن المخلوقات على أقسام: فمنها ما هو خير محض، ومنها ما كثر خيره، ومنها ما قلّ خيره أو عدم، والقسمان الأخيران لا وجود لهما إلاّ في مخيلات الناس والأولان موجودان، وترى المخلوقات الطبيعية من هذا القبيل كالإنسان والحيوان، وأعم هذه المخلوقات وأظهرها الماء، فبه حياة النبات والحيوان والإنسان والطهارة ومع هذه النعم الجليلة يغرق فيه عالم نافع وناسك صالح وعجوز مسكينة ويغرق السفن، وهذا الشر القليل اقتضت الحكمة أن يحتمل للخير الكثير، فالماء مثل للعلم والحكمة، ومن الحكمة أن يغتفر الضرر

القليل في جانب النفع الكثير، فعرش الله مبني على الحكمة، ومن الحكمة ألا تترك هذه المخلوقات الطبيعية، وأن يتحمل الناس ما يصيبهم من الآلام في جانب النعم الكثيرة، وأيضاً إن هذه العلوم الأرضية خيرها أكثر من شرها، فلذلك بقيت، وما أبقاها الله إلاّ لهذه الحكمة الظاهرة في الماء المكنونة في كل مخلوق مادي.

فهذا من لطائف التعبير بلفظ الماء الذي استوى العرش عليه، فكأنه سبحانه يقول: اقتضت حكمتي أن أدبر الأمور على الخير المحض، وعلى ما غلب خيره، لأن من ترك الخير الكثير للشر القليل باء بالجهالة ورجع بالندامة وهو حسير، فما أجمل التعبير بالماء هناك، فتدبير العرش هنا للعامة وللعلماء، وكون العرش على الماء هناك للخواص وللحكماء ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٣].

وما أبدع هذا التعبير ليرضي المفكرين وليقنع الجاهلين، وكأن قول الله: ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[الرعد: ١٧] رمز إلى حكمة الحكماء في هذا المقام، فإنه لا يبقى في الوجود إلاّ ما غلب نفعه والماء كذلك، فلذلك مكث في الأرض، وهذا المقام معانيه في الحكمة مسطورة، مقاصده فيها مبرهن عليها مبسوطة، فانظر كيف أشار الله في القرآن بلفظ الماء إلى غاية الحكمة ونهاية العظة، فرمز بالماء إلى ما أطال به العلاّمة ابن سينا في كتاب الإشارات وشرح الشراح كالرازي والطوسي بأطول العبارات، ولكن تالله ما أجمل الحكمة والفلسفة إذا تجلت في كتاب سماوي ورمز لها في الوحي النبوي فلله درّ الحكمة الدينية والعلوم النبوية والآراء الحكمية.

فانظر كيف اتفق العلم والدين والإيمان واليقين، وإذا طالت الحياة وكتبت في سورة «هود» لا أذكر من هذا شيئاً إن شاء الله، وإنّما أحيلك على ما سطرته هنا، فافرح بنعمة الله وبهجة العلم وكن من الشاكرين.

جمال في إشراق شمس المعارف من قوله تعالى:
﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾

إنّما اخترت لك هذا العنوان في هذا المقام لأنك سترى فيه بهجة الناظرين، وقرة أعين المفكرين وزينة الدنيا، وجمالاً يأخذ بالألباب، وحسناً قصرت عن أقله زينب وليلى والرباب، وحكمة تسرّ الحكماء وتدهش الأدباء.

حكم نسجت بيد حكمت ثم انتسجت بالمنتسج

ذلك أنه بينما أنا جالس أرتب مسودات هذا التفسير لأقدمها للطبع، إذ حضر صديق لي فقال: يذكر الله تدبير الأمر ويقول في بعض آياته: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد: ٢]، فهل لك أن توضح لي هذا التدبير بشكل يفهمه الخاصة والعامة، وأرجو ألا تحيلني على علم الفلك وطبقات الأرض وما أشبه ذلك، وإنّما أنا أحب أن تحضر لي موضوعاً واحداً يكون فكاهة المتفكهين وزينة العاقلين وسمر الجالسين، بحيث أحدّث به ابني، وأسرّ به جليسي، وأنتفع به في حقلي ويستعمله نجلي، وتسير به الكهرباء، وتستعين به السيارات، ويشفى المرضى، وتحتاج إليه الأندية العلمية وأكثر أهل هذه الكرة الأرضية، فعرضت عليه أنواعاً من النبات والحيوان فلم يرقه ما أقول، ولم يعجبه المنقول ولا المعقول، ففكرت ملياً وقلت: قد وقفت على ضالتك المنشودة وعرفت غايتك المحمودة،

خذ القول عني واسمع التفصيل مني، ذلك أن هناك شجراً لا ينبت إلاّ في البرازيل بأمريكا، وفي برنيو، وفي جنوب أمريكا، وفي وسط أستراليا، وربما ينبت قليلاً في جهات أخرى كإفريقيا، ولكن أثره في كل مكان مشهود، ثمرته ليست بمأكولة كالتفاح، ولا بمشروبة كمنقوع الإقاح، ولا بدواء كالسنامكي وغيره من العقاقير، ولا بزيت كشجر الزيتون، وإنّما تستخرج منه مادة سائلة هي عدة المسافرين، وزينة الكاتبين، وشفاء المرضى، ومتاع للمقوين، تسقي الحدائق والمزارع، وتدفع النار عن المنازل، لا يستغني عنها مهندس ولا كاتب، ولا يقوم بدونها درس مدرّس، ولا حساب حاسب، عمت سائر طبقات المتعلمين، ودخلت جميع الدواوين، جالست الوزراء والأمراء، وحافظت على قوة الكهرباء، وكانت خير الحافظات للماء، فهي نور الله في أرضه، وإشراق شمس حكمته، وعجيب حكمه، وبديع صنعته، يحسبها الجاهل من سقط المتاع وهي عند الحكماء نور أضاء سائر البقاع، فلما سمع ذلك مني قال: صف لي هذه الشجرة وصفاً مدققاً، وبيّن أعمالها محققاً، ودع الإجمال وهات التفصيل، فقلت: هذه الشجرة عظيمة الحجم كبيرة الساق، قد ألهم الله الأمم قديماً فثقبوا قشرتها السميكة ووضعوا تحت الثقب إناء ينزل فيه سائل لبني، وذلك السائل يصير جامداً بعد نزوله في الإناء، وهذه تسمى «كاوتشوك» باللسان الإفرنجي «رابراتري» يعني «شجرة الأستيك» كما قدمنا أو «مطاط»، الأول بالفرنسية والثاني بالإنجليزية والثالث بالعربية.

وذلك أننا نشاهد في بلادنا وفي جميع المدارس والدواوين مادة تحافظ على حجمها دائماً سواء أردنا مدّها أم أردنا ضغطها فهي ترجع إلى حالتها الأصلية، بها نمحو ما أردنا محوه مما كتبناه ونزيله، وهي «الأستيك» المذكور، فنراها في أيدي التلميذ والأستاذ والكاتب والحاسب وهكذا، وهذه المادة بعد أن يلقوها في الأواني يغلونها وينظفونها ثم يضعونها بين أسطوانتين من الصلب بهما تضغط وتصير قطعاً شتى، وهذا هو الأستيك النقي الذي يكون في الصيف طرياً لزجاً وفي الشتاء صلباً ثابتاً.

إن منفعة هذا النوع خاصة بأسلاك الكهرباء، وأنه يمنع انفلات أيّ ذرة منها فهو حافظها الأمين. إن هذا النوع تمكن إذابته بسائل متخذ من البترول المعلوم، ومتى أحيل بذلك سمي إذن الأستيك المحلول، وهذا منفعته في إطار العجلات التي تجري بها الدراجات «بيسكل» التي يركبها الناس اليوم ويحركونها بأرجلهم، فإذا ثقب ذلك الإطار أمكن رتق فتقه بهذه المادة التي هي في الحقيقة من مادته.

الأستيك والكبريت

هذه المادة النقية المتخذة من الشجرة إذا أضيف إليها مقدار قليل من الكبريت فهي التي نراها بين ظهرانينا وهذه لها خاصتان:

إحداهما: محافظتها على حجمها.

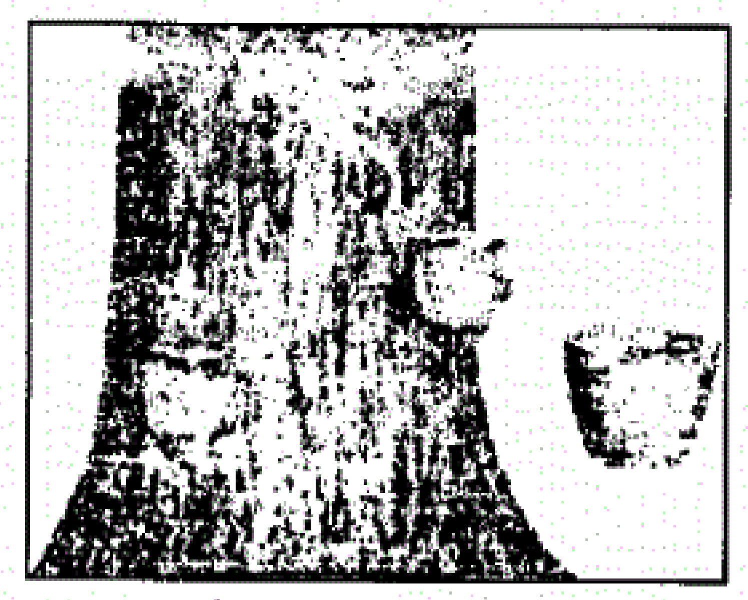
ثانيتهما: أنها أقوى مانع يمنع مرور الماء.

فبالخاصة الأولى: تصنع منها إطار العجلات في الدراجات التي وصفتها هنا وفي العربات وفي السيارات التي هي باللسان الإفرنجي «متركار»، فهذه الآلات تصلح للركوب بهذه المادة وتريح الراكبين.

وبالخاصة الثانية: تصنع منها قلل الماء التي تحافظ على درجة الحرارة الكامنة فيه، والوسائد التي يكون حشوها هواء، والأواني التي يجعل فيها الماء الحار ليستدفئ بها المرضى بمقتضى أمر الطبيب،

وتصنع منها الأنابيب التي في أيدي الرجال القائمين بإطفاء النار المشتعلة في المنازل والمدن والقرى، هكذا الأنابيب التي تسقى بها الحدائق وتصنع منها معاطف وأردية تمنع المطر عن لابسيها.

وهناك حال أخرى لهذه المادة، وهي أن يضاف إليها من ٢٠ إلى ٣٠ جزءاً من مائة جزء من الكبريت، وإذ ذاك تصبح ذات خواص وأوصاف مغايرة لسابقتها صالحة لأعمال غير أعمالها، ذلك أنها مادة سوداء لامعة صلبة كصلابة قرن الحيوان، وهذه تصنع منها مساطر ومقابض توضع في نهايتها أسنة الأقلام، وتدخل في كثير من الزينة وحلية نوع الإنسان، انتهى وصف هذه الشجرة ومنافعها وخواصها.


شكل (١) رسم شجرة الأستيك

ألا ترى رعاك الله عجائبها؟ انظر ثم انظر كيف خصها الله بأرض دون أرض، وجعلها في أمم دون أمم، وانظر كيف جعل لها ثمرة غير ما نعرفه، نحن نأكل الثمر ونشم الورد ونأكل اللبن والقشدة من شجرة القشدة المعلومة، ونلبس من الكتان والقطن، وكل ذلك معروف مفهوم، إنما هذا له فائدة غير ما عرفناه، وحكمة غير ما أدركناه، فانظر كيف خزن الله هذه المنفعة في الشجرة حتى احتجنا إليها علم الله أننا نحتاج إلى الكهرباء بعد آلاف السنين، فماذا صنع ودبر؟ خلق هذه الشجرة قبل خلق الناس ووضع فيها هذه الخاصية، ولما جاء هذا العصر قال: أنتم لن تحفظوا ذرات الكهرباء إلاّ بهذه المادة وهي نقية، فلا كبريت يخالطها ولا غبار يمتزج بها، فإذن تحفظ الكهرباء للإضاءة والإشراق في كل مكان، مدّ الناس الأسلاك البرقية «التلغراف» في الأرض، ولم يجد الناس سبيلاً لمدها في البحر حتى عثروا على هذه المادة فحفظت الأسلاك البحرية من أضرار الماء لها، فبها كان تواصل الأمم وتعارفها كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فهذه إحدى دواعي التعارف، أليس هذا هو التدبير؟ يقول الله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥] ويقول: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾[الرعد: ٢] فهذا من تدبير الأمر، وهذا من تفصيل الآيات، هذا بعض أنواع التدبير والتفصيل.

علم الله قبل أن نخلق حاجتنا إلى الأسلاك التي سيخلقها، فدبر هذه الحكمة والخاصة المذكورة.

دبر الله هذه المادة ووضعها في هذه الشجرة، وخزن الفحم في أعماق الأرض. ولما أراد ارتقاء نوع الإنسان علمه البيان، وأرسله إلى باطن الأرض فاستخرج الفحم، وجرت به القطرات، وأدار الدولاب، وسقى الأرض، وحمل على ذات ألواح ودسر في البر والبحر، واستخرج الكهرباء، واحتاج إلى ما يحفظها فأرسله إلى تلك الشجرة، فقرّت عينه، واستخرج منها ذلك السائل.

(١) فكان حافظ الكهرباء.

(٢) ثم ألهمه أن يذيب تلك المادة فأصبحت رتقاً لفتق العجلات في سفره.

(٣) ثم ألهمه أن يضيف إليها الكبريت قليلاً فكانت ساقية لبستانه مطفئة لنار احتراق منزله الخ ما تقدم .

ثم زاد الكبريت فعظمت المنفعة في الكتابة ، ونظام رسم الخرائط وجمال الكتب ، وزينة نوع الإنسان . تبارك اسمك وتعالى جدك ، دبرت بحكمة .

(١) جعلت هذه الشجرة قليلة في الدنيا لأن كثرتها في الأرض معطلة المنافع بائرة التجارة ، كيف لا وهل هي تشابه النخل الذي نحتاج إليه في حوز الرطب والتمر وما أكثر حاجتنا إليه ، أما هذه الشجرة فإنها وإن عمت الحاجة إليها فإن ما نستعمله منها لا يوازي عشر معشار ما نحتاج إليه من النخل وكثير من أشجار الفاكهة والزيت ، لذلك قلت هذه الشجرات في الأرض .

(٢) ثم هي متباعدة في أقطار المسكونة ليرحل الناس إليها ، ولم تقرب من متناول كل حيّ ، فهي كالعلم يحرم منه من لا يستعدّ له ، وإن كان المعلوم مشاهداً محسوساً ولا يحظى به إلاّ من هم مشوقون ، وبتحصيله مغرمون ، إن هذا الإنسان خلق ليكون في حركة جسمية وعقلية أمد الحياة ، تباعدت مطلوباته لتكثر أعماله فتقوى روحه ويتعوّد الصبر والثبات ؛ فالحكمة في هذه الشجرة أشبه شيء ببعض الحكم في الحج ، جعل الله الحج ليكون من فضائله التدريب على فراق المألوف والتعرف بغير ما هو معروف ، والتنائي عن الكسل والمبادرة إلى العمل والسعي لصفاء النفوس والمروءة لتتجلى للناس معاني هذا الوجود .

(٣) كلما كان الشيء أشرف كان أعز مطلباً وأغلى ثمناً وأبعد في طلبه كما ترى في الذهب والفضة والأحجار الكريمة وهذه الشجرة .

آراء نوع الإنسان في أمثال هذا المقام

اعلم أن الناس في أمثال هذا الموضوع ثلاث طبقات :

(١) طبقة دنيا ، وهم العامة وكثير من أنصاف المتعلمين ينظرون إلى مثل هذه المادة وأمثالها نظرهم إلى ما يألفون ولا ينظرون الحقائق الكامنة فيه .

(٢) وطبقة وسطى : وهم الذين يدرسون منافعها كما يدرسون منافع كل مخلوق .

(٣) وطبقة عليا : وهم الذين تجلت مواهبهم ونظروا لهذا وأمثاله نظرة عامة محيطة ترجع إلى التدبير العام والنظام الكلي ، أولئك هم أعلى نوع الإنسان ، وهم آباء والناس جميعاً أبناؤهم ، ونسبتهم إلى الناس كنسبة الملوك والأمراء إلى عامة الشعوب ، فهؤلاء يقودون المفكرين في الأمم إلى النظرات العامة الشارحة للصدور ، ولنحو هذا جاء الأنبياء بطريق الوحي ، فهؤلاء نظرهم كلي ، وحسبك ما ترى في القرآن من أمره للناس بالنظرات العامة ، وكلما قلت هذه الطبقة من أمة قلت سعادتها ، وكلما كثرت زاد ارتقاؤها ، هؤلاء هم الذين يدرسون هذا الوجود درساً يفهمون به التدبير العام ، وهذه الطائفة تقل في نوع الإنسان كما قلت هذه الشجرة من بين الأشجار ، ولكن علمهم يعم الأقطار كما عمت منافع هذه الشجرة الأمصار .

هذا كله تدبير محكم منظم ، إن هذا الوجود كله ساعة منظمة وهيكل محكم . هذا الوجود كله لا فرق بينه وبين جسم الإنسان والحيوان من حيث الإتقان والنظام ، انظر كيف علم الله احتياج الناس

في أسفارهم في عصرنا إلى ما يرتقون به فتق العجلات، فوضع هذه الخاصية في تلك الشجرة، فكما نرى العين في الإنسان والأذن وبقية الحواس لا تتم منفعتها إلاّ بالأيدي والأرجل والأحشاء وبقية الأعضاء وأعصاب الحس والحركة، بحيث نرى هناك اتصالاً بين المخ وبين أطراف اليد والرجل وجميع الشعر، هكذا نرى هنا ارتباطاً وثيقاً بين الناس وبين منافع الأرض في سائر الأقطار، وهذه الشجرة من شواهد ذلك، فهناك ارتباط الفحم بالكهرباء بهذه الشجرة بحياتنا بعلومها بمدارسنا بالشمس بالقمر بالكواكب.

كل هذه متصلات اتصال أعضاء أجسامنا، هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[يونس: ٣]، وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾[السجدة: ٥]، وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[الرعد: ٢]. انظر إلى قوله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ وانظر إلى أنه يتبعها بقوله: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾، لماذا جعل هذه الجملة بعد التي قبلها وأتبعها بها، أما تفصيل الآيات فها هو ذا كثير في هذا التفسير، أما الإيقان فلماذا يكون عقب ذلك؟.

الإجابة على هذا السؤال

يجيب عالم البلاغة على هذا السؤال ويقول: لما بينهما من الجامع العقلي أو الوهمي أو الخيالي إلى آخر ما تراه مسطوراً في كتب البلاغة، كالمفتاح للعلامة السكاكي، وككتاب السعد للتفتازاني وغيرهما، وهذه إنّما تنفع المتعلمين أثناء دراسة اللغة، ولكننا نحن الآن نريد أن نبيّن ما يمسّ ذلك في عصرنا الحاضر، أي: في القرن العشرين، انظر إلى علماء القرن التاسع عشر فإنهم كانوا غالباً لا يفكرون في النظام العام باعتبار التدبير والإحكام، بل باعتبار النشوء والارتقاء، وكثير منهم من أنكر صانع الوجود المنظم لكل موجود، لأن أنظارهم اقتصرت على ما دون النظام التام، فلما أن بزغت شمس العلم في عصرنا، ظهر في الأمم مجددون وحكام مفكرون، منهم:

(١) العلامة «إيلي دوسيون» في كتابه «الله والعلم» الصادر سنة ١٩١٢، قال: الفرضان اللذان يقوم عليهما مذهب القائلين بالانتخاب الطبيعي وانتقال الصفات المكتسبة قد نقض الأول «سبنسر» و«ويسمان» نقض الثاني. وقال: إن انتقال الصفات بطريق الوراثة لا أصل لها، وبرهن على أن هذه المشاهدات المزعومة لا تقوم إلاّ على حكايات مخترعة لا تعلو قيمتها عن قيمة حكاية المرضعات، وترى أمثاله كثيرين في عصرنا أمثال الدكتور «ادوارد هارتمان» إذ قال: إن الذين قالوا إن هذا العالم وجد بلا قصد كلامهم من الأمور التي لا أساس لها، وعلل ذلك بأن الطبيعة ذات نظام ميكانيكي، ولا يمكن النظام بلا قصد، كما لا يمكن القصد بلا نظام، وكل ما لا نظام له فهو مهمل في فوضى، كالثيران الهائمة والطبيعة التي يعللون بها ليست كذلك. اهـ.

وأمثال «لويز بوردو» إذ قال: يجب أن يعترف بأن هنالك قصداً مقصوداً وروحاً مدبرة، لأنه بدون ذلك تفقد وحدة المجموع رابطتها، فالقصد يظهر في تلازم الحوادث ويثبت به.

وأمثال الأستاذ «فون باير» الألماني في القصد قال: إذا كانوا يعلنون الآن بصوت جهوري بأنه لا قصد في الطبيعة وأن الكون لا يقوده إلاّ ضرورة عمياء، فأنا أعتقد أن من واجباتي أن أعلن عقيدتي في ذلك، وهي أني أرى أن هذه الموجودات تؤدي إلى أغراض ومقاصد سامية.

وأمثال «كاميل فلامريون» الذي قال: إن درس الوجود يجعلنا ندرك أن له نظاماً مقرراً وغاية دفع به إليها. إن التبصر الذي يظهر في النباتات والحشرات والطيور الخ وهي غافلة عنه مما يقصد به حفظ ذرياتها وامتحان المشاهدات في التاريخ الطبيعي يستنتج منها أن في الطبيعة عقلاً مدبراً.

وهكذا كثير من الحكماء ذكرناهم في غضون هذا التفسير، كلهم نطقوا بمعنى هذه الآية: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾، وهذه شهاداتهم طراً ترجع إلى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢]، فعطف الجملة التي فيها الإيقان في سورة «الرعد» التي تناسب ما في هذه السورة، ظهر أثره في هذا الزمان، فإن العلماء الذين أثبتوا وجود مدبر للكون رجعوا في براهينهم إلى هذا التدبير المحكم، فالتدبير والتفصيل كما رأيته في الشجرة المذكورة هنا هو الذي أورث اليقين، واليقين أشرف من الإيمان، وهو المذكور في قوله تعالى في سورة «الأنعام»: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾[الأنعام: ٧٥]، فلما سمع صاحبي ذلك قال: هل من علماء غير هؤلاء بحثوا في هذا الموضوع؟ وأنى لهم اليقين كالسابقين؟ قلت: قد كتب العلامة «أدمون بربيه» في مجلة «العالم الحي» سنة ١٩١٢، قال: إن ثقة الأستاذ «جينو» بتأثير البيئة ـ الوسط الخارجي ـ ضعيف جداً، فإن هذه البيئات على ما يقول لا تصلح لإيجاد أيّ تغيير وراثي ثابت، فالبط وسائر الطيور المائية ترى ممتعة بأرجل ذات أصابع متصلة بغشاء، فيظن أن هذه الأغشية قد أوجدها نوع معيشتها، ولكن بالعكس من ذلك في مذهب المسيو «جينو» فإنه يقول بأنها وجدت لها مقدماً بدون تأثير من الخارج، وأخذ البط يعوم لأنه وجد أرجلاً مغشاة تصلح للعوم، فهذه الحيوانات قد أعدت من قبل للعوم، أي: إنها خلقت لتعوم قبل أن تستفيد تركيب أرجلها من العوم.

(٢) وأيضاً الأستاذ «بلوجر» الألماني الشهير قال: لم أجد واحدة من هذه المشاهدات تثبت انتقال الصفات بالوراثة. وأيضاً قال الفزيولوجي الكبير «دوبوار يمند»: إذا أردنا أن نكون مخلصين وجب علينا أن نعترف بأن وراثة الصفات المكتسبة قد اختلقت لمجرد تعليل الحوادث المراد تعليلها، وأنها هي نفسها من المفترضات الغامضة. فلما سمع صاحبي ذلك قال: هذه أقوال لا أفهم لها معنى، ما هي الصفات المكتسبة والموروثة؟ هذا كلام غامض. قلت: أنا قلت لك إن علماء القرن التاسع عشر وما قبله كانوا يقولون إن هذه الحيوانات يكتسب الفرع منها صفات الأصل، وهذا أصل من الأصول الأربعة التي هي مذهب «داروين».

(١) وهي أن الحياة ذات أطوار وتغيرات وانتقال من حال إلى حال.

(٢) وهذه التطورات تنتقل بالوراثة إلى النسل.

(٣) وأن الأحياء جميعها بينها تنازع البقاء.

(٤) وكلما كان الحي أتم وجوداً وأقوى وأكمل، كان أصلح للحياة والبقاء، والأضعف محكوم عليه بالفناء.

فهؤلاء العلماء في القرن العشرين نازعوا في بعض هذه القضايا، ومعنى هذا أن المذهب الأول يقول: إن العالم لا صانع له، وهذه التنوعات كافية في بقائه، وعلماء هذا القرن الذين ذكرتهم والذين لم أذكرهم هم الذين يقولون كلا، إن للعالم صانعاً، وبرهانه ما يشاهدون من نظام الحشرات والإلهامات

والعجائب كما شرحناه في هذا التفسير، وهو مضمون قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾[يونس: ٣] هنا، وقوله: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[الرعد: ٢]. ثم قلت: وبهذا ظهر أن هذه الدنيا ومن عليها من الناس أشبه بأم تربي أولادها؛ فكما أن الأم يخلق لها الثديان قبل خلق الولد، واللبن يخلق في الثدي قبل الولادة، هكذا الناس خلقت لهم قبل أن يخلقوا هذه الحيوانات، وهذه الشجرة التي نحن بصدد الكلام عليها، وذلك من التدبير، ويناسب قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[الحجر: ٢١].

هذا وسترى في سورة «النحل» و«النمل» و«العنكبوت» وغيرها من السور عجائب الحيوان وبدائع تلك الإلهامات والقوى، التي أجمع حكماء عصرنا في الأمم كلها على دلالتها على حكمة نظمتها، وهكذا سترى في سورة «المدثر» عند الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [الآية: ٣١] إفاضة الكلام على بعض الحشرات اللاتي خلقت لتعيش في أجسام الحيوان والإنسان، فالناس حرم عليهم أن يأكل بعضهم لحم بعض، لا بالغيبة ولا بالأكل الحقيقي، ولكن أحلّ الله ذلك لذرات صغيرة خلقها لتعيش في أجسام أناس مستعدة للمرض وللموت، لتخلو الأرض لغيرهم وتصلح بسكانها، فلها شأنان: شأن أنفسها تعيش وتنمو وتلد، ويخلفها غيرها لتفهمنا قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾[الأنعام: ٣٨]، فالمثلية هنا سيظهر أثرها في بعض أحوالها، إذ تعيش هذه الحيوانات الذرية في أجسام الناس والحيوان، وأما بالشأن الآخر فهي أنها أشبه بالشرطة الذين يكونون في المدن ليحفظوا النظام ويمنعوا تصادم المارة في الطرقات والشوارع. هكذا هذه الحيوانات الذرية خلقت لتقلل من الإنسان والحيوان ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾[الأنفال: ٤٢] ولو كره الناس أجمعون، وهناك ترى أن هذه أيضاً من جند الله التي لا يعلمها إلا هو وإنَّما علمنا بعضها لأنه قال: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾[البقرة: ٢٥٥]، فالذي نعلمه الآن مما شاء الله أن يعلمه للناس من جنوده.

واعلم أن هذا التفسير جعله الله مقدمة لنهضة الأمم الإسلامية، فهو أشبه بثدي الأم قبيل الولادة، إذ يكون مستعداً لدر اللبن، وكهذه الشجرة المسماة في بلادنا بـ«الأستيك» وأيضاً «كاوتشوك» مأخوذة من كلمة فرنسية وتقدم ذكرها بالإنجليزية، ويقال لها في بلادنا المصرية أيضاً «مطاط»، فكما خلقت هذه الشجرة قبل خلق الكهرباء وأفادتها هكذا ظهر هذا التفسير الذي سبق ظهور آلاف من قادة الإسلام في مستقبل الزمان، وسيقرؤونه ويكون لهم شأن في رقي الأمم الشرقية ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾[ص: ٨٨]. انتهى ما أردت ذكره في هذا المقام.

فريدة في التدبير العام

إن التدبير العام نوعان: نوع لتدبير القوة، ونوع لتدبير المادة؛ فالنوع الذي هو لتدبير القوى، فذلك أننا نرى غرائز حيوانية وعقولاً إنسانية وقوى قدسية، أما الغرائز الحيوانية فهي أدنى الدرجات أنها قد ألهمت جميع ما تحتاج إليه في حياتها وبناء مساكنها وتربية أولادها ونظام أعمالها.

ناهيك ما ترى من نسج العنكبوت ودقته، ومسدسات النمل وهندسته، وحرص الحشرات على تربية ذريتها، سواء أكانت من التي تكفل تربيتها كالنحل والنمل أم كانت تموت قبل أن يفقس

بيضها، كما ترى في الناموس الذي ستعرف تفصيله في سورة «المدثر» عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [الآية: ٣١] والجراد ودود القز، إذ الناموس لا يضع بيضه إلاّ في المستنقعات والأماكن التي تكون مرعى خصيباً لذريته قبل استكمال قوتها، هكذا الجراد لا يضع بيضه إلاّ في أماكن خاصة، وهو يدفنها في الأرض بحيث لا تكون أبعد ولا أقرب من الوضع الذي يصح معه التفريخ في الأرض، وهكذا سائر الطيور علمت وألهمت جميع ما تحتاج إليه في أنفسها وذرياتها، وهذا التفسير قد جمع ما يكفي ذا اللب في مثل هذا. وهكذا العلوم اليوم في الأمم المحيطة بنا تكفلت بهذا البيان وأعطت اليقين للمفكرين، وهذا كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وقال: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١-٣]، فهذا هو التقدير، وهذه هي الهداية، وبهذا وأمثاله يكون العلم واليقين.

العقول الإنسانية

أما العقول الإنسانية فإنها أرقى من الغرائز الحيوانية، إن الغريزة خاصة بعمل لا تحيد عنه، ينسج العنكبوت ويصطاد بشبكته ويطير بنسيجه كما يطير الإنسان اليوم في الجو، ويجعل له ما يشبه القنطرة، ويبني مساكن من نسيجه. وهكذا مما ستراه في سورة «العنكبوت» مفصلاً موضحاً وهكذا غيره، كل هذا لا يصل إلى درجة الإنسان، فإن الحيوانات وإن كانت غرائزها عجيبة هي قاصرة، أما العقل فهو أوسع نطاقاً وأرقى وأقوم وأقوى، فهو أعلى من الغريزة، ناهيك ما تراه اليوم من الإبداع والارتفاع والارتقاء.

القوة القدسية

أما القوة القدسية فهي أعلى من القسمين، فالعقل وسط بينها وبين غريزة الحيوانات، ولعلك تقول أين القوة القدسية؟ إنها خاصة بالملائكة، وأنت عوّدتنا في هذا التفسير أن تجعلنا نلمس الحقائق بعقولنا، العقل عرفناه والغريزة فهمناها، أما هذه القوة القدسية فإنا لم نعرفها إلاّ نقلاً من كتب الديانات أو من كلام الفلاسفة، قلت: اعلم أن هذه القوة نعرفها نحن بأنفسنا، ذلك أننا رأينا طائفة من هذا الإنسان لهم قوة غير القوة العاقلة، وهي أشبه بغرائز الحيوان والأمهات بالنسبة لأولادها، قال: هذا لم أفهمه فأوضحه. قلت: إن الأم والأب لهما غريزة أشبه بغريزة الحيوان من حيث العطف على ولدهما، إن للإنسان غرائزه كما للحيوان في الأكل وتربية الولد وغيرهما، ثم هو امتاز عن الحيوان بأن العقل ساعد الغريزة في تربية ولده، ولكن الطائفة الممتازة التي ألقيت إليها القوة القدسية أو بعض آثارها هم طائفتان: الأنبياء والنابغون، ومنهم الحكماء، فالأنبياء يتلقون الوحي عن الملائكة، ولا جرم أن هذا فوق متناول العقل.

ثم إن الأنبياء اليوم ليس منهم أحد على الأرض، وإن الله عزّ وجلّ خلق في كل أمة من أمم الأرض أناساً استعدادهم خلق للعموم لا للخصوص، فهم أبداً مغرمون بإسعاد المجموع أو بتعليمه، يجدون ذلك في صدورهم، ويحسون به في أنفسهم، لا يقرّ لهم قرار، ولا يكون لهم اصطبار، إلاّ إذا جدّوا في الأسفار، وقطعوا القفار، وركبوا متن البحار، واستخدموا الكهرباء والبخار، لنيل الأماني والأوطار، وإدراك المعالي، وحوز العلوم ونفع العموم، وهؤلاء ليلهم ساهر ونهارهم عامل، فهذه

الحال لا تفارقهم، وهذه الأخلاق لا تغادرهم، فهم مع العلم ومع أممهم أشبه بالأم الوالهة على ولدها المولعة بفلذة كبدها، ولكن هذه الصفة في هؤلاء الأشراف أعلى مقاماً وأرفع مناراً وأشرف مقصداً ومحتداً، فلم تنحط إلى غرائز الحشرات، ولا إلى عطف الأمهات من الآدميين والحيوانات، بل إنها تعلو على العقل وتسخره، فتجد تلك الموهبة تسوق العقول التي جاورتها في الأجسام التي حملتها، فتحمل المتصفين بها على تحمل المصاعب، وقطع السباسب، وإفراغ الجهد في استخدام العقل، ذلك هو وصف النابغين في سائر الأمم، والله لم يخل الأرض قديماً ولا حديثاً منهم، وكل يظهر في أمته ما وفق له من أمر مادي أو معنوي، كل ذلك لإلهام يلهمونه، كإلهام الحيوان وعامة الإنسان، ولكن هذا أعلى من العقل، فهذا إفاضة من الملائكة، وترى الإلهام في الأمم المادية كأهل أوروبا يرجع إلى المادة، وفي الأمم التي قصرت همها على الأمور الروحية نبغت فيها فقط، وكلاهما إلهامه ناقص، فأما الأمم الإسلامية التي ستظهر بعد هذا التفسير وأمثاله فإنها سيكون إلهامها جامعاً للأمرين معاً، فلا يقفون عند الماديات كأهل أوروبا غالباً، ولا على المعنويات والروحيات كبعض الأوروبيين وعامة أهل الهند فيكون الإلهام شاملاً للأمرين نافعاً في الروح والجسم والمعنى والمادة.

وبهذا عرفت القوى الثلاثة: الغريزة والعقل والقوة القدسية، وأن هذه القوة في عالم أعلى منا وتتنزل على أفراد في الأمم المختلفة، وتظهر على أيديهم منافع للناس وسعادة مادية أو معنوية، وأرقى هذه الطائفة هم الحكماء الذين يدرسون هذا الوجود وهم مغرمون بربهم وبنظامه وبنظام الأمم، فوجود هؤلاء في الأرض دليل على أن هناك قوى أعلى منهم يستمدون منها إلهاماتهم، وهم يبنون عليها سواء أعلموا ذلك كالأنبياء أم لم يعلموه كالحكماء وبعض النابغين.

فهذا هو النوع الأول من النوعين العامين للتدبير وهو تدبير القوة، فظهور أناس في الناس امتازوا بقوة أرقى من غيرهم، وعموم العقول في الناس، وعموم الغرائز في الحيوان، في ذلك كله معنى التنزل من السماء إلى الأرض، يكون الوحي للأنبياء فيعلمون العقلاء، وهؤلاء العقلاء يفكرون في الوحي، ويذهبون مذاهب شتى لنفع الناس، فهذه العقول كلها مسخرة لهذه الموهبة القدسية. ثم إن غرائز الحيوان والإنسان تحت ذلك كله مسخرة مطيعة كما سخر الله الإنسان فنفع الحيوان طوعاً أو كرهاً، ألا ترى أنه يقدّم الطعام للثور وللفرس، وأنه يزرع القطن فيأكله الدود، فهو ذا الإنسان سخر طوعاً وكرهاً ككل مخلوق.

وملخصه أننا نرى القوة القدسية ألقت شعاعاً من العلم على العلماء التابعين للأنبياء، وبالإلهام للنابغين والحكماء، وبالقوة العقلية زرع الناس ونظموا الأرض، فأكل الحيوان أردنا أو لم نرد، هذا هو معنى ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [السجدة: ٥] في هذا المقام، وهو الكلام على القوى الثلاث وبه تم النوع الأول وهو تدبير القوة.

النوع الثاني من التدبير العام: تدبير المادة: إن تدبير المادة أيضاً داخل في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١]، فكما رأينا القوى يمد أعلاها أسفلها، هكذا نرى المادة يمد أعلاها أسفلها.

ألم تر إلى الشمس كيف كان أهل الأرض لا يعيشون إذا لم يكن ضوؤها مرسلاً إلى أرضهم، فسترى في سورة «الشمس» كما رأيت في مواضع كثيرة من هذا الكتاب مثل ما في سورة «الفاتحة»

وغيرها ، أن كل مخلوق على الأرض لا يحيا إلاّ بوجود الشمس ، فلولاها لم يكن ريح تهب ولا ماء يجري ولا حيوان يدبّ ولا إنسان يوجد ، بل تكون الأرض قاعاً صفصفاً . ثم إنك ترى السحاب يجري والرياح تهبّ ، كل ذلك لمنافع الناس على الأرض ، فهاهو ذا الأعلى نفع الأدنى كما نفعت القوة العالية وحافظت على من دونها طوعاً أو كرهاً ، سخرت العوالم المحيطة بنا لحياتنا ، وامتلأ الجو بالبخار والسحب ، ونزلت الأمطار ، وزمجر الرعد ، ولمع البرق ، وهبت العواصف ، فنبت الزرع ، وازينت الأرض للناظرين ، وبهرت النجوم في سماواتها ، وأرسلت أشعتها تترى لأهل الأرض ، فساروا على هداية ضوئها في البر والبحر ، فكانت نوراً لساريهم ، وهداية لمسافرهم ، ومرشداً لربانهم ، ونجاة لسفنهم وإسعاداً لبدوهم وحضرهم ، وهم آمنون .

مستقبل الأمم على الأرض وواجب المسلمين

هاأنت ذا أيها الذكي قد اطلعت على ترتيب التدبير من السماء إلى الأرض في القوى والموادّ ، وهاأنا ذا أذكر لك نتائج ذلك في الأمم ، فأقول :

قد تبين لك أن العقول موزعة على الناس ، والمنافع على الأرض ، في مواطن من هذا التفسير ، وأهل الأرض متضامنون ، وليس لهم دخل في إنزال المطر ولا ضوء الشمس ولا خلق الهواء ولا خواص الأرض ، تضيء الشمس وتثير الرياح بحرارتها ، فتجري السحب فتنزل على الأرض ، والناس يتلقون الماء فيها ويزرعون ، والماء يجري في الأنهار إلى البحر الملح ، يظن الناس لأول وهلة أن هذا الماء الجاري إلى البحر ضائع لا فائدة منه كما في ماء النيل بمصر ودجلة والفرات المحيطين ببلاد الجزيرة ، وكنهر الكنج بالهند وكنهر الأمازون وغيرها .

يقول الناس : إن الماء يجري أيام الفيضان إلى البحر ولا فائدة منه ، بل هي قوى معطلة ، وليس الأمر كما يظنون . إن الماء إذا سقى الحقول وأنبت العشب وعاشت به الأمم ، فإنّما مثله مثل رجل يسعى أولاً لما يبقي جسمه ثم نراه يسعى ليربي أولاده ليعيشوا بعده ، هذه حال هذه الأنهار ، الناس يعيشون بها ثم هي تجرف الطين والرمل والحصى إلى البحر كل سنة ليكون ذلك طبقات وراء طبقات بها تتكون الجبال في قاع البحار ، فيعلو هناك كما تعلو اليابسة كل سنة بـ« الغرين » الذي يحمله الماء ، فجميع الجبال التي نراها كالمقطم وكجبال همالايا وغيرها ، كما ستراه مفصلاً في هذا التفسير في السور التي بين سورتي « يوسف » و« النحل » إن شاء الله تعالى ، وفي قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ في سورة « الغاشية الآية : ١٧ ـ ١٩ » ، إنما تتكون أولاً في البحار في مئات الآلاف من السنين ، فهي أجنة في بطون البحور تخرج بعد أمد طويل ، إذن ليست القوى معطلة ، فالنهر إذا عشنا بمائه فوق الأرض فإن ما فضل يستعمله بإذن الله في إحداث عوالم ستكون بعد قرون ، فالجبال مكوّنات من فضلات الأنهار كما كوّنت الأجنة مما فضل من غذاء الأبوين في أجسامهما . فالنطفة منهما من فضلات الدم الجاري في عروقهما ودم الحيض الذي لا يكون إلاّ زمن القوة واللبن المغذي للطفل ، كل ذلك فضلة فائضة من القوى كما فاض النهر وجرى ، فكونت به هذه الجبال ، وليس معنى هذا أن الناس على الأرض ينامون ويتركون أنهارهم ، وإنّما هذا تذكير محكم ونظام عجيب عام .

ازدياد الناس على الكرة الأرضية

ازداد الناس اليوم على هذا السيار الذي نعيش فيه، وازدحمت القرى والأمصار بسكانها، واشرأبوا إلى منافع الأرض وقد علموا أنهم متضامنون وإن لم يعملوا بهذا التضامن، والذي أراه أن الناس سائرون إلى حال ستجمعهم طوعاً أو كرهاً، سيفكر الناس في استخدام جميع المواهب العقلية في الإنسان، والخواص في الأرض، كما ستراه في ملخص كتابي «أين الإنسان» في تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: ١٣]، وذلك بقلم الأستاذ «سنتلانة الطلياني» تقريظاً له، وهو مترجم إلى العربية من الطليانية، فإن هذا الملخص هناك هو معنى الآية وهو موضح لهذا المقام.

قرب الوقت الذي تحاسب فيه كل أمة على ما فرطت في عقولها وما أهملت من أرضها، كما في الكتاب المذكور، قد رأيت ألا شيء في الوجود معطل، وأن ماء النهر الجاري إلى البحر له عمل، فيضطر الناس إلى أن يحاسب بعضهم بعضاً على ما أضاعوا من قوى، وستقول كل أمة للأخرى: إن عندك قوى مخزونة في جبالك أو في مائك أو في أرضك أو في عقول أبنائك فاستخرجيها لأن المنافع تعود منك عليّ في التجارة والمبادلة وغيرهما، فإذا أبت قهرها غيرها واستخرجوا المنافع وشاركوها، ذلك سيتم متى ازداد عدد السكان، سيضطرون لذلك اضطراراً لأنهم متضامنون كما قدمنا، وأضرب لك مثلاً: خذ ملابس صبي من صبيان المدارس في أنحاء الأرض الآن، فهي مركبة من:

(١) صوف يحضرونه غالباً من أستراليا أو من جنوب أفريقيا.

(٢) أو قطن مستحضر من مصر أو أمريكا أو الهند.

(٣) أو كتان مستحضر غالباً من بلاد الروسيا أو بلجيكا أو إيرلندة.

(٤) ويحتاج إلى سير من جلد مخصوص، وهو يجلب من أمريكا الشمالية.

(٥) ويصنع ذلك كله في بعض ممالك أوروبا.

(٦) وأزرّة من فضة تستجلب من بلاد «المكسيك».

(٧) ومشابك أخرى إما من نحاس أصفر مستخرج من النحاس الأحمر المستجلب من إسبانيا.

(٨) أو من قصدير من شبه جزيرة بلاد «الملايو».

(٩) وكل هذه تحملها السفن فتعبر البحار.

(١٠) وقس على ذلك كل ما نحتاج إليه.

واجب المسلمين الذين أُلّف لهم هذا الكتاب

أيها الذكي، إياك أن تظنّ أن إطالة هذا الموضوع خارجة عن الآية في التدبير العام، والتدبير العام انحصر في القوى والمادة، وقد رأيت تدبير القوى من الأعلى إلى الأدنى، والمادة أيضاً من الأعلى إلى الأدنى، وهذا ملخص ما ذكرنا، وهذا الكتاب للمسلمين، وأنت المخاطب، لأنه لا يفهم هذا إلاّ أناس لهم قوة بها يفوقون المجموع، والذي ذكرته علم، والعلم إن لم يصحبه عمل ضاع، فهأنا ذا أوصيك بالمسلمين، إن المسلمين اليوم أحاطت بهم الأمم من كل جانب، وقد سبقهم النصارى والمجوس واليهود، فعمّ التعليم اليهود واليابان وأوروبا، ولم يبق جاهل إلاّ المسلم، ولا يتعلم غالباً

إلاّ القليل ، فجدّ كل الجدّ واتخذ سبيلاً إلى تعميم التعليم حتى تلحق بالأمم ، وهذا لا يحتاج إلى أكثر من عشرين سنة ، ومتى نما التعليم في الأمم الإسلامية أمكنها استخراج المنافع من العقول ومن المادة كما شرحنا ، يدبر الله الأمر من السماء إلى الأرض ونحن مكلفون أن نعمل بقدر طاقتنا ، ومتى ارتقت أمم الإسلام صارت مجارية للأمم الأخرى ، وحينئذ تكون مساوية لهم ، فلا تتهم أنها عطلت عقول أبنائها ، ولا منافع أرضها وخواصها ، ولا المطر النازل في أرجائها ، فإن لم تكن سابقة الأمم في ذلك فلتكن مساوية لهم .

هذه هي السبيل التي يجب اتباعها ونشرها ، وأن هذا التفسير وأمثاله في هذا العصر مقدمات لذلك الرقي المنشود . والحمد لله رب العالمين .

فصل في قوله تعالى : ﴿ وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾

هي ثمان وعشرون منزلة ، أولها : الشرطين ، وآخرها : بطن الحوت ، وهي مقسومة على اثني عشر برجاً ، أولها : الحمل ، وآخرها : الحوت ، لكل برج منزلتان وثلث منزلة ، ينزل القمر كل ليلة منزلة منها إلى انقضاء ثمانية وعشرين ليلة ثم يستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين ، وإن كان تسعاً وعشرين اختفى ليلة واحدة .

القمر أصل الشهور والأسابيع

اعلم أن القمر لولاه لم تكن شهور وأسابيع ، ولكان اختلاف الناس عسيراً في حسابهم ؛ وبيانه أن دورة القمر التي تتم في ٢٨ يوماً كما تقدم جعلت مقياساً للشهر ، ثم بالنظر لاختلاف الفصول من شتاء وصيف وخريف وربيع ، جعل مقياساً لها ، فجعل كل فصل ثلاثة أشهر وكل شهر أربعة أسابيع وكسر . فدورة القمر هي التي نبهت النوع الإنساني إلى أقسام السنة الاثني عشر المسماة شهوراً ، فأما سير الشمس فلم يعط الناس إلاّ الفصول الأربعة باعتبار بعد الشمس وقربها ، وهي الدورة السنوية ، هاهنا أخذت الأمم تفصل أيام السنة وشهورها بحسب ما يعنّ لها ، فإنهم لما رأوا الأسبوع سبعة أيام لم ينظروا لليوم بنظر واحد .

(١) الكلدانيون والفرس يجعلون مبدأه من شروق الشمس ، ويجعلونه ٢٤ قسماً متساوية هي الساعات .

(٢) اليهود يبتدئون من غروب الشمس إلى شروقها ليلاً ، ومن شروق الشمس إلى غروبها ، فالساعات ليلاً ونهاراً تختلف طولاً وقصراً بحسب الفصول عندهم بخلاف الكلدان والفرس ، فهي متساوية مع اختلاف الفصول .

(٣) الإيطاليون في أواسط القرن التاسع عشر كانوا يحسبون كاليهود .

(٤) العرب يحسبون النهار من مرور الشمس على خط الزوال مبتدئين من الساعة الأولى إلى الرابعة والعشرين التي تنتهي بمرور الشمس عند خط الزوال عينه في اليوم الثاني .

(٥) لم تتفق الأمم الكبرى كفرنسا وغيرها في مصالحها العمومية ، لا سيما في مواعيد السكك الحديدية على ما كان عند العرب إلاّ في زمن قريب جداً ، وأسماء الأيام مستنبطة من أسماء الكواكب السيارة :

(١) الاثنين القمر عند الفرنجة .

(٢) الثلاثاء من مارس عند الفرنجة ، أي : المريخ .

(٣) الأربعاء يرجع عند الفرنجة إلى عطارد .

(٤) الخميس يرجع إلى «جوبتر» عندهم ، أي : المشتري .

(٥) الجمعة يرجع إلى الزهرة .

(٦) السبت يرجع إلى «ساتون» أي : زحل .

(٧) الأحد يرجع للشمس ، وهذه كانت معروفة عند آبائنا العرب ، فإذا قال الفرنجة مثلاً : إن الأربعاء وهو «مركردي» مشتق من «مركور» ، أي : عطارد ، فإن آباءنا قالوا : إن يوم الأربعاء لعطارد ، وهكذا بقية الأيام بالنقل عن الأمم .

ولقد اتفقت الأمم كلها على تحديد عدد أيام السنة ابتداء من القرن الثالث للميلاد ، واعتبر أكثرهم أن مدة الأسبوع معادلة ربع دورة القمر حول الأرض .

(١) وكان الفرس والمصريون لذلك العهد يعتبرون السنة ٣٦٥ يوماً مقسمة على اثني عشر شهراً ، والشهر ٣٠ يوماً يضاف إليها في آخر كل سنة خمسة أيام «أيام النسيء» ، ومع ذلك لم تطابق السنة الحقيقية ، والأشهر عند قدماء المصريين هي : توت ، فاووفي ، أوثير ، شوكا ، توبي ، مشير ، مامينوت قرموني ، ياشون ، بوني ، أبيفي ، ميسوري . والشهر الأول منها وهو «توت» يبتدئ في الاعتدال الخريفي ٢٢ سبتمبر من كل عام .

(٢) الصينيون كانوا يعرفون السنة الشمسية وقد ضبطوها مرات عديدة .

(٣) العرب : السنة تتألف من ١٢ شهراً ، والشهر مؤلف من ٢٩ يوماً ، ويليه شهر مؤلف من ٣٠ يوماً ، والسنوات الكبيسة يزاد عليها يوم واحد ، والكبيسة في كل ٣٠ سنة إحدى عشرة سنة ، والباقي وهو ١٩ بسيطة .

(٤) اليهود تقويمهم الديني بالقمر ، وتقويمهم المدني شمسي يبتدئ من فصل الربيع .

(٥) قدماء الرومان تبتدئ السنة عندهم من فصل الربيع ، ولكن «رومولوس» مؤسس رومية قسمها عشرة أقسام ذاهلاً عما رسمه القمر في سيره من قسمته ١٢ قسماً ، وأسماء الشهور بعضها مشتق من أسماء الآلهة عندهم ، هكذا : مارس ، ابريليس ، يونيوس . وبعضها أسماء أعداد ، وأضاف بعض ملوكهم شهرين آخرين وهما «جانواريوس» و«فبرواريوس» ، ثم أضافوا شهراً آخر فصارت الشهور ١٣ شهراً وهو أمر غريب . فانظر ماذا حصل جاء الامبراطور «يوليوس قيصر» فوضع التقويم اليوناني بأن تكون السنة مؤلفة من ١٢ شهراً بعضها يحتوي على ٣٠ وبعضها على ٣١ ، يضاف إليها كل أربع سنوات يوماً في السنة الكبيسة . ولما كان الرومانيون يجهلون نظام الأسابيع وسقطت الدولة الرومانية غيروا نظام الشهر الروماني ، وجعلوه على ما تعلم اليوم من الأسابيع المعروفة اليوم المجهولة عند الرومان . وقد نقش الإمبراطور «أغسطوس» على ألواح النحاس التقويم الذي وضعه «قيصر» ، وأطلق اسم يوليوس «يوليو» على شهر يسمى «كنتيكيس» تخليداً لاسمه ، كما أطلق اسمه هو وهو «أوغسطس» على شهر يسمى «سكتيليس» .

فانظر كيف اضطرت الأمم كلها أن تجعل السنة ١٢ شهراً، لماذا؟ لأن القمر لما دار حول الأرض ١٢ مرة كان هذا قريباً من السنة، ينقص عنها نحو ١١ يوماً، فكأن القمر في سيره نطق بلسان فصيح قائلاً: هاأنا ذا رسمت لكم الشهور فانسجوا على منوالي، حتى اضطر الرومانيون بعد ما قاسوا المشاق في تعديل السنة، وقد غفلوا عن سير القمر إلى حذف الشهر الزائد عن اثني عشر، وأول من تفطن لهذا «يوليوس» ورجع إلى الشهور الاثني عشر كسائر الأمم.

وهذا هو سر قوله تعالى: ﴿ وَقَدَّرَهُۥ ﴾ أي: القمر ﴿ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ ﴾، فأفاد أن نظام القمر هو الذي يفيد السنين ويعرّفها ويقسمها، ولولاه لاختلفت شهورهم وضاعت مصالحهم.

ولما كانت الأمم بعضها محتاج إلى بعض، نظم الله لهم سير القمر حتى يتبعوه في الحساب فتنتظم معاملاتهم، نظام السماوات والأرض تبعه نظام أهل الأرض.

فصل في معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱلْحِسَابَ ﴾
من قوله: ﴿ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾

اعلم أن السنة الشمسية كما قدمنا في كل أربع سنين فيها سنة كبيسة وثلاثة بسيطة، وقاعدتها أن تقسم سني التاريخ المسيحي على أربعة، فإن قبلت السنة القسمة فهي كبيسة وإلا فهي بسيطة، ولا شك أن هذه السنة التي أكتب فيها هذا التفسير وهي سنة ١٩٢٤ تقبل القسمة على أربعة وإذن فهي كبيسة، أنا في هذه الساعة أكتب ليلة السبت نصف الليل السادسة من شهر سبتمبر من هذه السنة، ومع ذلك السنة على هذا الحساب لم تزد على ٣٦٥ يوماً و٦ ساعات، وهي في الحقيقة ٣٦٥ يوماً و٥ ساعات و٤٨ دقيقة و٥٠ ثانية، أعني ٢٤٢٢١٧, ٣٦٥ يوماً وسطياً، وحينئذ تكون كل سنة يوليوسية تزيد عن المدة الحقيقية للسنة الفلكية بكسر من اليوم مساو إلى ٠٠٧٧٨٣, ٠، أعني ١١ دقيقة تقريباً، وهذا الفرق وإن كان قليلاً يصير يوماً كاملاً في كل ١٣٢ سنة، وفي سنة ١٥٨٢ ميلادية قد وصلت هذه الزيادة إلى عشرة أيام، فأمر البابا «جريجوار ليليوس» الطلياني بأن يصلح هذا الخلل، فأسقط ١٠ أيام من تلك السنة، إذ جعل الخامس من شهر أكتوبر الخامس عشر، ولما كان الفرق وهو ١١ دقيقة يصير ١٨ ساعة تقريباً في كل مائة سنة، وثلاثة أيام في كل أربعمائة سنة، وجب إذن طرح ثلاثة أيام من كل أربعمائة سنة فأضاف إلى القاعدة اليوليوسية قاعدة أخرى، وهي أن كل ثلاث سنين مئينية عوضاً أن تكون كبيسة تكون بسيطة والرابعة تبقى كبيسة وهلم جراً.

والمراد بالسنة المئينية ما ينتهي عدد التاريخ فيها بصفرين، مثاله سنة ١٦٠٠، ولزيادة السهولة اتفقوا على أن السنة المئينية الكبيسة هي التي عددها يقبل القسمة على ٤٠٠، فسنة ١٦٠٠ كبيسة، و١٧٠٠ و١٨٠٠ و١٩٠٠ بسيطة.

وقد قبل هذا التعديل جميع الأمم ما عدا المسكوف والأروام والأقباط، فإنهم بقوا على التعديل اليوليوسي، ولذلك نرى فرقاً ١٢ يوماً بين حسابهم وحساب الإفرنج ١٠ منها هي الأيام التي أسقطها «جريجوار»، والاثنان ناشئان من جعلهم سنتي ١٧٠٠ و١٨٠٠ كبيستين، والإفرنج جعلوهما بسيطتين ومع ذلك لا يزال هناك فرق يبلغ ربع يوم تقريباً كل عشرة قرون، فيكون يوماً واحداً كل ٤٠٠٠ سنة، بحيث يجب أن يضم يوم واحد للسنة ٥٥٨٢ لأجل تعديل الخطأ المجتمع القليل جداً، فتعجب من

الحساب كيف بلغ في الدقة مبلغاً شغل العالم الإنساني أجمعه، وقد كان ابتداؤه سير القمر الذي قسم السنة ١٢ قسماً، وهذه الأقسام تنقص ١١ يوماً تقريباً، فعدّلت الشهور من حال إلى حال، ومتى زادت عن ١٢ تأدّب الناس وحذفوا الزائد ثم أخذوا يحذفون ويزيدون أجيالاً وأجيالاً إلى أن وصلوا إلى الثواني من آلاف السنين.

أليس هذا هو سر قوله تعالى: ﴿ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾، أوَلم يكف أن يقول: ﴿ عَدَدَ السِّنِينَ ﴾ حتى أضاف لها الحساب إشارة إلى هذه الدقة المتناهية، فالقمر حكم عليهم أن يجعلوا السنة ١٢ شهراً، وهم اضطروا بالحساب أن ينظموا أيام الشهر، فبدل أن يكون ٢٩ يوماً و١٢ ساعة و٤٤ دقيقة بحساب القمر زادوه نحو يوم تقريباً في الشهر الشمسي، ولا يزال الحساب يتناهى في الدقة إلى الآن.

فيا عجباً كيف كان القمر دليلاً على الحساب، وكيف شغل الناس بالفرق بين الشهر القمري والشمسي والسنة القمرية والشمسية، وكيف كانت السنين الكبيسة والبسيطة في الحساب العربي في كل ٣٠ سنة لا تزيد الزيادة للكبس فيها على ١١ يوماً دائماً أبداً، وكل دور ٢١٠ من السنين، وهذا الدور مشتمل على أدوار صغيرة كل دور منها ٣٠ سنة وهي سبعة أدوار. فتعجب كيف كانت الكبيسة الشمسية محتاجة إلى دقة أتم كما رأيت وكل هذا سر قوله تعالى: ﴿ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ وقوله: ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾، يعني أن الله راعى في خلق ذلك الحكمة والمصلحة، ولم يذر القمر والشمس يتخبطان في سيرهما ويتعثران في جريهما، بل ضبطهما بحساب على مقتضى احتياج الناس وحسابهم. وبهذا الحساب يزدادون دقة وحكمة، فلو أنني جعلت الحساب سهلاً صحيحاً لا كسر فيه لأدى ذلك إلى جمود عقولهم وموت نفوسهم وجهالة عقلائهم، ولكن ذلك الكسر في السنين الشمسية والقمرية يؤدي إلى نبوغهم في الحساب فترتقي الأمم، وإذا كانت الحرب في الأمة وشدة الحاجة إلى العلوم والصناعات تؤدي إلى ارتقائها، هكذا هنا في الحساب ودقته تؤدي الأمم إلى رفعة الشأن، فكلما ازدادوا حيرة ازدادوا اجتهاداً فأثروا، هذا معنى قوله: ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾، وختم الآية بقوله: لمن أفصل هذا؟ أفصله لقوم يعلمون. يعني أن مثل هذا المقام لا يعرفه إلاّ العلماء به، فأما الجهلاء به ولو كانوا أعلم الناس بالنحو والصرف واللغة والفقه، فإن التفصيل ليس لهم، فعار على أمة الإسلام أن تخلو من النابغين في هذا الفن، وكيف نرى التعديل يأتي من أوروبا والمسلمون نائمون اليوم وليسوا كآبائهم الأولين.

اللهم إنك أنزلت هذا الكتاب وطلبت أن تكون الأمة فيها علماء في كل علم، فإذا قصرت الأمة كما هو حاصل الآن وليس أحد عالماً بهذه العلوم إلاّ الفرنجة، فلمن يفصل لهم القرآن؟ ولمن يقرأ؟ وكيف يفصل الله الآيات لقوم لا يعلمون؟.

يا رب، إن المسلمين اليوم لا يعلمون أكثر العلوم، ويمرون على مثل هذا القول مرّ الكرام، ولا حظ لهم منه إلاّ حظ الجائع من النسيم.

فيا ليت شعري، لمن هذا التفصيل ولمن هذا القول؟ يا الله، إنك قد سلطت الفرنجة علينا لجهلنا. يا رب، إنك فصلت هذه الآيات لقوم يعلمون الفلك، والأمة غافلة فنقلته أنت إلى الفرنجة، وصرنا نقرأ

القرآن ولا نبالي بما سمعنا ، إنك تفصله لقوم يعلمون ، لأن المسلمين اليوم قوم علم الفلك يجهلون . فاللهم اجعل منهم قوماً عاشقين لعلوم مختلفة ، وبثّ الحمية في قلوبهم ، واجعل منهم من يحثون على كل صناعة وكل علم ، واجعل كتابي هذا مما يحرضهم على عشق العلوم وحب الحكمة والتخلق بخلقك ، وخلقك العلم والحكمة لأنك العليم الحكيم . اهـ .

بهجة العلم في هذه الآيات

إن تقدير المنازل والبروج للشمس والقمر وسيرهما بحساب متقن هو الذي جعل الناس آمنين على أمرين : حساب الدرجات الأرضية ونظامها ، وحساب الميزان والكيل والمساحة . ولأبيّن ذلك في مقامين :

المقام الأول

حساب الدرجات الأرضية ومعرفتها وكرويتها ودورانها

اعلم أن أول من فكر في كروية الأرض رجل يقال له «أراتوستانس» هذا الرجل ولد في القيروان سنة ٢٧٦ قبل المسيح ، ودرس في الإسكندرية وأثينا ، ثم دعي إلى الإسكندرية سنة ٢٣٤ قبل الميلاد فأقام بها إلى أن أدركته الوفاة سنة ١٤٩ ق . م ، وهذا الفلكي ألف كتاباً في معرفة جرم الأرض ، وقال : إن الشمس تكون عمودية فوق الأرض في مدينة أسوان وقت الانقلاب الصيفي ، فإذا نصب عمود في الأرض هنالك لم يظهر له في الظهيرة ظل ممتد شمالاً ، وإذا نصب عمود آخر مثله في الإسكندرية ظهر له ظل شمالي في تلك الدقيقة عينها ، وإذا رسم خط من أعلى هذا العمود إلى طرف ظله وجدت الزاوية التي تكون بينه وبين الظل سبع درجات وخمس درجة فهي المسافة بين الإسكندرية وأسوان .

ولبيان هذا المقام حق البيان أقول : إن هذا الفلكي قد تربى في الجامعة المصرية بالإسكندرية التي أسسها بطليموس الأول ، وقد تخرج منها كثير من العلماء والأدباء ومنهم هذا الفلكي ، فتاقت نفسه يوماً أن يسافر من الإسكندرية إلى أسوان فسافر في نهر النيل فلاحظ أمرين :

أولهما : أنه كلما أوغل في جهة الجنوب سفراً يرى بعض النجوم الشمالية الظاهرة تغيب تدريجاً .

وثانيهما : أن بعض النجوم التي لم تكن ظاهرة تبدو تدريجاً ، فخطر له أن هذا لا يكون إلاَّ إذا كانت الأرض كروية ، وكيف يقيس الأرض كلها؟ إذن هنالك اجتزأ بقياس بعضها ، ثم يحسب الباقي وما ذلك البعض يا ترى؟ هو ما بين الإسكندرية وأسوان ، فقاسه فوجده ٦٨٠ ميلاً ، وهذه المسافة هي التي ارتفاعها الشمسي عند الإسكندرية أكثر من أسوان ٧ درجات وخمس درجة ، فإذن هذه المسافة جزء من خمسين من الدائرة التي تحيط بالكرة ، بضرب هذا العدد في خمسين يساوي ٣٤٠٠٠ ميل ، ثم قال في نفسه : إذا أنا سافرت من أسوان أيضاً جنوباً واستمررت ، فإني أرجع إلى الإسكندرية من الشمال ثانياً إذا قطعت قدر هذه المسافة المذكورة خمسين مرة ، هذا ما قاله ذلك الفلكي ، ولكن الحساب الآن ليس كذلك ، فإن الدائرة حول الأرض لا تزيد عن ٢٣٧٠٠ ميل ، والسبب في ذلك الخطأ المقدر بنحو ١٠٣٠٠ ميل ، أن أسوان ليست في جنوب الإسكندرية تماماً ، بل هي تنحرف جهة الشرق الجنوبي قليلاً فلذلك طالت المسافة جداً . انتهى ما ترجمته من الكتب الإنجليزية مقتصراً على الفائدة .

ومن المؤلم أن هذا العالم لما عمي في آخر حياته ترك الأكل حتى مات قائلاً: لا خير في حياة لا تصحبها لذة المطالعة والعلم. فلذلك آثر الموت انتحاراً.

انظر إلى الآية التي نحن بصددها، وتفكر في عمل هذا الفلكي اليوناني المصري كيف عرف بارتفاع الشمس الدرجات السبع والخمس، وأنها هي جزء من خمسين من الدائرة المحيطة بالأرض وحسب المحيط كله، لولا دوران الشمس حول الأرض بحسب الظاهر ما أدرك هذا العالم هذا الحساب. انتهى الكلام على كروية الأرض.

أما دورانها فإنه قد وضح فيما كتبته في كتاب «جواهر العلوم»، وقد جعلته في محاورة بين فتى وفتاة فلأنقل ما دار بينهما من الحديث، لتقف على ما كنت أكتبه في أول أيام تأليفي، ولترى أن دوران الأرض حول الشمس ليس غير مخالف للقرآن فحسب، بل له منه دلائل كما ستراه فيما يأتي، وهنا ننقل ما في «جواهر العلوم».

فصل في الكلام على الخلاف بين الأوائل والأواخر في الأفلاك ومسألة الدوران الشمسي هي الدائرة حول الأرض أم بالعكس

فقالت: يا سيدي، أرجوك ذكر مقال شاف يكشف لي حجاب الخفاء عن الهيئة، فقد أشكل القول فيها، وخالف السلف الخلف وكل حزب بما لديهم فرحون، فإني لا أدري ما الصواب فيها؟ أقول الأقدمين الذين قالوا إن الأرض ساكنة وإن الشمس وجميع الكواكب تدور حولها، أم قول العصريين القائلين بأن تلك الأجرام لا وجود لها، وإنما السماء لها معنى آخر وهو الشموس المشرقة وتوابعها من السيارة وسيارة السيارات، وأنها سبع طبقات بعضها فوق بعض، وهي الأقدار السبعة المعلومة، وأن الأرض هي التي تدور حول الشمس، ثم ما الذي حملهم على ذلك حتى جدّوا فيه، وما الفائدة في تلك المباحث؟ فقال: اعلمي أن المتقدمين والمتأخرين أفرغوا وطابهم في البحث عن الأجرام العلوية والكواكب المشرقة، ولم يألوا جهداً في البحث عنها لميل الطباع البشرية إلى اقتناص شوارد العلوم وفوائد المنطوق والمفهوم، ولذلك نرى كل إنسان يعجب بعلمه ولو في مسألة من دنايا المسائل. فقالت: يا سيدي، وهل في العلم أدنى وأعلى؟ فقال: نعم، إن المعلومات تنقسم إلى علوية شريفة وإلى سفلية تستضيء منها مركبة من عناصر سريعة الانحلال قريبة الدثور، واللذة في العلوم على حسب شرف المعلومات، فكلما كان المعلوم أشرف وأفضل كانت البهجة به واللذة أكثر، وكلما نقص عن رتبة الشرف والفضل بأن استمد من غيره أو كان قريب الدثور والانحلال قلت البهجة به واللذة، وأنى يستوي لذة معرفة موت فلان وحياته وغنى زيد وفقر عمرو وغير ذلك بلذة معرفة أقدار الكواكب وأبعادها وحساب دوراتها وسنيها وشهورها وأيامها وانتظام سيرها في دوائرها، فإن اللذة بالأول وقتية قليلة بخلاف اللذة بالثاني فهي عظيمة جداً دائمة بدوام المعلوم، وعلى هذا القياس كانت سيرة العلماء والملوك والحكماء والدول الكبيرة ألذ من سيرة العامة والسوقة والجهلة والدول الصغيرة وكذلك العالم العلوي على السفلي، ولذلك كان البحث عن كمال الله وجماله أبهج وألذ في النفوس الشريفة لأنه لا أشرف منه ولا أدوم.

وبالجملة فالبحث عن العلويات أمر لذيذ، ولذلك اتجهت أفكار الأمم بأجمعها إليه، وصوّبت أسهم آرائها لغرضه.

ولقد اطلعت على آراء قديمهم وحديثهم وعجرهم وبجرهم وغثهم وسمينهم، فوجدت موضوع أبحاثهم دائراً على محورين:

الأول: القوانين الحسابية التي بها يعرف الليل والنهار والشمس والقمر والكواكب والفصول والانتقالات وغير ذلك مما توقف عليه أحوالنا المعاشية وعباداتنا وحجنا وصومنا وإفطارنا وغير ذلك وهو فن التقويم المسمى علم الفلك، وهذه القوانين ليس فيها بين المتقدمين والمتأخرين كبير خلاف، بل هي متقاربة ولا خلاف إلاّ في أمور جزئية لا تهدم أصلاً من الأصول ولا توجب خطأ في مقول.

الثاني: البحث عن العالم بأسره وهو علم هيئة الدنيا، وهو فن يبحث فيه عن الأرض مع غيرها من أجزاء العالم، والعالم هو سائر المحدثات فهو صنعة عظيمة تكلّ العقول عن الإحاطة بعلم ما احتوى عليه من المخلوقات وعن الأبعاد بين الكواكب ومقادير أجرامها وطبائعها وما تشتمل عليه، وعن السيارات والثوابت، وعن الشمس أهي تدور حول الأرض أم الأرض هي التي تدور حولها، وعن حقيقة السماوات وغير ذلك.

وهذا هو الفن الذي حمي فيه وطيس الخلاف بين الأوائل والأواخر، وعلماء هذا الفن مقرّون بأن أدلتهم ظنية، غاية الأمر أن بعضها أقرب إلى الظن من الآخر، ويشهد له أنهم كانوا مطبقين على تقدير بعد الزهراء عن الشمس وعلى مقدار جرمها، ثم في سنة ١٢٩٣ أرسلوا العارفين إلى الجهات وحرروها فعرفوا أن جميع حساب السابقين خطأ محض، وأنها أقل من ذلك كله بعداً وجرماً، ومن الجائز ظهور الخطأ في هذا التحرير أيضاً في وقت آخر.

وحيث كانت مسائل هذا الفن ظنية اختلف علماؤه في أسباب وجود الليل والنهار واختلاف الفصول بالحر والبرد، بعد الإجماع على أن ذلك من آثار تقابل الشمس والأرض، فقد كان علماء الهيئة في غابر الأزمنة على ما وصل إلينا يدرسون في مدارسهم ويعلمون تلاميذهم هذه الهيئة الجديدة المعروفة الآن. فقد كان «فيثاغورس» الفيلسوف الشهير يعلم تلامذته في مدرسة «كروتونيا» من بلاد إيطاليا على طريقة حركة الأرض، وذلك قبل ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام بمدة خمسمائة عام، معتقدين أن هذا المرئي الذي نسميه سماء أو فلكاً هو فضاء واسع، وزرقته ناشئة من اكتشاف الأشعة الشمسية للأجزاء الأرضية، وأن الكواكب الثابتة في ذلك الفراغ عبارة عن شموس كشمسنا هذه، وكل شمس حولها سيارات كسيارات شمسنا وأقمار كقمرها وذوات ذوائب كما حول شمسنا، وكل واحد من هذه السيارات والأقمار وغيرها عالم مثل كرة أرضنا، ومن جملة هاتيك الشموس هذه الشمس المشهورة، ولها دائرة مخصوصة بها وعدة متعلقات تدور حولها من السيارات.

ومن جملة السيارات الدائرة حولها هذه الأرض التي نحن عليها، والقمر ملتزم لها ويدور عليها ومعها على الشمس، وفوق ذلك صفوف دوائر شمسية متكاثرة بعضها فوق بعض إلى حيث لا يحيط به النظر، ولا يدركه الفكر ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١] فالسماوات عندهم عبارة عن هذه الدوائر بما فيها من الكواكب الكبيرة.

ولما شاعت هذه الطريقة في زماننا هذا، وأراد العلماء تطبيقها على ما ثبت عندهم من ظواهر الشريعة من كون السماوات سبعة، قالوا: معلوم أن الكواكب الثابتة سبع طبقات، فما كان منها يرى في غاية الظهور والإضاءة فهو الطبقة الأولى، ويقال لها المرتبة الأولى والقدر الأول، وما كان أبعد منها غير كثير وأقل في الظهور والإضاءة بمقدار يسير فهو الطبقة الثانية وهكذا إلى الطبقة السادسة، كل طبقة ترى كواكبها أبعد عن التي قبلها وأقل منها ظهوراً واستنارة، والطبقة السابعة هي التي خفيت كواكبها، فلا ترى إلاّ بالمنظرة المعظمة، فهذه الطبقات هي طبقات السماء، وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾[الملك: ٥] قالوا: السماء الدنيا عبارة عن الدوائر الشمسية التي نحن فيها، المزينة بما احتوت عليه من السيارة وسيارة السيارة وذوات الأذناب وغيرها من متعلقاتها إلى نحو ذلك من التأويلات التي شرحها علماؤهم، وكم ورد عليهم من اعتراض، وكم أجابوا عنه.

وقد رأيت في بعض رسائل العلامة المرحوم عبد الله باشا فكري أن تلك المباحث مستوفاة التفصيل في كتاب «أسرار الملك والملكوت» وشرحه الموسوم بأفكار الجبروت، والشرح المذكور في دار السلطة السنية وهو باللغة التركية ومتنه بالعربية.

ثم إن هذه الطريقة كما قدمنا هي التي كانت سارية في أنحاء المعمورة بين علمائها مستفيضة بين خاصتها وعامتها، حتى جاء «بطليموس» قبل الميلاد بمائة وأربعين سنة، فاختار القول بسكون الأرض ودورة الشمس عليها، وبنى مذهبه على ذلك فشاعت قاعدته بين الناس واشتهرت في البلاد.

ولما جاء الإسلام وترجمت الكتب اليونانية إلى اللغة العربية، نقلها الفارابي من فلاسفة الإسلام في مؤلفاته العربية أوائل القرن الرابع من الهجرة، وتبعه ابن سينا وغيره فمن جاء بعده، وهجرت الطريقة المتقدمة التي كان عليها «فيثاغورس»، وقد قال هؤلاء العلماء: إن السماوات أجسام متراكبة بعضها فوق بعض كطبقات البصلة، متماسة ولا تقبل الخرق ولا الالتئام، وليست حارة ولا باردة ولا رطبة ولا يابسة ولا لون لها ولا توصف بلين ولا ملاسة ولا خشونة ولا خفة ولا ثقل.

وبالجملة فهي أجرام أثيرية شريفة مخالفة للأجسام العنصرية الأرضية في جميع أوصافها، وهي التي تدور الحركة اليومية والكواكب تتحرك معها قسراً، وللسيارات حركة أخرى مخالفة لحركة السماوات، أي: إن السماوات تدور من المشرق إلى المغرب، وتلك الكواكب معها، ثم الكواكب لها حركة أخرى تدور بها من المغرب إلى المشرق كنملة على دولاب، تسير متجهة إلى غير جهة حركته، وبهذه الحركة المخالفة تكونت الفصول والسنون وانتظمت أحوال العالم ودوّن ذلك في كتب المتقدمين.

ولما شاعت هذه الطريقة بين علماء الإسلام أخذ بعضهم في تطبيقها على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وسكت عن ذلك فريق، وفريق كفر القائل بذلك المذهب، ثم برهن محققوهم كالغزالي وغيره على أن هذه لا تصادم الدين، وأن من اعتقد ذلك فقد جني عليه وضل سواء السبيل وأضل الناس، فإن الدين لا ينفي ولا يثبت.

وكما أن من يقول: إن الله خلق البصلة ست طبقات أو سبعاً أو ثمانياً، وإنها كروية أو مثلثة أو مربعة لا نكفره كذلك لا نكفر من يبحث في العلويات إذ كلها من مخلوقاته عزّ وجلّ، ولم تذكر إلاّ للاستدلال على صانعها، والدلالة واضحة على كل حال وعلى أي شكل، وكثير من علماء الكلام

كانوا يناضلون الفلاسفة ويخطئونهم ويضللون فهمهم، حتى قال العلامة الرازي: إن الأقرب للقرآن أن تكون الكواكب سابحة في السماء كما يسبح السمك في البحر، وأدحض حجتهم في قولهم: إن الخرق والالتئام مستحيل على الفلك.

واستدل بقوله تعالى: ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[يس: ٤٠]، وكان بعضهم يعرف الطريقة المستفيضة الآن ويقارن بين الطريقتين، ويميل إلى هذه الطريقة كما سيظهر قريباً، ثم نبغ ببلاد لهستان رجل يقال له «كوبر نيكوس» تمهر في العلوم الرياضية، واشتغل بالهيئة والرصد والحكمة من سنة ١٥٠٠ إلى سنة ١٥٣٠ من الميلاد، وهي سنة ٩٣٧ من الهجرة، فرجع إلى الطريقة التي كان عليها «فيثاغورس» المؤسسة على حركة الأرض، وقرر أن الشمس مركز وأن الأرض والسيارات تدور حولها، فأولاً عطارد ثم الزهرة ثم الأرض ثم المريخ ثم المشتري ثم زحل، وأيد هذه الطريقة بأدلة وأشهر ذلك في كتاب له عنوانه «حركات الأجرام السماوية»، فحكم عليه في مجمع كنيسة رومة بالزيغ والإلحاد، ولو أمكنهم قتله لقتلوه، ونهوا عن إشهار كتابه.

ومع ذلك شاع هذا المذهب فنسب إليه، وقيل هيئة «كوبر نيكوس» ثم قام بعده جماعات في جهات متعددة وأزمان مختلفة في أنحاء أوروبا، وعوّلوا على هيئته وسموها بالهيئة الجديدة وسموا التي قبلها بالقديمة، وأنت ترى من هذا أنها في الحقيقة هي القديمة، وأن تسميتها جديدة بحسب ما شاع وظنه كثير من الناس خطأ محض وجهل بتاريخ علم الهيئة، والطريقتان مذكورتان مستفيضتان في الكتب الإسلامية، وقد ذكرهما العلامة عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد المتوفى سنة ٧٥٦ من الهجرة في كتابه المسمى بالمواقف، وأورد على طريقة دوران الأرض اعتراضات ثلاثة، ثم كر على تلك الاعتراضات بالنقض والرد، وجرى معه على ذلك شارحه العلامة السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني المتوفى سنة ٨١٦ في شرحه، وكان فراغه من تأليفه سنة ٨٠٧، فليراجعه من أراد وليتأمل البصير كيف كان علماء الإسلام يدرسون الطريقتين ويعرفونهما حق معرفتهما قبل أن يظهر «كوبر نيكوس».

ويدعي البعض أن ما تلقفوه من أفواه أساتذتهم من الإفرنج تقليداً لهم مخترع ممن عندهم، لم يسبقهم به أحد، وهكذا نسبة كثير من المسائل إليهم مع أنهم في الحقيقة ناقلون عن غيرهم، ويدعون أنهم هم السابقون فليتأمل المنصفون. راجعي تاريخ العلامة «سديو» المؤرخ الشهير الفرنساوي، تعلمي الحجج الدامغة التي أقامها على أن أكثر الاختراعات لبني جنسه كذب محض وأنها في كتب العرب من قبل. فقالت له: قد طال الكلام في هذا الموضوع فما رأيك؟ فقال: إني قدّمت الأسباب إلى رأيي في صدر هذه المقالة، وأزيده الآن وضوحاً فأقول:

إن الله عزَّ وجلَّ فطر كل مخلوق على فطرة تناسب احتياجه، ولو نظرنا لجميع الحيوانات التي على وجه الأرض وكذا الإنسان لوجدنا كل فرد منها يعلم ما يحتاج إليه حق العلم، ويجهل ما عداه لطفاً من الله تعالى به، ولما كانت الكواكب والأفلاك لا تحتاج منها إلاَّ إلى القوانين الحسابية أظهرها لنا اللطيف الخبير بالبراهين القاطعة، ولم يحم وطيس الخلاف بين الأمم في الأزمنة المختلفة فيها، والخلاف فيها يسير جداً لا يهدم أصلاً من الأصول، أما معرفة أجرام السماء وسكانها، وهل الأرض التي تدور

أم الشمس؟ فجهلنا به وعلمنا سيان لا يتوقف عليه أمر من أمور معاشنا لما ثبت بالبرهان أن الحساب لا يختلف سواء اعتبرنا الأرض هي الدائرة أم الشمس.

ومن عجيب الأحكام أن أدلته ظنية، فعظم الخلاف بين الطائفتين بالإثبات والنفي، وكأن الله أراد أن يرينا أن أقرب شيء إلينا جهلناه، ويا للعجب كيف نجهل حالنا مع أرضنا! أنحن مقيمون أم ظاعنون؟ ومستقرون أم متحركون؟ وذلك مصداق لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[الحجر: ٢١].

فكم من شيء جهلناه وهو قريب منا كمسألة الروح، فقد احتدم فيها الوغى بين العلماء في كل عصر، ولم يهتدوا إلى الآن.

وما علم الهيئة إلاَّ كعلم الطب فإنه ظني أيضاً. فقالت الفتاة: لقد بنيت كون الهيئة علماً ظنياً على أنه ليس مما يحتاج إلى تحقيقه في المعاش والمعاد وعلى قياسه على الطب، وأنا أحتج على أن المسألة يقينية بما رأيت في كتب القوم من البراهين، فلا أسلم أن علم الهيئة ظني.

فقال: اختصري في البراهين فالوقت لا يسع، والقصد أن يكون مجلسنا نبذاً لطيفة وإثمار علوم لا جدلياً. فقالت: استدلوا:

(أولاً) بأنه لا يصح دوران الجسم الأكبر حول الأصغر، فالعكس هو الطبيعي.

(ثانياً) كل نجم يدور حول نفسه فكذلك الأرض.

(ثالثاً) تغير ظل الأرض وقت الخسوف على سطح القمر بهيئة تدل على أنها دائرة وظلها تبع لها.

(رابعاً) ذبذبة البندول فقد وضعوه وضعاً بدقة لا يتأثر بمؤثر خارجي عليه، فرسم خطوطاً تتقطع وتكون رؤوسها أقواساً تطول كلما قرب البندول من القطبين، وتقصر كلما قرب من خط الاستواء، وفيه يكون على خط مستقيم دائماً.

(خامساً) أنهم وضعوا مقداراً من الزيت في الكؤول، وأداروه فدار وتكور وتفرطح في قطبيه إلى آخر ما قالوا، فلعلها مثله. فقال له إبراهيم بعض هذه الأدلة أقيسة تمثيلية وهي لا تثبت حكماً. وبعضها مبني على الاستبعاد، وهما لا يفيدان القطع ولكن باجتماعها أفادت الإقناع لا اليقين.

فقالت الفتاة: هل القرآن ينافي هذا المذهب على فرض أنه يقين؟.

فقال: إن القرآن كلام الحكيم الذي أعجز جميع البلغاء والفصحاء، ولم يكن القصد منه أن نشغل أذهاننا بتطبيقه على كل مذهب يحدث في العالم وعقول الناس تتفاوت، ولو طبقناه على هذا المذهب هل نأمن أن تحدث مذاهب أخرى فوجب أن يطبق عليها أيضاً؟ كيف ولم تذكر العلويات فيه والكائنات الأرضية إلاَّ ليعرف كمال الصانع بالصنعة.

أما كون الصنعة دائرة أو ساكنة فذلك ليس محل بحثه، وكم حاول العلماء تطبيقه على الهيئة التي أدرجت في الأكفان مع أن كثيراً من ظواهر الألفاظ كان يخالفها حتى جاء اكتشاف الإفرنج فأبطل المذهب السابق وظهر أن تلك المحاولة والتطبيق على المذهب البائد لم يصادف محله، على أن علماء الإسلام كانوا يضللون الفلاسفة السابقين ويخالفون مشاربهم بآرائهم الثاقبة حتى وافقوا من قبل علماء الإفرنج في هذه الأيام.

فقالت : وهل تذكر شيئاً من ذلك ؟ فقال : نعم .

أولاً : نفس دوران الأرض ، فقد شمّ من كلام صاحب المواقف أنه يعتمده وهذا كان قبل أن يعرفها الإفرنج .

ثانياً : كانوا يعتقدون النحس والسعد وخراب الدول وعمارتها من آثار العلويات .

ثالثاً : عدم الخرق والالتئام في الفلك .

رابعاً : أن الأفلاك لها نفوس وإرادات .

خامساً : أن بعد الهواء كرة النار .

وكل ذلك نقضه علماء الإسلام ووافقهم الإفرنج في هذه الأيام ، على أننا لو أرخينا العنان للقلم ونظرنا في القرآن لوجدنا ما يشير إلى الطريقة الجديدة وإن لم يذكر في كتب المتقدمين ، منها قوله تعالى : ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ بعد قوله : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾[النمل :٨٨] ، ومنها أنه قال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾[الرعد :٣] ، فذكر الليل والنهار بعد ذكر الأرض يشير إلى أنها من آثار الأرض ، ويقويّ ذلك أنه قال : ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ فجعل الليل الذي هو ظلمة الأرض يغشى به النهار الذي هو ضوء الشمس ، ففيه تلميح إلى أن الأرض هي التي تحدث ذلك بفعل الله تعالى ، ومنها : ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴾[الشمس :١-٤] فجعل النهار الذي هو في مقابلة وجه الأرض للشمس مجلياً لها ، والليل الذي هو الظلمة الأصلية للأرض مغشياً لها ، فأسند فاعلية ذلك لغير الشمس وهو الليل والنهار الذي هو من آثار الأرض .

وهذان الوجهان ذكرهما العلامة الشيخ محمد بيرم الخامس التونسي ، ومنها قوله : ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[يس :٤٠] بعد ذكر الأرض والقمر والشمس ، ومع ذلك كله فالقرآن لا يعارض شيئاً من هذه الأشياء ، على أننا لا نحتاج لتأويل القرآن إلاّ لليقينيات وهذا ليس منها ، فإن نوع بني آدم لا يمكنه أن يحيط بشيء من علم الله تعالى إلاّ بما شاء ، وهل يشاء الله أن نعلم ما لا مصلحة لنا في علمه؟ بل علم مثل ذلك ربما أضر بمصالح الإنسان من حيث ولوعه بما هو بعيد عنه ، وربما يشغله عن أمور معاشه ، بل الأغرب أن أحد العلماء الفرنساويين المتأخرين قال ما ترجمته : « إن للعقل حداً محدوداً ، فإتعاب العقل في معرفة الأجرام العلوية وماهيتها كإتعاب البصر في أن يرى ما فوق السقف من أسفله ، فهب أنك أعنته بأعظم المرايا المكبرة فإنه لا يمكن أن يخترق السقف حتى يرى ما فوقه » .

ويناسب هذا ما صرّح به عالم الفرنساويين « فيلكس لاميروس » في القرن التاسع عشر من قوله : « إن الجذب كلمة يعلم منها الفعل لا السبب ، فإن هذا المعنى بحث عنه الطبيعيون فلم يوفوه » الخ ما قال . فكلام هذين العالمين يؤيد ما قلنا من أن هذه ظنيات . انظره في كتابنا « ميزان الجواهر » وسيرد عليك فيه أيها القارئ إن شاء الله تعالى أن كل حيوان له حد ومقدار في المعارف لا يتجاوزه ولا ينقص عنه ، ولولا ذلك لاختل نظام العالم . هاهنا انتهى الكلام على المقام الأول ، وهو دوران الأرض وكرويتها .

الشمس وشفاء الأمراض

قبل الانتقال إلى الكلام على المقام الثاني يحسن أن أقف وقفة معك أيها الذكي أريحك فيها من عناء الفكر وإتعاب الذهن، بذكر بعض منافع الشمس، فأنتقل بك من مسألة الدوران وما يتبعها إلى منافع نورها في صحة أجسامنا وتقوية قواها لنرى اتساع هذا النظام، فبينما تراها تقسم الفصول بقربها وبعدها ويحيا الحيوان وينمو النبات بها، إذا بها تقوم مقام الأدوية التي امتلأت بها الصيدليات التي يشفى بعض المرضى بها، وكثيراً منهم تضره الأدوية لعدم تحري الطبيب ولجهله وقله علمه وعدم إحاطته بأطراف موضوع المرض.

وقد أجمع العلماء على أن المعالجة بالأمور البسيطة أفضل من المعالجة بالمركبة، والبسيطة مثل الهواء والماء والشمس. فهاك ما قاله طبيب فاضل في مقالة نشرها في صيف هذه السنة «سنة ١٩٢٧» قال ما نصه:

الاستشفاء بنور الشمس في المصايف

عند حلول فصل الصيف يؤمّ كثيرون من سكان المدن شواطئ البحار والجبال للاصطياف تمتعاً بالراحة واستنشاق الهواء النقي لتصح أجسامهم وتستقيم صحتهم، ونظراً لحلول موسم الاصطياف هذا العام رأينا لفت نظر الجمهور وكل من يهمه الاحتفاظ بصحته وصحة عائلته وأولاده، إلى أن هناك فائدة كبرى، بل هناك كل الفائدة من تعريض الأجسام للشمس.

ولما كانت الأشعة فوق البنفسجية وهي العنصر الفعال في الطيف الشمسي لا تتوافر بكثرة إلاَّ على الجبال وشواطئ البحار وفي الحقول وذلك نظراً إلى صفاء نور الشمس ونقاوة الهواء في الجهات المذكورة. فإن هذه الأشعة لا تتوافر تماماً في المدن حيث يضيع معظمها باختلاط نور الشمس برطوبة الهواء والغبار والأبخرة.

والبرهان المحسوس على ذلك أن مدة قليلة يقضيها المرء في الحقول أو على شواطئ البحار والجبال يجعل الجزء المعرّض للشمس من جلده أسمر اللون، في حين أن الإنسان لا تتغير بشرته لو تعرض للشمس في المدن ولو كان ذلك مدة طويلة. إن الحمام الشمسي مفيد جداً إذا استعمل بالعناية التامة مع مراعاة الإرشادات التالية، حتى يدرأ المرء عن نفسه ما عساه يتعرض له من الضرر، أما طريقة تعريض الجسم للشمس فتكون بالكيفية الآتية:

يجب أن يتلقى الإنسان ضوء الشمس مباشرة على جلده من غير أن يجعل بينهما حائلاً كالملابس والزجاج، والحمام الشمسي يجب أن يعم الجسم ما عدا الرأس، فإذا تعذر تعريض الجسم كله لسبب من الأسباب وجب تعريض أكبر مسطح مستطاع منه.

ويؤخذ الحمام الشمسي تدريجاً لأنه إذا عرّض الجسم كله دفعة واحدة من أول مرة مدة طويلة أصيبت الأحشاء بالاحتقان والبشرة بالتسلخ، ويؤخذ الحمام الشمسي كل يوم حتى في الأوقات التي يكون فيها الجو ملبداً ببعض الغيوم، ويجتنب التعرض للشمس في الأوقات التي يكون فيها الحر شديداً، كما يلزم تغطية الرأس بقبعة من القش واسعة الأطراف، أو يستظل بمظلة فاتحة اللون مع وضع نظارات ذات زجاج ملون.

وعلى السيدات أن يضعن شاشاً ملوناً على وجوههن وأن يلبسن قفازات منعاً لتأثير نور الشمس واسمرار وجوههن وأيديهن، ولا بد من اجتناب تيار الهواء.

وتراعى في الحمام الشمسي أمزجة الأشخاص بالنسبة إلى السنّ ولون البشرة وحجم الجسم، لأن الذكور والبدينين والسمر الألوان يتحملون حرارة الشمس وتعريض أجسامهم لها مدة أطول من المدة التي يتحملها الإناث والأطفال ونحيفو البنية وذوو البشرة البيضاء. وعلى من يريد الاستشفاء بنور الشمس أن يشرب كمية كبيرة من مياه الشرب أثناء ذلك، ويحسن أن يكون التعرض مرتين كل يوم: مرة في الصباح بعد طلوع الشمس بمدة قصيرة وقبل الفطور بنصف ساعة تقريباً، ومرة أخرى قبل الغروب بنحو ساعة، لأنه لوحظ أن الأشعة فوق البنفسجية تكثر في الطيف الشمسي صباحاً ومساءً أكثر من وجودها وسط النهار، والمواعيد التي هي أكثر ملاءمة في هذا الفصل هي ما بين الساعة السادسة والتاسعة صباحاً، وما بين الساعة الخامسة والسادسة مساء، والتعريض يكون بالطريقة الآتية:

يضطجع الإنسان في الشمس ويغطي رأسه كما تقدم، وفي اليوم الأول يرفع ملابسه عن يديه وساعديه وقدميه وساقيه مدة خمس دقائق، وفي اليوم الثاني يرفع ملابسه عن أطرافه العليا والسفلى، وبعد خمس دقائق يغطي ذراعيه وفخذيه، وخمس دقائق أخرى باقي الأطراف؛ وفي اليوم الثالث يرفع ملابسه عن بطنه وأطرافه، وبعد خمس دقائق يغطي بطنه وخمس دقائق أخرى يغطي ذراعيه وفخذيه وخمس دقائق ثالثة يغطي باقي الأطراف؛ وفي اليوم الرابع يرفع ملابسه عن جسمه، وبعد أن يعرّض صدره للشمس مدة خمس دقائق يغطيه ثم يغطي بطنه بعد خمس دقائق، ثم ذراعيه وفخذيه بعد خمس دقائق أخرى، ثم باقي أطرافه بعد خمس دقائق من ذلك، ويعرّض ظهره مدة خمس دقائق؛ وفي اليوم الخامس يرفع جميع ملابسه عن جسمه ويعرّض عنقه مدة خمس دقائق ثم يغطيه، وهكذا يومياً بالتدريج إلى اليوم السابع الذي فيه يعرّض المرء جسمه جميعه مدة ساعة من الزمن، ويستمر بعد ذلك على هذا المنوال مدة ساعة أو أكثر حسب استعداده.

والنتيجة المؤكدة لتعريض الجسم للشمس، هي: تنبيه القوى، وتحسين الشهية للطعام، وإزالة فقر الدم، وتنشيط الجسم الخامل، وتنظيم الدورة الدموية، وإنعاش الجهاز العصبي، وإصلاح وظائف الأحشاء، وإبادة المكروبات التي قد توجد على سطح الجلد وتحسين وظائفه، كما أنها تضاعف الفعل الشافي للأدوية ومختلف طرق العلاج.

هذا، والفائدة التي تعود على من يستعمل الحمام الشمسي هي أعظم بكثير مما لو اقتصر المرء على استنشاق الهواء النقي دون تعريض جسمه للشمس، الأمر الذي دعا مصلحة الصحة العمومية لأن تجعل تعريض الأطفال لنور الشمس لوقايتهم من الكساح في المقام الأول من نصائحها للجمهور المنشورة في الصحف أخيراً، مع العلم أن الأفكار اتجهت في أوروبا وأمريكا وخصوصاً في ألمانيا لتعريض أجسام الأطفال إجبارياً للأشعة فوق البنفسجية سواء كانت مباشرة من الشمس أو من الجهاز الصناعي لوقايتهم من مرض الكساح، كما هي الحال عندنا في التطعيم الإجباري للوقاية من مرض الجدري، ولذلك ننصح المصطافين سواء كانوا على شواطئ البحار أو على الجبال أو في الحقول أن يهتموا بتعريض أجسامهم للشمس في الصباح والمساء أكثر من أن يهتموا باستنشاق الهواء النقي فقط. انتهى.

تذكرة

تقدم الكلام على الشمس والقمر في سورة «الأنعام الآية: ٣٧» عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾، وقد رسمت هناك صور الشمس وتوابعها، ولم يرسم هناك القمر فوجب أن نرسم هنا وجوه القمر، لأن ما هنا من الآيات مكملة لما هناك، إذ جاء في هذه السورة ما هو أوضح، وسترسم أيضاً صور المجموعات الكوكبية والسدم ليكون المطلع على هذا التفسير قد ألمّ بجمال هذا العلم وفرح بالحكمة، فهاك صور أوجه القمر:

(شكل ٢)

الكلام على المقام الثاني

وهو بيان أن المساحة والميزان والمكيال في بلادنا المصرية تابعات لسير الشمس

ستعجب أيها الذكي من هذه الجرأة، وتقول: أيّ مناسبة بين الرطل والأقة والوقية والدرهم والقنطار، وبين سير الشمس وقول الله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾، في هذه الآية تتعجب وحق لك أن تتعجب مني أن أدّعي دعوى يصعب تصديقها بل لا تعقل، وكيف يعقل أن الكيلة والربع والملوة والقدح والأردب في بلادنا المصرية منسوبة لسير الشمس، وأيّ عقل يتصور ذلك، إن الأردب ١٢ كيلة والكيلتان ويبة والكيلة الواحدة ربعان والربع ملوتان، وستدهش من قولي لك إن الفدان منسوب مساحته لسير الشمس في السماء، سيدهشك قولي وتقول: أيّ مناسبة بين مساحة الفدان وسير الشمس وآيات القرآن.

كل ثلاثة فدادين ١٠٠٠ قصبة والقصبة ثلاثة أمتار و٥٥ سنتيمتراً، فأين الشمس هنا وأين القرآن؟ ثم إن الناس يقيسون الأثواب بالذراع البلدي المعروف وبالهنداسة، وعندهم ذراع يسمى «الذراع التيلي»، لا مناسبة بين هذه كلها وبين الشمس وآيات القرآن، هذا ما يخطر ببالك وقت كلامي في هذا المقام.

أما الجواب عليه فهو وإن كان يعرفك السبب فإنه لا يدفع العجب، بل إنك عندما تعرف الحقيقة تزيد دهشاً وعجباً، فهاك ملخص ما سيأتي في سورة «الرحمن» ألخص لك منه ما يكفيك الآن، وهناك يزيد الإيضاح.

إن الله يقول هنا : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾ لماذا قدره منازل؟ ﴿ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ إذن تقدير المنازل هنا يعلمنا عدد السنين ويعلمنا الحساب ، والحساب يدخله الكيل والوزن والمساحة المعبر عنها في سورة « الرحمن الآية : ٧ - ٨ » بالميزان ، إذ يقول هناك : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾ ، يقول هناك : إنني رفعت سماواتي ووضعت فيها الميزان بحيث يكون سير الشمس وغيرها بحساب ، لأجل أنكم لا تزيدون في ميزانكم ولا تنقصون ، بل يكون الميزان حقاً ، فهذا هو قوله : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن : ٩] ، هذا كلام الله ، فانظر عمل الإنسان قبل أن ينزل القرآن بآلاف السنين . عمد المصريون القدماء إلى « الهرم الأكبر » فبنوه على مقياس مدار الشمس السنوي فجعلوا :

(١) محيط الهرم الأكبر جزءاً من مليار من محيط مدار الشمس السنوي أي من ألف ألف ألف جزء منه .

(٢) ارتفاعه جزء من ألف ألف ألف جزء من البعد بين الشمس والأرض أي مليار .

(٣) ضعف الارتفاع المذكور يساوي قطر محيط دائرة مساوية لمحيط الهرم .

(٤) فالارتفاع نفسه يساوي جزءاً من مليار من البعد بين الشمس والأرض .

(٥) ضلع الهرم يساوي جزءاً من ربع مليار من محيط الدائرة الشمسية .

(٦) الضلع المذكور يساوي ٤٠٠ ذراع بلدي أو ٣٦٠ هنداسة .

(٧) الذراع البلدي جزء من مائة ألف ألف ألف جزء من ذلك المحيط ، أي : من مائة مليار من محيط الدائرة الشمسية .

(٨) ربع الذراع البلدي المكعب ألف درهم من الماء المقطر .

(٩) وكل ١٢ درهماً أوقية وكل ١٢ أوقية رطل ، فالرطل ١٤٤ درهماً والقنطار مائة رطل ، ثم إن المقاييس منها عشري ومنها اثنا عشري .

(١٠) الأردب ذراع بلدي مكعب .

(١١) الأردب إذن جزء مكعب من ٤٠٠ من الضلع المذكور ، أو واحد من مائة ألف ألف ألف جزء من محيط الدائرة الشمسية .

(١٢) الفدان ١٠٠ هنداسة في ١٠٠ هنداسة تساوي ١٠,٠٠٠ عشرة آلاف هنداسة ، فطوله مائة وعرضه ١٠٠ ، فهو نسبة عشرية ، والهنداسة جزء من ٣٦٠ جزءاً من ضلع الهرم المنسوب لربع محيط الدائرة الشمسية .

(١٣) الذراع النيلي ٥ من ٦ من الهنداسة ، فيكون ضلع الفدان ١٢٠ ذراعاً نيلياً ، والفدان ١٤٤٠٠ ذراعاً نيلياً ، ويكون القيراط ٦٠٠ والسهم ٢٥ والدانق ١٠٠ ، فالذراع النيلي والهنداسة كلاهما يحسبان الفدان ١٠٠ في ١٤٤ يساوي ١٤٤٠٠ .

هذا هو الذي فعله قدماء المصريين ، انظر كيف يقول الله : ﴿ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ ، وانظر كيف كان نفس هذا السر هو الذي صنعه قدماء المصريين كيف علموا أنه لن يستقيم لنا وزن ولا كيل ولا مساحة إلاّ بنسبة محفوظة ، وعلموا أن أرضنا ليس بها شيء ثابت ، فلم يروا أثبت من مدار

الأرض حول الشمس في مدارها السنوي الذي هو مدار ظاهري للشمس حولها، علموا ذلك فبنوا الهرم الأكبر على مقتضاه، حتى إذا تهدم رجع الناس إلى الدائرة الفلكية فقاسوها وإذن يصححون مقاييسهم. هذا كلام الله وهذا سره الذي ظهر على يد قدماء المصريين قبل نزول القرآن بآلاف السنين وهذا أعجب العجب.

إن الفرنسيين لما أرادوا أن يجعلوا لهم وحدة حاولوا أن يصنعوا ما صنعه قدماء المصريين، فماذا فعلوه؟ قاسوا درجة أرضية كما فعل الفلكي المصري المتقدم ذكره هنا، ثم ضربوها في ٣٦٠ درجة التي هي الدرجات لكل دائرة، وجعلوا ذلك ٤٠,٠٠٠ أربعين ألف كيلومتراً أو ٤٠ ألف ألف متر، وقالوا: إن المتر الواحد جزء من ٤٠ مليون جزء من محيط الكرة الأرضية، وعليه أخذ الناس يقيسون به، ثم بعد ذلك علموا أن محيط الكرة الأرضية لم يكن قياسه مضبوطاً بل هناك خطأ، والإنجليز نظروا نظرة أخرى، فإنهم عندهم الياردة التي هي أقل من المتر، فهي نحو ٩١ من مائة من المتر، هم أيضاً حاولوا الرجوع إلى نظام الطبيعة، فجعلوا الياردة هي المقياس لأنها عبارة عن طول الساق المعدني الذي هو رقاص الساعة الذي يتحرك مرة واحدة في الثانية، إن رقاص الساعة إن طال قلت حركته، وإن قصر أسرعت، فهذا الرقاص الذي يتحرك مرة واحدة في الثانية هو الذي جعلوه مقياساً، وإنما أوردت لك فعل الفرنسيين والإنجليز لتعلم وجهة النوع الإنساني، فإنهم جميعاً يريدون أن تكون مقاييسهم على نظام ثابت وأي ثبات لغير النظام العام، فالأوروبيون رجعوا للعالم الأرضي ونظامه، وقدماء المصريين رجعوا لدائرة الشمس، ثم إن الفرنسيين نسبوا جميع المكاييل والموازين إلى المتر كما فعل قدماء المصريين سواء بسواء.

هاهنا عرفت الحقيقة وأدركت سراً من أسرار القرآن، وهاهنا يتبدى لك العجب الأكبر، ألا ترى إلى قوله تعالى في هذه السورة: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ [يونس: ٩٢].

أليس من الآيات التي أظهرها الله على أيديهم وغفل عنها أكثر الناس قبل زماننا ما ذكرته لك الآن في الهرم وبنائه؟ أليس الهرم محلاً تدفن فيه جثث أحد الفراعنة وإن لم يكن فرعون موسى؟ وسترى في هذه السورة أنهم وجدوا صورة البروج مرسومة على تابوت أحد القدماء من المصريين كما سأوضحه هناك، فالله أبقى جثث الفراعنة وألهم علماءهم أن يضعوا أسرار السماوات على تلك الأبدان تارة بالرسم والتصوير كما ستراه في هذه السورة، وتارة بالأبنية التي أسست على نظام السماوات وسير الشمس.

إن هذه هي الآيات التي وبخ الله العالم الإنساني على جهلها فقال: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾، ذمّ الله الناس على التغفل عن علوم قدماء المصريين التي دوّنوها على توابيتهم أو بمبانيهم وهندستها كما عرفت في الهرم.

هذا هو السر المكنون، وهذا هو العلم المخزون، وهذا من أجلّ أسرار القرآن، وليس التوبيخ قاصراً على المسلمين بل يعم الناس كلهم كالفرنسيين والإنجليز الذين أسسوا موازينهم ومقاييسهم على نظم ليست أدق من نظام قدماء المصريين.

فيا ليت شعري كيف يعيش المصري المسلم ويموت وهو يجهل أن الكيلة والذراع البلدي ومساحة الفدان منسوبة للهرم ولسير الشمس ؟ أم كيف يعيش المسلمون ويموتون وهم لا يعلمون أن هذا قد جاء في القرآن، وأن موازين المصريين ومكاييلهم قد ذكرها الله في القرآن وهي له معجزة وأي معجزة .

اللهم إن المسلمين اليوم قوم نيام وقد آن استيقاظهم وأقبلت أيام مجدهم ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] .

تذكرة للأمم المصرية وللأمم الإسلامية

قد كنت وعدت في سورة « الأعراف » أن أكتب في هذا المجلد ما كتبته لمجلس النواب المصري ومجلس الشيوخ والوزارة في شأن التعليم في المدارس المصرية أيام الاحتلال الأوروبي ، فإن هذه الآية جمعت العلوم التي يجب أن يعرفها المسلمون ، ولا يحرمون من علوم القرآن التي تمتع بها أهل أمريكا واليابان والصين وأوروبا لحسد الأوروبيين لنا خيفة رجوع مجدنا ، فعلينا الآن لما رجع التعليم إلى حظيرة الوطن وردّت بضاعتنا إلينا أن ندرس العلوم كلها ، وهذا نص المذكرة :

مذكرة لإصلاح التعليم الثانوي بالمملكة المصرية

قدّمت إلى أصحاب المعالي رئيس مجلس الشيوخ ومجلس النواب ووزير المعارف

(١) لكل جماعة متحدة من الطوائف الإنسانية صفات خاصة تشملهم وأحوال معلومة تجمعهم وتثبت وحدتهم وتصون ألفتهم ، فإذا انتفت تلك الصفات أو نقصت زلت قدمهم وزالت وحدتهم ، فتفرقوا شذر مذر وهم غافلون .

(٢) إن أقوى دعائم الوحدة ما يتعلمه الطلاب في المدارس العامة من العلوم ، فإن أواصرها تربطهم وتجمع الأبناء في ساحة الآداب والكمال .

(٣) ليس التعليم الابتدائي بمغن فتيلاً في هذا المضمار ، كلا بل هو ممهد لما هو أعلى مراماً وأثبت نظاماً ، وكذلك التعليم في المدارس العالية ، فإنما هو لاختصاص الطلاب في أمور عملية . إن مدرسة الطب والصيدلة لمداواة الإنسان ، ومدرسة البيطرة للحيوان ، والزراعة لنظام الحقول ، والحقوق والقضاء للفصل في المخاصمات ، والهندسة للريّ وللبنيان ، والحربية والشرطة لحفظ الثغور ونظام الجمهور .

(٤) فإذن التعليم الذي يشترك فيه أبناء الأمة ، ويحفظ وحدتهم ويوسع مداركهم العامة ، هو التعليم الثانوي ، وعليه المعوّل في الأمم الراقية الآن ، وفي مصر قبل نحو ٣٥ سنة وما عداه فإما ممهد له وإما صناعات عملية .

(٥) فلننظر نظرة عامة في مدارسنا المصرية الثانوية ، إنها خالية من العلوم التي بها الحياة ، فليس بها علم النبات ولا علم الحيوان ولا خلاصة من تشريح الإنسان ولا نبذة في علم الهيئة ؛ الطالب في الثانوي لا يدرس طبقات الأرض الضرورية للحياة ولا ما في الجبال المصرية من المعادن ولا الأقوام الذين ولدوا المصريين وسكان السودان ، ولا أواصر القرابة التي تربطهم ، ولا يعرف من تاريخ عظماء مصر قديماً وحديثاً إلاّ قليلاً مبعثراً غير مشوّق لحب الوطن . لقد حدّثني الأستاذ « ادوارد براون » الإنكليزي المستشرق حينما زار مصر أيام اللورد « كرومر » قال : « أرسلت لي حكومتنا البريطانية ثياب عشرات من رؤساء القبائل المجندلين في حرب التعايشي لأترجم الأوراق المحفوظة فيها ، فوجدت

منها ما يشابه الدولة العباسية خطاً وإنشاءً، ومنها ما يناسب دولة الأمويين». فعجبت كيف يعرفون قبائلنا ونحن عنها غافلون.

(٦) إن الطالب في الثانوي ليس لديه ما يشوقه للعلوم، وهو يجهل ما بين يديه وما خلفه وما تحته، يجهل طبقات الأرض ومعادنها إلّا قليلاً، ويجهل ما في داره من حيوان، وما في حقله من نبات، وما في جسمه من أعضاء ودورة دموية، ودورة تنفسية، ودائرة عقلية، وما فوقه من نجوم لامعات؛ اللهم إلّا تلك النبذة الضئيلة في كتاب الجغرافيا، إنه لا يدرس نفسه، ولا هضم طعامه، ولا نظام الضياء، ولا هرّته التي يألفها، ولا فرسه التي يركبها، ولا الزهرة التي يستحسنها ويشمها. إن التعليم الثانوي يحوّل العقول إلى الخيال ويصرفها عن المحسوسات، وهو الذي صرف بعض الأذهان عن حقائق العلوم إلى خيال الروايات وضياع الأوقات، إن حاسة البصر جردت من أكثر مدركاتها العلمية فانصرفت النفس إلى شهوتها إلّا من لهم قدم في الفضل ثابتة وجدّ عظيم، ومن أغمضت عينه عن الماديات ناب عنها سمعه فاحتاج إلى قائد كما للعميان، هكذا يفعل الغرب إذا نصح للشرقيين، لو كان التعليم الثانوي تاماً كما في البلاد العربية أو كما كان في مصر قبل الآن، لكان ذلك نوراً على نور الذكاء وظهر الذكاء المصري فريداً.

(٧) لولا الذكاء المصري والاجتهاد الفردي والتعليم في أوروبا وعموم الجرائد والمجلات والنهضة العلمية المصرية، ما رأينا في البلاد نابغين ولا قادة ماهرين، لقد كان التعليم الثانوي شاملاً في مصر في أوائل الاحتلال وقبله أكثر هذه العلوم المفقودة الآن، ولقد كانت مدته خمس سنين وكانوا يدرسون العوالم المحيطة بهم، ثم اعترى التعليم ما اعتراه بالتدريج، وحرم أبناء النيل ارتشاف مناهل العلم بأصول الكائنات وجمال مصر وعجائب السودان وغرائب ما فيه من المعادن والغابات.

(٨) إن التعليم في المدارس الثانوية إن لم تتوجه همم أصحاب الشأن وأولي الأمر بالبلاد إلى ترقيته أصبح المهندس أو القاضي، أو كل من له رياسة عامة في الأجيال المقبلة في دائرة محدودة من العلوم، يقول العلماء: «البلادة خير من الفطنة البتراء»، وإذا كان الجهل شراً فشر منه نقص يدلي إلى غرور، فأولهما جهل بسيط وثانيهما جهل مركب تجعله الأمم المغيرة سلاحاً لتقتل به الضعفاء ووسيلة لتغلب الأقوياء، فأما الأمم المستقلة فهي التي تراعي النظام التام وتفتح باب العلم واسعاً ليهرع طلاب الثانوي شوقاً إلى العلوم، إن اتساع التعليم الأولي في البلاد لا يغني شيئاً عن التعليم التام، إن متعلماً واحداً خير من آلاف الآلاف من المتعلمين تعليماً أولياً، فهو رأسهم يقودهم إلى طريق الفلاح، فإكمال التعليم لقواد الأمم ألزم لها من تعميم التعليم الأولي في البلاد.

(٩) لقد أدرك هذه الحقيقة في مصر الأستاذ «لمبير» الفرنسي ناظر مدرسة الحقوق سابقاً، وظهر ذلك في حادثته المشهورة بينه وبين وزارة المعارف، إذ أبان لها ذلك النقص الشائن في التعليم الثانوي قائلاً إنه لا صلة بين نقصه وبين الكمال في دراسة الحقوق، وكيف يكون دارس الحقوق خالياً من مبادئ المنطق وبعض العلوم، فكان جزاء ذلك الحرّ الشجاع أن قدّم استقالته وسافر إلى ليون وأصبح أباً وأستاذاً لطلاب الحقوق بفرنسا من المصريين إعجاباً بذكائهم وهم مجدّون.

(١٠) إن لم يغير هذا المنهج أصبح طبيعة راسخة، وهيهات هيهات أن يغيره متخرجون في مستقبل الأجيال، وكيف يعلمون غيرهم ما يجهلون، وكل امرئ بعلمه مفتون، والغرور يعمي ويصم، والناس أعداء ما جهلوا، فإليكم أيها القادة أوجه خطابي هذا موقناً أنه يوافق مقاصدكم النبيلة التي اتجهت أنظاركم إليها حتى نرى زهرة البلاد مقبلين على العلوم عاكفين على البحث والتنقيب، فلا نعود نسمع من أكبر تاجر للكتب في مصر أن أبناء البلاد معرضون عن الكتب العلمية عاكفون على الأدبية ونحوها.

إن المتعلم إذا أقفلت عين بصيرته العلمية فلم يعشق العلوم كان آخر عهده بها نيل الشهادة ويكون ذلك مفتاح الشره والحرص فيودّ لو تفتح له الحكومة خزائنها ليقضي بها لبانته ويكون عالة عليها وهو في غرور، أما إذا انفتحت عين بصيرته بما ذكرناه من العلوم فإنه يعرج بأمته إلى مراقي الفلاح، وإذا كانت مدارسنا الثانوية قبل عهد الاحتلال وفي عهده حافلة بهذه العلوم وكان المتعلمون فخر البلاد بها وكنا نتحسر على تلك الأيام.

فما أسعد هذا اليوم إذا خاطب شيوخ الأمة ونوّابها وحكوماتها الوطنية وثمراتها الناضجة أن أغيثوا البلاد وأنتم خلاصة الأمة وقادتها وفيكم فطاحل المتعلمين والنابغين قبل فوات الفرصة، وليدرس المنهج الثانوي الذي كان في مدارسنا قبل مسخه وليزد عليه ما يناسب هذا الزمان حتى يقول أبناؤنا:

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

وهاأنا ذا قد أديت ما وجب علي ولهيئتكم الموقرة الرأي الأعلى.

جوهرة سنية في أن
جمال الكواكب قبسة من عوالم الجنات عجلت في هذه الحياة

اعلم أن الجمال على قسمين: جمال يثير فينا ما كمن من اللذات الحيوانية والشهوات الجسمية لداعية التناسل، فهذا أدنى القسمين، وهذا نوع من العذاب المعجل في الدنيا، وذلك يشير له قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[التوبة: ٥٥]، وكل جمال لاحظناه في شجر أو زهر أو قصور أو حور في هذه الحياة، وكان قصارى أمره الشهوات الطبيعية أو التملك أو ما أشبه ذلك، فهذا قد شيبت لذته بالألم وجنته بجهنمه وسعادته بشقائه، فإنا نفرق بين جمال بستان نملكه وآخر لا نملكه، بأن الأول يخالط جماله تكاليف الملك وعذاب الحرس وحسد العدو وغيرة الصديق ومطالب نموه ورعايته وحفظه، بأن نسقيه ونقيم عليه الحراس وما أشبه ذلك.

أما الذي لا نملكه من تلك المزارع والبساتين وما أشبهها فإن خطر بأنفسنا الموازنة بيننا وبين المالكين له، وتحسرنا أو حسدنا فإن ذلك من نوع العذاب، فأما إذا لاحظنا أنه كشجرة البادية أو كالغابات العامة، فإن ذلك الجمال لا ألم فيه يدعو لراحة النفس وسرورها وبهجتها على مقدار نصيبها من تعقل الجمال.

ولذلك تجد أن لكل أمة من الأمم الراقية حدائق عامة وبساتين ومتنزهات تسرّ الجمهور، فتراهم يحرصون الحرص كله ألا تكون الأشجار مثمرة، ولا الأزهار أرجة زكية الرائحة، ذلك لتتمتع

أبصار الجمهور ولا تتناوله الأيدي، ولو أن هناك أثماراً مأكولة لحرص الناس على أكلها وتسابقوا إلى نيلها ونسوا جمالها، فتصبح تلك البساتين أشبه في جمالها بالرجال عند النساء وبالعكس، فإن جمال كل من الصنفين يدعو الآخر إلى التناسل الداعي إلى العمل في الحياة والشقاء.

إذن البساتين العامة في المدن جعلت لراحة الناس من مشاق الحياة وأسقامها وآلامها ونسيان مرائرها وسعيرها، فحيل بينها وبين الشهوات البهيمية التي فرّ منها الناس إلى الضواحي والخلوات.

ألا ترى رعاك الله أن جمال الذكور والإناث إنّما هو طليعة الذرية، وما هو إلاّ كالحب يرمى به للطائر فيقع في الشبكات، إنه مقدمات لنظام الأسرات لا غير، وكلما ازداد سنهما وكبر بنوهما وبناتهما رأيت الحب محوّل عن الجمال الأدنى إلى الجمال الأعلى، جمال المعاشرة والمسابقة في تربية الذرية والتعاون والأنس والاشتقاق بعد أن كانا في مبدأ التعارف لا يلحظان إلاّ حمرة الخد وجمال الوجه واعتدال القدّ وطول الشعر ودعج العين ولعس الشفة، وألا يفتر الثغر إلاّ عن لؤلؤ رطب أو برد أو أقحوان، أصبحا لا يذكران إلاّ صحة الولد وإسعاده وتربيته وآدابه وقوته وتعلمه وما أشبه ذلك من مطعمه وملبسه.

فهذا كله دليل على أن الجمال في الجنسين وسيلة لا تقصد لذاتها بخلاف جمال الحدائق العامة والمتنزهات، فإن الجمال هناك مقصود لذاته ولو خالطته المواد الشهوية كالفاكهة لرجع إلى ما سئم الناس منه في منازلهم وحياتهم الحيوانية، إذا عرفت هذا فأقم وجهك إلى النجوم وانظر جمالها ولألاءها.

الكواكب جنات عجلت للمفكرين ولكن أكثر الناس عنها محجوبون

يا سبحان الله ويا سعدانه. نظرت يا الله إلى الأمم الأرضية المعذبة فأرحتهم بالحدائق في ضواحيها، وزرعت لهم في الطرق أشجاراً، وجعلت لهم أوقاتاً يسمعون فيها الموسيقى وهكذا.

هذه لذات تكاد تكون خالصة من الآلام ليريحوا نفوسهم من الأعمال الشاقة، فانظر ماذا فعل الله بعد ذلك؛ أقفل العيون، وأقفل الجفون، وأطفأ السراج الوهاج، وأبرز النجوم، وأشرقت الأرض بنور ربها في الليالي المدلهمات، وقال للحكماء وللعلماء: هذه هي الرياض فتمتعوا فيها وانظروا معانيها، أنتم اليوم في حظيرتي فهاكموها، فلئن أعدّت أممكم الرياض العامة لرياضة العامة، فهاأنا ذا أعددت حدائقي السماوية لرياضة الخاصة، فأنسيتهم أسقام الحياة وآلامها أضعاف أضعاف ما أفعل مع العامة.

إن العامة ألهمت الأمم أن يبدوا لهم ما هو أقرب لعقولهم وأدنى إلى فهمهم، فلم أخرجهم من سجن الحياة وذل المعيشة إلاّ لما هو أقرب إليها، وهي البساتين العامة فهي بساتين أرضية، أما أنتم أيها الخاصة الذين أعددتكم لجواري والقرب مني بالعلم والحكمة، فهاكم رياضاً جميلة واسعة هي مبادئ الجنات فهناك تلحظون عظمة الوجود، فلئن ابتهج العامة والجهلاء بمنظر زهرة في شجرة فأنتم تبتهجون بدل كل زهرة بكوكب مشرق في ظلمات الليالي ترونه بأعينكم صغيراً وتلاحظونه بعقولكم كبيراً، فبينما أعينكم ترسمه على شبكيتها كأنه ليمونة إذا عقولكم ترسمه أكبر من أرضكم وأعظم من شمسكم، وهاأنا ذا أبحث لخيالكم أن يتصور ما يشاء من الصور الحسان الجميلات، فتتخيلون ما سمعتم عن الأرواح في العلم الحديث، من أن هذه الكواكب ربما كان فيها سكان وأنهم أرفع مقاماً من

سكان أرضكم وأسعد حالاً وأنعم بالاً وأشرف منزلة، وتتمنون اللحاق بهم لتعيشوا أهنأ وتسعدوا سعادة أكمل، فهاأنا ذا ملأت خيالكم بجمال باهر من النجوم ثم فتحت الباب على مصراعيه لتسابقوا إلى الخيرات وتقولوا فلتكن أعمالنا مرضية وقلوبنا نقية حتى نسارع إلى ذلك الجمال ونعيش في باحات الكمال.

أقول: هذا هو البستان الذي زرعه الله للمفكرين من سائر أمم الأرض، وهذا البستان يجهله العامة في جميع الأمم ولا يعقلونه، هذا البستان لا ألم فيه البتة، فجمال الحور الحسان في هذه الحياة مشوب بالألم.

أما جمال النجوم فإنه مشوق لما وراءه من علم وحكمة ودراسة، وكما أن جمال الحور الحسان داع للتناسل، هكذا هنا جمال النجوم داع لدراستها، فليقرأ الناس أقدار الكواكب وأبعادها وأنوارها، فتصبح العقول ونحن على الأرض في عوالم أرقى وأرقى ويعدّون المراصد في الممالك، فيشاهدون مشاهد تنسيهم لذة العقول الصغيرة على الأرض، ويرون أن الضوء الذي يسير في الثانية الواحدة مقدار ٣٠٠ ألف كيلومتر يحتاج في وصوله إلينا من بعض الكواكب التي نراها ليلاً إلى ثلاث سنين بل إلى ٥٠ بل إلى ١٠٠ بل إلى ١٠٠٠ بل إلى ١٠٠٠,٠٠٠ ألف ألف، بل إلى ستين ألف ألف سنة، وقد تقدم هذا في هذا التفسير في مواضع مختلفة، وأيضاً يرون اختلافاً في أضوائها كالاختلاف في أبعادها، فإذا جعلنا ضوء شمسنا واحداً فهناك كواكب من هذه تكون أضوأ منها ١٠ مرات بل ٢٠ بل ١٠٠٠ بل ٨٠٠٠ ثمانية آلاف كالسماك الرامح بل أكثر بما لا نعلم، وهكذا في أقدارها بما لا حصر له.

هذا مجمل ما يفكر فيه المفكرون في عالمنا، إن الله عزّ وجلّ جعل على هذه الأرض أناساً أرقى من الناس وهم المفكرون، وفتح لهم باب الجنة في هذه الحياة، وهم على قسمين: قسم فرح بتخيل الأنوار في أضواء الكواكب، وهذا لذته خيالية، فهو إذ ذاك في سلام وأمان من الهموم والأحزان ما دام على هذه الحال، وهذه الطبقة من الناس قد دخلوا في اللذة الخيالية التي سيكونون فيها في البرزخ بعد الموت. وقسم نظر في علوم تلك العوالم ونفع الناس بها وأرشدهم، وهذا أسعد ممن قبله، وللأول الإشارة بقوله تعالى هنا: ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾، وللثاني الإشارة بقوله: ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

رياض الجنات التي أعدها الله في هذه الدنيا للعارفين وهيأها للمفكرين في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الخ

لقد ذكرت لك كيف جعل الله للناس في الأرض رياضاً في المدن وأعدها للعلماء وللجاهلين، وقد ذكرت لك بعض رياض الحكمة في السماوات، فلأرك في هذه المقالة الرياض الغناء في السماوات التي كشفها الله اليوم وهيأها لمن بعدنا من الأمم الإسلامية ليكونوا بها عالمين.

تعلم أيها الذكي أن أرضنا التي نسكنها قد عرف الناس مساحتها ووزنها وبعدها كما تقدم في سورة «الأنعام» وأنها تابعة للشمس، وهناك سيارات أخرى معروفة مذكورة في سورة «الأنعام» أيضاً، وللسيارات أقمار، وكلها للشمس تابعات، وهناك أيضاً النجوم ذوات الذنب، التي يقول العلماء

في عصرنا كعدد السمك في البحار، وكلها دائرات حول شمسنا، وما شمسنا هذه العظيمة التي هي أكبر من أرضنا بنحو ثلاثمائة ألف مرة وألف ألف مرة إلاّ إحدى الشموس وهي من أصغرهن قدراً، وتلك الشموس تعدّ بمئات ألوف الألوف، فيقال إنها تبلغ نحو ٢٤٢ ألف كوكب شمسي، كل هذا معروف في هذا التفسير مراراً.

فهذه الشموس كلها هي المكوّنة للمجرة، والمجرة يراها الناس بأعينهم كل ليلة صافية الأديم كأنها سائل لبنيّ، أو كأنها تبن، ولذلك تسمى عند العامة «طريق التبانة»، وعند الإنجليز «الطريق اللبني»، وعند علماء الدين «أبواب السماء».

هذه هي المجرة التي شمسنا واحدة من شموسها، وهي ترى واضحة ظاهرة كما قلت لك في ليلة ليس فيها سحاب، يراها الإنسان بعينه معترضة السماء من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، والناس لا يعلمون عنها شيئاً، ولم تعلم حقيقتها حق علمها إلاّ قريباً، فقد كنا منذ نحو ٤٠ سنة، ونحن نطلب العلم في دار العلوم تتلقى عن أساتذتنا في الفلك أن الشموس التي أمكن معرفتها في تلك المجرة لا تزيد على ١٨ ألف ألف شمس، أما الآن فقد عرف العلماء منها أكثر من ٢٤٢ ألف ألف شمس، وربما كان لكل شمس سيارات وتوابع، هذه هي المجرة التي شمسنا واحدة من شموسها، وما هذه المجرة إلاّ روض واحد من رياض الله التي زرعها في هذا الجو الفسيح المملوء من الأثير، فهاك ما تلقيناه عن أستاذنا المرحوم حسن أفندي حسني الذي هو أستاذنا في هذا العلم، ثم أتبعه بما عرفه العلماء في عصرنا لترى الرياض الزاهرة والجمال الفتان في السماء لتعرف معنى هذه الآية، وهذه صورة المجرة:



(شكل ٣)

هذه هي الروضة الكوكبية التي شمسنا شجرة من أشجارها، وأرضنا غصن من أغصان تلك الشجرة، ومصر ورقة من أوراق ذلك الغصن، والقاهرة ذرة من ذرات الورق، وسكانها وأنا منهم نعيش حول تلك الذرة الصغيرة، ونحن إلى الله ذاهبون. وكما أن القاهرة بلدة مما لا عدّ له من البلدان في الأرض هكذا المجرة ما هي إلاّ روضة واحدة من رياض لا حصر لها في هذا الجو الفسيح وقد قسموا تلك الرياض البهجة في السماء إلى ثلاثة أقسام:

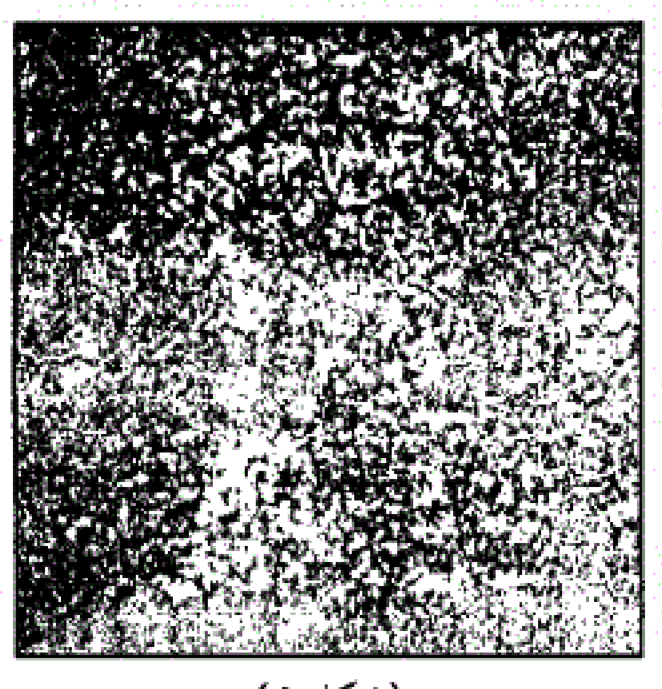
قسم منها يسمونها «القنوان» التي يمكن تحليلها بالنظارات إلى جملة نجوم وتسمى مجموعاته كوكبية.

والقسم الثاني يسمونها «القنوان» التي يمكن تحليل جزء منها إلى نجوم بالنظارات.

والقسم الثالث يسمونه «سدام» لا يمكن أقوى النظارات تحليله.

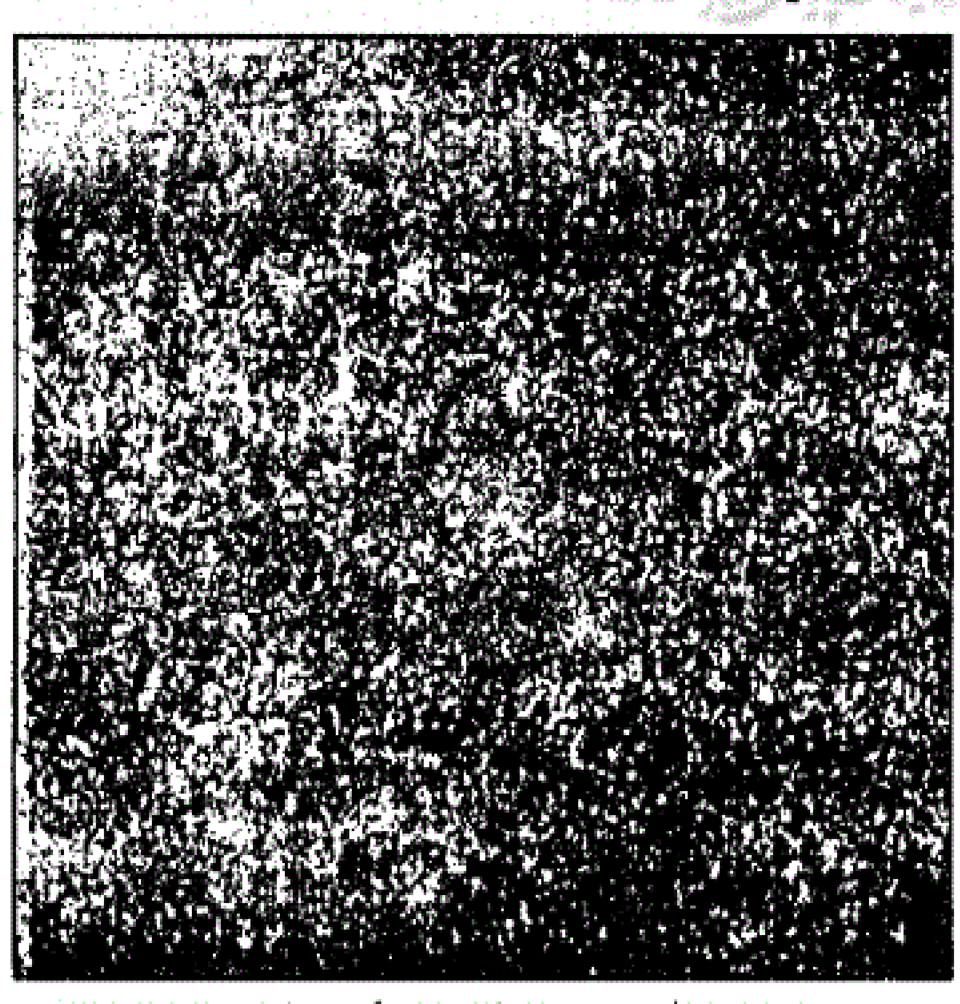
هذه هي الأقسام الثلاثة التي اصطلح عليها العلماء، والقنوان: جمع قنو، فكأن النجوم في هذين القسمين قنو النخلة أو عنقود العنب، ومن القسم الأول جملة الثريا الموضوعة في صورة الثور، وهي مركبة من ٨٠ نجمة تقريباً؛ ستة منها ترى بالعين المجردة، والسدام: جمع سديم، وهو في اللغة السحاب الرقيق، وفي اصطلاح الفلكيين سحابة أو ضباب أو قطعة نيرة سحابية لا تحلل إلى نجوم مفردة بالنظارات القوية.

القسم الأول: المجموعات الكوكبية


(شكل ٤)

تظهر المجموعات الكوكبية بشكل مستدير غالباً، حتى يظن في مبدأ الأمر أنها من ذوات الأذناب، ولكن عدم تغير شكلها وعدم تحركها يميزانها عن ذوات الأذناب، والنجوم المتكونة منها المجموعات الكوكبية تظهر في جهة المركز أكثر عدداً مما في الأطراف، وقد حسب المعلم «هرشل» أن بعض هذه المجموعات التي شكلها كروي لا تشتمل على أقل من ٥٠٠٠ نجمة منضمة إلى بعضها في سنة قطرها الظاهري لا يزيد عن عشر قطر القمر، وأشهر هذه المجموعات قنو توكان، وهي في السماء الجنوبي، وترى دائماً بالعين العارية (شكل ٤)، والجزء المركزي منها ذو لون أحمر برتقالي فاتح. ومثل هذا القنو ما هو مبين في شكل ٥.

القسم الثاني: السدام التي يمكن تحليل بعضها


(رسم قنو توكان ـ شكل ٥)

السدام التي ينحل جزء منها تظهر في الغالب على شكل منتظم قليلاً أو كثيراً، ولا شك أن هذه المجموعات هي من المجموعات الكوكبية، غير أنها موضوعة بعيداً جداً أو أنها مركبة من نجوم صغيرة جداً يمكن تحليل بعضها بالنظارات وبعض السدام ذات الشكل المنتظم مستدير وبعضها بيضاوي وبعضها ناقص متطاول جداً يقرب من المستقيم (شكل ٧)، وبعض السدام البيضاوية حلقي كما يرى في (شكل ٨)، وأحياناً ترى نجوم على نفس الحلقة.

ومن ضمن السحابات المنتظمة ما شكله مخروطي أو كشكل ذات الذنب، ويمكن أن يكون انتظام الشكل مترتباً على قوة الآلة، بحيث إن الانتظام لا يكون إلاّ ظاهرياً، فعلى رأي «هرشل» تظهر سحابة كلب الصيد مثلاً على شكل حلقة مضاعفة في نصف دائرها وفي وسط الحلقة توجد سحابة لامعة جداً، وخارجاً عن الحلقة على بعد منها توجد سحابة صغيرة مستديرة.

(١) من الميزان

(٢) من الجاثي على ركبتيه

(٣) من الجدي

(٤) من الدلو

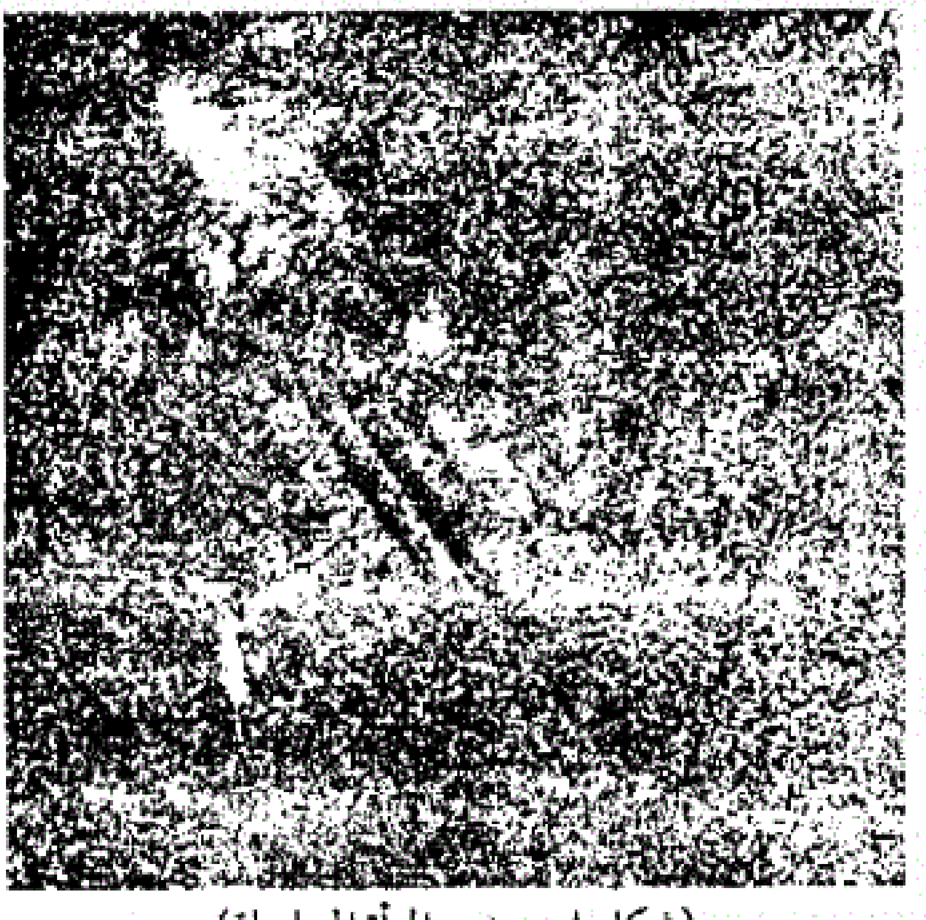
(٥) من الحية

(٦) من الجوزاء

(شكل ٦)

(شكل ٧)

القسم الثالث: السدام الغير المحلولة ذات الشكل غير المنتظم



(شكل ٨ ـ سديم المرأة المسلسلة)

توجد سدام لا يمكن أقوى الآلات حلها، وهي سدام الرتبة الثالثة، هذه السحابات تظهر عموماً بشكل غير منتظم، وذلك كسديم المرأة المسلسلة (شكل ٨) والسديم الحلقي الناقص للأسد (شكل ٩).

وهذا القسم الثالث وهو السدام، لم يعلم منه العلماء أيام تلقينا هذا العلم منذ أربعين سنة إلاّ خمسة آلاف فقط، فهذه ترى كأنها سحاب أو ضباب، ولكنها ليست واضحة وضوح المجرة.

أما الآن فهاك ما قاله الدكتور «هيل» يقول: إنه رأى في ألواح التصوير المتصلة بالتلسكوب الأكبر الذي قطر مرآته نحو ١٠٠ بوصة نحو ألفي ألف، أي مليوني سديم يبلغ بعدها عنا ١٤٠ مليون سنة.



(شكل ٩ ـ سديم الأسد)

ومعلوم أن شمسنا يصل ضوؤها لنا في ٨ دقائق و١٨ ثانية وهذه المسافة قطعها القطر في نحو ٣٦٥ سنة وقلة المدفع في نحو ١٢ سنة، فانظر كيف يكون بعد تلك السدم التي لا تبعد بأقل من مائة وأربعين مليون سنة. فتعجب.

وهذه السدم منتشرة في أنحاء شاسعة جداً، يبلغ البعد بين الواحد والآخر منها ٠٠٠, ١٨٠٠ سنة نورية، وفي كل سديم منها مادة تكفي لتكوين مليون شمس مثل شمسنا، ومعلوم أن شمسنا نجم من نجوم المجرة كما تقدم، والمجرة نفسها سديم من السدام. فانظر أيها الذكي وتعجب.

هذه هي الرياض الواسعة، هذه هي جنات العلم والحكمة، أرضنا صغيرة وحدائقها وبلدانها وبحارها حقيرة، وشمسنا صغيرة ومجرتنا إحدى المجرات، والمجرات بلغ المعلوم منها اليوم نحو ألفي ألف.

يا سبحان الله ويا سعداه، نحن محبوسون في الأرض هذه الأرض الصغيرة، أما أنا فلا أرى فرقاً بين المسجونين في السجون وبيننا نحن على الأرض، فالمسجون يستروح بالأخبار عن أحوال أمته وأحوال حكومته، ويتشوّق لذلك وهو في حجرة ضيقة والناس في الخارج أحرار، هكذا نحن في هذه المجرة الضيقة عشنا محكوماً علينا بالبقاء في الأرض إلى الموت، وقد حرمنا من الصعود إلى السماء لنبتهج بتلك الشموس وأنوارها وسكانها وعجائبها ونفرح لأخبارها، وهذا قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾[الرحمن: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾[الأعراف: ٤٠].

لا جرم أن الجنة ليست تحتنا بل فوقنا، إذن هي في السماء. راجع ما نقلنا من الأحاديث وأقوال العلماء في سورة «آل عمران».

أفلست ترى معي أن مثل هذا هو المقصود من قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾[ق: ٦]، أفليس هذا هو النظر في السماء؟ نرقب في الليالي الصافية أديم السماء فنرى قبة زرقاء جميلة المحيا بها مجموعات كأنها ضباب، وهذه المجموعات تبدو ضئيلة، ثم بحث العلماء عنها فوجدوها نحو مليونين، سبحان الله إن البعد شاسع بين العالم والجاهل الجاهل لا يرى في السماء شيئاً والعالم يراها موطن الكرامة والحكمة والمخلوقات العظيمة.

هذا هو ما تشير له الآيات التي نحن بصدد الكلام عليها، فبعد أن ذكر الله ضوء الشمس ونور القمر والحساب واختلاف الليل والنهار، قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا ﴾[يونس: ٧] الخ. فهاهو ذا سبحانه ذكر الاطمئنان بالحياة الدنيا والغفلة عن آيات الله وعدم الرجاء في لقاء الله واستحقاق جهنم، كل ذلك بعد ذكر جمال السماء وكواكبها، فعلوم السماء فتح لأبواب الجنة، والغفلة عنها فتح لأبواب جهنم، لأن الإنسان لا يشتاق إلى حياة أعلى إلاّ إذا علمها إما باتباع الوحي وإما به مع الدراسة العلمية كما أوضحناه غير مرة في هذا التفسير.

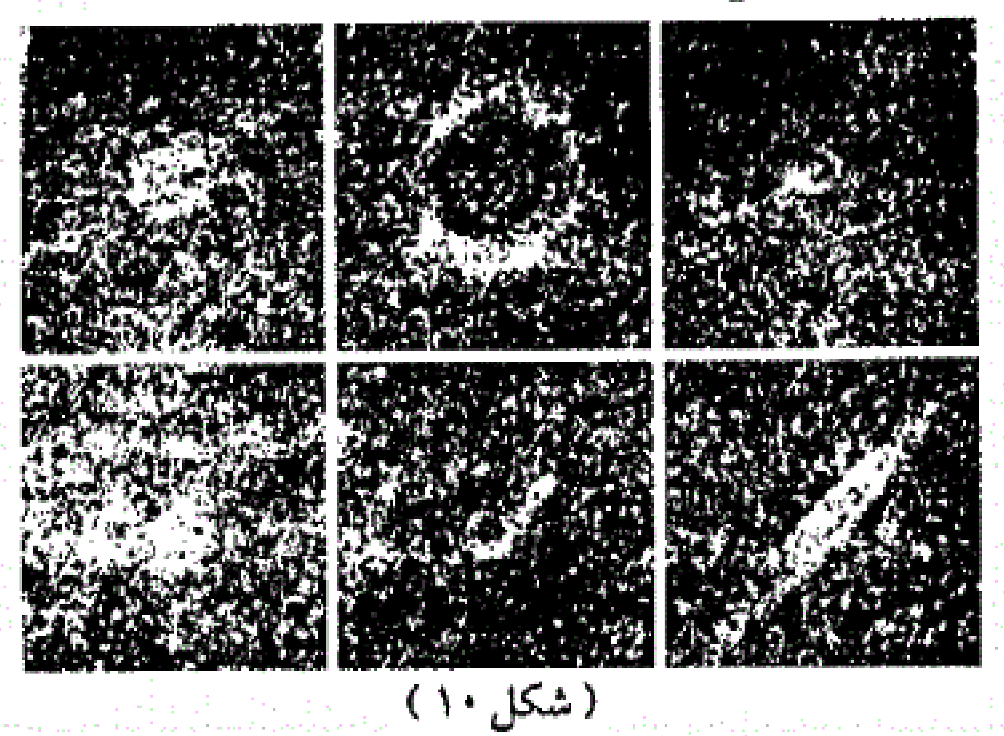
جوهرة في إشراق نور العلم في القلوب بإشراق نور الكواكب

هاأنت ذا أيها الذكي رأيت صورة المجرة وصوراً لعلوم أخرى غير المجرة، ورأيت أن عالم المجرة والعوالم التي تشابهها تزيد على مليونين، ورأيت كلام العلماء في أبعادها التي بعدت جداً، ومعلوم أن كل ذلك تقريب، فهاك الآن ما وصل له نوع الإنسان من العلم فيما رأيته فاقرأه وانتظر غيره، واقرأ علوم الأمم حولنا بعد أن تفقه ما ذكرناه.

انظر إلى المجرّة التي رسمت هنا في صورة (٣) ارجع البصر كرتين لها تجد أنها هي التي فيها كواكب كثيرة منها شمسنا، إن المسافة التي يقاس بها البعد بيننا وبين الشمس التي هي كوكب من كواكب هذه المجرّة نحو ٨ دقائق و١٨ ثانية كما تقدم بسير النور، وقد عرفته بسير قلة المدفع وسير القطار في الأرض فلا نعيده، نحن لا نقيس بعد هذه المجرة إلّا تدريجاً، إذا عرفت بعد الشمس منها فإن بعد أقرب كوكب من كواكب هذه المجرّة وهو ألفا قنطورس، يبلغ بسير النور ثلاثمائة ألف ضعف بعد الأرض عن الشمس، أي ثلاث سنين ونصف سنة نورية.

فيا ليت شعري ماذا يكون ذلك البعد بالقطار أو بقلة المدفع ؟ مع العلم بأن النور يسير في الثانية ما يسيره القطار في نحو ٤٥ سنة ، وما تقطعه قلة المدفع في سنة ونصف ، ولننظر نظرة عامة فنقول :

يقول علماء عصرنا لنتخذ الشمس مركزاً ولنرسم حولها كرة قطرها ألفا سنة نورية ، فهذه الكرة تشمل جميع الكواكب التي نراها بالعين المجردة ، وإذا أوسعنا هذه الكرة حتى يصير قطرها خمساً وعشرين ألف سنة نورية شملت جميع الكواكب التي في نظام المجرة التي هي مرسومة أمامك .



(شكل ١٠)

صفة المجرة : هي تشبه حبة العدس قطرها ٥٠ ألف سنة نورية ، والمسافة التي بين وجهيها عند مركزها عشرة آلاف سنة نورية ، وخارج هذه المجرة عالمان آخران في غيوم « مجلان » يبعدان نحو ٢٠٠ ألف سنة نورية ، وهناك كون آخر يبعد ٧٠٠ ألف سنة نورية ، ثم على مليون سنة نورية تجد السديمين الكوكبين في المرأة المسلسلة وكوكبة المثلث وكل منهما طوله الأطول نحو ٥٠ ألف سنة نورية وهو طول قطر المجرة .

ولكن هذه المجرة وأبعادها الشاسعة عالم صغير جداً من العوالم ، فماذا بعدها ؟ الجواب : هناك مجاميع من النجوم ، وقد رأيت بعضها مرسوماً أمامك في هذه الصفحات ، وكل مجموعة منها فيها نجوم كنجوم المجرة ، وكلها منثورة في الفضاء كأنها بساتين زرعها الله في الفضاء المتسع ، أو كأنها جزائر في البحر ، فجزائرنا الأرضية في البحار المائية ، وهذه جزائر في البحار الأثيرية التي تظهر لنا كأنها فضاء ، ويقولون في عصرنا الحاضر : إنها الأكوان الجزرية .

ولأذكر لك على سبيل المثال سديم المرأة المسلسلة المتقدم ، وجده العلماء يبعد عنا مليون سنة نورية وقطره خمسون ألف سنة نورية وفيه ألوف الملايين من النجوم أكثرها لا تمكن رؤيته ، والكواكب التي نراها فيه تزيد ألوف الأضعاف على شمسنا من حيث النور واللمعان بدليل أننا لو أقصينا الشمس عنا مسافة مليون سنة نورية لم يمكن رسمها بالمصور الشمسي ، أما هذه النجوم التي تبعد عنا هذا البعد الشاسع فإنها ترسم ، فإذا كانت شمسنا بالنسبة للكواكب التي عرفت صغيرة جداً ، وضوؤها ضئيل ، وإذا كانت المجرة فيها مئات الملايين من الشموس وكانت المجرات الأخرى فيها كواكب مثلها أو أكثر ، وهي أضوأ ثم أضوأ ثم أضوأ ، أفليس هذا معناه أننا صغر في هذا الوجود ؟ وإذا قال الشاعر :

إذا ذلّ مولى المرء فهو ذليل

فهكذا نقول إذا صغر أهل الأرض بجانب الأرض وبحارها وجبالها ، وإذا صغرت الأرض بجانب الشمس ، وإذا صغرت الشمس بجانب مئات الملايين من كواكب المجرة ، وإذا صغرت المجرة بجانب

ما يقرب من عدد مليونين من المجرات، فما نحن في هذا العالم إلاّ صغر، وبهذا نفهم قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، فعلمنا قليل كقلة أرضنا بالنسبة لشمسنا، وشمسنا بالنسبة لمجرتنا، ومجرتنا بالنسبة للمجرات، وقد يئس الناس أن يعرفوا لهذه العوالم نهاية.

وسيعرف المسلمون من ذلك معنى قوله تعالى: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٨]، وقوله: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ [المدثر: ٣١]. اهـ.

إذا عرفت هذا فهمت تفسير هذه الآيات، فإذا سمعت الله يقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [يونس: ٥]، وختمها بأنه فصل ذلك لقوم يعلمون، أدركت ما قدمناه من أن البساتين العامة للعموم، أما السماوات فهي للعلماء بها وهم الخواص، وإذا سمعت قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [يونس: ٧] ثم وصفهم بالاطمئنان بها والغفلة أدركت ما قدمناه من الحياة المنزلية وشقائها الذي لا مندوحة عنه، وهو عين ما جاء في قوله تعالى عند ذكر الأولاد والأموال أنهما للعذاب في الدنيا.

ثم لخص المقام كله بقوله: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ﴾ [يونس: ١٠] الخ، وبيانه أن الإنسان في الأرض أشبه مسجوناً أبعد عن ملكه كما تقدم، فهذا المسجون له أربع أحوال: حال السجن، وحال الخروج مع عدم الأمن من السجن، ثم حال الأمن من السجن، ثم أن يعطى له ملكه. فهذه الدرجات الأربع تحصل لنا، فنحن الآن في سجن تكاليف الحياة والشهوات، وإذا خرجنا منها ربما وقعنا في شقاء آخر وهو المعبر عنه بجهنم، فإذا سلمنا منها فهو نعمة، فإذا أعطينا الكمال اللائق لنا فهذا غاية المراد، فقوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ تنزيه لله عن الحوادث ملحوظ فيه تشبه العبد به في الخلوص من العلائق الدنيوية وهو المرتبة الثانية المتقدمة، وقوله: ﴿ سَلَٰمٌ ﴾ هو المرتبة الثالثة، والرابعة كمال العلم بهذا الوجود الذي هو جنة العارفين في الدنيا وفي الآخرة، الذي لا يحقق الحمد إلاّ به، إذ لا معنى للحمد على تربية العالمين إلاّ بعد العلم بها، ومن العالمين هذه الكواكب والشمس والقمر المضيئات المذكورات في الآيات التي يتمتع بها الخواص في الدنيا والآخرة، والله يعلم أن العامة محرومون من هذا الجمال، فألهم رجال الحدائق فزرعوا لهم من تلك البساتين بعض روضات منظمة على أشكال بيضاوية، أي: إهليلجية، وهي المسماة بالقطع الناقص التي تشبه دوائر الكواكب في السماوات كدائرة الأرض حول الشمس، فإنها ليست دوائر تامة، والشمس تكون في إحدى بؤرتيها صيفاً وشتاءً كما أوضحته في غير هذا المقام في التفسير، فبساتين العامة في بعضها ذلك الشكل كأنه يذكر العوام بدوائر الكواكب التي لا يعقلها ليلاً إلاّ الخاصة.

تذكرة

أيها الذكي سيقرأ هذا التفسير إن شاء الله شبان من المسلمين في حياتنا وبعد موتنا، وسيهرعون إلى بناء المراصد في الممالك الإسلامية في بلاد المغرب ومصر والشام والعراق وبلاد جاوة والملايو وسائر بلاد الهند الشرقية، وسيكون هذا القول من أوكد الأسباب لارتقائهم في علوم النجوم وسائر علوم الحكمة، لا سيما إذا قرؤوا ما سيأتي في تفسير قوله تعالى في سورة «إبراهيم الآية: ٥»: ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾، كيف كان موسى يذكر قومه بأيام الله، وكيف ذكر نبينا صلى الله عليه وسلم قومه بأيام

الله ، وكيف ذكرت أنا الأمم الإسلامية بأيام الله ، وكيف يتجلى لك هناك ما برع فيه آباؤنا الأولون من العلوم في الفلك وغيره ، وكيف شهد لهم العلامة « سديو » الفرنسي بأنهم سادات أوروبا وأساتذتها في العلوم ، وأنهم هم الذين أصلحوا علم اليونان كما وضحه هو إيضاحاً تاماً ، ونقلت أنا هناك بعضه ، ثم كيف كان بعض ملوك الدولة العباسية يحاربون ملك الروم لأجل بخله عليهم بعالم يسمى « ليون » من شدة ولوعهم بالعلم ، وكيف غير الله عقولهم في أواخر الدولة فطاردوا العلماء كما فعل الملك يعقوب في الأندلس بابن رشد ، وكيف ذلّ المسلمون شرقاً وغرباً بعد نبذهم العلماء ، وكيف كان الجهل سبب خراب بغداد ومصر وبلاد الأندلس ، وتفصيل ذلك كله مع الإيجاز ، ستقرأ هذا التفصيل هناك وتقرأ ما نبغت به بعد ذلك أوروبا لما أخذت علوم ابن رشد وكشفت من العلم ما انتفعنا به ، وأصبحنا عالة عليهم في علمهم وصناعاتهم ، سيقرأ هذا وذاك أبناؤنا المسلمون والشرقيون ، وسيطيرون للعلم سراعاً ويرجعون مجداً ضاع ، وعزاً ذهب ، والله هو الولي الحميد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

فصل في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْـلِ وَٱلنَّهَـارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾

اعلم أن اختلاف الليل والنهار قد فصلته تفصيلاً في سورة « البقرة » ، وأما الكلام على ما خلق الله في السماوات والأرض فهأنا ذا أزيدك بياناً فوق ما مضى منه في هذا الكتاب ، لينشرح صدرك ولتكون رياضة بعد العناء في حساب السنين وأذكر لك لطائف :

اللطيفة الأولى : النبات المفترس

إن الحيوان المفترس يسطو على الغزلان والأرانب والمعز والغنم وما أشبهها ، وهكذا كل حيوان يسطو على النبات فيأكله ليتغذى به ، والأكثر فيه أن يكون غير مفترس ، وماذا تقول إذا قصصت اليوم عليك نباتاً مفترساً .

ذلك أن العلامة « آليس » الإنجليزي قد كشف نباتاً في أمريكا الشمالية ، له ورق كأنه مصيدة الفأر ، وللورق مفاصل كمفاصل اليدين والرجلين في الإنسان والحيوان ، وعلى ظاهرها زغب يقوم مقام الأعصاب في ظهر الإنسان ، ثم هناك شوك يحيط بها من كل جانب ، فإذا جاءت حشرة صغيرة على الورقة أحسّ الزغب بها حالاً ، فتنبهت الورقة فتنطبق عليها ولا تدعها تفلت ، وتفرز مادة عليها كما نفرز نحن عصارة البنكرياس في المعدة ، والريق في الفم على طعامنا ، وكما تفرز الحية المادة السمية فتهضم طعامها بلا أسنان ولا معدة ، وحينئذ تمتص الورقة تلك الغنيمة ، وقد اقتصت لأنواع النبات من عدوها الحيوان وهي تقول :

فيوم لنا ويوم علينا ويوماً نساء ويوماً نسرّ

وتقرأ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

اللطيفة الثانية

نبات مائي يسمى عند النباتيين بـ« فاليستيرياسبيراليس » ، وهو ينبت في مجاري الأنهار ، ولقد علمت في هذا الكتاب أن لكل نبات ذكراً وأنثى ، وقد يكون الذكر في زهرة والأنثى في زهرة أخرى من الشجرة الواحدة كنبات القرع ، وقد يكون الذكر والأنثى في زهرة واحدة كالقمح ، وقد يكون كل منهما

في شجرة كما في النخل، ومن النوع الأول هذا النبات المائي الذي نحن بصدد الكلام عليه، فإن للزهرة الأنثى منه ساقاً لولبياً طويلاً، وهذا الساق يحمل الزهرة ويعوم بها فوق الماء مرقصاً لها في الهواء، أما الزهرة التي فيها لقح التذكير فإنها ليست تعوم بل هي قريبة من المنبت تحت الماء، فإذا جاء الأجل وحلّ أوان الثمر فماذا يحصل؟ أتنزل الزهرة الأنثى حتى تصل في الماء إلى زهرة الذكور، أم يطول ساق الذكر حالاً فيصل إلى أعلى فيحصل الإلقاح؟ كلا، لا هذا ولا ذاك، وإنَّما تنفصل زهرة التذكير وتصعد فوق الماء حتى تجتمع بالأنثى وهي منفصلة، ومتى حصل الإلقاح ينقبض لولب الأنثى حتى تصير في قاع مجرى النهر عند ساق النبات في أسفلها، وهناك يتم البزر، فتعجب وزد علماً واقرأ: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾[يونس: ٦].

اللطيفة الثالثة: شجرة تفترس إنساناً

جاء في بعض المجلات المصرية العصرية أن في بعض الجزائر شجرة يقدّسها أهل تلك الجزيرة ويعبدونها، ويقدمون لها في كل سنة فتاة يختارونها لذلك، فيحضرون ومعهم آلات الطرب من طبل وغيره، ويضعون هذه البنت في أعلى الشجرة في مقعد هنالك فيه مادة حلوة لذيذة من نفس الشجرة، تشرب منها الفتاة فتسكر وتغيب حواسها، فلا تلبث تلك الشجرة أن تجتمع أوراقها وأغصانها وأشواكها النافذة، وقضبانها الملتوية التي تشبه الحبال، فتنضم جميعها على الفتاة، والأوراق تكتم أنفاسها، والحبال تلتف حولها، والشوك ينفذ في باطنها من أعلى ومن أسفل، وتأخذ الشجرة إذ ذاك تمضغ الفتاة وتهضمها، وهي لا تقدر على النجاة، والقوم يدقون الطبول فرحاً بهذا العيد الديني، وفي الحال لا يسمعون تأوّه الفتاة وأنينها وعويلها وصراخها، ثم ينصرفون بعد ألا يبقى لها إلاَّ ما تلفظه الشجرة من عظام لا لحم عليها ولا عرقاً وهكذا.

وذلك أيضاً من انتقام النبات من الحيوان جزاء ما يفعل الحيوان في النبات ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[القصص: ٦٨].

اللطيفة الرابعة
كيف تظهر صور المخلوقات في فصول السنة الأربعة
فصل الربيع

انظر للدنيا في فصل الربيع «من إخوان الصفا»، فإذا نزلت الشمس أول دقيقة من برج الحمل استوى الليل والنهار، واعتدل الزمان، وانصرف الشتاء، ودخل الربيع، وطاب الهواء، وهبّ النسيم، وذابت الثلوج، وسالت الأودية، ومدّت الأنهار، ونبعت العيون، ونبت العشب، وطال الزرع، ونما الحشيش وتلألأ الزرع، وأورق الشجر، وتفتح النور، واخضرّ وجه الأرض وأخرجت زخرفها وازينت وفرح الناس واستبشروا وصارت الدنيا كأنها صبية شابة تزينت وتجلت للناظرين.

فصل الصيف

إذا بلغت الشمس آخر الجوزاء وأول السرطان، تناهى طول النهار، وقصر الليل، وأخذ النهار في النقصان، وانصرف الربيع، ودخل الصيف، واشتد الحر، وحمي الهواء، وهبت السموم، ونقصت المياه، ويبس العشب، واستحكم الحب، وأدرك الحصاد، ونضجت الأثمار، وسمنت البهائم، واشتدت

قوة الأبدان، وأخصبت الأرض، وكثر الريف، ودرّت أخلاف النعم، وبطر الإنسان، وصارت الدنيا كأنها عروس منعمة رعناء ذات جمال.

فصل الخريف

إذا بلغت الشمس آخر السنبلة وأول الميزان استوى الليل والنهار مرة أخرى، وأخذ الليل في الزيادة، وانصرف الصيف، ودخل الخريف، وبرد الهواء، وهبت ريح الشمال، وتغير الزمان، وجفت الأنهار، وغارت العيون، واصفرّ ورق الأشجار، وصرمت الثمار، وديست البيادر، وأحرز الحب، وفني العشب، واغبرّ وجه الأرض، وهزلت البهائم، وماتت الهوامّ، وانجحرت الحشرات، وانصرف الطير والوحوش إلى البلدان الدفية، وأخذ الناس يحرزون القوت للشتاء، وصارت الدنيا كأنها كهلة مدبرة قد تولت عنها أيام الشباب.

فصل الشتاء

إذا بلغت الشمس آخر القوس وأول الجدي، تناهى طول الليل وقصر النهار، وأخذ النهار في الزيادة، وانصرف الخريف، ودخل الشتاء، واشتد البرد، وخشن الهواء، وتساقط ورق الشجر، ومات أكثر النبات، وانجحرت هوامّ الحيوانات في بطن الأرض، وضعفت قوى الأبدان، وعري وجه الأرض من زينته، ونشأت الغيوم، وكثرت الأنداء، وأظلم الهواء، وصارت الدنيا كأنها عجوز هرمة مدبرة قد دنا منها الموت، فإذا بلغت الشمس آخر الحوت وأول الحمل، عاد الزمان كما في العام الأول، وهذا دأبه ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[الأنعام: ٩٦]. اهـ.

هذه صورة ما خلق الله من شيء في فصول السنة الأربعة، وقد قال: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾[الملك: ٣]، أي: تناقض ولا اختلال. وهاأنت ذا قد شاهدت أن هذه الرواية تمثل كل سنة تمثيلاً متواصلاً لا اختلاف في فصول الروايات من حيث العموم، وإنّما تختلف في أحوال ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون: ١٤].

فصل في قوله تعالى:
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ الخ

لا بد في ذكر المناسبة بين هذه وما قبلها من بيان مقدمة في جبلة الناس وغرائزهم وما فطروا عليه. اعلم أن الناس في هذه الدنيا مولعون بما خلقوا له، مغرمون بما استعدوا له لا يرجون سواه، ولا يحبون إلاّ الوصول إليه.

(١) فالفتاة في المدرسة مغرمة بالعرائس تلبسها وتلعب بها.

(٢) والصبيان فيها لا يهنأ لهم إلاّ حب السلاح وآلات الحرب غالباً والمغالبة في اللعب. ذلك أن الفتاة خلقت للولادة والتربية، والفتى سيكون من شأنه مدافعة الأعداء عن البلاد.

(٣) ونرى قوماً يميلون بحسب ما طبعوا عليه إلى التجارة.

(٤) وقوماً للزراعة. (٥) وقوماً للإمارة

(٦) وقوماً للملك. (٧) وقوماً للعلم.

(٨) وكل هؤلاء مختلفون اختلافاً كثيراً.

وقد ظهر بالاستقراء أن من طلب شيئاً وهام به ناله كله أو بعضه على مقتضى حاله ، وليس يكون الإنسان مغرماً إلاّ بما شاكله وقد يناله ، فهل تغرم الفتاة بآلات الحرب والقتال ؟ أم المستعد للإمارة بصناعة البدال؟ففي الحديث : « كلّ ميسّر لما خلق له »، فليست ترجو الفتاة سلاح الحرب غالباً ، وليس يحب الفتى أن يكون مرضعاً وظئراً للأطفال وهكذا . وإذن أصبح الناس بالنسبة إلى الأشياء على قسمين : قسم مستعد للشيء يرجوه ، وقسم ليس بمستعد له ليس يرجوه ، فالحداد مثلاً عادة لا يستعدّ للحكمة والفلسفة فهو لا يرجوها ، ومن خلق مستعداً لها يرجوها فينالها الثاني ويحرم منها الأول .

فلننظر إذن نظرة في هذه الآيات نجد وصف السماوات والكواكب وسير الشمس والقمر ، وهذا من نوع الجمال العالي ، وفي نوع الإنسان عشاق لهذا الجمال ، وفيه من لا يعشقون ، بل هم مكتفون بالمأكل والمشرب والتناسل كالدواب والأنعام ، والمغالبة كالآساد ، فعشاق هذا الجمال يعكفون على الحساب والهندسة والجبر والفلك وحساب المثلثات ، ويهرعون إلى المراصد فينظرون النجوم ويتأملون أشكالها وجمالها وحركاتها ، ويدققون ويحسبون وهم بذلك فرحون مستبشرون ، فهؤلاء يتمنون لو يساعدهم المقدور ويسيحون في عوالم السماء حتى يقفوا على كنه تلك العوالم ويعرفوا جمال الصنعة الإلهية ، وكلما ازدادوا علماً ازدادوا سروراً وبهجة بتلك العجائب والبدائع . فالنظر للعوالم العلوية يبهج الصدور ويجعل الإنسان مغرماً بالاطلاع على جميع العوالم ، أقول فهل هذا الغرام خلق في بعض هذا الإنسان باطلاً ، كيف وقد خلقت الفتاة ومعها غريزة تربية الصغار في اللعبة وهي طفلة ، وكذلك الفتى يغرم بالسلاح الذي هو من جنس ما يكون في مستقبله ، وهكذا أرباب الصناعات والحرف كل يميل إلى ما خلق له ، كما كانت أمة اليونان في قديم الزمان تدخل الصبيان في الهياكل ، وقد وضعوا فيها صور جميع الحرف ، ويسألون الصبي عما يميل إليه ، فيجيبهم فيحكمون عليه بأنه من أهل هذه الحرف وقد خلق لها .

فإذا كان الاستقراء أثبت هذه القاعدة فلنقس الغائب على المشاهد ولنقل : إن من أغرم بهذه العجائب سيكون له مستقبل في الوصول إليها ، وإن العالم الأخروي ، أي : ما نراه بعد الموت قد أعد لكل امرئ فيه ما استعد له في الدنيا ، فأهل الغرام بالجمال في صور هذا العالم من حيث الحكمة ودقة الصنع وإدراك المحاسن سينقلون هناك على تلك الحال ، وينالون حظاً مما أغرموا به ، وعشق هذه الأفلاك عشق لخالقها ومنظمها ومبدعها ، فهذه غرائز أو شبه غرائز في النفوس ، فلا بد من الوصول إلى ما استعدت له ، وهذا هو بيت القصيد ، ولذلك قسمت الآية هنا الناس ـ بعد الكلام على عجائب الأفلاك والطبيعة ـ قسمين : قسم لا يرجو لقاء الله ورضي بالحياة الدنيا واطمأن بها وغفل عن هذا الجمال ، وقسم في جنات النعيم ، ولهم ثلاث درجات في تلك الجنة :

أولاً : ينعتون الله بنعوت الجلال وهي صفات التنزيه وهم منغمسون في لذات الجنة ونعيمها ، ثم يرون بفكرهم أن خالق الجنة أكبر من هذا كله وأعظم ، فيسبحونه ، أي : ينزهونه عما هم فيه من النعيم .

ثانياً : تبتدئ أيام سعادتهم فيحيي الله بعضهم بعضاً بالسلام ، وهو الأمان من المخاوف فيقولون لبعضهم إن هذه اللذات في الجنة لا يعتريها نقص ولا فقر ولا همّ ولا غمّ ، فهذا هو السلام الذي يدور بينهم وبين بعضهم ، وهذا من أعظم السعادات ، إذ يرى الإنسان نعيمه لا نقص فيه ، وقد فهموه من

أنفسهم، ثم يترقون من هذه المرتبة الإنسانية فيسمعون سلام الملائكة كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤]، وهذا سلام أعلى، ويحسون إذ ذاك بسعادة أجمل من الأولى، لأن سلام الملائكة من عالم منزه عن المادة، فيكون أجمل وألطف وهذا يعدّهم لسماع السلام من الحق، فإذا سمعوه خروا ساجدين ونسوا نعيم الجنة، وحقر في أعينهم كما يصغر طعام الملك عند من حظي بمجالسته ومؤانسته.

وإذن يكون غذاؤهم في ذلك الجمال الأبهى وفي عجائب القدرة، وهذه هي المرتبة الثالثة مرتبة الحكماء والعلماء والأنبياء الذين مارسوا هذا الجمال في هذه الحياة الدنيا، فيقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] وذلك أنهم يطلعون على تربية العوالم المحسوسة والمعقولة، وهناك تكون السعادة الروحية التي يحسّ الناس بعضها في أوقات قليلة، بل إن كثيراً من الناس قد أولعوا بالعلم حتى نسوا كل شيء، فما بالك إذا كان ذلك في تلك الساحات البديعة والمقامات الشريفة، وإن أردت شاهداً على ذلك من العالم الأخروي ولم تكتف بالاستنتاج.

فاسمع ما قالته روح «غاليلو» الفيلسوف الفلكي حين أحضروها ليستطلعوا رأيها في أحوالنا بعد الموت، فأملت عليهم مقالاً مصداقاً لهذه الآية، فلقد أوضح هذا المقال أيّما إيضاح، وكشف عن هذه الحقيقة اللثام، وجاءنا من عالم الغيب يخبرنا أنه منعم بالتفرج على عجائب الفلك وأنواع النجوم بحيث يراها بأنفسها وأقدارها وأشكالها، وأنه شاهد عوالم أرقى نفوساً وعقولاً وأخلاقاً ومدنية، ولهم أعمال غير أعمالنا، وعقول غير عقولنا، وأنه هو يطوف في تلك الأرجاء ويبتهج بمرآها وأفاد أن الكواكب هناك مع عظم قدرها تتفرج عليها الأرواح الفاضلة كما نتفرج نحن على الزهر في الشجر، وبيّن أن أرضنا هذه ستزول من الوجود، وأما أرواحنا فإنها تبقى ثم ترتقي في عوالم أخرى عند الله، وتكلم عن المجرة وكيف يطلع هو اليوم على الملايين من النجوم فيها، ثم ينتقل إلى مجرة أخرى، وهكذا في العوالم الشاسعة العجيبة، وهذا القول من روح «غاليلو» هو ما يقوله علماؤنا: «إن جنة العارفين هي العلوم والمعارف ولا نهاية لها، أما جنة المغفلين فهي المآكل والمشارب».

وأنا لا أطيل لك أكثر من هذا، وإن أردت الاطلاع على هذا المقال المفيد الطويل، فاقرأه في تفسير سورة «آل عمران» المتقدم في المجلد الثاني. ولعلك تقول: كيف يقول «غاليلو» ذلك وهو كافر بالله؟ أقول: هذا القول لم أجزم به، وإنّما نقلته ليعلم الملحدون من المسلمين أن عقيدة الآخرة موجودة بأوروبا التي هم يقدّسونها، فإذا كفروا بذلك فهم لا شرقيون ولا غربيون، لأن الإلحاد قد جعله بعض صغار العقول من المتعلمين صناعة يرتزقون بها، إذ يوهمون الناس أنهم علماء حتى كفروا بعلمهم، وهناك إجابات أخرى على هذا الاعتراض في تفسير «آل عمران» فارجع إليه هناك. انتهى تفسير القسم الأول من هذه السورة.

مناسبة هذه السورة لآخر التوبة

قبل الانتقال إلى القسم الثاني يحسن أن نذكر مناسبة هذه السورة لما قبلها بإيضاح، فنقول: لقد ذكرت في آخر سورة التوبة هذه المناسبة، وأريد الآن أن أذكر المناسبات المتشابهة من أول سور القرآن إلى هذه السورة غير ما ذكر لكل منها خاصاً به، إن الجزء الثاني من سورة «الفاتحة» يشتمل على طلب

الهداية إلى الصراط المستقيم، صراط المنعم عليهم، وأول « البقرة الآية : ٢ » يفيد أن هذا الكتاب ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وهم الذين عبر عنهم في « الفاتحة » بالمنعم عليهم، وآخر سورة « البقرة » جاء فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين آمنوا بالقرآن وبالملائكة والكتب والرسل بعد ذكر أن لله ما في السماوات وما في الأرض، وأنه سبحانه يعلم ما نخفيه وما نظهره، وهاهو ذا في أول « آل عمران » يذكر القرآن والتوراة والإنجيل، وكل ما يفرق بين الحق والباطل، وهذا راجع للأمر الثاني في « البقرة »، ويقول : لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو راجع للأول، أما آخر سورة « آل عمران » فهو طلب التقوى من المؤمنين ، وأول سورة النساء طلبها من سائر الناس، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم عام للأمم كلها، وقبيل آخر سورة « النساء الآية : ١٧٥ » : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾، وأتبعه بجواب استفتائهم في مسألة الكلالة، وأول سورة « المائدة » خطاب هؤلاء المؤمنين بأوامر بعد أن أجاب استفتاءهم، وآخر سورة « المائدة الآية : ١٢٠ » أن ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾، وأول سورة « الأنعام » بيان سبب كون الملك مختصاً به، ذلك لأنه خلقهم فهو يقول : له ملكهما، ثم يقول : هو خلقهما وخلق الظلمات والنور، وفي آخر سورة « الأنعام الآية : ١٥٩ » يتبرأ من ﴿ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾ ثم أتبعه بطريقة الهداية وبإخلاصه لله إيذاناً بأن الذين فرّقوا دينهم يخالفون هذا التسليم لله وهذه الهداية، وفي أول الأعراف أخذ ينذر من كفر ويذكر المؤمنين تبياناً لنتيجة تبرئته منهم، وفي أواخر « الأعراف الآية : ١٨٧ » يقول : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾ فأجابهم بأن علمها عند الله وأتبع ذلك بأنه لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، وأن الناس كلهم كذلك لأنهم في قبضته لأنه خالقهم، واستطرد بذم الأصنام والشيطان ويطلب الإصغاء للقرآن الخ. ثم أتبعه بقوله في أول « الأنفال » : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾، فكما سألوه عن الأنفال فكانت الإجابة عنها من الله، وآخر « الأنفال الآية :٧٢» ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ ﴾ إلى قوله : ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ وهكذا الذين بعدهم.

فملخص ذلك أن هنا صلة دينية عامة وصلة رحم خاصة، فلم يبق إلاّ ذكر الكفار بالبراءة منهم، أما آخر « براءة » فإنه يفيد :

(١) أن الرسول صلى الله عليه وسلم منهم.

(٢) يهتم بأمرهم.

(٣) وهم ربما يعرضون عنه.

(٤) وهو يتوكل على الله رب العرش العظيم.

وأول سورة « يونس » إنكار على الناس تعجبهم من إرسال رجل منهم إليهم، وهو راجع للأول، وكان حق التعجب أن يكون من إرسال ملك، لأن الموعظة إنما تكون ممن يشاكل لا من المخالف في الجنس، وقوله : ﴿ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ الخ راجع إلى الثاني وهو الاهتمام بأمرهم، وقوله : ﴿ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ راجع للثالث، وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ راجع إلى الرابع، فهو توكل عليه لأنه رب العرش العظيم في آخر « التوبة »، وهنا فصل ذلك بأن استواءه على العرش بعد خلقه السماوات والأرض، لأن الملك

إنَّما يدبر الملك بعد تأسيسه، فهاهنا المناسبة دقيقة ثابتة، إنَّما الذي يعوزه التفصيل أنه عبر هنا بقوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[التوبة: ١٢٩] ثم عبر بأنه خلق السماوات والأرض الخ، يقول صلى الله عليه وسلم: إن الله كافيه لأنه ملك متصرف في ملكه.

بيان الفارق بين توكل نبينا صلى الله عليه وسلم وتوكل هود في سورته الآتية

فأما هود فإنه يقول: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[هود: ٥٦]، فهود توكل على من بيده نواصي كل دابة، ومحمد صلى الله عليه وسلم توكل على من له العرش العظيم، وخلق السماوات والأرض، فكل منهما تذكر من صفات ربه ما دلّ على نزعة نفسه، فهود يريد السلامة له ولمن اتبعه لأنه عادل في عمله، فهو يحفظ كل نسمة ويكلؤها، ومحمد صلى الله عليه وسلم يفكر في أمر الملك العام والنظام، فهمته متجهة إلى النظام العام وهذا هو الذي يليق باتباعه.

أيها المسلمون، انظروا كيف كان اتجاه النبي صلى الله عليه وسلم واتجاهه إلى النظام والملك والعرش والإصلاح العام، فأعطي ذلك واتبعه أصحابه وأنتم منهم، فهلموا إلى الحكمة والعلم والنظر العام. أيها المسلمون، كأني أرى بعيني رأسي أقواماً منكم نبغوا في العلوم كلها وفاقوا الأمم، تلك الأمم التي لا تريد إلاّ أنفسها، ولا تحافظ إلاّ على كيانها، أما أنتم فإنكم الأعلون وأنتم تنظرون إلى نظام السماوات والأرض ونظام الأمم. كونوا على قدم نبيكم صلى الله عليه وسلم، ولا يتسنى لكم ذلك إلاّ بالفكرة التي ذكرها في التوكل عليه، فوجه وجهه شطر العرش العظيم، وفصل ذلك في «يونس» بأنه ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾.

إن أفضل صفة الإنسان أن يتشبه بالله بقدر طاقته البشرية، والله يدبر الأمر فليدبر المسلمون الأمور في الأرض تابعين في ذلك ربهم بعد درس نظامه ونظام الأمم، وليكونوا خير أمة أخرجت للناس. ومستحيل أن يتم ذلك لنا نحن في المستقبل إلاّ بالعلم والعمل الذي شرحناه في هذا التفسير.

المسلمون يتخللون القارات كلها، فإذا صلحوا أصلحوا كل الأمم. والإصلاح العام هو تآخي جميع الإنسانية الذي ورد في الأحاديث أنه الإصلاح العام المعنون عنه بنزول عيسى عليه السلام ولقد شرحته في هذا التفسير مراراً، وقلت في غير موضع: إنه لن يتم ذلك إلاّ بأخذ العدة له وتعميم التعليم في بلاد الإسلام الخ.

لم يكن الله ليجعل الإصلاح طفرة، فذلك ما لا نراه، فلم يخلق الطفل في لحظة، بل أبقاه في بطن أمه تسعة أشهر، ولم يجعله شيخاً إلاّ بعد مروره على أحوال شتّى. اللهم إن الإصلاح العام وتدبير الأمر في الأرض ونظام العرش الإنساني المناسب لعرشك العظيم الموزون المنتظم لم يحصل فيما مضى، ومستحيل أن يحصل في المستقبل إلا بعد إعداد الأسباب واتخاذ الوسائل وتمهيد الطرق وتسهيل السبل له بارتقاء الأفراد والأمم سنين وسنين، هنالك يصح القول أن الناس يستأهلون أن يقبلوا تعاليم المهدي أو المسيح، أما أن فرداً سينزل إلى الأرض بضع سنين فيغير الأخلاق ويصلح الأحوال إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين فهذا لم نعرفه في عمل الله عز وجل.

إن ولادة الجنين إنما تكون في حينه بعد استعداده للخروج ، فالله مدبر للأمر كما في هذه الآية مستو على العرش والتدبير يتطلب النظام والترتيب ، إذن لن يكون المسلمون قائمين بمعنى هذه الآية إلاّ بنشر العلوم ومعرفة نظام هذه الدنيا والسعي في التعاون العام . هذا هو الذي يؤخذ من هذه الآية ، وبعض ضعفة العقول في بلاد الإسلام يتكلون على المسيح إذا نزل، بل هم يظنون أنهم ينامون على فراش الراحة الوثير ويقضون أوطارهم وهم آمنون بلا مقدمات ولا أسباب ، وهذا معناه الكسل والنوم ، وهذا ضد النبوة والدعوة المحمدية على خط مستقيم ، فنحن نتوكل على الله رب العرش العظيم الذي يدبر الأمر ، فهكذا نحن يجب أن نتشبه بمن نتوكل عليه في تدبير الأمر ، لا أننا نميت قوانا ونتكل على من سيرسله الله إلينا فيسعدنا ونحن نائمون ، كلا ثم كلا .

العقائد لمقاصد

إن العقائد إنما أنزلت لحثنا على الفضائل لا لاقتراف الرذائل ، عقيدة المسيح وإن كانت أشبه بالظنيات لأنها من الأحاديث الصحيحة ، قد جاءت لنعدّ العدة ولنكون المثل الأعلى في هذه الأرض ونقود الأمم قيادة المحبة والسلام والوئام كما تقدم مراراً في هذا التفسير بإيضاح ، حين تضع الحرب أوزارها . هكذا عقيدة الإيمان بالملائكة لنعلم أن هناك حالاً أخرى بعد الموت أشبه بحال الملائكة للأبرار وبحال الشياطين للفجار .

فعقيدة الملائكة لإصلاح الأخلاق ، وعقيدة المسيح لإصلاح الأمم بالعمل لا بالأمل ، هذا ما وقر في نفسي الآن بمناسبة توكل النبي صلى الله عليه وسلم على الله ذي العرش العظيم الذي يدبر الأمر ، وأن همة المتوكل تتجه إلى صفة من صفات المتوكل عليه ، وقد حصل ذلك في هذه النبوة فكان لهذه الأمة عروش ملك في الأرض ، ولكن العرش العظيم لهذه الأمة هو النظام العام فيها بنظام الحب كما في نظام السماوات والأرض القائم بالجاذبية والحب العام . والحمد لله رب العالمين . اهـ .

القسم الثاني

﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ

مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾ إذا طلبوه مستعجلين، بأن يدعو الرجل عند الضجر أو الغضب على أهله وولده ويتعجل البلاء والنقمة، فيقول: لعنكم الله ولا بارك الله فيكم، يقول الله: لو أن الله أجابهم إذا دعوه بالشر الذي يستعجلونه به ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ أي: تعجيله لهم الخير أي: لو عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم إليه ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أي: لأميتوا وأهلكوا جميعاً، ولكننا لا نعجل ولا نقضي، وإنما نمهلهم إمهالاً ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ معاصيهم وشركهم وضلالهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم إلزاماً للحجة عليهم، ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أصابه ﴿ٱلضُّرُّ دَعَانَا﴾ لإزالته مخلصاً فيه ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ ملقى لجنبه: أي: مضجعاً ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ أي: في جميع أحواله ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ﴾ مضى على طريقته واستمر على جهالته وكفره ومعاصيه ونسي موقف الدعاء والتضرع ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ﴾ أي: كأنه لم يدعنا، واسم «أن» المخففة: ضمير الشأن ﴿إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ إلى كشف ضر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التزيين لهذا الإنسان الذي نسي موقف الدعاء ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الانهماك في الشهوات والإعراض عن العبادات، ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يا أهل مكة ويا جميع الناس ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ حين ظلموا بالتكذيب وصرف مواهبهم فيما لا ينبغي ﴿وَ﴾ الحال أنهم قد ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ الحجج ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدالات على صدقهم ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ أي: وما استقام لهم أن يؤمنوا لفساد استعدادهم وخذلان الله لهم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء وهو إهلاكهم بسبب تكذيبهم ﴿نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ نجزيكم، فوضع المظهر موضع المضمر دلالة على أنهم مجرمون ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ استخلفناكم فيها بعد القرون التي أهلكناها استخلاف من يختبر ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي: أخيراً تعملون أم شراً، فنعاملكم على مقتضى عملكم ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي:

المشركون لما غاظهم ما في القرآن من ذم عبادة الأوثان والوعيد الشديد ﴿ ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ ﴾ ليس فيه ما يغيظ مما ذكر ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ فتسقط ذكر الآلهة وذمّها وتجعل مكان آية العذاب آية رحمة، فأجاب: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ ﴾ ما يحلّ لي ﴿ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ﴾ من قبل نفسي ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ أي: لا أتبع إلاّ وحي من الله من غير زيادة ولا نقصان ولا تبديل ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ بالتبديل من عند نفسي ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ غير ذلك ﴿ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾ ولا أعلمكم بالقرآن على لساني ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا ﴾ مقدار عمر أربعين سنة ﴿ مِّن قَبْلِهِۦٓ ﴾ من قبل القرآن لا أتلوه ولا أعلمه ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أن من عاش أربعين سنة لم يمارس فيها علماً، ولم يدخل مدرسة، ولم يشاهد عالماً، ثم جاء بأخبار الماضين، والأحكام والآداب ومكارم الأخلاق، وهذه العجائب المتكررة لا يمكن أن يكون أمراً عادياً، بل هو من طور آخر؛ وهو الوحي ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ سواء أكان بإسناد قول إلى الله تعالى لم يقله بادّعاء النبوة، أم بادّعاء أن لله شريكاً أو ولداً، ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾ فكفر بها، ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ ﴾ إن تركوا عبادته، كالأصنام، ﴿ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ إن عبدوها، ﴿ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ الأصنام ﴿ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ في أمور المعاش، لأنهم ما كانوا يقرّون بالبعث؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾[النحل: ٣٨] وبعض العرب كان يقرّ بالبعث، ﴿ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ ﴾ أي: أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده وهو لا يعلمهم ﴿ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، وإذا لم يكن عالماً بهم ـ وهو يعلم كل شيء ـ فذلك دليل على عدم وجودهم، ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ نزّه نفسه أن يكون له شريك.

ولما كانت هذه الأحوال مما يدعو إلى التعجب من هذا النوع الإنساني، وكيف يعبدون ما يصنعون، ويقلدون من لا يعلمون؟ وكانت النفوس الإنسانية تميل إلى الحقائق، أتى بعد هذا بإحدى الحقائق الطبيعية الحكمية الإلهية، فأفاد أن نوع الإنسان يولد على الفطرة، والحال الطبيعية هم فيها متفقون لا مختلفون، ومتحدون لا متفرقون، ولكن الحكمة في هذا الوجود تقتضي الاختلاف والافتراق ليجتمع بعد التفرق المختلفون، وليتعارف بعد التجاهل المتفرقون، فخالف بين لغاتهم وأوطانهم وأزيائهم وعاداتهم وبيئاتهم وأحوالهم وألوانهم وممالكهم، كما اختلف الزهر في الأشجار وطعوم الأثمار، فإن هذا العالم على الاختلاف مخلوق، وعلى الافتراق مجبول، فإن لم يكن الاختلاف كان العالم هباءً منثوراً. فإذا كان الاختلاف مبدأه ومنتهاه فكيف يتفقون في الدين؟ وإذا لم يتفقوا في حال من الأحوال التي لا تكاد تحصى؛ فهم في الدين مختلفون وفي الحقائق متفرقون؛ وإن كانت فطرتهم واحدة وإنسانيتهم في الأصل غير مفترقة.

ألا ترى أن تعريف الإنسان بالحيوانية والناطقية، فهذا هو الأصل الساري في كل إنسان، وبعد هذا افترق في سائر الصفات والأحوال ومنها الدين، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ بحسب فطرهم ومقتضى إنسانيتهم، ﴿ فَٱخْتَلَفُواْ ﴾ فصاروا في الدين وفي سائر الأحوال مختلفين، ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ أن الاختلاف سنّة طبيعية وحكمة إلهية، وغايتها الكمال واتحاد النفوس في كثير من الأطوار، وتآلفهم بما زاولوا من الأعمال على درجات مختلفة وأحوال متباينة،

فيكون الناس بعد أعمالهم طول الحياة قد صاروا في حال أكمل، وكل جماعة منهم تتحد في عمل أو خُلُق، فيكون هذا الاختلاف جميلاً في مقاصده نبيلاً في نهايته، لأنه يثمر عقولاً مختلفات الجمال كما اختلفت الأشجار في الأزهار والأثمار فصارت بساتين بنفس الاختلاف، هكذا تكون النفوس بعد الموت بتفننها في الأخلاق والأعمال كالرياض الزاهرات والحقول الباهرات، فلولا اختلاف الثمر ما جمل البستان، ولولا تنوع الزهر والشجر ما استحسنها الإنسان، فعقول الناس بساتين العالم الأعلى، كما أن الأشجار والأثمار بساتيننا، وكل ذلك إنّما نشأ من الاختلاف.

يقول الله: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ بهذا الجمال ﴿ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ليمتاز الحقّ من المبطل، ومن الجمال أن يكون في العالم الروحي أرواح شريرة، كما نرى في الأرض الحنظل وشوك القتاد وضروباً من الأشجار المرّة، ونظير هؤلاء في نوع الإنسان: الفجّار والكفّار، ليكون ذلك دليلاً على الجمال، فإن الشيء لا يُعرف إلاّ بضدّه، وبضدّها تتميز الأشياء، فبقاء الكافر والمؤمن والصالح والطالح إلى أجل معدود لتكتمل آجالهم فتظهر أحوالهم ظهوراً أجلى، ويكون الحنظل مع الموز والأثل مع النخل، وهذا هو النظام الجميل، وهذا القول ظاهر في علم الفلسفة الحاضرة والعلم الموروث، فإن العالم كله من أصل واحد هي الهيولى التي لا تعرف إلاّ بالعقل. وعند بعض الحكماء المحدثين أن العالم يرجع إلى الجواهر الفردة وهي متماثلة، وعند المحققين إلى حركات، فإما الإنسان فإن الأرواح قبل حلولها في الأجسام في أول نشأتها تكون متماثلة لا تمايز بينها، وهكذا أجسام الأجنة في بطون أمهاتها تكون في أول أمرها متشابهة مع حيوانات أخرى، ثم ترتقي شيئاً فشيئاً حتى تخالف سائر الحيوان باستكمال الخلق، وعند الولادة يكون الاختلاف بين المولودين من الإنسان في أمور محدودة، فإذا كبروا وتربّوا كان هناك خلاف عظيم، ولذلك خلقهم الله، كما قال في آية أخرى: ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾[هود: ١١٩] وهذا هو الحق والعلم الصحيح، وما عداه فأقوال متفرقة وآراء غير محققة اختلط فيها الحق بالباطل، والذهب النقي بالزبرجد، والزيف بالجيد. والله هو العليم الحكيم.

ثم أتى بمسألة أخرى كانت سبب الاختلاف في النبوة؛ وهو اقتراح آيات خاصة؛ فقال: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ وهو وحده العالم أن هذه الآيات المقترحة فيها مفاسد لا نفع فيها ﴿ فَٱنتَظِرُوٓاْ ﴾ نزول ما اقترحتموه ﴿ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ لما يُفعل بكم بجحودكم ما نزل من الآيات، ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً ﴾ خصباً وسعة وصحة ﴿ مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ ﴾ أي: من بعد شدة وبلاء، كأهل مكة إذ حبس عنهم المطر سبع سنين حتى هلكوا من الجوع والقحط، ثم رحمهم الله فأنزل عليهم المطر الكثير حتى أخصبت البلاد، فلم يتّعظ الناس بذلك بل رجعوا إلى الفساد؛ كما مرّ في قوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ ﴾ إلى قوله: ﴿ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾، ولذلك جاء جواب ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ﴾ موافقاً لذلك الجواب، مع إيضاح وتنويع، فقال: ﴿إِذَا﴾ هي: للمفاجأة؛ واقعة في جواب ﴿ إِذَا ﴾ الأولى كما تقع الفاء؛ أي: ففي الحال ﴿ لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ بالطعن فيها والاحتيال في دفعها، ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ منكم، قد دبر عقابكم قبل أن تدبروا كيدكم، ولقد تقدم عقابهم في سورة آل عمران، والأنفال والتوبة، والمكر: إخفاء الكيد

وهو من الله: الاستدراج والجزاء على المكر، ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ الرسل هنا: الحفظة، فليس يخفى على الله خافية.

ولما كان هذا القول وما مرّ قبله وهو: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ الخ دالّين على سرعة تقلب الإنسان وعدم وفائه واتعاظه؛ وكان هذا المقام يحتاج إلى إيضاح؛ أردفهما بثالث، دلالة على أنه أمر يجب النظر فيه، فإن عدم الثبات وسرعة التقلب وجحود النعم يورث العذاب الأليم، ولذلك قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ﴾ بأرجلكم وبالدواب والقطرات الجاريات والعربات والسيارات بالكهرباء وغيرها، وفي الهواء بالمراكب الهوائية والمطاود ـ جمع منطاد ـ ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ بالسفن العائمة والغاطسة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ السفن ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ أي: السفن ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ لينة الهبوب ﴿وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾ أي: بتلك الريح، للينها واستقامتها، ﴿جَآءَتْهَا﴾ أي: الفلك، وهنا اعتبرت جمعاً كأسد؛ وهي مفردة كقفل، ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ ذات عصف، أي: شديدة الهبوب ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ يجيئهم الموج منه ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي: أهلكوا وسدت عليهم مسالك الخلاص ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من غير إشراك، لأنهم رجعوا إلى فطرتهم لزوال العوارض المانعة من ذلك قائلين: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ نعمتك مؤمنين بك متمسكين بطاعتك، ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يفسدون فيها ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ مبطلين فيه. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ فإن وباله عليكم، وأيضاً هو على أمثالكم وبني جنسكم، وجميع الناس متضامنون، والبغي على من نفعه عائد إليك: ضار بك، تتمتعون ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ على النصب، أو: ذلك متاع الحياة الدنيا؛ على الرفع، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالجزاء عليه. انتهى التفسير اللفظي.

اعلم أن هذا القسم متصل بما قبله، وصلته بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ [الآية: ٥] إلى قوله في آخر القسم: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الآية: ١٠].

لقد تبين لك هناك أن السلام على ثلاثة أنواع:

سلام الناس بعضهم على بعض يوم القيامة، وسلام الملائكة، وسلام الله تعالى. ولا بد من شرح هذا الموضوع شرحاً وافياً حتى يعرف اتصال هذا القسم بما قبله، وإذن يظهر لك سر مكنون وجوهر بديع وعجب عجاب. وهنا أصلان:

الأصل الأول: أن هذا المقام عبارة عن مبحث في السعادة والسلام والأمن، فكل من كان من الناس أهدأ بالاً ورضى فهو إلى السعادة أقرب، وكل من كان جزع النفس مضطرب القلب حزيناً متألماً أو طامعاً أو ما أشبه ذلك فهو إلى الشقاوة أقرب على مقتضى ما اتصف به قلة وكثرة. وإذا كنت أيها الذكي ممن تابعوا هذا التفسير، فقد عرفت ذلك.

الأصل الثاني: أنه لا يتفق الأمن والسلام والراحة، فجميع الناس في الدنيا دائماً في ألم ومطالب تزعج لبّ اللبيب وتوغر صدر الحليم، فالخير والشر مقرونان في قرن، وعليه تكون السعادة محالة في هذا الوجود، فبانضمام الأصل الثاني للأول يتناقضان ولا يجتمعان، وهذا الرأي وهو عدم السعادة في الدنيا قال به كثير من العقلاء، وهناك سعادات اكتسابية يكتسبها الناس تقرّبهم إليها وهي:

(١) أنا نجد المسلم في الصلاة يسلم ٢٦ في الصلوات الخمس المفروضة، فإذا انضمت إليها النوافل بلغ القدر ضعفاً وأضعافاً.

(٢) ولا معنى لهذا السلام إلاّ تذكرة المسلم بالأمن وراحة الضمير وبعد المكروه وجميع المصائب، فهو يسلم على الأنبياء والصالحين وعلى نفسه بهذا المعنى، فالمسلم مأمور بطريق دينه أن يعتقد أنه في أمان من كل مكروه، وأين هذا؟ ذلك بثلاث طرق:

الطريق ١ و٢ طريق الإيمان، فكلما أصابته مصيبة يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] وليس يكون ذلك باللسان وحده فيرى أنه يحمد الله رب العالمين؛ أي: رباهم باللين والشدة المعبر عنهما بالرحمة، وملك يوم الجزاء، ويقول تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] فمتى أحضر المرء في نفسه أن المكروه من الله وأن الله لا يفعل إلاّ خيراً واطمأن لذلك كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]، وقوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢] فإن عنده نوع سعادة، فهاهنا أمران:

الأمر الأول: إسناد الأمر لله، وهذا عند المستعد له يعطي بعض الراحة للقلب، ولهذه الإشارة بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠] ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]. فمتى أيقن العبد أن كل شيء معلوم عند الله ارتاح قلبه جداً ووصل إلى السلامة على شرط الإيقان، فتكون الحوادث مثل الليل والنهار.

الأمر الثاني: أن يرى كل مكروه ظاهراً هو محبوب باطناً، ويرى كل شر أشبه بالحجامة أو شرب الدواء الكريه، فيكون متألماً منه ولكنه راض، وهذا نوع من السعادة وله الإشارة بقوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢] حيث جعل القتل حسنى، وأي مصيبة أعظم من الموت حتى إن الصحابة كانوا يسرعون إلى الحرب لذلك.

الطريق الثالث: طريق الصبر وقوة العزيمة وهي التي شرحتها لك سابقاً في لغز قابس في سورة «البقرة»، وكذلك طريق كتاب «الكوخ الهندي» الذي أعطيتك صورة منه سابقاً تلخص مقصوده، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وما أشبه ذلك.

فهذه الأمور الثلاثة تعطي الإنسان سعادة كسبية ما دام في هذه الحياة، ومستحيل أن يصل الإنسان إلى تمام السعادة في هذه الحياة إلاّ قوم مذهولون ذهولاً دينياً أو دنيوياً بأن فارقوا إحساسهم فكيف يحزنون؟ فالسلام في الصلاة وتكراره في الركعات يوقظ نفس المسلم إلى أحد هذه المراتب عسى أن يصل إلى درجة الراضين، وإن كانوا في مكروه، وهذه نوع من السعادة والسلام في هذه الحياة هذا هو السر في تكرار السلام في الصلاة، فإذا مات المسلم أحس بالسلامة من الآفات والأمن إذا كان صالحاً، ويحس إخوانه بذلك فيحيونه به، وليس ذلك تحية لفظية كما في الدنيا، بل المعاني هناك متجلية كما تجلت الألفاظ في هذا العالم، فإذا ارتقوا عن هذه الدرجة حيتهم الملائكة ثم حياهم الله، ففي الآية: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد: ٢٣]، وفي آية أخرى، ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، فمتى حصل لقاء الله كان هناك السلام، واللقاء هنا علمي، فمن كان أكثر علماً بالله

كان أقرب للسلامة والأمن، فقد يموت المرء ولا يلقى إلاّ العذاب، ويحجب عن ربه، فأين السلامة؟ ولن يلاقي ربه إلاّ بريئاً من الذنوب كامل النفس، هنالك تفاض عليه العلوم ويدرك سر الخليقة، وإذن لا يكون هناك غمّ ولا همّ لأنه وصل إلى منتهى السعادة.

فعلى الإنسان أن يجدّ في الأخلاق والعلم ومنفعة الناس حتى ينال السعادة الروحية، ويزيد من ربه قرباً، ولن ينال السعادة في الآخرة وهو لم يحصل أوائلها في الدنيا بالاكتساب وتطمئن نفسه في الدنيا بعض الاطمئنان وهذا يكمل له بعد الموت، أما الذي مات مضطرب الفكر لا ثبات عنده، إما لجهالته وإما لذنوبه، فذلك لا يسعد في الآخرة لأنه لا سعادة في الآخرة إلاّ إذا كانت أوائلها في الدنيا، فقوله: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[يونس: ١٠] مردد لصوت السلام في الدنيا، وفي المقابلات بين الناس، وللمحامد التي يحمدها الله، وللمعاني العلمية التي أدركها الإنسان في نظام هذا الوجود، فمبدأ السلام والسعادة في الألفاظ في الصلاة، وأوسطها في اكتساب ذلك بالإيمان وتهذيب النفس، ونهايتها حصول السعادة والسلام، فعلاً وهو المعبر عنه بسلام الملائكة ثم سلام الله تعالى ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ ﴾[الأحزاب: ٤٤] هذا هو القسم المتقدم، ثم أتبعه بما هو في معناه كالمتمم له فقال: إن الناس يبعدون عن السعادة والسلامة بعداً شاسعاً جداً لتفريطهم في المقصود من معنى السلام في صلواتهم وجهلهم المقصد من تكرار السلام، ذلك أنهم إذا أصابتهم مصيبة وهم لم ينالوا درجة من درجات السعادة المتقدمة سئمت أنفسهم وكرهوا الحياة، ولعن الرجل أهله ومن حوله وتمنى الموت، ولو أننا سارعنا إلى إجابة الشر كما نسرع إلى الخير لهلك الناس، فهذا دليل أن هذا ﴿ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ ﴾ يعني: ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [المعارج: ١٩-٢١]. وكان يجب أن يكتسب صفة الثبات بأحد الأمور الثلاثة المتقدمة، وإنما عبّر بقوله: ﴿ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾[يونس: ١١] إشعاراً بأن هذه الآية من توابع ما قبلها، ولقاء الله إنما يكون للروح المهذبة الكاملة علماً وأخلاقاً، وغيرها منحط عنها فلا يلقاه فلا يرجو لقاءه.

ثم أتبعه بجمل أخرى فذكر أن الإنسان لا صبر عنده، وإذا مسه الضر دعا الله هلعاً، فإذا زال الضر نسي، وإنه إذا ذاق النعمة بعد الشقاء والغنى بعد الفقر ساقه البطر إلى تكذيب الآيات واتباع سبل الضلالات.

وزاد ذلك بما يعتريه في البحر إذا اضطربت الرياح واختلفت الأمواج كيف يدعو خالقه؟ فإذا نجاه نسيه، فهذه الآيات قررت أن الإنسان سريع الانفعال يتمنى الموت إذا أصابه الشر المعدّ لتكميله لجهالته ويهلع ويطلب النجاة، فإذا نالها غفل، وهذه الغفلات علامة الشقاء والبعد عن السلامة. وبضدها تتميز الأشياء. انتهى تفسير القسم الثاني.

لطيفة

إن ابتهال الإنسان لله إذا أصابه الضر أو أحاطت به الأمواج أو وقع في كرب عظيم دليل على أن للعالم خالقاً، ألا ترى أن الطفل يلجأ لأمه والفصيل والعجل وأمثالهما كلها ملتجئات إلى أمهاتها هكذا حبات البزر في ظلمات الطين ملتجئات في تغذيتها إلى الأرض والماء، فإذا ما شبّ الطفل وقوي الحيوان واشتد النبات اعتمد كلّ على نفسه بتناول الغذاء من الثمار والهواء، فهي مستقلاّت إذا قويت

مبتهلات إذا ضعفت. هكذا الإنسان القوي إذا أصابه الضر، وأحاطت به الأنواء، كرّ راجعاً إلى ما في داخل قلبه من نور مخبوء، وهو الوجدان، الذي يرى أن له مرجعاً خارجاً عن المادة، فيناديه قائلاً: يا رب، فإذا نجاه رجع إلى قوته ونسي ربه كما تغذى النبات بالهواء وحرارة الشمس لما قوي، واكتفى الحيوان بالنبات مثلاً، فهذا برهان وجداني إقناعي على وجود الله.

القسم الثالث

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥) ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٦) وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٧) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٣٠) ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ حالها العجيبة في سرعة تقضيها وذهاب نعيمها بعد إقبالها، واغترار الناس بها ﴿ كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ وهي: الزروع والبقول والحشائش ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ زينتها بالنبات واختلاف ألوانه ﴿ وَٱزَّيَّنَتْ ﴾ وتزينت بأنواع الزين، وقد أدغمت التاء في الزاي، وقرئ «تزينت» على الأصل، فقد مثلت الأرض بالعروس وقد أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها، وتزينت بغيرها من ألوان الزين، ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَآ ﴾ أهل الأرض ﴿ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ ﴾ متمكنون من منفعتها محصلون لثمرتها رافعون لغلتها ﴿ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا ﴾ عذابنا، وهو: ضرب زرعها ببعض العاهات بعد أمنهم واستيقانهم أنه قد سلم، ﴿ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا ﴾ فجعلنا زرعها ﴿ حَصِيدًا ﴾ شبيهاً بما يحصد من الزرع في قطعه واستئصاله، ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ ﴾ كأن لم يغن زرعها، أي: لم يلبث، أي: كأن الأشجار القائمة والنباتات الطيبة والزروع البهجة لم تكن غنيت، من: غني فلان بالمكان: إذا أقام به، وقوله: ﴿ بِٱلْأَمْسِ ﴾ هو: مثل في الوقت القريب، والممثل به: مضمون هذا القول، وهو: زوال خضرة النبات فجأة، فيصير حطاماً بعد ما كان غضاً والتفّ وزين الأرض حتى

طمع فيه أهله، وظنوا أنه قد سلم من الجوائح، ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ كما بينا لكم مثل الحياة الدنيا؛ كذلك نبين حججنا ودلائلنا لمن تفكر، لتزول الشبهات ويكون اليقين.

وهذا القول متصل بما قبله من تقلب الأحوال على الإنسان، تارة يطلب الموت والهلاك ويلعن الزوج والأبناء لشوكة يشاكها أو زلة قدم يزلها، وأخرى يدعو بالنجاة من الضر قاعداً أو قائماً، فإذا نجاه الله نسي الدعاء والمدعو، وهكذا شأنه عند كل نعمة أزالت الضر، فإنه يكيد كيداً ويصدّ عن سبيل الإيمان، وإذا غشيه الموج ودعا بالخلاص وجاءه الفرج لا يذكر النعمة ويرجع إلى سابق عهده، ثم أتبعه بهذا المثل إذ جعل حياة الإنسان أو حظوظه أشبه بعروس ذات جمال وبهجة ودلال، قد ازينت فلبست من الثياب ألواناً، وأخذت من كل زينة أشكالاً، فصارت حوراء في حللها وحلاها.

فلما أعجبهم حسنها وفرحوا بها وظنوا أنهم منها متمكنون أتتها صاعقة أو برد أو ريح جعلتها حصيداً كأن لم تكن قائمة بالأمس. وهذا مثل للمتشبث بالدنيا، الراغب في زهرتها وحسنها، ذلك أن الله لما قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أتبعه بهذا المثل لمن بغى في الأرض وتجبر فيها وركن إلى الدنيا وأعرض عن الآخرة. فالمتشبث بالدنيا يأتيه أمر الله وعذابه أغفل ما يكون. فحظوظ الدنيا كبهجة النبات معرضة للزوال فجأة كهلاك النبات بصاعقة، ونفس الحياة كذلك يخترمها الموت فجأة والإنسان لا يشعر بذلك. فحياة الإنسان للموت معرّضة كل حين، وشبابه وقوته وصحته وماله وولده وسروره ولذاته كل ذلك ضرب له هذا المثل، فالحياة كتلك العروس والقوة والبأس والذكر والصيت والجمال. كل ذلك داخل في المثل إذ يعتريها الذهاب والفناء في لمح البصر أو هو أقرب. فكم من جميل أذهب جماله المرض، وغني أهلك ماله الجوائح، وعاقل ذكي قتل الذكاء والعقل هموم وأشجان فذهب إلى المارستان، وذي بنين شهود للمحافل قواد للجحافل حصدتهم المنون وهم لا يشعرون، فأصبح فريداً وحيداً، وكم من ذي صيت بعيد وذكر جميل أخنى الدهر على ذكراه بريبة ذكروها وشنعاء تبينوها وذنوب أشاعوها، فأصبح الممدوح مذموماً، وكم من معجب بشبابه وصحته وهو مبتهج فخور جاءه الموت فجأة فأصبح من أهل القبور. هذه المعاني وأمثالها داخلة في هذا المثل.

واعلم أن هذا المثل وما تقدمه إنّما جاء بعد قوله في آخر القسم الأول: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾، تبياناً لما عليه الناس في الدنيا من عدم السلامة ومن الشقاء والذلة وذم الحياة والهلع والجزع وما أشبه ذلك من كل ما يوجب الاضطراب، كما تقدم في مثل البحر وأمواجه والنجاة منه الخ ما ذكرنا وقررنا، وهكذا نفس الحياة وحظوظها الخ. فلما أبان ذلك أيّما تبيان وأظهر كيف تكون عدم السلامة في هذه الدار، وكيف يكون الاضطراب والزوال، أتبعه بما هو المقصود فقال: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾. ومعلوم أن النكرة إذا أعيدت معرفة كانت عين الأول، فهو سبحانه يقول: هاأنتم هؤلاء عرفتم حياتكم ونصبها وتقلب قلوبكم وحظوظكم واخترام آجالكم في هذه الدار التي لا سلام فيها بحسب طبيعتها، فهاأنا ذا أدعوكم إلى دار الأمان والاطمئنان والسلامة المذكورة في قولي: ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾، فهاأنا ذا أدعوكم إلى دار السلامة من الآفات بعد ما تبيّن لكم المهالك والمشاق، ثم قال: ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ بالتوفيق ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، لأن الناس مختلفون استعداداً. ولما قال هناك: ﴿ وَءَاخِرُ

دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ بعد قوله: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾[الآية: ١٠]، أتى بنظيره هنا بعد دعوته الناس إلى دار السلام، فقال: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي: الجنة ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾ هي النظر إلى وجه الله الكريم.

والنظر لوجه الله الكريم هنا معناه ازدياد العلم بآياته وجماله وحكمه وعجائبه وبدائعه، وكلما ازداد علماً ازداد بهجة، فهذا النظر بهجة الحكماء والأنبياء، وهو يقابل: ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ هناك، فقد تبيّن هنا كيف تكون دار البلاء، ثم كيف تكون دار السلام، ثم كيف يكون ازدياد العلم بالله المعبر عنه بالنظر، وأنت أيها الذكي تعرف من نفسك الآن أمن أهل الجنة أنت أم من أهل النظر لوجه الله. فإن كنت صالحاً ولكن لا شغف لك ولا لذة في العلم بهذا العالم فأنت تكون في الجنة وهي دار السلامة، فأما إذا كنت في جمال العلوم راغباً، ورأيت في نفسك لذة وغراماً بها، فاعلم أنك ستنظر وجه الله حتماً بعد الاستعداد التام.

روى صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: أتريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى، ثم تلا هذه الآية: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾» أخرجه مسلم.

فالعامة يتصورون شكلاً ينظرونه كما ينظرون الملوك؛ فأما الخاصة فإن النظر لوجه الله يبتدئ لهم في الدنيا بعشق مصنوعاته وقراءة العلوم قديمها وحديثها، فينفع أحدهم الناس بالعلم كما ينفعهم الله بالخلق، ثم أحدهم يعرج في معارج الكمال متشبهاً بمحبوبه سائراً في طريقه، محباً لخلقه، ناظراً إلى جماله الذي تبدى في أصناف الشجر والنجم والقمر، حتى إذا فاجأته المنون أصبح عند من كان محبوبه وصار الغائب مشهوداً، والمحبوب موجوداً، وأدرك إذ ذاك أنه كان معه ولكنه هو عنه محجوب. وإذا سمعت سيدنا علياً كرم الله وجهه يفسر الزيادة بلؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب، فما ذلك إلاّ عين ما ذكرناه، وما اللؤلؤة إلاّ هذا العالم المخلوق يظهر للعالم مجلوّاً جميلاً بهياً كلؤلؤة، وهو مبدأ النظر لوجه الله الكريم، فإن العالم الذي نحن فيه جميل كاللؤلؤة، ومستحيل أن يعرف الإنسان جماله إلاّ بالعلم، ومتى عرف الجمال عرف من هو الجميل، وهذا هو النظر عينه؛ فسيدنا علي يرمي إلى هذا المقام لأنه يعزّ على الأفهام فعرفه بمثال، لأن الحقيقة تخفى على العوام وكثير من الخواص، وقوله: ﴿ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ ﴾ لا يغشاها ﴿ قَتَرٌ ﴾ غبرة فيها سواد ﴿ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾ هوان، أي: لا يغشاهم حزن وسوء حال ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا ﴾ عطف على قوله: «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة»، ﴿ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ ما من أحد يعصمهم من سخط الله ﴿ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ غطيت ﴿ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾ لفرط سوادها وظلمتها، وقوله: ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ ﴾ أي: الزموا مكانكم حتى تنظروا ما يفعل بكم ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ أي: فرقنا بين العابدين والمعبودين، وميّزنا بينهم، وانقطع ما كان بينهم من التواصل في الدنيا ﴿ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم ﴾ أي: الأصنام وكل معبود لهم ﴿ مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ تبرأ المعبودون من العابدين، فما كانت العبادة في الحقيقة إلاّ لأهوائهم ولمن زين لهم تلك العبادة ﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي: كفى الله شهيداً، وهو: تمييز

﴿ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾ « إن » مخففة من الثقيلة و« اللام » فارقة بينها وبين النافية ﴿ هُنَالِكَ ﴾ في ذلك المكان ﴿ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ تختبر وتذوق ﴿ مَّآ أَسْلَفَتْ ﴾ من العمل فتعرف أقبيح هو أم حسن ﴿ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ إلى جزائه ﴿ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾ ربهم ومتولي أمورهم على الحقيقة، لا ما اتخذوه مولى ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ ضاع عنهم ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ من أن آلهتهم تشفع لهم، أو ما كان يدعون أنها آلهة . اهـ.

لطيفة في النظر لوجه الله تعالى

لقد اطلع على هذا المقال أحد العلماء ممن لهم قدم في العلم راسخة، فقال: لئن سرّني في هذه المقالة حال لقد ساءتني أحوال. فقلت: وكيف ذلك؟ قال: كيف تجعل النظر لوجه الله الكريم عبارة عن العلم، وأيّ شيء العلم؟ إن الإنسان إذا رأى وجهاً جميلاً استلذ به وفرح؛ فأما العلم فهو معروف ولا شيء فيه من ذلك. فقلت له: إن هذا المقام ليس يعرف إلّا بعد البيان، حقاً إن الإنسان إذا نظر وجه الجميل سرّه القدّ والشكل واللون والأنف والفم والعينين والخدّ وحسن الهيئة وجمال الزينة، والعطف بكسر الأول، والهيف والحور والشنب وسائر ما يقوله الشعراء في أشعارهم، ويبدو في أقوالهم، ولكن العلم شيء والشعر شيء، فإن حاسة النظر إحدى الشبكات الظاهرة الخمس التي يصطاد بها العقل المعلومات، والحب على مقدار العلم، فإذا نظرنا إلى الجميل وسمعنا نغمته وفصاحته وشممنا طيب ريحه وذقنا ما يذاق منه ولمسنا جلده، هنالك يضم إلى النظر هذه المذكورات فتتضاعف اللذة ويزداد الحب، فكيف بنا إذا تغلغلنا في باطنه وعرفنا مواهبه الباطنة من عفة وحلم وأدب وحسن خلق ومعارف وعلوم، هنالك يحصل لذلك العالم به من اللذة به ما لا يوصف، ومن الحب ما هو أعظم. وإذن قد تبيّن لك أن النظر الذي أعظم قدره الناس ما هو إلّا وسيلة من وسائل العلم وليس خارجاً عنها، وأن اللّذّة بنظر العين جزئية، فإذا كان المخلوق المشاهد المحسوس لا يستلذ به إلّا باستكمال العلم به، ظاهراً بالحواس الظاهرة، وباطناً بإدراك العلم، فما بالك بمن لا تدركه عيوننا ولا تصل إليه مشاعرنا، فنحن إذن نلتجئ إلى العلم الذي عرفت أن النظر من جنوده، وندع الفرع ونتمسك بالأصل ونقول المقصود هو الأشرف وهو العلم. ولا ريب أن العلم مبدؤه في الدنيا، ومن لم يبتدئ ذلك في الدنيا فليس له حظ من هذا العلم في الآخرة، وذلك هو النور المذكور يسعى بين يديه بعد الموت، ومن لا نور له هنا لا نور له هناك.

اللطيفة الثانية

التقصير في علوم الكائنات يحرم أحياء المسلمين من الغلبة وأمواتهم من النظر لوجه الله الكريم

قد تبيّن أن النظر لوجه الله الكريم مبدؤه العلم في الدنيا، ومن لم يعلم لم ينظر، والعلم يرجع إلى النظر في جمال هذه المخلوقات وعجائب النفس وبدائع الصنع وتركيب الأجسام ونظام الوجود.

والناس في الدنيا إذا قرؤوا هذه العلوم على ثلاثة أقسام: قسم يقرؤها لمعاشه، كالعلوم الرياضية لنظام الدواوين ونظام الجند وما أشبه ذلك. وقسم يقرؤها ليتحلى به في المجالس ويتفاخر به على الأقران. وقسم يقرؤها كما يقرؤها القسمان المتقدمان، ولكنه يتحرى النظام والجمال، ويعجبه

بهجة التشريح ونظام النبات وحساب الطبيعة وبهجة النجوم وعجائب حركاتها وبدائع أشكالها ويتغلغل في ذلك، وهذا لا شك يهيجه إلى الفرح بمن هو السبب الأول فيه، وهذا مبدأ النظر، وكلما ازداد علماً زاد حباً للصانع، ولا نهاية لهذا العلم كما لا نهاية للحب ولا للذة، هذا هو الحق الصراح الذي لا محيص عنه. والأمة إذا حظيت بهذه النعمة سعد أحياؤها بالغلبة والمجد وفرح أمواتها بالنظر لوجه الله الكريم.

فيا عجباً كل العجب لأمة الإسلام! تلك الأمة التي جاء القرآن بترغيبها في الآخرة، وخاطبها بما يعرفه الخلق من الجنات المحسوسة، ولم يشأ أن يترك الجنة الحقيقية والسعادة الأبدية التي هي أعلى من المحسوسات حتى يستنتجها الفلاسفة والعقلاء، كلا بل لوّح لها بقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾، وجاءت السنّة فعرّفتنا الزيادة، وقالت: هي النظر لوجه الله الكريم، وأرتنا أن هذا سيكون ألذ عند أهل الجنة، وهنا وصلنا إلى مقام الحكمة والعلم.

فالكتاب والسنّة عندنا أريانا أن النظر لوجه الله أعظم اللذات والنظر يقصد منه العلم، فإذا قيل إنه بعين تخلق لنا خلاف هذه في الآخرة فهي أيضاً علم، وإذا كانت أعيننا في الدنيا من شبكات العلم فالأمر هناك ظاهر، فكيف تغفل أمة هذا دينها عن علوم هي النعمة في الدنيا والسعادة في الآخرة.

أليس من عجب أن يكون في هذه الأمة من يكفر قارئ هذه العلوم، وما هي إلا سعادة الأحياء وبهجة الأموات. انتهى تفسير القسم الثالث.

القسم الرابع

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ

﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ
إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ
النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ
قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ
نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ
رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ
فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا
يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ
﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾
۞ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ
ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ
مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ
فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم
مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى
اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾
وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ
تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ
وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾
الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ
لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ
شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا
فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ
الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا

تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

التفسير اللفظي

﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ بأسباب سماوية كالضوء والمطر ومواد أرضية فيكون منهما النبات والحيوان الخ، ﴿ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾ يستطيع خلقهما وتسويتهما تسوية بديعة ـ تقدم شرحها في سورة آل عمران ـ ومن يحميهما من الآفات العارضة ﴿ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ ﴾ أي: من ينشئ الحيوان من النطفة، والنطفة منه مثلاً؟ وشرح ذلك مذكور في تفسير سورة الأنعام، ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ ﴾ ومن يلي تدبير أمر العالم كله علويه وسفليه ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ ﴾ فسيجيبونك عن سؤالك أن القادر على هذه هو الله، ﴿ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ الشرك في العبودية إذا اعترفتم بالربوبية، ﴿ فَذَٰلِكُمُ ﴾ أي: الذي تولى هذه الأمور المستحق للعبادة ﴿ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ ﴾ الثابت ربوبيته، فهو الذي أنشأكم وأحياكم ورزقكم ودبر أموركم، وهو المالك لسمعكم وأبصاركم، ﴿ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ ﴾ استفهام إنكاري أي: ليس بعد الحق إلا الضلال ﴿ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴾ عن الحق إلى الضلال، أي: فكيف تفعلون ذلك؟ وكما حقت الربوبية لله، أو أن الحق بعده الضلال، ثبتت كلمة الله وحكمه على الذين تمردوا في كفرهم وخرجوا عن جادة الإصلاح وفسدوا لأنهم لا يؤمنون وهذا هو قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾، ثم أخذ يقيم الحجة عليهم فوق ما تقدم، فأخذ يحاورهم بطريق الاستفهام الإنكاري في أمرين:

(١) خلق هذه العوالم ابتداء منظمة، وإعادتها.

(٢) وإيجاد الأدلة والمعاني والآراء والحجج التي تهدي النفوس إلى مطالبها الحقة.

فأجاب عن الأول: بأن الله هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، لأن لجاجهم لا يدعهم يعترفون بها.

وعن الثاني: بأن الله هو الذي يهدي للحق، لأنه نصب في هذا العالم دلائل، وجعل نواميس تبهر العقول وتنتج علوماً كثيرة، يستخرج منها الناس أمور معاشهم ومعادهم.

ثم أخذ يتم الكلام في القسم الثاني، لأنه المهم في مقام الهداية، فقال: هل الذي ينير المسالك ويوضح المشكلات وينصب الأعلام أولى بالاتباع؛ أم الذي هو كالأعمى العاجز لا يهتدي إلاَّ أن يهديه سواه، فكيف تحكمون أيها الناس بما يقتضي صريح العقل بطلانه؟ وكيف تكون الأصنام القائمة العمياء التي لا علم لها هادية؟ فالله الذي ملأ هذا العالم بالنواميس المنيرة السبل أولى بالاتباع. يقال: هدى للحق وإلى الحق، وكلاهما في الآية.

وقوله: ﴿ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ ﴾ أي: من لا يهتدي إلاَّ أن يهدى، وقرئ: «يَهَدِّي» بفتح الهاء والياء وتشديد الدال، وبكسر الهاء وفتح الياء، وبكسر الياء والهاء، وبسكون الهاء وتشديد الدال، أي: يهتدي في الجميع. وهذا قوله تعالى: ﴿ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم ﴾ إلى قوله: ﴿ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴾، ثم قال: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ ﴾ فيما يعتقدون ﴿ إِلَّا ظَنًّاۚ ﴾ مستنداً إلى الخيال، والمراد بالأكثر: الكل، ﴿ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾ من العلم والاعتقاد الحق ﴿ شَيۡـًٔاۚ ﴾ من الإغناء

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴾ هذا وعيد لهم على اتباعهم للظن وإعراضهم عن البرهان، ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي: افتراء من الخلق ﴿ وَلَٰكِن ﴾ كان ﴿ تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾ مطابقاً لما تقدمه من الكتب الإلهية المشهود بصدقها، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يتعلم علماً ولم يأخذ عن أحد، وقد جاء في القرآن قصص وأخبار مطابقة لما في التوراة والإنجيل، فكيف يكون ذلك وهو لم يتعلم، ولو أنه لم يطابق ما في تلك الكتب لشنوا عليه الغارة الشعواء، ولأنزلوه في منزلة هو منها براء، فهذا معنى قوله: ﴿ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾[يوسف: ١١١] وتفصيل ما حقق وأثبت في العقائد والشرائع، ﴿ لَا رَيۡبَ فِيهِ ﴾ منتفياً عنه الريب، كائناً ﴿ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فأخبار كان أربعة: «تصديق» و«تفصيل» و«لا ريب فيه» و«من رب العالمين» ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ﴾ بل أيقولون ﴿ ٱفۡتَرَىٰهُۖ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم، والهمزة: للاستفهام الإنكاري، ﴿ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ ﴾ في النظم والبلاغة وقوة المعنى على وجه الافتراء، فإنكم مثلي في العربية؛ بل أنتم أشد تمرناً وأقرب تمكناً منها بأساليب النظم والنثر ﴿ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي: وادعوا للاستعانة على الإتيان بمثله ما استطعتم من خلقه ﴿ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ أنه خلقه، ﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ ﴾ سارعوا إلى التكذيب ﴿ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ ﴾ بالقرآن أول ما سمعوه قبل أن يتدبروا آياته ويحيطوا بالعلم بشأنه كالقصص التي قصها، وأخبار البعث والنشور، والجنة والنار التي ذكرها؛ فإنهم ينكرونها لجهلهم بها، ﴿ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ ﴾ ولم تبلغ أذهانهم معانيه، ولم يعرفوا بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب، حتى يتبين لهم أصدق أم كذب، ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ ﴾ أنبياءهم ﴿ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فسيعاقبون كما عوقبوا إذا أصروا على العناد، ﴿ وَمِنۡهُم ﴾ من المكذبين ﴿ مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ ﴾ أي: سيؤمن به ويتوب عن كفره، ﴿ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ ﴾ فيما يستقبل، بل يموت على الكفر، ﴿ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ بالمعاندين أو المصرين، ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ ﴾ ويئست من إجابتهم ﴿ فَقُل لِّي عَمَلِي ﴾ جزاء أعمالي ﴿ وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ ﴾ أي: جزاء أعمالكم، ﴿ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ ﴾ فلا تؤاخذوني به ﴿ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ من أعمالكم فلا أؤاخذكم بها، وهذا في حال الضعف؛ فلما حان حين القوة تغيرت الحال، ﴿ وَمِنۡهُم ﴾ أي: من هؤلاء ﴿ مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ ﴾ حين تقرأ القرآن وتعلم الشرائع، ولكنهم لا يقبلون كأنهم صم ﴿ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ﴾ أي: أتقدر على إسماعهم ﴿ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ أي: ولو انضم إلى صممهم عدم تعقلهم بما أسدل على العقول من الأوهام، وما أوحت إليه العادة، وما انخدعت له من الأضاليل، ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ ﴾ ناس ينظرون إليك ويعاينون أدلة صدقك وأعلام نبوتك ولكنهم لا يصدقون، كأنهم عمي لا ينظرون بأبصارهم ﴿ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾ أي: أتحسب أنك تقدر على هداية العمي ولو انضم إلى فقد البصر فقد البصيرة، فهؤلاء كالصمّ العمي الذين لا عقول لهم، وهؤلاء لا يمكن إيمانهم، وكل ذلك بنظام ثابت وحكمة عالية، فإن ذهاب البصائر وقلة التفكر والعلم، والانهماك في التقليد إنما جاء كله بالاستعداد، والاستعداد في النفوس سائر بنظام الخليقة، وهذا النظام هو الصالح للوجود فلا ظلم فيه، لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا ﴾ لأنه لا يفعل إلا على مقتضى العلم، والعلم متعلق بالحقائق الثابتة التي تقتضيها الحكمة ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ

أنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ لأن هذه هي الحقيقة التي علمها الله، وعلى مقتضاها كان الاستعداد، ومن الاستعداد: الناقص والتام، وهؤلاء في نقصهم كالخشب يصلح للوقود، ولا ظلم في ذلك، وغيرهم كالثمر يأكله الإنسان، وكلاهما يقتضيه النظام العام.

ثم هناك وراء هذا أبحاث لا يجوز ذكرها في مثل هذا التفسير العام، وليس ما ذكرناه بمثلج للصدور ولا شاف لما في القلوب، فإن هذا وراءه أسئلة كثيرة توجه على هذا، ولكن لا سبيل إلى الإجابة عليها، فيجب على طالب الحقائق أن يفتح لنفسه باب العلم، والعلم واسع بابه، والله يعطي من يشاء. والتصريح بالحقائق يريك جمال الله بأوسع معانيه، وأن رحمته واسعة، فاطلب هذا منه هو، ولا تفهم العامة لئلا يقدحوا عليك في دينك وأنت على علم تام.

ثم قال: واذكر يا محمد يوم نجمع هؤلاء المشركين لموقف الحشر؛ ومعنى الحشر: إخراج الجماعة وإزعاجهم من مكانهم كأنهم لم يلبثوا في قبورهم أو في الدنيا إلاَّ قدر ساعة من النهار وذلك لهول ما يرون؛ أي: ويوم نحشرهم حال كونهم مشبهين بمن لم يلبث إلاَّ ساعة، وحال كونهم ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ وهي حال مقدرة، أي: يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتعارفوا إلاَّ قليلاً، وهذا أول ما ينشرون ثم ينقطع التعارف لشدة الأمر عليهم، وحال كون الذين كذبوا بلقاء الله قد خسروا أنفسهم ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ إلى ما يصلحهم وينجيهم، ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ نبصرك ﴿ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴾ من العذاب في حياتك؛ كما أراه ذلك يوم بدر والغزوات بعده وفتح مكة كما تقدم في سورة التوبة؛ ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قبل أن نريك ﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ فنريكه في الآخرة، أي: إما نرينك بعض الذي نعدهم فيها ونعمت، أو نتوفينك فإلينا مرجعهم، فهذه الجملة جواب « نتوفينك » ﴿ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ أي: مجاز عليه، فالشهادة أريدَ نتيجتها؛ وهي المجازاة ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم ﴿ رَسُولٌ ﴾ يبعث إليهم ليدعوهم إلى الحق ﴿ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ ﴾ بالبينات فكذبوه ﴿ قُضِيَ بَيْنَهُم ﴾ بين الرسول ومكذبيه ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾ بالعدل، فأنجينا رسلنا وأهلكنا المكذبين، ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ والنجاة والهلاك في الدنيا ـ وهو معلوم ـ وفي الآخرة بأن يشهد الرسول عليهم بالكفر والإيمان، فيقضي بالعقاب والثواب كما قضى بالهلاك والنصر في الدنيا، ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ استبعاداً لهذا الوعد واستهزاءً به ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يا أيها النبي ويا أيها المؤمنون، ﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ فكيف أملك لكم فأستعجل في جلب العذاب لكم، ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ أي: ما شاء الله من ذلك كائن، ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ مضروب لهلاكهم ﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ لا يتأخرون ولا يتقدمون، فلا تستعجلوا فيجيء وقتكم وينجز وعدكم، ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لأهل مكة ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أي: أخبروني ﴿ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ ﴾ الذي تستعجلون به ﴿ بَيَاتًا ﴾ ليلاً ﴿ أَوْ نَهَارًا ﴾ وأنتم في طلب معاشكم ﴿ مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي: أيّ شيء من العذاب يستعجلونه؛ وكله مكروه لا يلائم الاستعجال، وهذه الجملة الاستفهامية جواب « إن »، والجملة الشرطية كلها متعلقة بـ« أرأيتم » أي: أخبروني أيّ شيء تستعجلون من العذاب إن نزل بكم؛ وكله مكروه لا يلائم الاستعجال، ﴿ أَ ﴾ تستعجلون العذاب ﴿ ثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ﴾ عليكم ونزل بكم ﴿ آمَنتُم بِهِ ﴾ أي: آمنتم بالله وقت نزول العذاب ـ وهو وقت اليأس كما سيأتي في هذه السورة من إيمان فرعون وقد أدركه الغرق ـ وقيل لكم:

﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ ﴾ أي: أحين وقع العذاب تؤمنون ﴿ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ تكذيباً واستهزاءً ـ كما قيل لفرعون فيما سيأتي ﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الآية: ٩١] ـ فانظر كيف ذكر هذا هنا ليطبق عليه قصة فرعون حتى يعتبروا ويصدقوا أن الإيمان يجب أن يكون وقت القوة والإمكان لا وقت اليأس، ثم عطف على «قيل» المقدرة ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ ﴾ الدوام ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ من الشرك والتكذيب ﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ ﴾ ويستنجزونك فيقولون إنكاراً واستهزاءً ﴿ أَحَقٌّ هُوَ ﴾ أي: ما جئت به من وعد وقرآن ونبوة تقوله بجدّ أم باطل تهزأ به ﴿ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾ نعم وربي إن العذاب لكائن، و«إي» من لوازم القسم، ولذلك يوصل بـ«واو» في التصديق فيقال: إي والله، ولا يقال: إي وحده، ومنه «أيوه» مختزل «إي والله» ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ بفائتين العذاب ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ﴾ بالشرك أو بالتعدي على حقوق الناس أو حقوق الله تعالى ﴿ مَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ من المعادن والأنهار والخزائن ﴿ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ لجعلته فدية لها من العذاب، فإن ما يملكه يقصد به نفع نفسه، ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ﴾ فعل أسرّ؛ يستعمل لإخفاء الشيء ولإظهاره فهو من الأضداد؛ وهو هنا بمعنى أظهروا ﴿ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ لأنهم بهتوا بما عاينوا مما لم يحتسبوه من فظاعة الأمر فلم يقدروا على الكتمان، ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴾ أي: وحكم بالعدل بين المؤمن والكافر والرؤساء والمرؤوسين والظالمين والمظلومين من الكفار ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ فيخفف من عذاب المظلوم ويشدد من عذاب الظالم، وقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ لو: فيه حرف امتناع لامتناع، وإنما امتنع ذلك لأن الملك لله، فمن أين يأخذ الكافر الفداء، وهذا قوله: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وقوله: ﴿ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ ﴾ أي: ما وعد الله به على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم من ثواب وعقاب ﴿ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، ﴿ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ هو القادر على الإحياء والإماتة ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وإلى حسابه وجزائه مرجعكم، فيخاف ويرجى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الموعظة: ما يدعو إلى الصلاح بطريق الرغبة والرهبة، وشفاء الصدور: خلوصها من الشكوك وسوء الاعتقاد، فالمعنى إذن: قد جاءكم كتاب قد جمع الحكمة العملية التي تبين محاسن الأخلاق ومقابحها، والحكمة العلمية التي تشفي الصدور من الجهالة والشك ثم قال: ﴿ وَهُدًى ﴾ إلى الحق واليقين ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لأنهم نجوا به من الضلال في الأخلاق وسوء الاعتقاد، ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ ﴾ فليفرحوا إن فرحوا بشيء ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ والفاء في قوله: ﴿ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ زائدة، نظيرها في قول الشاعر:

فإذا هلكت فعند ذلك فاجزعي

وكرر ذلك للتأكيد أي: ليفرح المؤمنون بفضل الله ورحمته، أي: ما آتاهم الله من المواعظ وشفاء الصدور وثلج اليقين بالإيمان وسكون النفس إليه، وهذا يقرب من قول قتادة: «فضل الله الإسلام، ورحمته القرآن»، وقول غيره: «فضل الله القرآن، ورحمته السنن»، وقول أبي سعيد الخدري: «فضل الله القرآن، ورحمته أن جعلنا من أهله»، وهذه الأقوال كلها متقاربة ترجع إلى أن العلوم والمعارف علمية أو عملية خير من الأمور المادية، وهذا هو قوله: ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ من حطام الدنيا فإنها سريعة الزوال.

واعلم أن المعارف هي مصادر المال، فالعلوم مقدمة على الأعمال، ولذلك قيل: «نية المرء خير من عمله» والنية من نتائج العلم، والعمل نتيجة النية. وقد ظهر في هذا الزمان بأجلى مظهر أن الأمم المتعلمة تتغلب على الجاهلة، فأصبح العلم مصدراً للقوة والمال، فالعلم يرقي العقول ويصلح الأحوال ويجلب الأموال، فأما جلب الأموال بالطرق العقيمة فإنه يضيع الوقت ولا يرفع النفس إلى معالي الأخلاق، فأما العلم واقتناؤه فإن صاحبه يعرف من ضروب الأسباب ما يسعده ويسعد أمته بأدنى عمل كعلم الكهرباء، فإن استعمالها في إنارة البيوت وجري المركبات أراح الإنسان من عناء المشي، والحيوان من تعب الكدّ، فلله در العلم فإنه راحة للأجسام وسعادة للقلوب، فبالعلم فليفرح العالمون، وبالنعم الدنيوية فليفرحوا، لا باعتبارها أنفسها بل باعتبار أن الله أنعم بها، أي: فليفرحوا بفضل الله على العبد لا بنفس النعم، فمن أنعم الله عليه بولد أو مال أو ذكر فليكن فرحه بأنه صدر من الله وأن الله تفضل به عليه، لا بنفس النعم لأنها زائلة خسيسة، واللذات الخسيسة صائرة للزوال، فأما العلوم والمعارف والفضل الإلهي في ذلك وفي النعم المادية فهو الذي يفرح به العبد.

وإذا كان القرآن شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين، وبه وبأمثاله من فضل الله ورحمته يفرح المؤمنون، فكيف جعلتم مما رزقكم الله حلالاً وحراماً، فحرمتم على أنفسكم في الجاهلية شيئاً وحللتم آخر؟ كما تقدم في سورة الأنعام إذ قالوا: ﴿ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ﴾ [الأنعام: ١٣٩] إلى آخر ما تقدم شرحه هناك، وكتحريم السائبة والبحيرة والوصيلة والحام. فكيف تفعلون ذلك ولا ترجعون في التحريم والتحليل إلى ما نزل في القرآن الذي هو شفاء الخ؟ وهذا قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم ﴾ أخبروني ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ ﴾ أي: أيّ شيء من زرع وضرع خلق الله لكم بإنزال الماء من السماء، وضوء الشمس وإلحاحه على الأرض، وإنبات النبات، وخلق الحيوان وإنمائهما ﴿ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ ﴾ أي: من ذلك الرزق ﴿ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾ كما تقدم، ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ أي: أخبروني أالله أذن لكم في التحليل والتحريم فأنتم تفعلون ذلك بإذنه ﴿ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ أم أنتم تكذبون على الله في نسبة ذلك إليه، وقوله: ﴿ مَّآ أَنزَلَ ﴾ «ما» استفهامية، العامل فيها «أنزل»، وكرر «قل» للتأكيد، ولما كان الافتراء على الله عظيماً أردفه بقوله: ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ أي: أيّ شيء ظنهم ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أيحسبون أنهم لا يجازون عليه، و«يوم» منصوب بـ«الظن» أي: أيّ شيء ظن المفترين في ذلك اليوم ما يصنع بهم، وهو يوم الجزاء بالإحسان وبالإساءة، وهذا القول وعيد عظيم لأنه أبهم أمره، والاستفهام: للتوبيخ والتقريع لمن يفتري على الله الكذب، وليس تقريع الكاذبين وتوبيخهم إلاّ لهدايتهم وإنارة السبل لغيرهم إذا لم يهتدوا، فعذاب الله وتوبيخه وأمثالهما يقصد بها جميعها هدايتهم وإنارة سبلهم، وهذا من جملة النعم. فلذلك أعقبه بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ ببعثه الرسل وإنزال الكتب وتبيان الحلال والحرام، وتقريع الكاذبين كما في هذه الآية، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ هذه النعمة ولا يتبعون الهدى، ولما كان عموم الفضل من الله لا يتم إلاّ وهو عالم بجميع أحوال العباد ظاهرها وباطنها أعقبه بذلك فقال: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ أمر مهم، ويكون أيضاً معناه: القصد، فهو على الأول اسم، وعلى الثاني مصدر ﴿ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ ﴾ أي: وما تتلو من أجل الشأن قرآناً ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ ﴾

أيها الناس جميعاً ﴿ مِنْ عَمَلٍ ﴾ أيّ عمل ﴿ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ﴾ شاهدين رقباء مطلعين عليه نحصي عليكم ﴿ إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ تخوضون فيه وتندفعون، من: أفاض في الأمر: إذا اندفع فيه، ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ ﴾ وما يبعد عنه وما يغيب عن علمه، وأصل العزوب: البعد، ﴿ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ ﴾ وزن نملة صغيرة حمراء، وهي خفيفة الوزن جداً، ﴿ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ ﴾ يعني: من الذرة ﴿ وَلَا أَكْبَرَ ﴾ يعني منها ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ يعني: في اللوح المحفوظ، و« لا » نافية للجنس، و« في كتاب » خبرها، وقرئ بالرفع على الابتداء، والخبر: ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ ﴾ الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ من لحوق مكروه في المستقبل ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما خلفوا من خلفهم، فلا من المستقبل يخافون ولا على الفائت يحزنون، ثم بيّن من هم؛ فقال: أعني أو هم؛ فقال: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ الشرك والمعاصي ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بالذكر الحسن وثناء الناس عليهم، وبمحبة الناس لهم، وببشارة الله في القرآن بالجنة لهم، وبالرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له، وبأن يرى الوليّ عند النزع مكانه في الجنة، وبنزول الملائكة بالبشارة من عند الله عند الموت لهم، فهذه البشارات الستة واردة في كتب التفسير وبعضها في الحديث، وسيأتي إيضاح هذا المقام. ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ هي الجنة، وأن تتلقاهم الملائكة مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة، وهذا بيان لتوليه إياهم، ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ أي: ولا تغيير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده، ومنها ما وعد به أولياءه وأهل طاعته في كتابه وعلى ألسنة رسله، ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي: كونهم مبشرين في الدارين ﴿ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أي: النجاة الوافرة، فازوا بالجنة وما فيها، ونجوا من النار وما فيها، وهاتان الجملتان اعتراض لتحقيق المبشر به، وليس من شرط الاعتراض أن يقع بعده كلام يتصل بما قبله.

واعلم أن الوليّ هو الذي إذا رؤي يذكر الله، وهو المؤمن التقي، وهو الذي يحب لجلال الله لا لمال ولا لجاه، وهو الذي يذكر الله بذكره ويذكر إذا ذكر الله، وهو من الولاء؛ وهو القرب والنصرة؛ فهو يتقرب لله بكل ما افترض عليه، وهو مشتغل القلب بالله مستغرق في معرفة نور جلاله، ولا يرى بقلبه غير الله.

ولا جرم أن هذه الصفات اتصف بها الأنبياء، ومنهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وإذا كان الوليّ لا يخاف إذا خاف الناس ولا يحزن إذا حزنوا فالأنبياء أولى، ولذلك قال: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ أي: تكذيبهم وتهديدهم وتشاورهم في تدبير هلاكك وإبطال أمرك، وكيف تحزن وأنت وليّ الله، كما في آية أخرى: ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾[الأعراف: ١٩٦] وإذا كان العبد كذلك فلا يخاف من شيء ولا يحزن على شيء لوثوقه برحمة الله في السراء والضراء، صحّ أو مرض، حيي أو مات، وكيف يحزن والحياة والموت عنده سيان، كما في آية: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ ﴾[التوبة: ٥٢] فجعل النصر والقتل حسنيين، فالقتل في الجهاد حسنى والنصر حسنى.

ولعمري كيف يحزن من يرى النصر والملك يساويان الموت وترك الدنيا، وإذا كان الأمر كذلك فكيف به إذا كان الله وعده بالنصر وله العزة وحده، فإن عدم الحزن أحرى، فلذلك أعقبه بقوله: ﴿ إِنَّ

﴿ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ كأنه يقول: كيف تحزن من قولهم فإن الغلبة والقهر والقدرة لله جميعاً وقد وعدك بالنصر، فأنت ستنتصر عليهم فعلام الحزن إذن؟ وقوله: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ أي: لأقوالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: بعزماتهم فيكافئهم عليها، وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: من الملائكة والثقلين، وإذا كان هؤلاء مملوكين لا يصلحون للربوبية فغيرهم من باب أولى، وهذا استدلال على ما بعده، وهو: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾ وكيف يكونون شركاء وهو مملوكون، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: إنَّما يتبعون ظنهم أنهم شركاء ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون فيما ينسبون إلى الله، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: مضيئاً لتبصروا مطالب أرزاقكم ومكاسبكم. تقول العرب: «أظلم الليل وأبصر النهار» أي: صار ذا ظلمة وذا ضياء. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: سمع اعتبار وتدبر، ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهاً له عن اتخاذ الولد وتعجب من كلمتهم الجاهلة، وكيف يكون له ولد والولد إنَّما يكون لأمرين: أن ينفع أبويه في كبرهما، وأن يكون بقاءً لذكرهما بعد فنائهما، والله ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ وإذا كان الولد لتقوية ضعف الوالد ولغناه من فقره وليتشرف به من ذله، فكيف يكون لله ولد وهو غني عن ذلك كله، ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً، ولا تجتمع النبوة مع الملك، وهاتان الحجتان تدحضان أن له ولداً، فلا حجة لكم أيها الناس في ذلك، وهذا قوله: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ أي: ما عندكم حجة بهذا القول، فإن الولد لمن افتقر إليه؛ ولا فقر عندي، والولد لا يكون مملوكاً؛ وأنا أملك السماوات والأرض ومن فيهن، فكيف أملك ما ألد؟ والملك والولادة لا يجتمعان، فلذلك ويخهم فقال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فهذا توبيخ وتقريع على اختلاقهم وجهلهم، ولذلك رتب عليه قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ باتخاذ الولد وإضافة الشريك إليه، ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ لا يفوزون بالجنة ولا ينجون من النار لافترائهم، ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ قليل يقيمون به رئاستهم في الدنيا وهم كافرون، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ بالموت فيلقون الشقاء المؤبد، ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم. انتهى التفسير اللفظي لهذا القسم.

غرائب القرآن في سورة يونس وهود ويوسف

بمناسبة قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآية: ٣١]

إلى قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الآية: ٣٤].

جلَّ الله وجلَّ العلم والحكمة، وعظمت المنة، وظهر النور وبهر، وتجلت الآلاء باهرة زاهرة. يا رب، هل نامت الأمم الإسلامية هذه القرون عن هذه البدائع القرآنية، يقول الله في أول سورة «يونس» التي نحن بصدد الكلام عليها ما ملخصه:

(١) إن الذي رباكم هو الذي خلق السماوات والأرض.

(٢) وهو الذي استوى على الملك.

(٣) وهو الذي يدبر الأمر.

ويقول هنا في مقابلة الأول: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وفي مقابلة الثاني: إنه يملك أسماعكم وأبصاركم، و﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾، وهذه الأعمال

من مقتضى الاستيلاء على الملك، وفي مقابلة الثالث: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾. ذكر هذه الأمور في أول السورة على هيئة الخبر، وذكرها هنا على هيئة الاستفهام، وذكر في ختامهما تدبير الأمر، فالعناية متوجهة إلى تدبير الأمر، وهذا كقوله في سورة «الطلاق»: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾[الطلاق: ١٢]. فالعناية موجهة في هذين المقامين إلى التدبير العام والنظام، هذا مقام الشهود.

فهذا هو المقام المحمود ومقام الشهود الذي جاء في سورة «آل عمران الآية: ١٨»: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾. أنزلت يا الله القرآن، وصرّفت فيه من كل مثل، وقلت في هذه السورة كما قلت في غيرها: يا عبادي، هاأنا ذا أدبر الأمر من السماء إلى الأرض، فانظروا هذه المشاهد وزوروا هذه المعاهد، أما أنا فقد عجبت كل العجب من أمم ينزل كتابها موجهاً عنايته إلى هذا المقام المحمود، ومقام الشهود مقام العلم، والحكمة مقام الحكماء الذين يقرؤون علوم هذه الدنيا، فبها يعيشون وبها يوقنون، وبها يعرجون إلى العالم القدسي.

يا ليت شعري هل يعلم الناس بعدنا، هل يعلمون أن سياسة القرآن وإن كانت متوجهة إلى الدعوة إلى الله قد تضمنت جميع مطالب الدنيا، فإنه يستحيل علينا أن نشهد هذا التدبير والنظام إلاّ بعد دراسته، ومتى درسناه قام فريق منا، فاختصّ بالمقام المحمود مقام الشهود، فعرجت روحه إلى المقام الأقدس، وهذا كقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾[البقرة: ٢١٩-٢٢٠]، فجميع العلوم الكونية مبدؤها النظام الدنيوي ونهايتها الرقي العقلي وشهود التدبير.

وإني أحمد الله وأشكره أن هيأ الأسباب وأعد العدد لهذا المقام بهذا التفسير، فهو إن شاء الله كاف لمن قرأه أو جله وفهمه يهديه إلى مقام الشهود، وبه يكون من أولي العلم الذين هم معطوفون على الملائكة، الذين يشهدون الوحدة سارية في هذا العالم مع العدل والقيام بالقسط، ولهذا وأمثاله يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[يونس: ٥٨]. هذا مقام العلماء والحكماء الأولياء، هذا مقام الحمد ومقام الصدّيقين، وسيكثرون في هذه الأمة عما قريب.

هذا ما تجلى في نفسي اليوم صباح السبت السادس من شهر أغسطس سنة ١٩٢٧.

أما سورة «هود» فلقد تجلى فيها ما ستراه هناك من العجب، فستجد هناك من آيات الله الباهرة التي لم تعرف حق معرفتها إلاّ في زماننا، وستشهد هناك مشهداً يبهرك، وترى نور الله مشرقاً على الحيوانات، وتدرك منها ما لم يكن ليخطر ببال حكيم من أكابر الحكماء، فبينما ترى حيواناً أمامك له لون أو شكل، فتمرّ عليه بلا فكر، إذا بك أمام مشهد إلهي باهر عجيب، أتدري لم هذا؟ هذا لأن الله ذكر في أول السورة أنه ما من دابة في الأرض إلاّ عليه رزقها، ويعلم مستقرّها ومستودعها، ثم بعد آيات كثيرة جاءت قصة هود، وأعاد الكرّة على مسألة الحيوان، فقال: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ [هود: ٥٦]. إذن يعلم العقلاء أن هنا سراً يجب التنبه له؛ فكما كان السر في سورة «يونس» تدبير الأمر العام، هكذا كان السر في سورة «هود» تدبير أهم الأمور في الأرض وهو عالم الحيوان، ولعله لذلك سميت السورة بـ«هود»، لأن أهم ما فيها إنّما هو الأخذ بناصية الحيوان المذكورة في قصة هود، يرشدنا الله بعنايته بتدبير الأمر وإعادة ذكره، وبنظام الحيوان وكلاءته إلى أن القرآن أنزل لمثل هذا.

أنزل القرآن لأقوام يعقلون هذه النعم، ويفكرون في التدبير المحكم العام تارة والخاص أخرى، أفلا تعجب معي يا صاح كيف نام المسلمون وهم يقرؤون القرآن ويدرسون التفاسير، أين كانت عقول المتأخرين؟. اللهم إني قد نصحت وأديت ما عليّ، اللهم فاشهد، فإنه لا عذر للمسلمين بعد ما كتبته في هذا التفسير، ولا عذر لمن عرف هذا ولم يصرف حياته في نشر هذه الفكرة في أمم الإسلام.

أما سورة «يوسف» فقد جاء في أولها: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾، ثم أعاد ذكر الآيات قبيل أواخر السورة فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الآية: ١٠٥]. يقول: ليست قصة يوسف ولا غيرها هي كل الآيات، إن أهل الأرض مغمورون في الآيات تحيط بهم من كل جانب ولكنهم عنها معرضون، إذن سورة «يوسف» عنايتها بالنظام العام، وسورة «هود» عنايتها نظام الحيوان، وسورة «يوسف» وجهتها أن التدبير العام والتدبير الخاص كلاهما دلالات على الله، وهي كثيرة جداً حتى ذكرها بلفظ: ﴿كَأَيِّن﴾.

مقاصد قصص القرآن

اعلم أن قصص الأنبياء أشبه بأشجار ذات فروع وأوراق وأزهار؛ فالجهلة يكتفون منها بظواهرها والحكماء والعلماء يبتغون ثمراتها، فترى صغار العلم يبحثون في الآثار وفي كتب التاريخ يقول أحدهم: أين قوم عاد؟ أين آثار ثمود؟ وهل تجد في آثار المصريين ذكر يوسف؟ وهل حقيقة كان يوسف وزير المالية ودبر الأمور؟ فبينما هؤلاء يضيعون أوقاتهم في ذلك عسى أن يعثروا على ضالتهم المنشودة فيؤمنوا، إذا بالطائفة الحكيمة تعرض عن هذا وتقول: هذه أشجار وأزهار جاءت لمواعظنا، نحن آمنا بها والإيمان لن يكفينا، فلا بد من اليقين، وأين هو اليقين؟ ثم يجدون ذلك اليقين في ثنايا القصص، إذ يقول هود: إن كل دابة أخذ الله بناصيتها، وفي يوسف أن قصته ليست هي كل شيء، فالدنيا كلها آيات فاليقين والرقي في الدنيا والآخرة إنّما يكون بالتوجه للمقاصد والثمرات لا للأغصان والزهرات، ولذلك ختم سورة «يوسف» بأن في قصصهم عبرة لأولي الألباب، إشارة إلى أن الناس قسمان: قوم هم أولو الألباب، وقوم أولو قشور؛ فأولو الألباب يعمدون إلى لبّ هذه القصص، وأهل القشور يرجعون إلى قشور العلوم، كعلم الآثار في المتاحف أو في نواويس قدماء الأمم عسى أن يعثروا على تصديق هذه.

كل له غرض يسعى ليدركه والحر يجعل إدراك العلا غرضا

للتدبير ثمرتان
ثمرة علمية، وثمرة عملية

إن تدبير الأمر الذي ذكره الله هنا وفي آيات أخرى قد ظهر لك أيها الذكي ظهوراً على قدر الطاقة الإنسانية، وقد رجع إلى نظام هذه الدنيا وحسن إتقانها وعجائبها، ومن نال هذا الحظ في هذه الدنيا فإنه يختلس له أوقاتاً يلحظ فيها جمالاً لا يعقله الغافلون، فينسلخ من عموم هذه الدنيا انسلاخاً مؤقتاً، وهذا الانسلاخ يقربه من السعادة ويبعده من شقاوة المادة، وهذا هو المعنى فيما ورد: «إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا. قالوا: وما رياض الجنة يا رسول الله؟ قال: مجالس الذكر»، ولسنا نبحث الآن في صحة سند الحديث، وإنّما معناه صحيح، لأن الذين أدركوا معنى هذه الدنيا يتخلصون من ذل الحياة وأسر المادة في بعض أوقاتهم، وهذا هو الذي يشير له الحديث: «أرحنا يا بلال بالصلاة»، وإليه

الإشارة في قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فأثقال هموم الحياة فيها آلام قد تصير أشد من ألم النار، بل كثيراً ما يحرق الإنسان نفسه في أيامنا هذه تخلصاً من هموم هذه الحياة، إذن هموم حياتنا قد تعادل النار وقد تكون أشد منها، وكم ورد من الأخبار في هذه السنة عن قوم أحرقوا أنفسهم، وأنا نفسي أعرف رجلاً بعينه في قرية «المرج» بالقرب من القاهرة، علمت منذ شهرين أنه تخلص من آلامه المرضية بإيقاد النار في جسمه فمات محترقاً بالنار تخلصاً من نار المرض الشديد، فإذا جعل الله النار المحسوسة على إبراهيم برداً وسلاماً، فهو يجعل نار الحياة التي تشبهها أو تزيد عليها برداً وسلاماً أيضاً، وذلك بابتهاج النفس بالعلوم العامة الداخلة في قوله: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾.

ضرب مثل لهذا المقام وهو الاستلذاذ بمشاهد التدبير

اعلم أن جميع العلماء الذين أغرموا بعلم خاص كالطب والهندسة وكعلوم اللغة وكعلم الحيوان، وهكذا يحسون براحة من هموم الحياة في الوقت الذي يحصرون همتهم في علمهم ويحسون بلذة، فهناك أمران: نسيان هموم الحياة في لحظة الاشتغال بالعلم ولذة نفس هذا العلم، فإذا كان هذا في علم جزئي فما بالك بمن نظره في هذا النظام العام كما هو مذكور خلال هذا التفسير.

لا جرم أن هذه الطائفة لها لذة أعلى من لذات غيرها ثم يعقبها آلام الحياة المعتادة وهكذا، فهذه هي الثمرة العلمية للعلم بالتدبير العام.

الثمرة العملية لذلك التدبير

أما الثمرة العملية، فاعلم أن التدبير كلما كان أتم كانت الوحدة أقوى وأكمل، وكلما كان التدبير أنقص كانت الوحدة أضعف، ولعلك تقول هذا لغز، فما معنى ضعف الوحدة وما قوتها؟ أقول: اعلم أن الأمم التي فوق هذه الأرض ونعيش معها من أمم الشرق والغرب قسمان: أمم تعلمت وعقلت فقامت بالعدل في أمور الحياة واتصفت بصفات الإنسانية، فهذه يكثر عددها كأمم الألمان والطليان وهكذا الولايات المتحدة، فهذه الأمم عظمت وقويت وحدتها، وهذه الوحدة لم تتم لها إلاّ بنظام وتدبير، ولولا حسن التدبير والتعقل ما اجتمعوا، فالاجتماع نتيجة حسن التدبير والنظام، فأما الأمم الجاهلة فهي التي يقل فيها حسن التدبير فتتفرق شيعاً ويذوق بعضها بأس بعض؛ فالأعراب في البوادي والأمم الجاهلة تراهم متفرقين يحارب بعضهم بعضاً.

واعلم أننا في زماننا نرى الأمة العظيمة الواسعة الأكناف الكثيرة العدد، تسطو على التي قلّ عددها، وكأن الله بذلك يذكرنا بأنكم أيها الناس ما دمتم غير عاملين بنظامي، غافلين عن حكمتي في تدبيري، فإنكم مغلوبون على أمركم.

ألا ترون أنكم لما قلّ عددكم سلطت عليكم من هم أكثر جمعاً، لأنهم غالباً ما كثر جمعهم إلاّ لصلات بينهم، وحكومات تقضي بالحق في مشكلاتهم، فأما المتنابذون المتشاكسون فإني أسلط عليهم الأقوياء الذين قلدوني في عملي، إنني دبرت هذه الدنيا وجعلتها عالماً واحداً، ولذلك تراه متصلاً غير منفصل، يستمد بعضه من بعض، والناس لما عجزوا عن تقليدي في صنعتي عذبتهم على مقدار هذا العجز، ولو أنهم قلدوني في تدبيري لكانوا أوفر جمعاً، فخاف عدوهم منهم لوحدتهم القوية المستمدة من وحدانيتي.

هذا ما فهمته من قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ ﴾[يونس: ٣١] في هـذه الآيات. وملخص هذا كله أمران:

الأمر الأول: أن الناظر في هذا العالم الذي درسه يكون له أوقات يلمح فيها جناب القدس وينال بهجة لا يعرفها سواه.

الأمر الثاني: أن الأمم التي هي أتم نظاماً تكون أوفر عدداً والعكس بالعكس، ويكون العز غالباً لكثرة العدد المنظم أو لقوة الجماعة التامة، والذل لمن ليس كذلك.

كيف يشهد الناس التدبير في هذا النظام؟

اعلم أننا ما دمنا في هذه الأرض فإننا لا نشاهد صانع هذا العالم بحواسنا كالسمع والبصر الخ، لأن هذه لا تدرك إلاّ الأجسام، وإنّما تدرك آثاره في نظامه وتدبيره وتبتهج ويكون ذلك سعادة معجلة في الدنيا، وهي أرقى السعادات، لأنها خاصة النفس الإنسانية، فإذا انسلخنا من هذه الأجسام إما بالموت وإما بالرياضات، فقد يرى فوق ما يراه الناس في الأرض، ولكن لا نشاهد الله عزّ وجلّ قط إلاّ إذا خلصت أرواحنا من كل ما يلازمها من عوائق الكمال، فإنها بعد الموت ما دامت ملطخة بالآثام فإنها تكون أشبه بالمادية، ولا تزال ترتقي في الصفاء طبقاً عن طبق حتى تصير روحاً خالصة أشبه بالملائكة فتعاين الله.

ولما كان الإنسان في هذه الأرض على هذه الحال ذكر في المرتبة الثالثة في قوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ ﴾[آل عمران: ١٨]، فأولو العلم في الأرض يشهدون آثار النظام، والملائكة يشهدون مشاهد أرقى، ولا يعلم حق معرفته إلاّ الله تعالى، وليس كلامنا في الأنبياء، فهذه طبقة لها مقام لسنا من أهله حتى نخوض فيه. انتهى.

لطيفة في قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ ﴾ الخ وتحقيق هذا المقام

اعلم أن قوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ متصل بقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ﴾، فأما ما بينهما وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ وما اتصل به من ذكر أن الله مطلع علينا حين نندفع في شؤوننا، وحين نتلو القرآن لأجل تلك الشؤون لنعمل بمقتضاه، وحين نعمل أيّ عمل، وأن الله عزّ وجلّ لا يغيب عنه شيء صغير أو كبير، وذكر الأولياء وأنهم لا خوف عليهم الخ، وذكر صفاتهم، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم ألا يحزن، وتذكيره بأن العزة لله جميعاً، وذكر أن لله ما في السماوات وما في الأرض، فهذا كله كمقدمات لقوله: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ لتأييد قوله أولاً: ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾.

واعلم أن عادة القرآن أن يدخل في غضونه من المصالح والمعارف والحكم ما يثلج له قلوب المستبصرين، فبينما تراه يثبت عدم الشريك وخطأ الكافرين، تراه يأتي لك بالعجب العجاب من عموم علمه ونصر أوليائه، وكأن حكاية الكفار كانت سبباً في إدخال هذه الحكمة العجيبة الجليلة.

واعلم أن مدار المقال في هذا المقام على عموم علم الله لكل صغيرة وكبيرة، وأولياء الله تعالى هم الذين تقدم تعريفهم بأنهم المتحابون في الله كما في حديث مسلم: «يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلاَّ ظلي». وفي رواية الترمذي: «لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء».

وتقدم أيضاً تعريفهم أنهم يذكرون بذكر الله ويذكر الله بذكرهم، فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله تبارك وتعالى: إن أوليائي من عبادي الذي يذكرون بذكري وأذكر بذكرهم» وهذا ذكره البغوي بغير سند.

فهؤلاء الأولياء لا يخافون ولا يحزنون، واعلم أن في الولاية معنى القرب، وليس القرب من الله بالمكان، وإنَّما القرب له بالعلم، فإذا علم العبد أن الله سبحانه هو الذي نظم هذه الكائنات، وأحاط بها علماً، وربط العالم العلوي بالسفلي بحيث جعل ضوء الشمس والقمر والكواكب نافعاً لزرعنا لنا وللحيوان، وجعل حركات تلك الأجرام معلمة لنا وهادية بحيث نعرف بها أوقاتنا وسير سفننا في البحر بمواقع النجوم، وكأن هذا العالم كله جسم واحد، فكل حركة وسكون معلومة عنده جعلت لمصلحة حتى أدنى حركة من كوكب، وهذه الأرض التي نحن عليها ومن هم فوقها مرتبطون بالعوالم الأخرى ارتباطاً لا انفكاك له.

فإذا عرف العبد هذا وأيقن به، ثم زاد ذلك الإيقان بما يرى من الأدلة والبراهين الدالة على علم الله تعالى بكل صغيرة وكبيرة، فإنه لا يخاف ولا يحزن، وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ﴾ [الحديد: ٢٣] فهذه الآية تشير إلى أن العبد متى أيقن أن الله يعلم كل شيء، وقد كتبه في اللوح المحفوظ، فإنه لا يحزن ولا يفرح، لأنه يعلم أن ذلك لا بد منه، وأن الله يفعل لمصلحة العبد، ولا يظلم ربك أحداً، وأن العبد إذن لا تقصير عنده، لأن القدر غالبه، فالمدار على إيقان العبد بأن الله يعلم كل شيء، وهذا اليقين عزيز الوجود، وإنَّما الذي في القلوب إنَّما هو الإيمان، والإيمان أقل من اليقين.

ولما كان المقام مقام العلم وعمومه لكل شيء، أتبعه بذكر الأولياء للإشارة إلى أن ولايتهم إنَّما جاءت من جهة اقترابهم بالعلم، ومن عجب أن يذكر في الحديث: «الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له».

فعن عبادة بن الصامت قال: «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، قال: هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له» أخرجه الترمذي.

وفي البخاري عن أبي هريرة قال صلى الله عليه وسلم: «لم يبق بعدي من النبوة إلاَّ المبشرات، قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة».

وفي البخاري أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة».

وروى مسلم: «وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً، والرؤيا ثلاث: الرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدّث المرء نفسه».

قال العلماء : إن وليّ الله لاستغراق همه في جلال الله يكون عند النوم مشغول القلب بالله ، فلا يرى إلاّ صدقاً . ويقال : إنّما كانت جزءاً من ستة وأربعين لأن مدة الوحي ٢٣ سنة ، وكان في ستة منها يؤمر في النوم بالإنذار ، وستة أشهر من ثلاث وعشرين سنة جزء من ستة وأربعين جزءاً .

أقول : إن في ذكر الرؤيا هنا إشارة إلى أمر أعجب وعلم أحكم ، فإن الناس كما قاله بعضهم لم يصدقوا الأنبياء إلاّ لما ركز في نفوسهم من أن فيهم من يرى بعض رؤيا صادقة تقع كما رؤيت ، فلذلك جوّزوا أن يكون من الناس من يطلع على المغيبات الدينية كالأنبياء ، وأيضاً إن الإنسان إذا رأى رؤيا وقعت كما هي وكان قد رآها قبل وقوعها ، فإن ذلك دليل أن الله تعالى يعلم كل شيء قبل حصوله ، وإذا كان العبد قد علم ذلك قبلها بزمن يسير ، فالله يعلمه قبل خلق الإنسان ، فعليه تكون الرؤيا الصادقة من الدلائل عند الناس أن الله يعلم كل شيء قبل حصوله ، والإيمان لا يكفي لذلك ، لأن الإيمان لا يعطي الناس اليقين ، وإنّما اليقين بأحوال أخرى فوق الإيمان .

فاعجب لذكر أولياء الله بعد ذكر علم الله ، وكيف كانت الولاية هي القربى ، والقربى إنّما تكون بالعلم ، ومن زاد علمه بهذا العالم ونظامه ، وأيقن بانتظامه ، ورأى تناسق العوالم العلوية والسفلية ، وارتباط بعضها ببعض ، وأن حركات الكواكب لها اتصال تام بعالمنا ونظامه ، وهذا النظام أشبه بما في الصلاة من الدعاء بالهداية العامة ، إذ يقول المصلي : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ﴾ ولا يقول : اهدني وحدي ، ويقول : إن المحامد لله لأنه ربّ العوالم كلها ، ويقول : إن التعظيمات كلها لله ويلقي نظرة على النبوة العامة وعلى الناس الصالحين كأنهم شخص واحد تصلهم السلامة من الله الذي يسلم عليهم يوم القيامة .

أقول : فمن ينظر للعوالم وهي مرتبطة ارتباطاً محكماً ، وللأمة كلها ، وارتباطها في دعاء المسلم وأنهم جميعاً متضامنون متحابون ، يدعو آخرهم لأولهم ، ويعلم آخرهم أولهم ، كما ارتبطت العوالم كلها بعضها ببعض ، فإنه يعتريه الدهش من نظام بديع وثيق ، ويحار لبه لا سيما إذا لاحظ تألق الأنوار المشعة في نواحي هذا العالم وحسابها الدقيق البديع ، فإنه يخرّ ساجداً لتلك العظمة ، ويحب ذلك الجمال ، ويبحث في العلوم على ضالته المنشودة ، ويرى أن بغيته أن يقف على ذلك السر المصون ، وأن العالم كجسم واحد تدبره ذات واحدة ، لا يعزب عنها صغير ولا كبير من أموره ، ثم إذا ازداد هذا الرأي عنده فعرف أنه لا يفعل إلا لمصلحة الذات المخلوق نفسه وأن الخير والشرّ الجاريين على كل مخلوق إنّما جعلا لكماله ، وإذا تأكد عنده أن الله يعلم كل شيء وهو المحرك لكل شيء فإنه لا محالة يزول عنه الخوف والحزن ، فلا يخاف من مستقبل ، لأنه يرى الله الرحيم هو الذي يتولاه كما تولى كل حيوان ونبات ، ولا يحزن على ماض لأنه يعلم أنه لا فعل له فكيف يندم على ما لا قدرة له عليه .

واعلم أن الناس وإن كانوا مؤمنين لا يزال يساورهم الوسواس ويقولون : لو فعلنا كذا لحصل كذا ، ويخافون من أحوال آتية في الحياة وبعد الموت ، وذلك لعدم ثقتهم بأن الله مطّلع على الصغيرة والكبيرة ، ولو علموا ذلك مع علمهم أنه أرحم من الأم ما هلعت قلوبهم ولا جزعت نفوسهم ولكنهم إلا قليلاً منهم لا يعلمون ذلك . فكانت الرؤيا التي وردت في البخاري ومسلم أنها من المبشرات نافعة أيضاً في إيقان الناس بأن الله يعلم الأشياء قبل حصولها ، فيستيقظون لذلك العلم ويفتح لهم باب المعرفة فيرون الله مطّلعاً على العباد ولا يعزب عنه مثقال ذرّة فيقلّ الحزن والخوف .

واعلم أن الأولياء والأنبياء والعلماء والأكابر والحكماء جميعاً يخافون ويحزنون، ولكن الخوف والحزن عندهم جزئي لا كلي، لأنهم يعتقدون نهاية كل شيء، وأن الله هو الخالق، فيفوّضون الأمر إليه، وأيضاً إذا جدّ العبد واجتهد وفعل كل ما وجب عليه ثم نزل المقدور فحزنه يكون ضئيلاً بالنسبة لحزن الجهلاء الذين قصر نظرهم.

هذه هي الحال العامة في سائر الأولياء والأنبياء، فجميعهم هذه حالهم على سبيل الإجمال وهناك حال خاصة، ذلك أن العبد إذا استغرق في معرفة الله بحيث لا يخطر بباله في تلك اللحظة شيء مما سوى الله، ففي هذه الساعة تحصل الولاية التامة، وصاحبها لا يخاف شيئاً ولا يحزن بسبب شيء، وكيف يعقل ذلك والخوف والحزن لا يحصلان إلاَّ بعد الشعور بالشيء، والمستغرق في نور جلال الله غافل عن كل ما سوى الله، فيمتنع أن يكون له خوف وحزن، وهذه درجة عالية، والناس في كل وقت يشاهدون من هو مغرم بمعشوقه حتى ينسى ماله وولده، ومن هو مغرم بقتال عدوه، فينسى ولده وماله وقت الانهماك في القتال، ومن هو مستغرق الهمّ في شؤون أخرى، وكلهم على هذا المنوال وهذه حال خاصة ليست دائمة. وكل هذا الذي ذكرناه في الدنيا، أما أحوال الناس في الآخرة فالأولياء والأنبياء هم الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فهذا تفصيل المقام.

حكاية

عن إبراهيم الخواص أنه كان بالبادية ومعه واحد يصحبه، فاتفق في بعض الليالي ظهور حالة قوية وكشف تام له، فجلس في موضعه، وجاءت السباع ووقفت بالقرب منه، والمريد تسلق على رأس شجرة خوفاً على نفسه منها، والشيخ ما كان فزعاً من تلك السباع، فلما أصبح وزالت تلك الحالة، ففي الليلة الثانية وقعت بعوضة على يده، فأظهر الجزع من تلك البعوضة، فقال المريد: كيف تليق هذه الحال بما قبلها؟ فقال الشيخ: إنَّما تحملنا البارحة ما تحملناه بسبب قوة الوارد الغيبي، فلما زال ذلك الوارد فأنا أضعف خلق الله. وهذه الحكاية سواء أصحت أم لم تصح رمز لحال جميع الناس، أنهم إن ورد وارد عليهم أهمهم شغلهم ذلك الوارد، فرب رجل تقطعه السيوف في الحرب وقد غاب شعوره من خوف أو ذهول، وهنا في حبّ الله قد يغيب الشعور للمحب أو لمشاهدة جمال غالب في النفس، وعلى ذلك تفهم ما يتغنى به كثير من الناس من قول ابن الفارض:

ويما شئت في هواك اختبرني　　　فاختياري ما كان فيه رضاك

فإن هذا القول نقله صاحب الإحياء الذي كان قبل ابن الفارض بأكثر من قرن عن بعض الصوفية، وقال: إن قائله أصيب بحصر البول ثلاثة أيام، فاضطر أن يجمع الأطفال ويقول لهم قولوا: فلان كذاب فلان كذاب، ثم عفا الله عنه وشفي. والحاصل أن الناس في الدنيا أقسام:

(١) منهم من يرى أن العالم مادي لا عقل فيه، وكل ما فيه إنَّما هو مصادفات وحمق وحزن، وهؤلاء يحزنون ويخافون.

(٢) مؤمنون بإله ولكن هؤلاء في أكثر الأوقات غافلون عن أنه مطلع ومقدر لكل شيء، فهؤلاء ربما قلّ الحزن والخوف عند التذكير، ولكنهم في أكثر الأحوال مثل غير المتدينين يسيرون على مقتضى العادة من الهلع والجزع.

(٣) مؤمنون أتقياء صالحون، وهؤلاء بتكرار ذكر الله والاعتبار يقلّ الحزن عندهم، ولكن هذا ليس مطرداً فيهم، ومنهم من تغلبه الحال فلا يخاف ولا يحزن إذ ذاك، فإذا زالت تلك الحال رجع إلى عادته.

(٤) مفكرون عرفوا أن الله مطلع على كل شيء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وهؤلاء ربما يقلّ الحزن والخوف عندهم، ولكن ذلك يعوزه أن يقف المرء بنفسه على أن الله يعلم كل ذرة، ويكون ذلك نصب عينيه ببراهين لا تقبل الشك عنده ويقتنع هو بها، وهذا يكون أقرب إلى السعادة، فلا خوف ولا حزن عنده إلاّ قليلاً، وهذا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠] ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ [الحديد: ٢٣].

والحق أن الإنسان لا يهدأ له بال إلاّ إذا أيقن وشاهد أن هذا العالم في يد الله، وأنه المطلع على صغير الأمور وكبيرها، وأنه لا يفعل إلاّ لمصلحة العبد، وأن كل ما يفعله العبد أو ينتابه كان مقدراً في الأزل، متى تم ذلك تمت سعادة المرء في الدنيا قبل الآخرة، لأنه أصبح ولا حزن عليه ولا خوف، وكيف يخاف وهو يعتقد أن الله رحيم، وأن ما أصابه من خير ليس من نفسه، وما أصابه من شر ليس من نفسه، وأن ذلك بالقضاء والقدر، والله لا تبديل لكلماته ومقدراته، فإنها كلها بقضاء الله، ولا تبديل لذلك القضاء، وهذه راحة تامة نفسية، فإذا انضم لذلك أن يكون المرء متوكلاً على الله حقاً، أي: قائماً بكل الواجبات وكل ما يجب عليه وقام في حياته على السنن المرسوم الطبيعي، فمثل هذا العبد سعيد اليوم وسعيد غداً، فلا حزن اليوم ولا خوف ولا شقاء غداً. وإياك أن تظن أن التوكل على هذا النمط غير سائغ، فلتعلم أن المتوكل إن لم يقم بكل ما ذكرته فهو مغرور وليس بمتوكل. انتهى القسم الرابع.

القسم الخامس

قصة سيدنا نوح عليه السلام

﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

التفسير اللفظي

اعلم أن الله لما ذكر في هذه السورة أمر الكفار وأنهم لا يفلحون، وأن العزة لله جميعاً، وأن لكل أمة أجلاً، وأن العذاب آت، وما أشبه ذلك من الوعيد تصريحاً وتلويحاً، ناسب أن يذكر قصة،

لأن التاريخ أحكم في النفوس وأوفق للعقول، وأشد وقعاً وأعظم وعظاً، فقال: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ يا محمد ﴿ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ خبره مع قومه ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم ﴾ عظم عليكم وشق ﴿ مَّقَامِى ﴾ مكاني، يعني نفسه، كقوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾[الرحمن: ٤٦] أي: خاف ربه، أو مقامي أي: مكثي بين أظهركم ألف سنة إلا خمسين عاماً ﴿ وَتَذْكِيرِى ﴾ إياكم ﴿ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ وثقت به ﴿ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ ﴾ فاعزموا عليه؛ من أجمع الأمر: إذا نواه وعزم عليه ﴿ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾ الواو بمعنى: مع؛ أي: اجمعوا أمركم مع شركائكم ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ ﴾ في قصدي ﴿ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ أي: لا يكن قصدكم إلى إهلاكي مستوراً عليكم، ولكن مكشوفاً مشهوراً تجاهرونني به، والغمة: السترة؛ من غمه: إذا ستره، ﴿ ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ ﴾ ذلك الأمر الذي تريدون بي؛ أي: أدّوا إليّ ما هو حقّ عندكم من هلاكي، كما يقضي الرجل غريمه، أو اصنعوا ما أمكنكم ﴿ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ ولا تمهلوني، ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ فإن أعرضتم عن تذكيري ونصحي ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ﴾ من جعل يوجب توليكم عن نصحي، ويستدعي النصح الحزن على ما يفوتني إذا توليتم، وإنما أذكركم لوجه الله، وذلك أوقع في النفس، ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ وهو الثواب الذي يثيبني به في الآخرة ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ من المستسلمين لأوامره ونواهيه، ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فداموا على تكذيبه ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ ﴾ من الغرق ﴿ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ أي: السفينة، يقال: إنهم كانوا ثمانين، ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ ﴾ أي: وجعلنا الذين معه في الفلك سكان الأرض بعد الهالكين، ﴿ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ بالطوفان، وقوله: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ تحذير لمن كفر بالرسول صلى الله عليه وسلم وتسلية له، وقد تم هذا، فإنهم حلّ بهم ما حلّ بقوم نوح في الغزوات المتتابعات، فأولئك أغرقوا، وهؤلاء قتل منهم قوم والآخرون أسلموا كما أسلم ذرية الذين قتلوا وتم الأمر وهو من عجائب القرآن، بل هذه أهم معجزة، فكيف يقول هذا في مكة ثم يصح الأمر ويتم النصر كما أنذرهم، وهذا هو العجب العجاب، ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا ﴾ أرسلنا ﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ من بعد نوح ﴿ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴾ كل رسول إلى قومه ﴿ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ المعجزات الواضحة المثبتة لدعواهم، ﴿ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ﴾ فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة تمسكهم بالكفر ﴿ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ﴾ أي: بسبب تعودهم تكذيب الحق وتجرئهم عليه حتى صار كالطبيعة فيهم، ثم قال مثل ذلك في الطبع ﴿ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ ﴾ أي: نختم ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ أي: المجاوزين الحدّ في التكذيب. انتهى تفسير القسم الخامس.

القسم السادس
قصة سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم

مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم ﴾ من بعد هؤلاء الرسل ﴿ مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا ﴾ بالآيات التسع ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ عن اتباعهما ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ معتادين الإجرام واجترؤوا على تكذيب الرسل لما انطبع في نفوسهم من الذنوب والقسوة.

ثم أخذ يفصل ذلك فقال: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا ﴾ بتظاهر المعجزات الباهرة ﴿ قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ فائق في فنه واضح ﴿ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ﴾ هذا استفهام إنكاري والمقول محذوف تقديره إنه لسحر، ثم قال: ﴿ أَسِحْرٌ هَٰذَا ﴾ وهو استفهام آخر على سبيل إنكاري يعني أنه ليس بسحر، ثم احتج على صحة هذا بقوله: ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ يقول: لو كان سحراً لاضمحلّ ولم يبطل سحر السحرة، ولكنه لم يضمحلّ وأبطل سحر السحرة، فهو إذن ليس بسحر.

ولما لم تستقم دعواهم أنه سحر، شرعوا يدّعون دعوى أخرى إذ ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا ﴾ لتصرفنا، واللفت والفتل أخوان ﴿ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ من عبادة الأصنام ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي: الملك في أرض مصر، وسمى الملك كبرياء لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ بمصدقين ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ حاذق في السحر، وذلك لمعارضة المعجزة التي أتى بها موسى ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا

قال موسى ما جئتم به السحر ﴾ أي: الذي جئتم به هو السحر، لا ما سماه فرعون وقومه سحراً ﴿ إن الله سيبطله ﴾ سيمحقه أو سيظهر بطلانه ﴿ إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ لا يثبته ولا يقويه، لأن السحر تمويه لا حقيقة له، وقد شرحت هذا الموضوع في سورة «البقرة» فارجع إليه إن شئت. ﴿ ويحق الله الحق ﴾ ويثبته ﴿ بكلماته ﴾ بأوامره وبوعده الصادق لموسى أنه يظهره، أو بما سبق من قضائه وقدره لموسى أنه يغلب السحرة، وأن الحق يعلو على الباطل ولو بعد حين ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ ذلك ﴿ فما آمن لموسى ﴾ في مبدأ أمره ﴿ إلا ذرية من قومه ﴾ إلا طائفة من ذراري بني إسرائيل، أي: إلا أولاد من أولاد قومه، لأنه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفاً من فرعون، ولم يجبه إلا طائفة من أبنائهم مع الخوف كما هي العادة أن الشبان أسرع لقبول الدعوة الصالحة. أما الشيوخ فقد تصلبت فيهم الآراء القديمة ولبسوا ثوب الذلة ضافياً عليهم، ولم يصل لذلك أبناؤهم كما هو دأب الأمم كلها. فالشبان أول سابق للوطنية وللسياسة وللانقلاب العام، فقوله: ﴿ على خوف من فرعون وملإيهم ﴾ أي: أشراف آل فرعون ﴿ أن يفتنهم ﴾ أي: أن يعذبهم فرعون، وهو بدل منه. فهذا القول تبيان لحال كل دعوة دينية أو سياسية في أول أمرها، إذ يكون المتبعون من الشبان ومن الضعاف وهم خائفون وجلون من رجال السياسة والملوك، وإنما أفرد الضمير الفاعل في قوله: ﴿ أن يفتنهم ﴾ للدلالة على أن الخوف من الملأ كان بسببه ﴿ وإن فرعون لعال في الأرض ﴾ لغالب فيها ﴿ وإنه لمن المسرفين ﴾ في الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية.

ولما كان الدعاة دائماً يشجعون المدعوين ويثبتونهم على المبادئ الجديدة، ورأى موسى شبان بني إسرائيل خائفين وجلين أخذ يثبتهم ويقوي إيمانهم ويريهم أن الله هو مدبر الأمور، وأمرهم بالتوكل عليه فامتثلوا أمره وطلبوا من الله ألا يبتليهم بتعذيب الظالمين، وأن ينجيهم برحمته من كيد القوم الكافرين، ومن شؤم مشاهدتهم وهذا هو قوله: ﴿ وقال موسى ﴾ إلى قوله: ﴿ ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ وقوله: ﴿ توكلوا ﴾ أي: ثقوا، وقوله: ﴿ مسلمين ﴾ مستسلمين لقضاء الله مخلصين له ﴿ فقالوا على الله توكلنا ﴾ لأنهم كانوا قوماً مخلصين، فلذلك قبل توكلهم وأجاب دعاءهم إذ قالوا: ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ موضع فتنة، أي: عذاب يعذبوننا أو لا تعذبنا بعذاب من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على الحق ما عذبوا، ويظنون أنهم خير منا فيفتتنون بذلك ﴿ ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ أي: وخلصنا برحمتك من أيدي قوم فرعون الكافرين، لأنهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم في الأعمال الشاقة.

ولما كان من عادة الأنبياء وسائر المصلحين أنهم بعد أن يطمئنوا قومهم ويسكنوا جأشهم، يبعثون فيهم روح النظام ويأمرونهم بالاستقامة ونظام المدن، وحفظ الحال العامة أردفه بما يفيد أن الله أوحى إلى موسى وهارون أن يجعلا لقومهما بمصر بيوتاً من بيوتها، يرجعون إليها ويتوطنون فيها، وأمر الجميع أن يجعلوا تلك البيوت مصلى يصلون فيها خيفة من الكفرة من آل فرعون، لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم، كما كان ذلك في أول الإسلام وفي أول كل دين جديد من الأديان، وأمرهم بإقامة الصلاة فيها حتى يأمنوا على أنفسهم، ثم أمر موسى أن يبشرهم أنهم لا يصل إليهم مكروه، وهذا قوله تعالى: ﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون ﴾ إلى قوله: ﴿ العذاب الأليم ﴾.

ولما كان لكل داع من الدعاة نظرة فيمن بلغهم رسالته فتارة يدعو بالهلاك كنوح، وتارة يرجو أن تكون منهم ذرية مؤمنة، فيقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» كسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وتارة يكون الدعاء بين هاتين الخصلتين كما في هذا المقام، دعا سيدنا موسى ربه قائلاً: ربنا إنك أعطيت فرعون وأشراف قومه ما يتزينون به من الملابس والمراكب ونحوها، كما هو مشهور في الشرق والغرب من آثار الفراعنة، وأنواعاً من المال، وتكون عاقبة ذلك أنهم يضلون الناس عن سبيلك، ويكونون فتنة لمن رآهم من الناس على هذه الحال، فيا رب اطمس على أموالهم، وامحقها بحيث لا ينتفعون بها بأن يدفنوها في المقابر والنواويس ويجعلوها حلياً للملوك والملكات في قبورهم، فاجعل يا الله كل همهم في ذلك الطمس، واشدد على قلوبهم، أي: قسّها واطبع عليها حتى لا تؤمن إلاّ بدينها القديم ورأيها العتيق من دفن الأموال والتزين بها تحت التراب، وتحلية الأموات بها، وتبقى البلاد المصرية معرّاة من الحراس، لأن الحراسة يلزمها المال والمال معظمه يكون تحت التراب، فلذلك تجد بيوت المصريين القدماء أكثرها من اللبن. أما المقابر فإنها مزينة بالرسوم وبالتماثيل وبالذهب وبالفضة وبجميع الأحجار الثمينة.

ولما استمروا على هذه الحال مدة طويلة وقست قلوبهم، دخل البلاد ملك الفرس وأهلك الحرث والنسل، وذاقت مصر العذاب الشديد بسبب العقائد الموروثة التي جعلتهم منهمكين في دفن الأموال مع الأموات، وجعلتهم يعبدون الحيوانات كالهرة. ولما دخل «قمبيز» مصر في مدة الأسرة السادسة والعشرين التي هي الأسرة الثامنة بعد خروج بني إسرائيل من مصر لم يساعده على إهلاك البلاد إلاّ عبادة الهرة، فإنه أمر بإيقاف صف من القطط بين الجيشين، فتحامى العسكر المصريون أن يضربوا آلهتهم وهي القطط، وانقض عسكر الفرس على مصر بسبب أن قست قلوبهم على عبادة الحيوانات كما قست بدفن الأموال في القبور، فذهبت مصر سدى، ولم يؤمن المصريون إيماناً صحيحاً إلاّ بالدين المسيحي بعد ذلك، وإلا بالدين الإسلامي آخر الزمان.

فهذه هي القساوة، وإنك لترى آثار المصريين الآن في القبور، وأهل الشرق وأهل الغرب ينقبون عليها. وتعجب من القرآن وحكمه، وتعجب كيف ذكر الله هذا، وكيف قال: اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم، وكيف ظهر الأمران. فالأموال ملأت متاحفنا المصرية ومتاحف فرنسا وأمريكا وإنكلترا وسائر متاحف أوروبا، وطمس القلوب ظهر أثره في بقائهم في جهالتهم حتى تنصروا لما كانت النصرانية في أول أمرها ثم أسلموا إلى الآن.

أليس هذا من العجب. أوَليس من العجب أن الله لم يذكر طمس الأموال فيما أذكر، ولم يذكر نجاة الأجسام كما سيأتي إلاّ في الفراعنة. أوَليس هذا من عجائب القرآن. وكيف يذكر طمس الأموال وقد ظهرت، ونجاة الأبدان بغير أرواحها، وهذا أمر مشاهد كما سأوضحه قريباً. وكل هذا وذاك في الأرض المصرية الآن واضح. إن هذا لعجب عجاب، وهذا هو قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ ﴾، إلى قوله: ﴿ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾. فقوله: ﴿ لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ﴾ أي: ليضلوا الناس عن طاعتك، وهو متعلق بـ «آتيت»، و«ربنا» تكرار للأول للإلحاح في التضرع، وهذا كقوله: ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ﴾[آل عمران: ١٧٨]. والطمس على الأموال هنا معناه

دفنها وعدم ظهورها، والانتفاع بها، وهو المعروف الآن. وليس ما قيل في بعض التفاسير إنها مسخت حجارة بحق، لأنه ظهر خطؤه الآن، والقرآن معجزة باقية إلى آخر الزمان، وقوله: ﴿ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ جواب للدعاء، والمراد بالعذاب الأليم: ما أحاط بالأمة المصرية من العذاب الذي حلّ بها من العقائد المنحرفة عن سنن دينهم الأصلي الذي كانت فيه العبادة على وجهها، فطمسوا على الأموال وعبدوا الأحجار والحيوانات، فكان ذلك سبباً لدخول الأمم بلادهم كما تقدم، وهذا هو العذاب العام، ولم يؤمنوا بدين خال من الوثنية حتى جاء المسيح، فاتبعوا دينه قبل أن ينسخ، ثم جاء الإسلام فاتبعه أكثرهم ولم يكن ذلك إلاّ بعد أن ذاقوا العذاب الأليم من الأمم المحتلة من الفرس واليونان والبطالسة والرومان، فهذا هو العذاب الأليم العام، وهو ما حصل لفرعون وجنوده لما غرقوا في اليم، ولم يؤمن فرعون حتى رأى العذاب الأليم بالغرق ولم ينفعه إيمانه كما ستراه قريباً.

ولما كان هذا الدعاء وارداً من موسى موافقاً لما في علم الله، وأمره المطرد في الأمم من أنها تسير على نواميس تلائمها وتوافقها، ومن نواميس المصريين، ملازمة التفنن في عبادة الأوثان ودفن النقوش والرسوم والأحجار الثمينة والذهب والفضة، أردفه بما يفيد الإجابة فـ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ يعني موسى وهارون ﴿ فَاسْتَقِيمَا ﴾ فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة وإلزام الحجة، ولا تستعجلا فإن ما طلبتما كائن ولكن له وقت معلوم. ويقال: إنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة ﴿ وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي: طريق الجهلة في الاستعجال أو عدم الوثوق والاطمئنان بوعد الله تعالى فليس في الأرض من داع لأمر عظيم إلاَّ إذا كان واثقاً بنجاح دعوته وظهور أمره. فأما الذي لا ثقة له بمستقبل أمره فإنه لا نجاح له في عمله ولا ثبات له في دعوته.

ثم أخذ يشرح العذاب الأليم الخاص المتقدم، فقال: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾ أي: قطعنا ببني إسرائيل البحر الأحمر وجوّزناهم فيه حتى بلغوا الشط حافظين لهم، وقرئ: «جوّزنا» كضعف وضاعف ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ ﴾ أي: لحقهم وأدركهم ﴿ بَغْيًا وَعَدْوًا ﴾ أي: ظلماً وعدواناً، أي: باغين وعادين، أو للبغي والعدو ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ ﴾ لحقه ﴿ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ ﴾ أي: بأنه ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ في وقتها. قال ابن عباس: لم يقبل الله إيمانه عند نزول العذاب به، وقد كان في مهل، والإيمان والتوبة عند معاينة الملائكة والعذاب غير مقبولين، وفي آية أخرى: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾[غافر: ٨٥] وفرعون ذكر الإيمان والإسلام واعترف بهما ولم ينفعه ﴿ آلْآنَ ﴾ أي: قال الله أو الملائكة: ألآن تتوب وقد أضعت التوبة في وقتها وتكبرت عنها وآثرت دنياك الفانية ﴿ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ كفرت بالله ﴿ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ في أرض مصر بالقتل والشرك والدعاء لغير الله وعبادة العجل المسمى «عجل أبيس» وبعض الطيور ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ﴾ نبعدك مما وقع فيه قومك من قعر البحر، ونجعلك على نجوة من الأرض ليراك بنو إسرائيل وغيرهم ﴿ بِبَدَنِكَ ﴾ في موضع الحال، أي: كاملاً سوياً ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ﴾ لمن وراءك من بني إسرائيل وغيرهم من أمم الشرق والغرب ﴿ آيَةً ﴾ أي: عبرة وموعظة ليعرف الناس أن أعظم الملوك قدراً وأبعدهم صيتاً وأعظم ذكراً وأرقاهم منزلة وأسماهم مقاماً وأرفعهم مجداً قد تخطفته المنون ونزل به الهون، وهاهو ذا في اللحد مدفون وفي الصندوق مقفلاً عليه.

وأيضاً يعتبر الناس بالقرون الخالية والأمم الماضية، فيعرفون صناعاتهم وعلومهم ومعارفهم. ومن عجب أن القرآن لم يذكر هذا القول في أمة من الأمم ولا في جيل من الأجيال إلاّ في قدماء المصريين، فإنهم هم الذين سخرهم الله بعقائدهم التي أودعها في نفوسهم، وربطها ربطاً وثيقاً في قلوبهم أن يحفظوا أمواتهم في صناديق مقفلة، وليس يعرف أحد من المسلمين معنى قوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾، إلاّ إذا حضر إلى بلادنا المصرية وشاهد جثث الملوك في صناديق عجيبة الشكل بديعة الصنع، وهي محنطة منذ ثلاثة آلاف وأربعة آلاف وخمسة آلاف أو ستة آلاف سنة، وعليها أكفانها لم يبل منها ثوب ولم يتفتت عضو من الأعضاء فيها ولم يكن رميماً.

فهذه الجثث الباقية التي نشاهدها في متاحفنا المصرية، لا سيما ما يتجدد حديثاً كمقبرة «توت عنخ أمون» التي أشرنا إليها في سورة «البقرة الآية: ١٦٥» عند قوله تعالى: ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ شواهد ناطقة وحجج قائمة على جمال الله عزَّ وجلَّ ونعمه التي أغدقها على الأمم السالفة والأجيال البائدة، وكيف أعطاهم هندسة وعلماً ونظاماً عجيباً غفل عنه المحدثون، وكيف نطقت آثارهم بما لله من مجد وفضل ومنن على الأمم القديمة، وكيف عجز اللاحقون عما أنشأه السابقون، وكيف ألهم الله قدماء المصريين أن يبقوا هذه الجثث ذخيرة لنا وآية قائمة على جمال الله وجلاله، وكيف كان ذلك منفعة للأمم الحديثة، ودرساً لعلمائها أنهم مسبوقون بأمم أعظم قدراً منهم.

إن هذه الآية من بدائع القرآن، وعلى المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن يدرسوا علوم قدماء المصريين، أليس من العيب عليكم أيها المسلمون، أوليس من العار المخجل، أليس من أكبر المصائب التي حلت بأمة الإسلام أن الفرنجة هم الذين يتسابقون إلى تعلم لغة القوم، ويمنون علينا أنهم أعلم منا بها، أوليس من المحزن المبكي أن أمة الإسلام هي التي تجهل قدماء المصريين الذين قال الله فيهم: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾.

فيا ليت شعري، لم ذكر هذه الجملة هنا؟ وكيف أوردها في هذا المقام؟ وكيف يقول إن كثيراً من الناس غافلون عن آياتنا لا يفكرون ولا يعتبرون بعد ما تقدم، أليس ذلك لعظم الأمر، وأن قدماء المصريين سيكون لهم شأن، وأنه بهذه الآية نبه المسلمين إلى ذلك.

وأنا أقول: أيها المسلمون، أما آن لكم أن تدرسوا الأمم القديمة، أما آن لكم أن تدرسوا علوم الأمم القديمة والحديثة، أما آن لكم أن تدركوا مجدكم وشرفكم، وكيف يسبقنا إلى علمهم أهل أمريكا وأهل ألمانيا وغيرهم، إن ذلك لهو الضلال الكبير والخزي العظيم والمصاب الجلل.

يا أمة الإسلام، قد شبعتم نوماً فاستيقظوا، قد أدرككم الغرق فأفيقوا، قد طحنكم الدهر بكلكله فانتبهوا، فهاهو ذا كلام الله، وهذه حوادث أيامه قد أحاطت بكم، ولله عاقبة الأمور.

واعلم أن كل أمة لها مبدأ وجهاد للكمال، ثم تناقض واختلال، فهكذا بنو إسرائيل جاءهم موسى فجاهدوا حتى خرجوا من أرض مصر، ونجوا وتم أمرهم واستقام مئات من السنين، ثم اختلفوا في دينهم، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا ﴾ أنزلنا ﴿ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ منزلاً صالحاً مرضياً وهو الشأم والقدس والأردن، لأنها بلاد الخصب والخير والبركة ﴿ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ أي: تلك

المنافع والخيرات التي رزقهم الله بها ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ فما اختلف هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بني إسرائيل إلاّ من بعد ما قرؤوا التوراة وعلموا أحكامها ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فيميز المحق من المبطل بالإنجاء والهلاك.

لطيفة في موازنة هذه القصة بأحوال الأمة الإسلامية

اعلم أن هذه الآيات أفادت ما يأتي:

(١) إنكار قوم فرعون لدعوة موسى، وادعاءهم أنها سحر.

(٢) احتجاجهم أن هذا فيه هدم المجد القديم، وهو مجد الآباء، فمخالفتهم ذهاب لفضلهم وانحراف عن سنتهم.

(٣) أنكم تريدون أن يكون لكم الملك في البلاد.

(٤) إحضار السحرة ومعارضة معجزة موسى سحر الساحرين.

(٥) ذكر إيمان طائفة من أولاد بني إسرائيل.

(٦) أن هؤلاء خائفون من فرعون وقومه أن يعذبوهم.

(٧) وعظ موسى لبني إسرائيل أن يتوكلوا على الله.

(٨) موافقتهم لهم وطاعتهم وتوجههم إلى الله بالدعاء.

(٩) أمر الله لموسى أن يحضّ قومه على اتخاذ المساكن وجعلها مصلى.

(١٠) تبشيره للمسلمين.

(١١) دعاء موسى على بني إسرائيل بطمس أموالهم وبقائهم كافرين.

(١٢) استجابة الدعاء.

(١٣) عبور بني إسرائيل البحر.

(١٤) اتباع فرعون لهم وغرقه هو وجنوده.

(١٥) نجاته ببدنه وحكمة ذلك.

(١٦) استحكام أمر بني إسرائيل ورقيهم.

(١٧) وقوع الاختلاف فيما بينهم.

واعلم أن هذه الصفات التي لحقت بني إسرائيل هي بعينها التي لحقت بأمة الإسلام ونبينا صلى الله عليه وسلم.

(١) فقد دعا الله فكذبوه.

(٢و٣) وظنوا أنه يريد الملك فعرضوا عليه أن يملك أمرهم ويترك ذم آلهتهم، وأيضاً أنه يريد هدم ما كان عليه آباؤهم.

(٤) آذوه كثيراً وكادوا له كيداً عظيماً.

(٥) ما آمن به أولاً إلاّ الضعفاء.

(٦) كانوا خائفين من أهل مكة، كصهيب وبلال وغيرهما، حتى هاجر قوم إلى الحبشة وهاجر الجميع إلى المدينة.

(٧) وعظ النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين بالتوكل.

(٨) موافقتهم له وطاعتهم.

(٩) بنى النبي صلى الله عليه وسلم مسجداً في المدينة، واتخذ المسلمون مساجد كثيرة وسكنوا بيوتهم وصلوا فيها وفي مساجدهم.

(١٠) في أكثر القرآن بشائر للمؤمنين.

(١١) دعا النبي صلى الله عليه وسلم لقومه، فقال: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

(١٢) استجاب الله دعاءه ففتح مكة وأسلم قومه وذريتهم للآن.

(١٣) نصر المسلمين في زمن النبوة وبعده.

(١٤) هلاك الكافرين في كل وقعة.

(١٥) نجاة المسلمين في كثير من الوقائع.

(١٦) استحكام أمر المسلمين وعظمتهم في القرون الأولى ورقيهم.

(١٧) اختلاف المسلمين وتنابذهم منذ ٨ قرون فهم في اضطراب سياسي عظيم.

فهذا التاريخ يضارع تاريخ الإسلام وقد ذكر هنا ليكون عبرة للمسلمين ودرساً لهم ليتعظوا. اهـ.

لطيفة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾

تقدم أني قررت في هذه الآية أنها للحض على فهم علوم المصريين والبحث في أطوارهم، وأن الله لم يذكر أمة بأن أبدانها عبرة لمن بعدهم وأتبعها بجملة كهذه إلاّ المصريين. فلنذكر من آيات الله التي ألهمها للمصريين القدماء ليكون ذلك ذكرى للمسلمين وعبرة، وليجدّوا في البحث عما دفنه الله في الأرض، وما أظهره في الأمم، حتى يعرف المسلمون كل شيء بحيث تختص كل طائفة بمباحث خاصة يتقدمون في معرفتها، وهذه العلوم كلها فرض كفاية. فلأنقل لك أربع نبذ من علومهم:

النبذة الأولى: محاورة فلسفية بين مصري وروحه، وجدت في قرطاس محفوظ في متحف «برلين»، وإليك تعريبها من كتاب الحضارة القديمة:

(١) قالت الروح لصاحبها: ليس في الموت فزع للإنسان.

(٢) أقول لنفسي كل يوم: إنه كرجوع الصحة إلى المريض حين يخرج ويذهب إلى الساحة بعد تألمه، هكذا حال الموت.

(٣) أقول لنفسي كل يوم: كأنه استنشاق شذا العطر أو كالجلسة في بلد السكر، هكذا حال الموت.

(٤) أقول لنفسي: إنه كمجرى تمر به مياه النيل الفائض.

(٥) أو كرجل دخل الجندية ولم يثبت أحد أمامه، هكذا حال الموت.

(٦) أقول لنفسي: إنه كرجل ذهب في ضياء القمر ليصيد الطير بالشبكة فوجد نفسه في إقليم لا يعرفه، هكذا حال الموت. اهـ.

النبذة الثانية: اعلم أن من أعجب معجزات القرآن هذه الآية التي نحن بصددها، ولم يكن المتقدمون من أمتنا الإسلامية ولا قدماء العرب ولا المعاصرون للنبي صلى الله عليه وسلم يعلمون شيئاً عن الجثث المصرية ولا عجائب علومهم، ولذلك تجد المفسرين يذكرون أن أموالهم مسخت

حجارة، أفلا تعجب للقرآن كيف ظهر في هذا العصر العجب العجاب من الجثث المحنطة والعلوم المخبأة والحكم المنظمة التي أشار لها القرآن بقوله: ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾، وأفاد أن أكثر الناس غافلون عن العجائب.

فانظر كيف ظهر في هذا الزمان أيام كتابة هذا التفسير أعظم الكنوز المصرية وهو كنز «توت عنخ أمون»، وقد كشفه رجل يقال له «هوارد كارتر» بعد أن بحث ٣٢ سنة في البلاد المصرية، مجداً في ذلك، وقد أحدث ظهوره دهشة إعجاب في العالم كله.

وفي يوم ١٦ فبراير سنة ١٩٢٣ فتح الباب المختوم بختم الملك لبعض الغرف، ووجد بالغرفة الثالثة صندوق بديع داخله جثة الملك، وجواهره الثمينة، وهو مذهب ومزخرف ومرصع بالحجارة الكريمة، ويبلغ طوله نحو ستة أمتار، وعرضه نحو أربعة أمتار، وارتفاعه أربعة أمتار تقريباً، ووجدت الغرفة الرابعة مملوءة بأثاث من أثمن المفاخر، مرتبة ترتيباً حسناً يفوق منظرها في بهائها وعظمتها ما وجد في الغرفتين الخارجيتين، وتوافد عشرات الألوف من أوروبا وأمريكا على القطر المصري للتمتع بمشاهدة هذه الآثار الثمينة، وفوق ذلك قد اهتمت دور الصناعة في أوروبا وأمريكا للحصول على نماذج للأزياء المصرية الأثرية للملابس وأثاث الملابس والأواني ليصنعوا نظيرها وهم يضحون عشرات الألوف من الجنيهات في سبيل الحصول على هذه النماذج، وبدأت السيدة الغربية في مدن أوروبا وأمريكا متجملة بلبس ملابس قدماء المصريات في عهد «توت عنخ أمون».

وفي صباح ٨ مارس سنة ١٩٢٣ أبصر المارة في شارع «ففث أفنيو»، وهو أعظم شوارع نيويورك، ثلاث سيدات يسرن معاً، وقد لبسن من قمة الرأس إلى أخمص القدم ثياباً مصنوعة على مثال ثياب ملكات مصر القديمات، واحتذين أحذية على شكل «الصندل» فكنّ بثيابهنّ هذه موضع إعجاب وقبلة أنظار الجميع، وهكذا في إنكلترا وغيرها. وقد اشتد الإقبال في أوروبا وأمريكا على درس تاريخ مصر وحضارتها القديمة، ومشاهدة آثارها الكثيرة المنتشرة في المتاحف، فالناس يقبلون زرافات على المتاحف التي فيها آثار مصرية. وقد أغلق المدفن يوم الاثنين ٢٦ فبراير سنة ١٩٢٣ على أن يفتح ثانياً في الخريف المقبل. وهذه الليلة التي أكتب فيها هذا المقال ٢٧ من شهر سبتمبر سنة ١٩٢٤ لم يفتح القبر إلى الآن، وسيظهر بعد فتحه العجب العجاب.

أفليس هذا من سر قوله تعالى على سبيل الإشارة والتلميح: ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ فهذه آيات الله التي ظهرت لعباده، آيات الصناعة والتطريز والزخرفة والنقش والهندسة والبناء، وكذلك الاعتبار والاتعاظ وتذكر الموت والبلى. كل ذلك ظاهر اليوم لجميع الأمم، فعلى المسلمين أن ينظروا جمال الله في كل شيء سبحانه وتعالى جلّ جلالاً وعزّ كمالاً.

النبذة الثالثة: أقدم كتاب في العالم نصائح الحكيم المصري القديم «آتي» لتلميذه «خونسوهتب» في عصر مصر الذهبي في عهد الملك العظيم «توت عنخ أمون» أي: منذ ٣٣٠٠ سنة تقريباً وهي ٤٨ نصيحة نقلت عن ورقة بولاق البريدية التي عثر عليها «ماريبت باشا» مؤسس الآثار المصرية في أحد مقابر الدير البحري بطيبة بالأقصر سنة ١٨٧٠م وترجمت إلى الفرنسية والألمانية والإنكليزية، وسميت «ورقة بولاق» لأنها حفظت بالمتحف المصري في وقت أن كان في بولاق.

ولأذكر لك بعض هذه الحكم تيمناً بالقرآن القائل : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ . ولأذكر لك ما اخترته منها اختصاراً للقول :

(١) أخلص لله في أعمالك لتتقرب إليه وتبرهن على صدق عبوديتك حتى تنالك رحمته وتلحظك عنايته ، فإنه يهمل من توانى في خدمته .

(٧) من اتهم زوراً فليرفع مظلمته إلى الله تعالى ، فإنه كفيل بإظهار الحق وإزهاق الباطل .

(٨) اجعل لك مبدأ صالحاً ، وضع نصب عينيك في جميع أحوالك غاية شريفة تسعى إليها لتصل إلى شيخوخة حميدة وتهيئ لك مكاناً في الآخرة ، فإن الأبرار لا تزعجهم سكرات الموت .

(٩) صن لسانك عن مساوئ الناس ، فإن اللسان سبب كل الشرور ، وتحرَّ محاسن الكلام ، واجتنب قبائحه ، فإنك ستسأل يوم القيامة عن كل لفظة .

(١١) لا تهمل الترحم على والديك ، ومتى قمت بذلك قام به لك ولدك .

(١٢) اعتن بأبنائك كما اعتنت بك أمك ولا تغضبها لئلا ترفع يديها إلى الله فيستجيب دعاءها عليك .

(١٥) إذا كنت قوي الإرادة فلا تدع المرأة تتسلط عليك .

(٢٠) النظام في البيت يكسبه حياة حقيقية .

(٢٥) إذا فاتتك فرصة فترقب غيرها .

(٢٨) لا تجرح بكلامك شعور الناس فيستهان بك .

(٣٤) ليست السعادة بالثروة وحيازة الأموال ، إنَّما هي في استنارة العقول بالفضيلة والتخلق بالقناعة والرضا والكفاف .

(٣٨) لا تستسلم لليأس والقنوط مهما قام في سبيلك من العقبات والشدائد .

(٤١) لا تثق بالناس المجهولة مبادئهم ولو خدعوك بتقديم أنفسهم لخدمتك متظاهرين بالإخلاص فإنهم يجرونك إلى الخراب العاجل .

(٤٦) تلطف مع ضيفك وحادثه ببشاشة ، ولا تسمح له بالتطرف في الحرية حتى يخرج عن حدود الاحتشام .

(٤٨) لا تكن شرهاً فإن الإنسان لم يخلق ليأكل ، بل يأكل ليحيا حياة طيبة يجعلها طريقاً للحياة الأبدية . انتهى .

هذا هو الذي اخترته من حكمة ، وهناك نصائح أخرى لرجل يقال له « قاقمنة » وآخر يقال له « بتاح حتب » ، وهذا الأخير قد وجدت له ٤٤ لوحة قد نقشت عليها حكمه ، ولأذكر لك منه ثلاثة ألواح :

لوحة ١٠ : إذا تواضعت امتثالاً لرئيس فليكن سيرك مع الله حسناً جداً ، فالسعد لا يأتي إلاَّ عن إرادته ، وليس هناك أحكام سوى مشيئته . ومما جاء في اللوحة الرابعة عشرة : تمسك برأيك متى كان الحق بيدك . إن الذي يملك نفسه خير ممن غمره الله بعطاياه ، لأن الرجل الذي ينقاد لهواه يكون تحت سلطان امرأته ، بيِّن منهاج سلوكك من غير كلام . وجاء في اللوحة ٣٤ : ليكن وجهك باشاً ما عشت .

النبذة الرابعة: كان قدماء المصريين يعتقدون بقاء النفس، وكانوا يرون أن الإنسان يكون أمام محكمة مكوّنة أمام الإله «أوزيريس» و٤٢ قاضياً، ويتولى الرئيس عملية وزن القلب ووضعه في كفة الميزان والعدل في الكفة الأخرى، فإذا رجحت الكفة الأولى أو ساوت قبل المتوفى في مملكة «أوزيريس» وأهم هذه المملكة عندهم الزراعة، فتقوم الأرواح بحرث الأرض وبذر الحب وجني محصول الذرة السماوي، وهي أحسن وأجمل من ذرة الأرض. وفي تلك المملكة تكون الأرواح في المجاري السماوية وتجلس تحت وارف ظلال الأشجار الباسقة، وتلعب الألعاب التي تهواها، والإنسان يكون له جسم روحي يبدأ في الوجود من وقت أن يوضع في القبر، ويأكل المتوفى خبزاً لا يتعفن، ويشرب خمراً لا يفسد، وملابسه أردية بيضاء، ويجلس على عرش وسط الملائكة الذين يجلسون حول شجرة الحياة، ويلبس التاج الذي يعطيه له الإله، ويعيش مع الإله «رع» إلى الأبد.

وعملية التحنيط المعروفة عند قدماء المصريين التي أشار لها القرآن بقوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ محفوظاً كسائر قدماء المصريين، إنَّما اخترعوها سنة ٤٥٠٠ قبل الميلاد، وبقي إلى سنة ٥٠٠ بعد الميلاد، لاعتقادهم أن النفس بعد أن تمر في أدوار كثيرة تعود فتحل في الجسم، فلهذا كان التحنيط، ولهم قصة خرافية وهي أن «أوزوريس» كان يحب أمته المصرية، فعلمها وفتح البلاد الأخرى بغير حرب ومعه «توت»، ولكن أخوه «سيت» غار منه فصنع له صندوقاً وأهداه له على شرط أن يكون على مقدار جسمه، فلما دخله أقفله عليه وهو متحد مع الضباط وألقاه في النيل، فبحثت عنه زوجته «إيزيس» وعثرت عليه في البحر، وخبأته في غابة كانت أشجارها متكاثفة، وذهبت تبحث عن ابنها «حوريس» في مدينة «بونو» جنوب البرلس في الدلتا، ثم إن «سيت» عثر على الصندوق وهو يصطاد في ضوء القمر، فقطعه ١٤ قطعة وبعثرها، فبحثت عنها «إيزيس» وجمعتها إلاَّ قطعة واحدة، وركبتها في مواضعها من البدن، وحنطت الملائكة جسمه وصنعوا له تمائم ولفائف. فبهذا انتقل من القبر إلى السماء وله فيه قصر عظيم، وأصبح ملك «أوزوريس» هو الذي يصعد إليه الأرواح الطاهرة بعد الموت، ولا بد من التحنيط وعمل السحر والطلاسم، هذا هو السبب في التحنيط عندهم. اهـ.

فسبحان من جعل الخرافات سبباً في العلوم النافعة للإنسان وحفظها على مدى الزمان، والحمد لله أولاً وآخراً. ويقال: إن فرعون موسى عثر عليه منذ سنين في جهات الوجه البحري في مديرية الشرقية، وعسى أن أعثر على هذا النص فألحقه بهذا الكتاب، والله المستعان.

فرعون موسى قد وجد بدنه وهو بالمتحف المصري

وبعد كتابة ما تقدم بيومين اطلعت على ما كتبه أستاذنا في علم الآثار المصرية الأستاذ أحمد بك نجيب أمين ومفتش الآثار المصرية في «الموسوعات» في أعداد مختلفة، فألخص لك ما كتبه بغاية الاختصار قال:

إن رمسيس الثاني «سيزوستريس» هو الذي ربى موسى عليه السلام، وإن ابنه «ريان با» وهو المعروف باسم «منفطه» هو الذي غرق في البحر، وهما معاً من الأسرة التاسعة عشرة، قال: وقد أجمع العلماء أن فرعون «منفطه» أو «ريان با» هو الغريق، والحمد لله على وجود جثته الآن. وأما العبرانيون فإنهم دخلوا مصر أيام احتلال العمالقة لها، وأقاموا في وادي غسان المعروف الآن برأس

الوادي بمديرية الشرقية، ولفظة «فرعون» كانت اسماً عاماً لملوك مصر كلفظة «قيصر» علم على كل من ولي الروم، و«كسرى» لكل من ولي العجم، و«نجاشي» لكل من ولي الحبشة، و«إمبراطور» لكل من ولي رومة، وفرعون أصله «ابرعا» أو «فرعا» معناه: الدار العظيمة، لأن «فر» معناها: الدار و«عا» معناه: العالية أو الجليلة أو العظيمة، كما يقال الآن «الباب العالي» أو «الباب الهمايوني»، قال: وبعد رمسيس الثاني الذي ربى موسى، و«منفطه» أو «ريان يا» الذي غرق في اليم لم يذكر في الآثار شيء عن العبرانيين، قال: وإني في اليوم الثاني من شهر مايو سنة ١٩٠٠ فتحت تابوت «فرعون» بمشهد من علماء الآثار وقسته فكان طوله من قمة رأسه إلى قدمه متراً واحداً واثنين وسبعين سنتياً، وعرضه عند الأكتاف أربعون سنتياً، ومن قمة رأسه إلى الكتابة التي على صدره ٤٥ سنتياً، قال: ولم أر وجهه لأنه مسجى بأكفان من قماش الكتان يضرب لونه إلى الصفرة الداكنة من تأثير الحنط عليه، وتابوته مصنوع من قماش كالورق القوي خال من الكتابة، وهو لا شك أنه ليس تابوته الأصلي، ومعنى «ريان يا»: شمس العلم أو روح الشمس، وقال أستاذنا أيضاً: إن رمسيس الثاني استعمل العبرانيين في بناء قلاع كبيرة وعمل طريق يمر بوسطها، يخرج من مدينة رعمسيس، ويسلك إلى الشرق مع الجنوب حتى يدخل قسم آسيا، وهناك قلعة باسم فرعون موسى نفسه ابن رمسيس الثاني، وهي مذكورة في ورقة من البردي أرسلها أحد العمال إلى رئيسه يعلمه بما فعله، وهاك نصها:

(مما أسرّ به خاطر سيدي هو أني أخبره أننا أعطينا الحرية التامة إلى قبائل الأعراب الآتية من إقليم «إيدوم» لتمر بغاية الحرية من قلعة «خاتوم» للملك «منفطه» وهو فرعون موسى كما تقدم، وهناك حجر محفوظ بالمتحف المصري مكتوب في السنة الخامسة من حكم هذا الملك عليه لفظة «إسرائيليو» أي: الإسرائيليون، وهاك ترجمة بعض عباراته: «وقبيلة خاتي سلمت فسلمت، وقبيلة كنعان قد سجنت على أقبح كيفية، وأهل عسقلان أحضروا أذلاء، وأهل غزة وما حولها جاؤوا أسارى، وقبيلة «أيانواميم» انعدمت، وأمة «إسرائيليو» هلكت وما عاد لديها حبوب للأكل، وقبيلة «خارو» صارت كأرملة حقيرة بمصر»). اهـ.

وقال رحمه الله في سبب ادعاء الملك «منفطه» الألوهية: إن هذه عادة هؤلاء الفراعنة جميعاً ضعافاً كانوا أم أقوياء، قال: وانظر إلى مسألة المطرية تجد عليها ما صورته: «الجليل حياة كل مولود ملك الصعيد والبحيرة دام بقاه صاحب التاج معطي الحياة لكل موجود الإله العظيم ابن الشمس الخ» وهذا الممدوح هو الملك «أوزرتسن الأول» في العائلة الثانية عشرة وهو صاحب هذه المسألة.

قال: ولقد كان «رمسيس الثاني» والد فرعون مصر أول من سخر العبرانيين في الأعمال، فبنوا له مدينة رعمسيس ومدينة بيتوم، وهاك نص ورقة بردية محفوظة في بلاد الإنجليز بقلم رجل مصري يسمى «كانيزاك» أرسلها إلى رئيسه المدعو «بي كانبتاح» يعلمه أنه أنفذ أمر الملك سيده وصورتها: «قد أطعت أمر سيدي رمسيس وفعلت ما أمرني به حيث قال لي أعط قمحاً إلى العساكر الخفراء وإلى العبرانيين الذين ينقلون الحجارة لبناء الحصن العظيم بمدينة رعمسيس الذين هم تحت رئاسة «أمنمان» رئيس فرقة المحافظين على العمال، فكنت أعطيهم قمحاً في كل شهر حسب الإرادة السنية التي أمرني بها سيدي»، وعلى ظهرها مكتوب: «هذا حساب البنائين الذين أدوا الأعمال المفروضة يوماً فيوماً

بدون انقطاع عن العمل ما عدا الرجال الذين يصنعون الطوب». ومدينة رعمسيس اختلف العلماء في مقرها؛ فقيل: إنها مدينة «صان الحجر» بمركز فاقوس بمديرية الشرقية، وقال أستاذنا بدار العلوم المفتش المذكور: إنها في مكان أطلال «المسخوطة» بالشرقية، فالمسخوطة المذكورة هي رعمسيس، وقد وجد اسم رمسيس على لبنها «طوبها»، وهذه المدينة أجمل المدن المصرية، وقد وجدت ورقة من البردي محفوظة في بلاد الإنجليز فيها قصيدة لشاعر مصري اسمه «بنبتا» يخبر أحد الأمراء المسمى «أمنم ايت» وكان الملك رمسيس دعاه لوليمة يوم الفراغ من بنائها، قال: «لما دخلت مدينة رعمسيس وجدتها في أحسن حال ما لها مثيل في عمارات «طيبة» ولا عمارات «جبل السلسلة»، فهي مدينة النعيم، وحقولها مملوءة بالأشياء اللذيذة والمأكولات الفاخرة، وحيضانها مملوءة بالسمك، والطيور المائية تدرج على غدرانها، ومروجها خضرة، وسفن البحر تأتي إلى ثغرها وتكثر فيها الخيرات طول السنة، وينشرح صدر من يقيم فيها إذ ليس بها من يعارض ولا من ينازع، والصغار والكبار فيها سيان وترى فيها الجواري الحسان جواري الملك قائمات على أبوابها، والفرح عاماً في جميع أرجائها، عشت يا رمسيس في صحة وعافية».

وقال بروكش باشا: إن موسى عليه السلام تربى فيها حيث كانت محل إقامة الملك، أما تخت مصر فكان في مدينة «طيبة» أو «طيوة» ومكانها الآن الأقصر أو الكرنك والقرنة ومدينة «آبو» بمديرية قنا. اهـ.

وذكر أستاذنا أيضاً في تلك المقالات ما وجد منقوشاً باللغة البربائية على جدار معبد الكرنك مما يختص بتعذيب الأسرى، قال «سطر ٥»: لما كان الملك «منفطه» هو الذي يعطي الحياة إلى قومه حضهم على ترك الخمول. «سطر ١٣»: أتى ملك الليبيين ابن ديد بجنوده المؤلفة من المشاوشيين والكحاكين والسردانيين والشكلاشيين، وهجم على مصر. «سطر ١٦»: وجمع ملك مصر رؤساء عساكره وقال لهم: اسمعوا أنا الملك «منفطه» الحارس، أنا رب مصالحكم، أنا أبوكم، هل فيكم من يماثلني ويحيي أولاده مثلي؟ هاأنتم ترتعشون كالوز أمامي. «سطر ١٩»: هاهو العدو دخل بلادنا، هل يستطيع النيل أن يرده عنا؟ كلا، ثم كلا. «سطر ٢٢»: مرادي الآن قتل الأعداء وسحبهم على بطونهم كالسمك، ولا عبرة برئيسهم الذي صورته كصورة الكلب. «سطر ٢٥»: أنا الذي بيدي الإعطاء والمنع والدنيا تحت حكمي، أنا «منفطه» القاهر ملك مصر. «سطر ٢٧»: واندفعت عساكر المشاة مع عساكر العربات على العدو فأغرقوه في بحر الدم. «سطر ٤٦»: أما عساكر مصر وشبانها فعادوا يسوقون حميراً تحمل الغنائم والأحاليل المقطوعة من العدو، مصنوعة حزماً وموضوعة في جلود. «سطر ٥٢»: ٦٣٥٩ ليبيون مقتولون، وأحضرت أحاليلهم. «سطر ٥٦»: ٦١١١ رجلاً من الأعداء قطعت أحاليلهم بحضرة الملك. انظر لهذا التوحش. «سطر ٥٧»: ٢٣٧٠ أيد مقطوعة أحضرت لدى الملك. «سطر ٥٩»: ٩٣٧٦ أسرى.

ورجع الملك إلى طيبة في موكب حافل، وقد وجد مكتوباً في ورقة محفوظة ما نصه: ما أعظم عودتك أيها الملك إلى طيبة، تظلك سحابة القصر وعربتك تسحبها الرجال. أما الرؤساء المغلوبون فيعيشون أمامك القهقرى وأنت تسوقهم إلى حتفهم. اهـ.

وإنَّما نقلت لك هذا لتعرف كيف كان فرعون موسى يعذب الأمم المغلوبة. وكيف سخر بني إسرائيل كما سخرهم أبوه. وكان يفهم قومه أنه معطي الحياة، وفي يده كل شيء، وهذا ما جاء في القرآن من قوله: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[النازعات: ٢٤] وغيره، وهكذا تعذيب بني إسرائيل المتكرر في القرآن. اهـ.

نبذة خامسة ردّ اعتراض

لعلك أيها الذكي المطلع على هذا الكتاب تقول: كيف أطلت في هذا المقام؟ ولماذا تذكر حكم القوم تارة ومظالمهم تارة أخرى؟ ولماذا تكرر هذا القول؟ أتريد أن تعلمنا علمهم؟ أوَليس القرآن بكاف؟ أوَليس ديننا يغنينا؟ أقول: على رسلك ولا تلم.

اعلم أن من يظن أن قراءة القرآن وفهم معانيه القريبة والاقتصار عليها يكفي المسلمين مخطئ كل الخطأ بل جاهل كل الجهل، فقل لي بربك إذا سمعت الله يقول: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ﴾ [آل عمران: ٩٧] أفلا تسعى إلى الحج أم تكتفي بفهم الآية؟ فلا إخالك إلاَّ قائلاً لا بد من الحج.

أقول: هكذا يقول الله هنا: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ يا منفطه «ريان با»، ونحفظك في أماكن بالبلاد المصرية، ونأمر بتحنيطك وبقائك للسائحين والغادين والرائحين ﴿ لِتَكُونَ ﴾ أنت وأمثالك من الفراعنة ﴿ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ ترشدهم إلى العلوم والمعارف والاتعاظ بذهاب القرون ويقف على صنائع قومك وعلومهم أهل أمريكا وآسيا وأفريقيا وأوروبا، والمسلمون أيضاً متى فقهوا وعقلوا ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ في الشرق والغرب ﴿ عَنْ ءَايَٰتِنَا ﴾ في بلادك وقومك وعلومكم ومعارفكم وسيركم وغيرها مما خلقنا في السماوات والأرض ﴿ لَغَٰفِلُونَ ﴾ والغفلة موجبة الحرمان كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[يونس: ١٠٠]، فأما إذا لم يغفل الناس واطلعوا على علوم الأوائل كقدماء المصريين، وشاهدوا في الحكم السابقة وغيرها أن الله قد أنزل عليهم منذ سبعة آلاف سنة أنه يزن الأعمال، وأنها إذا ثقلت نجا صاحبها وإذا خفت لم ينج، وأن الرجل المظلوم إذا دعا الله ينجيه، وأن قويّ الإرادة لا يغلبه النساء، وأن المخلص لله تلحظه عنايته، ومن توانى في خدمته يهمله، وأن من اتهم زوراً ورفع مظلمته إلى الله فالله يظهر حقه، وأن السعادة ليست في المال وحده، بل في الفضيلة والقناعة، وهكذا من الحكم الشريفة العالية، إذا فعل الناس ذلك ولم يغفلوا عرفوا أن شرائع الله القديمة كانت كالحديثة وأنها متتالية متتابعة متحدة في الأصول، ويحصل للمرء ائتناس واطمئنان.

أوَليس الله يأمرنا أن ننظر في السماوات والأرض، فإذن آيات القرآن تشير إلى آيات السماوات والأرض، وما أنتجه عقل الإنسان قديماً وحديثاً، فآيات القرآن أشبه بالمنظار المعظم ترى به الأشياء القريبة والبعيدة.

فمن ظن أن المنظار مقصود لذاته فهو جاهل، كمن يرى أن القرآن وحده كاف فهو مخطئ، إنَّما القرآن نزل ليعمل به، ولا عمل به إلاَّ بأن نبحث فيما خلق الله في السماوات والأرض من العجائب، ونقرأ العلوم وندرس علوم الأمم، أي: أن يكون في الأمة طوائف لكل علم، طائفة تقوم بعلم أو صناعة ولو كانت تعدّ بالمئات. انتهى الكلام على حسنات المصريين وسيئاتهم العملية.

الكلام على محاسنهم العلمية

نظام السماوات عند قدماء المصريين

جاء في أوائل السورة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾[يونس: ٥]، وقال: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ﴾[يونس: ٦٧] الخ، وكرر لفظ الآيات ثلاث مرات وهكذا ذكر الآيات وذم الإعراض عنها في الكلام على فرعون.

فيا ليت شعري يمر هذا القول مروراً علينا ولا نعطيه حقه، ذم الله الغفلة عن الآيات عند ذكر الشمس والقمر، وذمها عند الإشارة للفراعنة، فما هذه الموافقة في سورة واحدة، ولماذا تذم الغفلة عن الآيات في سورة واحدة، إن في ذلك سراً عجيباً فاستمع لما يأتي:

علم الفلك وقدماء المصريين

جمال الصور السماوية يسحر العقول ـ احتجب عن جميع الناس وهم ينظرونه ـ محاولة قدماء المصريين قبل غيرهم كشف هذا الحجاب ـ رسمهم الصور السماوية التي يقرؤها الناس في أوروبا والشرق الآن ـ وجوب معرفة نتائج العقول في الشرق والغرب لأن العقل البشري صنع الله كما أن عقول الملائكة من صنعه، فالعالم كله مصنوعاته وعلى المسلمين أن يعرفوها.

اعلم أننا خلقنا في جو من الجمال والبهجة والحسن والإتقان والكمال والسعادة والحبور، ولو أننا أدركنا ما نحن فيه من الجمال لذهلت عقولنا وأصبحنا فاقدي الشعور والإحساس لا نعقل.

أقول هذا لك أيها الذكي وأنا موقن به، إن الله وضع أرواحنا في هذه الأجسام الأرضية، تلك الأجسام التي وضعت بحكمة ودقة، وأحاطت بها الأنوار من الشمس والقمر والكواكب والجمال، الشمس تقسم الزمن أياماً، والقمر يقسمه شهوراً كما تقدم موضحاً، والشهر الواحد يجعله أربعة أقسام: فمن المحاق إلى التربيع أسبوع ومن التربيع الأول إلى ليلة البدر أسبوع، ومن ليلة البدر إلى التربيع الثاني أسبوع، ومن التربيع الثاني إلى المحاق أسبوع.

فالشمس والقمر قد فصلا الزمن تفصيلاً، فالأيام والسنين الشمسية عرفت بسير الشمس كما تقدم، والأسابيع والشهور القمرية والسنين القمرية عرفت بالقمر، إذن الشمس والقمر تكفلا بتقسيم الزمن أياماً وأسابيع وشهوراً قمرية وشمسية وسنين كذلك، ولولا ذلك لم نعرف الأيام وما بعدها، ونجد القمر والشمس والكواكب لا تخطئ في سيرها، والأنوار الفائضة منها على الأرض جميلة بهجة تتلون كما تتلون في أثوابها الغول، فأنوار الكواكب ليلاً مختلفة في الظلام الحالك، والقمر يقسم الليل تقسيماً بأضوائه، ويظهر ويختفي على أشكال مختلفة، وهكذا أنوار الشمس تختلف في أثناء النهار. فبينما نرى ضوء أدنى كوكب بالنسبة إلى الشمس أقلّ من مليون مليون، وضوء غيره من الكواكب أقلّ من جزء من مليون من ضوء الشمس، وضوء البدر أقلّ من جزء من ثمانمائة ألف جزء من ضوء الشمس، نراها أيضاً والقمر يتلونان ألواناً محسوبة منظمة جميلة لا يستقران في هيئتهما على حال، الحيوان حولنا والنبات وعجائبهما لا تتناهى، في أرضنا عجائب كثيرة، أجسامنا مصنوعة من الحكمة بل هي حكمة مدمجة؛ لو أن أرواحنا خلقت في هذه الأرض مجردة عن المادة لذهلنا من الجمال الذي غرقنا فيه، ولكن من لطف الله أنه أجاعنا وأعرانا وسلط الحر والبرد علينا، وجعل الأرض لنا دار علم

ونصب وشقاء، لماذا؟ ليحجبنا عن هذا الجمال، ولماذا؟ لأجل أن يحفظ عقولنا فيربيها فلا يعطيها هذا الجمال إلاً بمقدار شيئاً فشيئاً بالتدريج، وهذا التدريج يكون بالتعليم.

فصل في أن أول من تفطن لرفع الحجاب عن جمال السماء هم قدماء المصريين

قد قلت لك أيها الذكي إن الناس خلقوا في الجمال وحجبوا عنه، وهم بالتعلم يعرفونه شيئاً فشيئاً، وهاأنا ذا أذكر هنا أن أول من ابتدأ معرفة هذه العلوم هم قدماء المصريين على خلاف في ذلك، وإنّما أردت ذلك ليظهر سرّ القرآن، ولماذا يذكر الغفلة عن الآيات ويذمها في السماوات والأرض وفي معرض ذكر أبدان الفراعنة وسوى بينهما في ذم الغفلة.

إن هذا الزمان هو زمان ظهور النور الإسلامي، انظر ماذا ترى. ترى أن أمم ما عدا المصريين كانوا في غفلة ساهون قبل العصر المكدوني، فقد كان العبريون لا يعرفون سوى بلادهم وما جاورها من الممالك، وكان اليونان في أيام هوميروس الشاعر المشهور، أي: قبل المسيح بسبعمائة سنة، يظنون أن بلادهم وآسيا الصغرى في وسط المسكونة بحيث جعلوهما شاغلتين جزءاً عظيماً من سطح الأرض وقالوا: إن حولهما جزائر البحر المتوسط، وإن مصر وسوريا وإيطاليا حول ذلك البحر المحيط.

وتنبه بعد ذلك «بطليموس» في عهد الرومان سنة ٢٣٠ إلى شيء من ذلك، وهكذا أخذ العلم ينمو شيئاً فشيئاً، أما الأمة المصرية فإنها كانت قد سبقت هذه الأمم إلى معرفة نظام السماوات وصور نجومها وبروجها.

هيئة السماء في صندوق حتر بطية وهيئة البروج فيه

وما صاحب هذا الصندوق إلاّ من الفراعنة الذين نجاهم الله ببدنهم، فكان لمن خلفه آية للشرقيين والأوروبيين، فهو مصداق للقرآن وذلك من آيات الله في القرن العشرين.

واعلم أني قد قدمت لك في سورة «الأنعام» نبذاً من الصور السماوية عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾[الأنعام: ٧٤]، وأن تلك الصور ثلاثة أقسام: الصور الشمالية، والصور الجنوبية والبروج التي هي داخل منطقة فلك البروج، وذكرنا هناك أن الصور كلها نحو ٤٨ صورة، وهي مسماة بأسماء أشياء أرضية من الحيوانات وغيرها، ثم أقول الآن: إن الناظر إلى السماء لا يرى فيها رسم حيوان ولا إنسان ولا شيئاً من ذلك، فإذا سمعتهم يقولون الثور وهو أحد البروج أو الجدي أو السنبلة أو الحوت فاعلم أنه لا حوت ولا سنبلة ولا ثور ولا شيء من ذلك، وإنّما هي صور خيالية تخيلوها وسموها، وتجد أمم الأرض قد اتفقوا جميعاً على تسمية مجموعات النجوم بأسماء، ولكنهم لم يتفقوا على تلك الأسماء ولا في واحد منها؛ فالصينيون أكثروا من أسماء المجاميع حتى بلغت ثلاثمائة اسم، وسموا بعضها بأسماء عظمائهم، والعرب سموا المجاميع بأسماء حيوانات وغيرها، كالدب الأصغر والدب الأكبر وبنات نعش الصغرى وبنات نعش الكبرى، والآريون سكان الهند صوّروا السماء بصور أخرى في كرتهم التي أتموها قبل المسيح بنحو تسعة قرون، فرسموا فيها بجعة ووزتين وشجرة كبيرة فيها كلب وصورة زنجي ضخم الجثة، والصور اليونانية التي ذكرها «بطليموس» في المجسطي يظهر كما قال بعضهم إنها عملت في بلاد العرب أيام الجاهلية، وأهل «أسكنديناقيا» سموها بالكلب والمركبة والمغزل

و« الإسكيمو » وضعوا بينها صورة حيوان بحري في بلادهم ، وترى الثريا في العربية مشتقة من الثراء ، أي : الغنى ، وفي اللسان المصري اسمها الكثرة لكثرة نجومها ، وفي الهندية الدجاجة وفراخها ، وهنود أمريكا يسمونها بما معناه الرجال والنساء أو الراقصات ، والمصريون القدماء كان عندهم كرّات مصوّرة من قديم الزمان ، ولم تزل آثارها في قبر الملك « سيتي الأول » في بيبان الملوك ، وكذلك قبر رعمسيس الرابع في مدينة « أبو » ففيها صور بعض مجاميع النجوم مثل النهر والسهم والكركدن ومغن .

هاأنا ذا الآن أكتب هذا وبين يدي الصور المنقولة من كتاب أبي الحسن الصوفي الذي ألفه في أواسط القرن الرابع للهجرة نسخت للسلطان « أولغ بك كوركان » والصور المنقول عنها كانت ملونة وهي لسائر الصور السماوية ، وقد أجاد المصور رسمها وتزويقها وأفرغ فيها دقيق الصنعة ورسم الكواكب فيها بالذهب ، وهاأنا ذا أشاهد في الكتاب أمامي الآن صورة التنين من رسم العلامة المذكور ولكن ليست هذه الصورة ملونة كالمنقول عنها . هذا ما أردت أن أقدّمه في هذا الموضوع قبل الدخول في المقصود ، وهو الكلام على صور قدماء المصريين التي صوروها ، ووجدت الآن في مقابرها مصورة على صناديقهم مصداقاً للآية إذ يقول الله : ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ ﴾ . هانحن أولاء نقرأ آيات الله المرسومة في مقابر قدماء المصريين .

أكتب هذا وأمامي هيئة البروج الاثني عشر وهي : الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت ، وهاهو ذا صندوق حتر الذي وجدوه بطيبة ، وفيه رسمت السماء على صورة امرأة رافعة يديها ويسترها ثوب طويل ، وفي رجليها نعلان ، وعلى رأسها عصابة وقد رسمت فوقها الشمس ، وعلى جانبي المرأة البروج الاثنا عشر ، منها ستة عن اليمين وهي : السرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس ، وستة على اليسار وهي من الجدي إلى الجوزاء ، وترى هذه الصور واضحة جلية ، فترى صورة السرطان على يمين المرأة الخ .

وهكذا بقية البروج فترى الجوزاء بهيئة امرأتين متقابلتين قد مدت إحداهما يدها إلى الأخرى للسلام عليها ، وأمسكت كل منهما بيد الأخرى ، ورجل كل منهما تخطو إلى الأخرى والثور واقف قبل تلك الصورة . والدلو عبارة عن رجل واقف يصب الماء من إناء بين يديه ، والجدي نصفه معزى ونصفه الآخر على هيئة السمك .

صورة منطقة فلك البروج
التي وجدت في هيكل دندره في عصر القياصرة الأول

هاأنا ذا أرى شكلها أمامي في كتاب « الحضارة القديمة في مصر والشرق ، الجغرافيا الرياضية » أو « علم الهيئة عند قدماء المصريين » لصديقنا المرحوم الأستاذ الجليل أحمد بك كمال ، هاأنا ذا أيها الذكي أبنئ لك كيف تصور الناس هذه النجوم قديماً ، وكيف جعلوها مجاميع ، وكيف صوروها بما يعرفون ، وكيف كان قدماء المصريين قد رسموها وجعلوها في مقابر عظمائهم وكبرائهم ، وكيف صوروا البروج التي نعرفها نحن بنفس الصور التي نقرؤها كالثور والسنبلة والحمل والحوت الخ ، وكيف كان هذا العمل من النوع الإنساني كله قديماً وحديثاً عند علماء الإسلام وأوروبا ، ليكشف الناس الحجاب الذي حجب عقولهم عن ذلك الجمال الذي ستره عنهم الشهوات والحروب والنوائب وحدثان الدهر

وتقلباته ، فهم بهذا الدرس يحتالون ليدركوا جمال هذا العالم الذي نعيش فيه ، وكيف حثّ الله على النظر في هذه السورة ، وذكر الشمس والقمر والضياء والنور ، وكيف ذمّ المعرضين عن ذلك الجمال في الآيات كما ذمّ المعرضين عن الآيات في مقام ذكر نجاة فرعون ببدنه ليكون لمن خلفه آية ، وكيف كانت الفراعنة قد رسم على صناديقهم تلك الصور السماوية وأودع في مقابرهم وآثارهم حكمة الله عزّ وجلّ في السماء والأرض .

القرآن يأمر بالنظر لكل ما هو محكم الصنع

إن الله يأمرنا بالنظر في مصنوعاته كلها كالشمس والقمر والأرض ، وبالنظر في مصنوعات الحيوان كالعنكبوت والنمل والنحل ، وفي النبات الذي هو تحت تدبير الملائكة ، وهكذا كل حيوان وإنسان وغيرهما .

إن الملائكة بالنسبة لله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[النحل : ٦٠] كالعين والأذن واليد والرجل للإنسان ؛ فكما أن أحدنا يقول : رأت عيني أو رأيت أنا ، ويقول : سمعت أذني وسمعت أنا ، فالسامع والرائي إنّما هو نفس الإنسان إذ الأذن والعين إنّما هما له ، فهكذا يقول الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[الزمر : ٤٢] ، ويقول : ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴾[السجدة : ١١] فعمل الملك هو عمل الله وما الملك إلاّ نوره سبحانه وتعالى وشأن من شؤونه ، وما عمل العقلاء من نوع الإنسان من هندسة وتصوير وعلم وحكمة إلاّ أثر من آثار الملائكة ، إذ الثابت في ديننا أن كل عمل إنّما يكون من إلهام ملك إن كان خيراً ، ومن وسوسة شيطان إن كان شراً ، إذن علوم قدماء المصريين المرسومة في الهياكل ، وكذا كل العلوم التي ألقاها الملائكة على قلوب العلماء في الهند والصين وعلماء الإسلام وعلماء ألمانيا والنمسا والمجر واليابان وغيرها ، كل هذه يجب علينا النظر فيها وجوباً كفائياً ، وإذا قصرنا فيها عاقبنا الله بما نحن فيه الآن وزادنا منه ، أما أنا فإني أديت ما قدرت عليه ونصحت أمتي .

إن الله ذمّ المعرضين عن آياته في هذه السورة بعد ذكر الشمس والقمر كما ذمّ المعرض عن آياته بعد ذكر فرعون الذي نجا ببدنه وجعله آية ، فثبت بهذا أن مصنوعات الله ومصنوعات الحيوان ومصنوعات العلماء والعقلاء من بني آدم كلها مصنوعاته وآياته ، وإذا كنا مأمورين أن ننظر في النبات وجماله وفي نظام النحل وأفعاله والعنكبوت ونسجه ، فبالأولى نؤمر بأن ننظر في فعل من هو أرقى وهو الإنسان ونأخذ بالأحسن والأفضل منه .

اللهم إني قد أديت الأمانة لأمتنا الإسلامية ، وأنت أيها الذكي القارئ لهذا التفسير مسؤول مثلي فعلم أمتك وأدركها وأخرجها من سجن الجهالة وأفهمها كتاب الله ، والله لا يضيع أجر المحسنين . اهـ .

تذكرة

اعلم أني قد كتبت ما تقدم ولم يكن ليخيل لي أني أرسم هاتين الصورتين الفلكيتين المصريتين لما فيهما من صور بعض الحيوانات فاتفق أن وقع نظري على كتاب مؤلف حديثاً فيه صور بعض الحيوانات ، وقد صدّر بمقدمة فيها أحاديث وردت يؤخذ منها جواز صور الحيوان إذا كانت لا ظل لها ، فعجبت كيف اطلعت على هذا اليوم ؟ ففكرت في الأمر ونظرت نظراً علمياً ففتح لي باب لن يقفل على المسلمين بعد الآن .

ذلك أنه ظهر لي أن الصور الشمسية ما هي إلاَّ أضواء شمسية ـ وبعبارة أخرى ـ ظلالها ، والظلال إذا حرمها امرؤ فقد انسلخ من عقله ودينه ، وكل امرئ يباح له النظر إلى صورته في المرآة ، فإذا دام النظر وتكرر لم يحرم ، وما الصور الشمسية إلاَّ كالصور في المرآة ، الخ ما سيأتي ، فاعتقدت الإباحة والأحاديث الواردة في الجواز لما يرسمه الناس بأيديهم لا برسم الشمس إلى آخر ما سيأتي شرحه . فهأنا ذا أذكر ثلاثة فصول :

الفصل الأول : في رسم الصورتين الفلكيتين المنقولتين عن قدماء المصريين مع شرح العلامة أحمد بك كمال .

الفصل الثاني : في الكلام على ما يجوز من الصور وما يمتنع وما يجب .

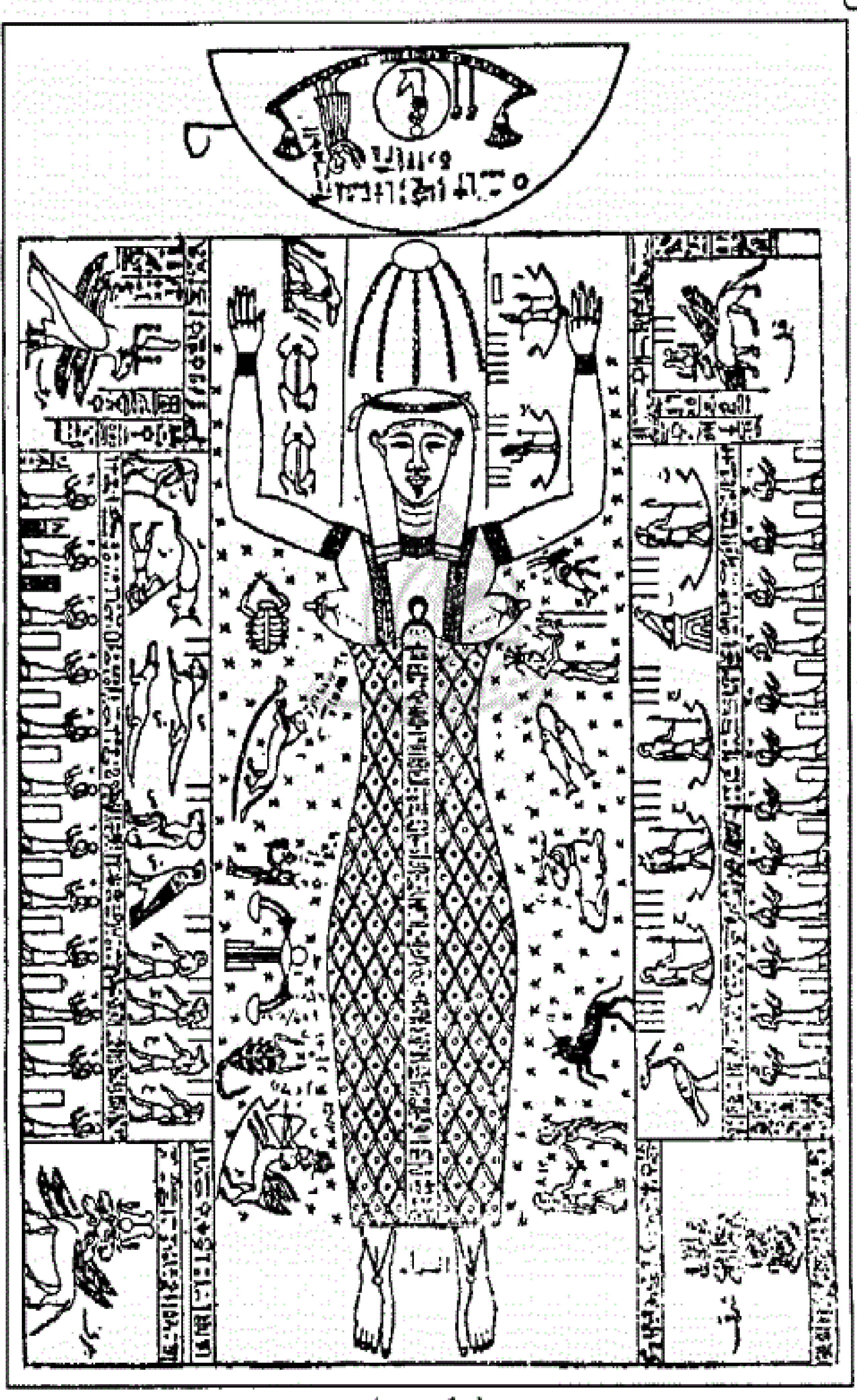
الفصل الثالث : في الكلام على بناء الأهرام بمصر ، لأن ذلك البناء من أسباب النجاة لبعض أبدان الفراعنة القدماء .

الفصل الأول في رسم الصورتين المذكورتين وشرحهما

قال العلامة الأثري الكبير أحمد بك كمال في كتابه « الحضارة القديمة » ما نصه :

إن قدماء المصريين في عصر اليونان أو الرومان حسبوا هيئة السماء بالكيفية التي وجدت على صندوق حتر بطية (شكل ١١) ، وفيها رسمت السماء على صورة امرأة رافعة يديها ويسترها ثوب طويل مثبت على الأكتاف بحمالات ، وفي رجليها نعلان ، وعلى رأسها عصابة وفوق رأسها إشارة هيروغليفية ، يشار بها إلى الشمس ذات الأشعة ، وعلى جانبي هذه المرأة البروج الاثنا عشر ، منها ستة عن اليمين وهي : السرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، وستة عن اليسار وهي : الجدي ، والدلو ، والحوت ، والحمل ، والثور ، والجوزاء ، وأجلّ شيء يستحق الالتفات إليه الكواكب السيارة الخمسة البادية الذكر ، وهي بين النجوم المنتشرة عن يمين المرأة « نوت » منها اثنان فوق برج الأسد ، وهما كوكب المشتري وكوكب زحل أشير إليهما بحرف « ف » ، كما أشير بحرف « ق » إلى كوكب المريخ الموضوع بجانب برج السنبلة ، وفوق هذا البرج اسمه وهو « نتر ـ سب تاحم » ، وبين الميزان والعقرب عند حرف « ك » كوكب عطارد ويسمى « سبك » ، وتحت ذلك نقوش صعبة الحل مرموز لها بحرف « ل » وهي تدل على برج الميزان ، وبين العقرب والقوس في المكان المرموز له بحرف « م » كوكب الشعرى اليمانية « نتر ـ دوا » ، والكتابة التي فوق العقرب صعبة الحل أيضاً ، وهي اسم برج العقرب ، ويرى فوق القوس اسمه « بشت » وقد وضع فوقه حرف « ن » للدلالة عليه ، أما الصور المرموز لها بحروف « ت ث ج ح خ د » فإنها تدل على كواكب عرفت مدة الفراعنة لأنها وجدت مرسومة على بعض آثار الأسرة التاسعة عشرة والعشرين . وقد عرف قدماء المصريين نجوماً غير ما ذكر كالمرسومة بين ذراعي « نوت » ، وكالجوزاء المشار إليها بحرف « ا » ، والشعرى اليمانية والنجم المسمى « حس ـ مون » أو « رتر » أي : النسر الواقع والدب الأكبر المرسوم على هيئة فخذ الثور يسمى « ضبس » والنجم « آن » والأسد « س » والتمساح « ش » ، والصور الأربعة المشار إليها بحروف « ط ظ ع غ » يرمز بها للملائكة الأربعة المختصة بحفظ أحشاء الأموات وهي « أمست » و« حيي » و« دواموتف » و« قبح سنوف » ، وقد جعلت هنا رمزاً للنجوم ، أما الأربعة والعشرون صورة التي عن يمين ويسار

المرأة الدالة على السماء فهي رموز للأربع وعشرين ساعة، فساعات النهار جعلت على هيئة نساء فوق رؤوسهن قرص الشمس إشارة إلى النهار، وساعات الليل رسمت أيضاً كنساء فوق رؤوسهن نجمة إشارة إلى الليل، وبجانب ساعات النهار كتابة معناها «السلام عليك أيها المتوفى حتر ابن المرحومة بحر الخ».

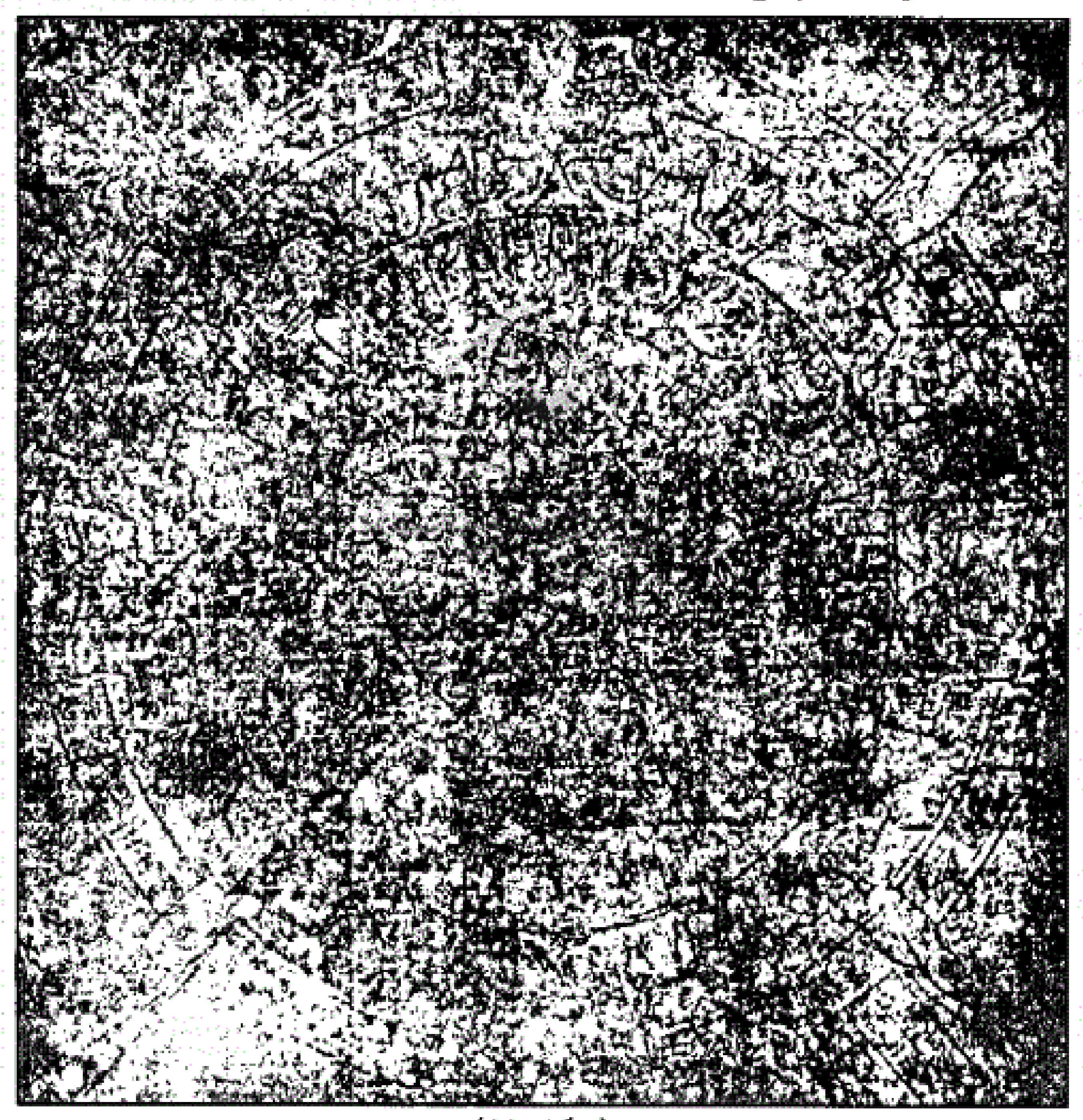


(شكل ١١)

فالساعة الأولى هي ساعة الفجر والأخيرة هي ساعة المساء، وقد رمز للنقط الأربع الأصلية في أركان شكل (١١) أيضاً بحيوانات، فللجهة البحرية سبع له أربعة أجنحة ورأس كبش فوقه قرنان، وبينهما قرص الشمس تعلوه ريشتان، وبجانبيه ثعبانان، وأشاروا للجهة الشرقية بعجل له أربعة رؤوس كباش، وللجهة الغربية بباشق له أجنحة ورأس كبش عليه ريشة وقرنان فوقهما ثعبانان، وللجهة القبلية بسبع له أربعة أجنحة وأربع رؤوس كباش، ويشاهد في الرسم الذي فوق رأس المرأة « نوت » الدالة على السماء مركب الشمس، وفيها صورة المتوفى « حتر ». انتهى الكلام على الشكل الحادي عشر.

الكلام على الشكل الثاني عشر

هو الذي وجد في هيكل « دندره » وهو رسم لمنطقة فلك البروج صنع في عصر القياصرة الأول وهو وإن كان متأخراً لا يخلو من الفائدة، وإليك رسمه:



(شكل ١٢)

هذه الدائرة وجدت في هيكل « دندره » الذي بني في القرن الأول وهدم في آخر أيام البطالسة، وتم بناؤه في عهد القيصر أغسطس، وذلك فوق معبد قديم من الطبقة الأولى، اهتمت به ملوك الأسرة الثانية عشرة وأعظم ملوك الطبقة الوسطى مثل « تحوتمس الثالث » و« رمسيس الثاني والثالث »، وكانت المنطقة مرسومة في سقف الرواق الثاني من جهة الجنوب، وقد أخذها الفرنسيون بأمر المرحوم

محمد علي باشا سنة ١٨٢١ وحملوها إلى مدينة باريس، فترى في هذه المنطقة أربعة من صور النساء واقفات، جعلت للدلالة على الشرق والغرب والجنوب والشمال، وهي تحمل السماء، ويساعدهن في ذلك ثمانية من صور «حوريس» جاثيات رؤوسها على شكل الباشق وجسمها كجسم الإنسان، وهذه المنطقة المحمولة على أيدي هذه الصور الاثني عشر تنقسم إلى ٣٦ قسماً، وكل قسم إلى عشرة أقسام، فيكون مجموع الأقسام ٣٦٠ قسماً والقسم يوم. وكانت هذه الصور الاثنا عشر التي ترمز إلى الملائكة ترأس منطقة فلك البروج القديمة المصرية في أقسامها كافة، ثم لما جاء اليونان بمصر ونشروا منطقتهم الفلكية جعلوا كل ثلاثة من هذه الصور لقسم من الدائرة، وبهذه التجزئة بقيت المنطقة معتمدة للآن لدى علماء الفلم، ويشاهد في نفس المنطقة وفي أقسامها بعض نجوم رصدها المصريون قديماً، كالدائرة المشتملة على ثمانية من المذنبين المغلولي الأيدي الجاثين على الركب، وعلى الثعبان الكبير المتوج بالتاج «اتف» وتبتدئ المنطقة في أعلى هؤلاء المذنبين ببرج الأسد ثم بواسطة البرج الأخير وهو السرطان، تدخل في الدائرة الموضوعة فوق السد، بحيث يتكون من الجميع شكل حلزوني ويرى في داخل الدائرة أن الكواكب قد رسمت كل خمسة معاً في هيئة رجال تسير الهوينا.

قال «شامبليون فيجاك»: من تأمل هذه الدائرة وجدها مبتدئة في وسطها ببرج الأسد المرسوم كالسبع السائر فوق ثعبان ومن خلفه امرأة، ثم ببرج السنبلة وهي امرأة في يدها اليسرى سنبلة قمح، ثم يلي ذلك من اليمين إلى اليسار برج الميزان بكفتيه، ثم برج العقرب، ثم القوس نصفه إنسان ونصفه الآخر ثور وله أجنحة، ثم يليه الجدي نصفه ماعزي ونصفه الآخر سمكي، ومن بعده الدلو وهو كرجل يصبّ الماء من إناء بين يديه، ثم الحوت وهو أسماك مجتمعة في مثلث مخصصة بإشارة الماء، ثم الحمل وهو أول البروج اليوم عند علماء الفلك، وبعده الثور، وكلاهما مرسوم فوق صورة إنسان سائر، وبينهما الجوزاء ثم السرطان.

هذه هي البروج الاثنا عشر المرسومة داخل المنطقة، ولأجل الوصول إلى معرفة ترتيبها والوقوف على أول بروجها، نكتفي بالتأمل إلى السرطان إذ هو الموضوع مباشرة فوق رأس الأسد، وعليه فالاثنا عشر برجاً موضوعة على شكل حلزوني، وتعرف الكل بسهولة لأن مبدأها الأسد كما تقدم، أما غيره من البروج فيتبعه حسب ترتيبه الوارد في المنطقة، وأما باقي الصور المنتشرة في دائرة المنطقة فهي نجوم أشهرها الشعرى اليمانية، وهي المرسومة كالبقرة، فتراها نائمة في سفينة وعلى رأسها نجمة وفي جيدها هذه العلامة (☥) الدالة على الحياة، وهذا النجم يعرف عندهم باسم «أسيس»، ويتبع هذا الفصل جوهرتان: الجوهرة الأولى في عجائب هذه الصور الفلكية المصرية، الجوهرة الثانية في فوائد ذلك للمسلمين.

الجوهرة الأولى

انظر أيها الذكي في هاتين الصورتين، لقد تبين فيهما ما في علم الفلك من ثوابت وسيارات، وما عرف الناس من البروج الاثني عشر. وانظر كيف تجلى ذلك في الصورة الأولى التي وجدت في قبر حتر مرسومة على صندوقه بهيئة صفين عن يمين وشمال، وفي صورة معبد «دندره» بهيئة شكل حلزوني عجيب، وكيف أمكن القوم أن يبينوا في صورة على مقدار راحة اليدين الجهات الأربعة وأيام السنة

وفصولها وشهورها وبروجها، وقد رسموا ذلك بصور آية في الحكمة وآية في الصنعة وغرائب الإبداع، هاهنا تجلى معنى القرآن، هاهنا تجلت بدائع الفرقان.

ذكر الله في أول السورة الشمس والقمر ونورهما وحسابهما، وذمّ المعرضين عن ذلك، وهاهنا أبان أن للإنسان صنعاً في ذلك، وذمّ المعرضين عنه، إذن الله يذمّ المعرضين عن صنعه، والمعرضين عن صنع عباده.

ألا ترى رعاك الله أن صنعه قد تجلى في الصور المرسومة في أول السورة مثل صور أوجه القمر وصور سديم المرأة المسلسلة وسديم الأسد وصورة المجرة.

هذه هي الصور التي لم تمسها يد البشر، وإنَّما وضعت في السماء بيد خالقها، ورسمت على قراطيسنا بضوء شمسه، ثم إنك ترى هنا صوراً أخرى رسمت بيد العباد من آلاف السنين لتجمع أشتات الصور السماوية، وتبيّن للناس مناظر السماء وبروجها موضحة بأشكالها، حتى تكون أسهل مأخذاً وأوضح تصوراً وأقرب فهماً، جلّ الله وجلت الحكمة، هاهنا رسمان للصور السماوية، رسم في أول السورة بيد الله، ورسم هنا بيد العلماء، ذم الله المعرضين عن الصورتين، ولم يفرق في الذم بين من أعرض عن الآخرة، ومن أعرض عن الأولى، بل إن صور قدماء المصريين الصناعية أقرب إلى الفهم لأنها صور معدّة للدراسة، وأقرب إلى الأذهان، إلاَّ أنها هي أشبه بكتلة المخ الإنساني ترسم عليه صور شتى فيحفظها.

هكذا الصور الفلكية لقدماء المصريين جمعت شتات علم الفلك فصارت كمرآة المنجم، وهي صغيرة تريه كل عامرة وقفر. انتهى الكلام على الجوهرة الأولى.

الجوهرة الثانية في فوائد ذلك للمسلمين

رب مطلع على هذا يقول: كيف ساغ لك أن تحرض على قراءة علوم القدماء وهم قوم عباد أوثان؟أليس القرآن يغنينا؟. أقول: هذه شبهة قد نشرها إبليس بين المسلمين ليبعدهم عن ربهم ويذلهم لخلقه، لم يقل أحد من علمائنا إن هؤلاء قوم محكوم عليهم بجهنم، بل أجمعوا أن أهل الفترة ناجون وإن غيروا وبدلوا وعبدوا الأوثان.

فالأمم التي لم تبلغها دعوة نبي تحاسب على مقتضى عقائدها، وليس محكوماً عليها بالهلاك فهذه شبهة ضالة خاطئة، وأيضاً هب أنهم ضالون فهل ضلال قوم يمنعنا عن أخذ ما لديهم من المنافع.

اللهم إن كل قوم يحرمون ذلك فهم قوم ضالون، وكيف يحرم الناس ذلك وقد قال الله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[الحج: ٤٦]، يقول: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ ولم يبيّن أيّ معقول يعقلون، أعلى يد كافر هو أم على يد مسلم. وإذا كان ابن آدم يقول في سورة «المائدة» كما مر هناك: ﴿ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ﴾[الآية: ٣١]، أي: إن الإنسان يتلقى العلم عن الغراب ويأخذ الحكمة عنه إذا وجد نفسه مقصراً عنه في فضيلة أو عمل ما، فإذا رأى الغراب يدفن أخاه يكون من النقص أن لا يدفن أخاه؛ فكما تحسر ابن آدم على نقصه بالنسبة للغراب فهكذا يتحسر المسلم على كل ما يمكنه علمه، مشتق من علم الطيور، وبالأولى ما كان من علم

الإنسان، والمتحسر على نقصه عن الغراب يكون أكثر تحسراً على نقصه عن الإنسان الذي هو أقرب إليه وهو من جنسه. وهذا هو المقصود في هذه الجوهرة، يعني أننا نكون في حسرة ونقص شديدين إذا سبقتنا أوروبا التي هي في زماننا.

وإذا سبقنا قدماء المصريين ولم نعلم ما علموا، فمن تحسر على معرفة الغراب في دفن أخيه الغراب فما أحراه أن يتحسر على علوم مكتوبة له مرسومة على ألواح مرصودة في المقابر مهيئة له، ثم هو يولي معرضاً عنها، فحق عليه قول الله: ﴿ يَـٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ ﴾[يس: ٣٠] الخ.

حكاية النملة وسيدنا سليمان عليه السلام

ويا ليت شعري إذا كان نبي الله سليمان عليه السلام يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ﴾[النمل: ١٦].

ثم أخذ يذكر قصة النملة التي سمعها في وادي النمل تقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾[النمل: ١٨]، سمع النملة سليمان، فماذا فعل؟

(١) ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوۡلِهَا ﴾.

(٢) ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ ﴾ أي: ألهمني ﴿ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ﴾.

(٣) ﴿ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَـٰلِحًا تَرۡضَىٰهُ ﴾.

(٤) ﴿ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾[النمل: ١٩].

تبسم سليمان فرحاً بأنه عرف ما تقوله النملة، واعترف بنعمة الله عليه وعلى والديه، وطلب من الله أن يعمل صالحاً الخ، فيقول سليمان: إنه علم منطق الطير وأوتي من كل شيء، ويقول: إن هذا فضل مبين، فإذا كان منطق الطير مع ما عطف عليه فضلاً مبيناً، فما بالك بمنطق الحكماء والعلماء من نوع الإنسان.

إن الإنسان إذا عرف ما نطق به الحكماء وما دونوه في الألواح والكتب والطوامير، يكون أولى بالشكر والإقرار لله بالفضل.

إن العلم المودع في الإنسان أعلى من العلم المودع في الحيوان، فإعلان النبي سليمان شكره لله على علمه بمنطق الطير حضّ لذوي العقول أن يعرفوا نعم الله فيما نالوه من حكمة الحكماء وعلم العلماء. اللهم لم يبق بعد هذا البيان عذر لأمم الإسلام بعدنا. اللهم قد أبنت بفضلك لهم ما يجب عليهم من العلوم ونقل الحكمة، إن المسلمين بعدنا هم الذين يعرفون ما قرأته جميع الأمم وما ظهر من عجائب هذه الدنيا.

مرّت على المسلمين قرون وقرون وهم نائمون بعد العصر الأول، أنامهم شيوخهم المغرورون فقلّ أولو الألباب وذلت الأعقاب، وهذا أوان استيقاظهم، فليكونوا فيما مضى أشبه بحيوان عاش في بيضة فصار دودة ثم فيلجة كدودة القز، وهاهو ذا قد جاء أوان استيقاظهم وبناء مجدهم، فيكونون أشبه بذلك الحيوان وقد حلّ وثاقه وصار في حرية يمتع بالنسج والشجر وأعمال الزهر. اهـ.

فهذا هو قوله تعالى: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴾[يونس: ٩٢]. انتهى.

ذكرى أيام الشباب وشكر الله تعالى على نعمة العلم والعرفان

قد ذكرت في سورة «الأنعام» أن عويل نساء قريتنا على عظيم من عظمائها كان ذلك يورثني حزناً على جهلي، وأوضح الآن أكثر إيضاحاً فأقول:

لقد كانت هذه حالي أيام الشباب، فكنت إذا سمعت النادبات يندبن بهيئة منظمة موسيقية، تحدث في قلبي رقة وآلاماً على جهلي بعلم الفلك، لأني كنت أنظر إذ ذاك إلى النجوم في الليالي المظلمة وهي تلمع خلال النخيل المحيط بالقرية، فكان يخيل لي أن أصواتهن ترتفع في طبقات الجو صاعدة، وأنا أصعد الأنفاس حزناً على جهلي بعلم هذه النجوم، وتارة كانت تحدث هذه حزناً في نفسي على الآثار التي خلفها الأولون، وأتحسر وأحزن على ما أودع فيها من عجائب، ولست أدري سبب اقتران بكاء النساء بهذا ولا بذاك، ولكن كانت هذه حالي، وقد كنت أيام الصبا قبل المراهقة أبيت في الحقل مع أقاربي فأسمع طنين الناموس في الحقول، فأحسّ في نفسي بحزن عميق على جهلي بهذه الدنيا وهذا الوجود، وكأن ذلك الطنين أرسل إلي ليذكرني بالجهل الطويل الممتد كامتداد هذه الدنيا، فلا أدري أوائلها وأواخرها، هذه كانت حالي أيام الصبا وحالي أيام الشباب.

أفلا يحق لي الآن، بل أفلا يجب عليّ أن اشكر الله وأعلن فضله عليّ، إذ جمعت من عجائب وغرائب النجوم والأفلاك صوراً جميلة وبدت بهيئة ظريفة قد زينت للناظرين، وبعض هذه الصور إلهية وبعضها بأيد بشرية مدفونة تحت أطباق الثرى، كما كنت أجد في نفسي أن في السماء عبراً، وفي الأرض وآثارها المدفونة خبراً.

اللهم إني قد علمت من ذلك على قدر الطاقة البشرية، وأدركت بعض نظام هذه الدنيا، فأنا اليوم أحمدك وأشكرك على فضلك العظيم ومنتك الكبرى، إذ أريتني من عجائب كواكبك ومن غرائب خزائن الآثار التي رسمها القدماء، وقد انقلب حزني في الشباب على الجهل، سروراً في المشيب على العلم والحكمة، والحمد لله رب العالمين. انتهى.

الفصل الثاني فيما يجوز من الصور وما يمتنع

ولما أردت أن أصنع صورة البروج المستخرجة من قدماء المصريين المذكورة، حضر صديق لي من قراء هذا التفسير، وهو من أهل العلم الصالحين المطلعين، ومن قرابتي وهو الشيخ محمد السيد دياب، فقال: كيف تضع صوراً في التفسير والتصوير حرام؟ فقلت: إن الصور على نوعين: نوع ورد ذكره في الأحاديث وكلام العلماء، ونوع لم يرد. أما الذي ورد ذكره في الأحاديث وكلام العلماء فهو قسمان: التصوير الذي له ظل والذي لا ظل له، والأول منهما محرم بالسنة، وقد شرط له العلماء أن يكون على هيئة يعيش بها الخ، والقسم الثاني مباح، لما روي عن زيد بن خالد رضي الله عنه أن أبا طلحة حدثه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة»، قال بشر: فمرض زيد بن خالد فعدناه، فإذا نحن في بيته بستر فيه تصاوير، فقلت لعبد الله الخولاني: ألم يحدثنا في التصاوير؟ فقال: إنه قال: «إلاّ رقماً في ثوب، ألا سمعته قال: لا؟ قال: بلى، فذكره».

وروى الترمذي بسنده «أنه دخل على أبي طلحة الأنصاري يعوده، فوجد عنده سهل بن حنيف فقال: فدعا أبو طلحة إنساناً ينزع غطاء تحته، فقال سهل: لم تنزعه؟ قال: لأن فيه تصاوير وقد قال

النبي صلى الله عليه وسلم ما علمتم، قال: أولم يقل إلاّ ما كان رقماً في ثوب، فقال: بلى، ولكنه أطيب لنفسي». وقال الترمذي: حسن صحيح. وروي أن عائشة رضي الله عنها كان لها قرام «ستر» سترت به جانب بيتها، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: أميطي عنه فإنه لا تزال تصاويره تعرض في صلاتي». اهـ.

وجاء في صحيح مسلم وأبي داود والنسائي والترمذي عن أبي هريرة «أن جبريل أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يأمر بالستر الذي فيه تماثيل فيجعل منه وسادتان توطأان»، فهذا يدل على أن تلك الصور ترجع إلى المقصود منها وهي مباحة.

أما النوع الذي لم يرد ذكره في الأحاديث ولا كلام العلماء، فهو التصوير الشمسي، وما هو إلاّ صور رسمها الله بشمسه فاحتال الناس على سكونها فسكنت كما يرى الإنسان صورته في المرآة. فهل يباح لنا أن نراها فيها ولا يباح بقاؤها؟ إنها من نوع الظلال الشمسية، ومن حرم الظلال الشمسية تحت جبل أو حائط أو جمل فقد انخلع من عقله ودينه معاً.

فالصورة الشمسية لم ترسم بأيدينا، والنظر إليها كالنظر إلى الظلال المعروفة، على أن هذه كالمعجزات القرآنية في هذا الزمان، يقول الله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ﴾[الفرقان: ٤٥]، فهاهو ذا سكونه المرموز له في الآية، فقال الشيخ محمد السيد: إذن هذا مباح. قلت: بل هو واجب. فقال: أين الدليل؟ قلت: هو هنا للتعليم والتعليم واجب، وما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب، كما يقول الشافعي رضي الله عنه في غسل المرفق مع غسل الذراع. قال: وهل هذه هي تعاليم إسلامية؟ قلت: بل هي لبّ الإسلام وقلبه، إنها صور البروج، والبروج تشمل المنازل المذكورة في هذه السورة في قوله تعالى: ﴿ وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾، فكيف يعرف الناس المنازل إلاّ برسمها؟ فهي تفسير للقرآن، وهي توحيد لله تعالى، وهي شكر له.

إن التوحيد هو العلم بما هو في هذا الوجود، وهذا الوجود لا يعرف إلاّ بأمثال ما ذكرناه، وهو من ملكوت السماوات والأرض الذي أراه الله إبراهيم الخليل، فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾[الأنعام: ٧٥]، فبهذا يكون الإيقان الذي هو أرقى من الإيمان، ومعلوم أن الشكر علم وعمل، وهذا لبّ العلم، وهو الذي حضّ النبي صلى الله عليه وسلم على تعلمه، فقال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»، ومعنى هذا أن علينا أن نبحث ونجدّ حتى نوقن، ولا معنى للبحث والجدّ إلاّ في علوم هذه الكائنات التي يكون بها اليقين تشبهاً بالخليل عليه السلام الذي نظر فيها وأيقن، وإن كنا لا نصل إلى مقامه. فقال ذلك الصالح: ولم خصصت الرسم بما نقل عن قدماء المصريين؟ فقلت:

أولاً: إن هذه أرقى وأكمل من غيرها في التعليم.

ثانياً: إن الله ذكر المنازل في هذه السورة، ثم جاء في نفس السورة فذكر فرعون وهو من قدماء المصريين، وقد جعل بقاء جسمه آية، فنحن نري للناس بعض هذه الآية التي وجدت في مقابرهم، لنخلص من الغفلة عن هذه الآيات في قوله: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾[يونس: ٩٢] فهاهنا استبان أن الغفلة عن آيات الله ـ ومنها الآيات التي خبأها الله في قبور الفراعنة ـ مذمومة منهي

عنها، وهذه الأسرار لم تظهر إلاَّ في هذا الزمان، فوجب علينا أن نظهر للناس أن القرآن قد أشار إلى علوم قدماء المصريين، وهذا منها لاسيما أنه هو المذكور في نفس السورة وهي صور البروج والمنازل.

فهذه العلوم من جهة فرض عين على كل قادر على الازدياد من التوحيد ومن الشكر، وفرض كفاية بحيث يكون في الأمة من يعرفونه مثل جميع العلوم والصناعات.

ملخص ما تقدم

إن هذه الصور وضعت فيما هو فرض عين على كل قادر من وجهين: وجه التوحيد، ووجه الشكر، وفرض كفاية على الأمة بحيث تخصص له جماعة يقومون به من وجهين أيضاً: وجه أنه علم الفلك، ووجه أنه علم قدماء المصريين فيكون ثوابه هنا مضاعفاً، والقائم به قائم بغرضين معاً لكفاية الأمة، ثم قلت له: أيها الفاضل لنفرض أن أحاديث الجواز وإباحة الصور لم ترد، وأن حديث أبي طلحة وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة» لم يذكر فيه ما بعده، وهو إباحة التصوير إذا كان رقماً في ثوب. وبالإجمال لنفرض أنه لم يرد شيء من الحل ولم يرد إلاَّ النهي، فهل تمنع رسم الصور؟ قلت له: قد ورد في رواية من نفس هذا الحديث: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب أو صورة». قال: أذكر ذلك. قلت: إذن سوّى الحديث بين الكلب والصورة. قال: نعم. قلت: فهل هناك نهي عن كلب الصيد أو حراسة الغنم؟ قال: لا. قلت: لماذا؟ قال: لأن كلب الحراسة ينفعنا لحفظ غنمنا. قلت: ثم ماذا؟ قال: وأيضاً كلب الصيد يفيدنا في حياتنا، نأكل مما يصطاد لنا. قلت: إن الصور في عصرنا الحاضر أنفع لنا من كلب الصيد وكلب الحراسة إنهما تحرسنا وتفيدنا. قال: هذا لا أعقله. قلت: أنت تعقله ولكنك تريد أن تعلم الناس. قال: حقاً. قلت له: اعلم أن الناس اليوم في أوروبا وأمريكا واليابان وبلاد الترك قد عرفوا من العلم ما يجهله كثير من الناس، ذلك أن الحيوانات على قسمين: قسم نراه، وقسم لا نراه، والذي نراه بالنسبة لما لا نراه قليل جداً.

إن جميع ما على الأرض من الأنعام والبهائم والحشرات والطيور لا تساوي في تعدادها ما في جسم رجل أصابه طاعون أو حمى أو مرض الجدري أو الحصباء أو حمى التيفوس أو حمى التيفود، فهؤلاء جميعاً لا يمرضون ولا يموتون إلاَّ بحيوانات دقيقة تحدث ذلك.

وقد احتال العلماء هذه الأمم فصوروا تلك الحيوانات وعرضوها على الناس وهي مكبرة ألف مرة، وعشرة آلاف ومائة ألف، فظهرت خراطيمها مع أجسامها، فعرفها الناس فاحترسوا منها بأن أتوا بما يضادها، فأهلكوها فأنجوا كثيراً من الناس بذلك، ولولا ما فعلوه ما بلغ قطرنا المصري اليوم ١٤ مليوناً بعد أن كان ٣ ملايين أيام المرحوم محمد علي باشا تقريباً، وهكذا جميع الأمم. وأيضاً هذه الحيوانات وغيرها لما رسمت في لكتب وظهرت صورها عرف الناس جمال ربهم وحكمته وإتقانه وإبداعه فآمنوا به.

ألا ترى إلى ما ذكرته لك في سورة «الأعراف» عند قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الآية: ١٥٦]، فقد قلت لك هناك: إن علماء القرن العشرين من المعاصرين لنا في أوروبا أدهشهم نظام ربهم في حيوانه، فقالوا: إن علماء اقرن التاسع عشر آراؤهم في العالم كآراء العجائز، وهو أقرب إلى الخرافة، إذ يظنون أن هذا العالم جاء بالمصادفة والانتخاب الطبيعي الخ.

فإذا كان هذا شأن الصور الحيوانية المكبرة إذا فرضنا أنها مرسومة بأيدينا، أفلا تساوي تلك الصور كلاب الصيد وكلاب الحراسة؟.

وإذا جاز لنا أن نحرس غنمنا بكلبنا ونصطاد الغزالة به، والصيد واقتناء الغنم مباحان، وقد خرجنا بذلك عن كراهة اقتناء الكلب، أفلا نخرج عن كراهة الصور أو تحريمها إذا كانت مرسومة في الورق. قال: أما هذا القول فهو حسن. قلت: ماذا تريد بحسنه؟ قال: إنه يثبت الجواز وإن لم يرد في الحديث جوازه، مع أن الأحاديث نطقت بجوازه. قلت: هذا ليس جوازاً إنّما هو وجوب، وكيف لا يكون وجوباً ونحن لو تركنا معرفة هذه الحيوانات وحرّمنا رسمها على أطبائنا لجهلوا أمراضنا ولفتكت بنا تلك المخلوقات، أفلا يكون ترك ذلك حراماً؟ قال: بلى. قلت: إذن حراسة الإنسان والحيوان من الطاعون والموت أفضل آلاف المرات من حراسة غنمات في البادية لأعرابي. قال: نعم. قلت: إذن رسم الصور وتكبيرها يكون واجباً لأمرين: معرفة الله وشكره، وحفظ الأمم الإسلامية من الهلاك. فقال: يا للعجب، إن هذا القول جميل، وإن من البيان لسحراً، وأود أن ينشر هذا القول بين المسلمين لأن هذه الأمة قد رسخت فيها هذه العقيدة، وأكثر الناس لا يفرقون بين صورة وصورة، ولا بين حالة وحالة، بل الناس غافلون نائمون يسمعون تحريم الصور فيأخذونها على علاتها، والعامة يتبعون صغار العلماء، وصغار العلماء أعينهم في غطاء عن ذكر الله، ومن الغطاء عن ذكر الله أن تخفى صور الحيوانات العجيبة فلا يفطنون لها.

فالمسلمون اليوم وقعوا في براثن أسدين مفترسين: أسد جاء من الخارج وهي الأمم الراقية يذلونهم ويفترسونهم للجهل المخيم عليهم، وأسد من الداخل وهم صغار الفقهاء في الدين الذين تصدوا للفتيا واتبعهم الناس وأعينهم في غطاء عن ذكر ربهم، فضاعت الأمة فريسة للأسدين: أسد الأعداء الخارجين، وأسد الأعداء الداخلين بجهلهم، وهم الأعداء حقيقة. وفي المثل: «عدو عاقل خير من صديق جاهل»، فهؤلاء أصدقاء جاهلون يحفظون كلمات ولا يفقهون معناها، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وقد قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: «إن من ينصر الدين بطريق الجهل أضر عليه من أعدائه، وناصرو الإسلام أكثرهم جاهلون». قلت له: لا تأسف، ولتعلم أن الله أذن للمسلمين اليوم بالارتقاء، وهذا التفسير من مقدمات تلك النهضة، فلا يكن في صدرك حرج مما ابتلي به المسلمون من الجهل، والله على كل شيء وكيل. فقال: أنا كما قدمت موقن بهذا الموضوع، ولكن بهذا البيان أفرح ليطلع عليه المسلمون، وإني قد اطلعت في تفسير سورة «الفاتحة» الذي نشر حديثاً في كتاب خاص أنك ستكتب في «النحل» وفي «العنكبوت» وغيرهما عجائب لا تحصى، فأنا أودّ كما يودّ أهل العلم جميعاً أن ترسم تلك الحيوانات بالتصوير الشمسي لنرى بأعيننا تلك الحيوانات مكبرة، فنرى أرجل النملة والنحلة الست، ونرى أرجل العنكبوت الثمان، وهكذا، وإذا كانت محاورتي معك قصدت منها أن يطلع المسلمون في بلاد الإسلام، وأنا قبل ذلك مقتنع بحديث مسلم وغيره، فإني أودّ أن أقابل أكابر علماء الحنفية والشافعية والمالكية وآتي بآرائهم ليوضع هنا حتى يكون رسم الصور إجماعياً ممن يعتد بهم، فلما أطلعني على ما كتبه جماعة من هيئة كبار العلماء بالجامع الأزهر من المذاهب كلها، رأيت أنهم اتفقت آراؤهم واختلفت عباراتهم، ورجعوا جميعاً في المعنى إلى أمر واحد وهو جواز

التصوير الشمسي كالذي يصور في هذا التفسير، وهذا نص ما قاله شيخي وأستاذي بالجامع الأزهر شيخ السادة الشافعية، ومن هيئة كبار العلماء بنصه، قال: «التصوير المحرّم إنشاء صورة تشبه صورة الحيوان بخلاف حبس صورة حيوان بنحو زجاج، فليس بتصوير، وحينئذ لا حرمة، بل هو مثل حبس الصورة بالمرآة، وهذا الحبس ليس بحرام»، ونحا نحوه صديقنا الشيخ يوسف الدجوي من كبار علماء المالكية، وهكذا غيره.

فلما قرأت ما ذكر قلت له: الجواز لا يكفي، بل هنا يكون الوجوب، لأن العلم لا تظهر حقائقه في هذا الزمان الذي اتسعت فيه دوائره إلاّ برسم صور المخلوقات الحية وغير الحية كما تقدم.

وإذا سمعناه صلى الله عليه وسلم يقول لعائشة: «أميطي عني فإنه لا تزال تصاويره تعرض في صلاتي» فإنا نفهم منه أنه لم يمنعه من ظهوره أمامه في الصلاة إلاّ أنه شغله عنها، إذن التصاوير شغلته في الصلاة فأمر بإماطتها. إذن إذا كانت التصاوير تعرّفنا جمال الله وحكمته في كتبنا التي ندرسها فإنا لا نميطها ولا نبعدها لأنها مذكرة بالله وبجماله.

إن العلماء استنتجوا من وجودها عنده وأمره بالإماطة في تلك الحال أن الصور التي لا ظل لها مباحة، فكيف بنا إذا رأينا صور الكتب التي ترشدنا إلى جمال ربنا ونظام حياتنا، فهل هذه نميطها؟ كلا والله، ثم كلا، بل المفهوم من الحديث أننا نبقيها وجوباً أو ندباً.

تذكرة

بعد أن كتبت هذا زارني أحد الفضلاء فاطلع عليه فقال: إن ما أبديته من الأدلة كاف في جواز بل وجوب الصور الشمسية لإظهارها الخفايا والدقائق كي يحيط الإنسان علماً بما في هذه الحيوانات من العجائب، ولكن هذا ليس ينتفع به جميع المسلمين، وهذا التفسير عام لا يختص بأهل سنة ولا بشيعة ولا بإمامية ولا زيدية، بل هو كتاب عام، وفي هذه الطوائف من لا تقنعه البراهين العقلية ولا تكفيه الأدلة الحكمية، وإنّما يعوّل على نصوص القرآن أو الحديث، وما عدا ذلك يضربون به عرض الحائط، فهل لك أن تذكر ما يناسب الصور الشمسية من الآيات القرآنية ولا تقف عند ما ذكرت من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾[الفرقان: ٤٥]، وأن هذه الصور إنّما هي من أشعة الشمس واحتال الناس عليها فأسكنوها، فإن مثل هذا لا يجتزئ به ذلك الفريق من المسلمين.

فقلت: إن تصغير الكبير وتكبير الصغير قد جاءا معاً في غزوة بدر، ألم تر أن الله يقول: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾[الأنفال: ٤٤]، ويقول: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾[الأنفال: ٤٣]، فهاهنا صغر الله الكبير كما رسمت صور السماء في هذه السورة مصغرة، وهكذا صور المجرة وأنواع السديم فهذه قد رسمت لنا مصغرة لكي تكون أمامنا، أما هي فلا حصر لعظمتها، فهناك صغر الله المسلمين في أعين الكفار، وصغر الكفار في أعين المسلمين عند اللقاء، وصغرهم في عين رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام، كل ذلك ليقدموا على الحرب، وهاهنا صغرت صور المجرات وأنواع السديم ليدفعنا هذا لدراستها، فهناك التصغير لإيقاع الحرب لينتشر الإسلام والعلم، وهنا وضعت أمامنا صور الكواكب والأرض وغيرها في العلوم جميعها كالجغرافيا والنبات والحيوان والفلك وعلم

طبقات الأرض لنعقلها ونتعلمها، فالتصغير هناك للحرب والحرب لنشر العلم وهو دين الإسلام، والتصغير هنا لنجتهد في البحث فنعلم، فكلاهما للعلم، صغر جيش الكفار في رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم، وفي أعين الصحابة عند التقاء الجيشين لنشر العلم، وهكذا هنا صغرت هذه المخلوقات بالتصوير الشمسي لنشر العلم. فقال صاحبي: هذا والله أعجب العجب، إن هذه أمور لا تخطر بالبال واستنتاج غامض، ولكنه حق، ولكنه لا يزال ناقصاً. أنت الآن عرّفتنا تصغير الكبير ولكنك لم تأت بما يدل على تكبير الصغير ولا يكفينا قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾، لأن «لو» تدل على الامتناع، فهنا أطلب منك أمرين:

الأمر الأول: ما المناسبة بين رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم ورؤية الصحابة جمع الكثرة من أعدائهم جمع قلة، وبين التصوير الشمسي.

الأمر الثاني: أين تكثير القليل؟فقلت له: الرؤيا عبارة عن انطباع صور في الخيال الذي اصطلحوا على أنه مقدم في الدماغ، فإذا رأى الإنسان شيئاً في المنام فمعناه أنه انطبع في مخيلته لا أقل ولا أكثر، فالنبي صلى الله عليه وسلم لما رأى الأعداء قليلاً انطبعوا في المخيلة قليلاً، وهكذا لما رأى الصحابة رضي الله عنهم أعداءهم طبعوا في المخيلة عند كل واحد منهم قليلاً بعارض سماوي لا نعلمه، وحصل لهم في اليقظة ما حصل للنبي صلى الله عليه وسلم في المنام، وهذا أمر سهل، والصورة الشمسية ما هي إلاّ ما طبع على جرم من الأجرام بأشعة الشمس، وهذا المطبوع ينتقل بنظر العين إلى الحس المشترك، والحس المشترك يوصله إلى الخيال، فرجع الأمران إلى التصوير الشمسي ورؤية الصحابة ورؤيا النبي صلى الله عليه وسلم إلى النتيجة، وهي وجود صور في المخيلة لا أقل ولا أكثر، وبهذه الصور تكون نتائج على مقتضاها، فيكون الإقدام على الحرب هناك، والإقدام على التفكر والعلم هنا. أما الأمر الثاني وهو تكثير القليل، فهو المذكور في غزوة بدر أيضاً، ألم يقل الله تعالى في سورة «آل عمران»: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾[آل عمران: ١٣]، فانظر كيف أيدهم بالنصر إذ جعلهم في أعين العدو ضعفي عدده، وعدد العدو كان نحو ألف، إذن يكون جيش الصحابة صار مقدار نفسه نحو ست مرات، ومقدار جيش العدو مرتين لأن جيش الصحابة نحو ثلث جيش الأعداء، فهاهنا لما التقى الجيشان وكان كل منهما يرى الآخر صغيراً صار أصغرهما أكبر من أكبرهما، لما أراد الله نصر ذلك الأصغر، فأراهم للآخرين ضعفي عددهم، فهذه الإراءة قد جعلها الله لنصرهم على عدوهم. هكذا هنا إذا نحن كبرنا صور الحيوانات الصغيرة كالنمل والنحل والعنكبوت والحيوانات الذرية التي تكون سبباً في الحمى والجدري وأمثالها تنال علماً، وذلك أننا نزيد بالله علماً، فنوحده ونشكره، وبطبائع الحيوان فهماً، فنتحاشاه ونتركه وتكثر جموعنا وتقل أمراضنا. ثم قلت: إذن التكثير والتقليل قد جاءا في القرآن، والله عزّ وجلّ أنزل ذلك في القرآن ليعلم المسلمين أنهم سادات هذا العالم، فليصغروا الكبير لهذه الرسوم الكوكبية والجغرافية وغيرها حتى يستطيعوا دراستها، وليكبروا الصغير حتى يتمكنوا من فهمه وتعقله. فلما سمع ذلك صاحبي، قال: الآن عرفت أن هذا القرآن لا يزال بكراً، وأن آياته لم تزل محجوبة عن الناس.

هانحن أولاء نقرأ هذه السور صباحاً ومساءً، ونكرر تقليل الكثير وتكثير القليل، والناس حولنا قد انتهلوا من ينابيع العلم وكرعوا من أنهر الحكمة، والمسلمون هم الساهون اللاهون، تصغر الأمم الصور السماوية والمناطق الأرضية، وتكبر الحيوانات الصغيرة وذرات طلع الأزهار في الأشجار وتعرف مستقر كل شيء ومستودعه، والمسلمون لا يعتبرون بما في القرآن، ولا يفكرون أن الصور التي رسمها الناس كلها ترجع لهذين: تصغير كبير لتقريبه، وتكبير صغير لإمكان فهمه، هذا هو أول العلم وهذا آخره، والقرآن ذكر الأمرين معاً في نفس القرآن، فجعل التصغير للإقدام على الحرب، والتكبير لفصل الخطاب وإيقاع الهزيمة ونصر من يشاء. فقلت له: إن في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾[النور: ٤٤] إشارة إلى ما نذكره الآن، فالعبرة في الآية ترجع إلى نصر جند الله مع قلتهم، وخذلان الكفار مع كثرتهم، وهذا الاعتبار قد سار شوطاً بعيداً باجتهاد الأئمة كالشافعي، إذ جعل القياس مأخوذاً من هذا الاعتبار، ونحن نقول: ويقاس على تكبير الصغير هناك وتصغير الكبير ما ذكرناه هنا، ويكون ذلك اعتباراً لأولي الأبصار، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. اهـ.

فقال صاحبي: أرجو أن تفصل فوائد المسلمين في تصغير الكبير وتكبير الصغير. فقلت: سيقوم المسلمون قومة رجل واحد على علوم السماوات وعلوم الأرض من القارات والمعادن والنبات والحيوان والإنسان، ويرسمونها ليفهموها مصغرة، ثم يرسمون أيضاً الحيوانات الذرية الصغيرة فيكبرونها، وينتفعون بكل موجود صغيراً أو كبيراً، لأنهم بهذا يقدرون على فهمه، واعلم أن المسلمين أقدموا على ذلك، ولكن باعتبار أنه لا علاقة له بالدين، أما اليوم فإنهم سيقدمون عليه باعتبار أنه من الدين. وسترى في هذا التفسير إن شاء الله تعالى عجائب الحيوانات وغيرها مكبرة، وترى رسوماً مدهشة كما ترى في سورة «النمل»، فهناك صور مساكنه مكبرة، ومزارعه التي يزرعها ويحصدها ويخزنها، وترى فيها طرقاً زراعية جميلة يقرؤها أهل أوروبا لأبنائهم ويفرحون بعمل ربهم، والمسلمون محرومون من جمال ربهم، وقد آن أوان ارتقائهم ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾[الحج: ٤٠]. والحمد لله رب العالمين. اهـ.

الفصل الثالث في الكلام على بناء الأهرام
لأنه من أسباب النجاة لبعض أبدان الفراعنة

ظهر جمال الله للأمم قديماً وتجلى لهم بنجومه الباهرة وأنواره الظاهرة. يا الله، أنت سلبت العقول وسخرت النفوس وأخذت الأفئدة وأذعت حبك في البرية، وأنرت نفوسنا في أرضنا وهي محبوسة في هذا الهيكل المنصوب. يا الله، نثرت كواكبك الذرية في سماواتك العلية، وقسمتها مناطق وبروجاً، وخالفت بين أماكنها وأقدارها وأبعادها وأضوائها، وقلت في القرآن: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾[الزمر: ٦٩].

يا الله، أنت أبهجت العقول وأنرت النفوس بنور هذه الكواكب، تلك الراقصات في الدياجي الساحرات الطرف الناعسات الجوانس، إنك يا الله خلقت في هذه الأرض نفوساً أسكنتها في هذه الأجسام، ثم شرحت صدورها لهذا الجمال وزينته عندها، وصرفت أكثر الناس عنه وهم غافلون،

وهؤلاء الذين أدركوا هذا الجمال جعلتهم للناس قادة، وجملت وجوههم وقلوبهم وأقوالهم وشرفتهم على عبادك، وعلمتهم من لدنك علماً، وأكسبتهم حكمة، وجعلتهم للعلم وارثين، كلما نظروا نجماً يتلألأ، أو قمراً يضيء، أو شمساً تشرق، رأوا في ذلك سناؤك وجمالك، وأنت تقول في القرآن: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[الأنعام: ٣].

من هذه الأمم الأمة المصرية، أولئك الذين بهرهم جمالك وشغف قلوبهم باهر نور نجومك، فأولعوا بك مغرمين، وهاموا في جمالك متيمين، وأرسلت لهم نبيك إدريس الذي يسمونه «هرمس الهرامسة»، وأيضاً «هرمس المثلث»، وأيضاً «أخنوخ»، وينطق به في هذه الأيام، وقد يقال له «سيزوستريس». هذه أسماء لمسمى واحد عندهم، ويسمى بهذا الاسم النجم المسمى «الشعرى اليمانية» أو «كلب الجبار»، وهذا الكوكب أيضاً يسمى «توت»، فلغرامهم بجمال النجوم الباهرات اختلط عليهم نور العلم الذي أفضته على رسولك إدريس بالنور الظاهري الذي أفضته على هذا الكوكب، فأشركوهما معاً في هذا الاسم؛ فكلاهما يسمى بالأسماء المتقدمة ما عدا لفظ «توت»، فيظهر أنه خاص بالكوكب المذكور. وقد نسبوا إلى من يسمى بـ«هرمس» المذكور أنه كان حاكماً في الأرض ووضع بها كثيراً من العلوم وألف مئات من الكتب.

ثم إن الكوكب المذكور يظهر مدة الفيض ويختفي في آخر تلك المدة، فسموه باسمه وقالوا: شهر «توت» أي: الشهر الذي يظهر فيه المعبود «توت»، وهو خفير السماء وملك الكواكب، ويقي الشمس من الوقوع في الهاوية المهلكة، وهو الموكل بكتابة أعمال الأموات يوم الحساب وبيده الميزان، وكانوا يصورونه قابضاً على رقعة يكتب فيها موازين الناس. هذا ما كان عند قدماء المصريين في هذا الكوكب.

هذا الكوكب هو قبلة المصريين القدماء

فلما فتنهم جمالك وآنستهم أنوار وجهك، واتجه حكماؤهم إلى مقامك الكريم، بنوا مقابرهم بحيث تكون أنوار هذا الكوكب ساقطة عليها عمودية لا مائلة، ليكون الشعاع أمكن منها وأكثر إشراقاً عليها لتتوالى الرحمات على ما وصل إليهم في دينهم القديم.

ومن هذه المقابر الأهرامات الثلاثة الظاهرة بناحية الجيزة التي تبعد عن النيل ثمانية كيلومترات وثلاثمائة متر، وهي منسوبة إلى «خفو» و«خفرع» و«منقرع»، وهؤلاء الملوك من الأسرة الرابعة بمدينة «منف» بالقرب من الجيزة، والهرم الأول منها للأول من الأسماء وهو ١٧ فداناً والباقيان للأخيرين، والحجارة التي بني بها الأول تكفي سوراً يحيط بأرض مصر، ارتفاعه ثمانية أمتار وعرضه متران، ويبتدئ من الإسكندرية إلى أسوان إلى البحر الأحمر ومن السويس إلى العريش.

وهذه الأهرام الثلاثة التي هي من عجائب الدنيا دعا إلى بنائها الاعتقاد الديني إذ ذاك، ونحن ليس لنا في هذا مدخل، لأن ديننا جاء بعد ذلك الدين، فهم أمم قبلنا لا نحكم عليهم، بل يحكم عليهم النبي المرسل لهم وهو سيدنا إدريس عليه السلام، وقد قال الله فيه: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[مريم: ٥٧] وألهم المصريين أن يجعلوا نور ذلك الكوكب الجميل ذا وضع عمودي على الهرم كما تقدم، حينئذ سألني ذلك الصالح فقال لي: قل لي نورك الله بالعلم: ما معنى كون الوضع عمودياً. قلت: معناه أن هذا الكوكب الذي يطلع جهة الجنوب أيام الفيضان يسقط نوره على حائط الهرم متجهاً اتجاهاً مستقيماً

كقطرات المطر تنزل على الأرض فلا تنحرف يمنة ولا يسرة . قال : أوضح هذا المقال . قلت : إن أستاذي المرحوم أحمد أفندي نجيب مفتش وأمين عموم الآثار المصرية نقل في كتابه عن المرحوم محمود باشا الفلكي أن بناء الأهرام كان قبل الميلاد بنحو ٣٣٠٣ ، معتمداً في ذلك على أن قدماء المصريين لما بنوها جعلوا أشعة الكوكب النورية تقع عمودية عليها من جهة الجنوب ليتبرك بها الأموات من داخل الهرم كما أننا نجعل رؤوس أمواتنا متجهة دائماً نحو القبلة تبركاً بالكعبة المطهرة ، وقال وقد علم من رصد هذا الكوكب أنه ينحرف في كل سنة عن وجه الهرم بقدر ثانية وثلثي ثانية ، وكان قبل الميلاد بأربعة آلاف سنة يوازي في مسيره لمدار الشمس متى كانت في نهاية منطقة البروج أو المنقلب الشتائي . فقال صاحبي : هذا قول لا يفقهه أكثر الناس . فقلت : سل . فقال : ما معنى كون الضوء يميل ثانية وثلثي ثانية ؟فقلت : انظر هذا الشكل : فالخط (جـ د) عمود على (ا ب) ، فالضوء كان يأتي أيام البناء مستقيماً كالخط (جـ د) والفراغ الذي بين (جـ د) وبين الناحيتين من الخط (ا ب) يقال لها زاوية ، وهما زاويتان (ا جـ د) و(د جـ ب) ، فهاتان الزاويتان تقسم كل منهما ٩٠ جزءاً ، كل منها يسمى درجة ، والدرجة ٦٠ دقيقة ، والدقيقة ستون ثانية الخ . فهذا الضوء كان يسقط عمودياً ، يعني ليس مائلاً إلى إحدى الجهتين ، وكلما مرت سنة مال ميلاً يسيراً جداً وهو ثانية وثلثا ثانية ، والثانية تتكون من تعدادها الدقيقة ، والدقائق تكون منها الدرجات .

د
ا ب
جـ

قال : فهمت الآن ، ولكن بقي أمر واحد وهو كيف يتبركون بهذا النور؟ قلت : هذه كانت عقيدة القوم سواء أكانت عن نفس النبي إدريس أم كانت من تغيير وضع الدين ، إنّما الذي يظهر أن أصل هذا الدين كان شريفاً ذا جمال وكمال ، لأنه جذب نفوس القوم إلى المعالي والحكمة والجمال الإلهي الذي يكوّن الأحق به أمة الإسلام . فقال : وأيّ دخل لأمة الإسلام في هذا المقام ؟ قلت : حياك الله ، قل لي : أليس إدريس رفعه الله مكاناً علياً؟ قال : بلى . قلت : أليس نبينا صلى الله عليه وسلم قد أمر أن يتبع الأنبياء ويقتدي بهم؟ قال : بلى . قلت : هؤلاء القوم أغرموا بالكواكب وجمالها وحبسوها ، ويقول الله : ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشمس : ١-٢] ، ويقول : ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾[الواقعة : ٧٥-٧٦] ، ويقول : ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم : ١] ، ويقول : ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾[المزمل : ٩] ، ويقول : ﴿رَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج : ٤٠] ، وأخيراً يقول : ﴿رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾[النجم : ٤٩] ، شوّق المسلم للنجوم وجمالها ونصّ على ﴿أَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ ، والشعرى هي « توت » ، وتوت هذا معبود المصريين ، وقد دخل في أسماء ملوكهم ، فقيل « توت عنخ أمون » مثلاً ، وهؤلاء الملوك المغرمون بهذا الكوكب جذبوا إلى مصر في زماننا أعاظم العلماء والحكماء من أوروبا وأمريكا وغيرهما . كل ذلك ليشاهدوا تلك العلوم وتلك المعارف التي ذمّ الله من أعرض عنها ، فقال : ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس : ٩٢] .

الحمد لله المنعم المفضل ، وقد أراني الله في زماننا سر القرآن قد ظهر للعيان ، وقد كشف الله بعض آيات العلوم التي تركها قدماء المصريين ، وأبرز الهرم وعجائب الهرم ، وما الهرم إلاّ مقبرة جعلت لتضم عظام بعض الموتى من ملوك القدماء والناس يتقاطرون لينظروا آياته في ذلك مصداقاً للقرآن .

الكعبة وكوكب الشعرى

فقال ذلك الصالح : يا عجباً ، إذا كانت الشعرى وغيرها من الكواكب قد جذبت نفوس القوم وصرفت هممهم إلى جمال العلوم ، فلماذا لم تكن لنا إحدى تلك الكواكب قبلة بدل الكعبة التي بناها الناس بأنفسهم ، مع أن الكواكب أجمل وأبهى . فقلت : اعلم أن الله عزّ وجلّ جعل أمة الإسلام آخر الأمم لتقتبس سائر علومها ، وقصّ قصص الأمم لذلك .

ولما كان القدماء المغرمون بالكواكب إذا طال عليهم الأمد ، قست قلوبهم ، وجمدوا على ذلك الكوكب الذي هو قبلتهم ، وعبدوه ونسوا رب الكوكب ، صرف المسلمين عن ذلك ، وجعل لهم الكعبة قبلة ، وفتح عقولهم لسائر العلوم ، وحرضهم على النظر في كل جميل من كوكب وجبل وشجر ، وخصّ الشعرى بالذكر ، فقال : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴾[النجم : ٤٩] ، فالشعرى التي عبدها قدماء المصريين وبعض العرب كما سيأتي في سورة « النجم » ليست إلهاً ، بل هي من آيات الله تعالى ، وهو ربها كما هو ربكم .

فالمسلم يستقبل الكعبة ويعبد الله بالنظر في عجائب الشعرى وغير الشعرى ، وسيرث علوم الأمم ويقرأ ما قرأه قدماء المصريين من عجائب هذا الكوكب وغيره . ولما كان النظر في العالم العلوي أعلى ما يطلبه الدين ، قال الله في إدريس : ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾[مريم : ٥٧] ، فليكن هذا العلو لإدريس نوراً للمسلمين الذين لا يعتقدون ألوهية في الشعرى ولا في غيرها ، ولا يفتنون بكوكب ولا بغيره ، بل يؤمون الكعبة التي لا يتخيل فيها ألوهية كما تخيل القدماء ألوهية الشعرى لأنها تطلع عند الفيضان ، فتصبح القبلة كأنها إله ، لا أنها قبلة .

بهذا أصبح المسلم بعيداً عن مظانّ الكفر بما هو قبلته ، وفي الوقت نفسه مجذوب إلى النظر في جمال هذه النجوم .

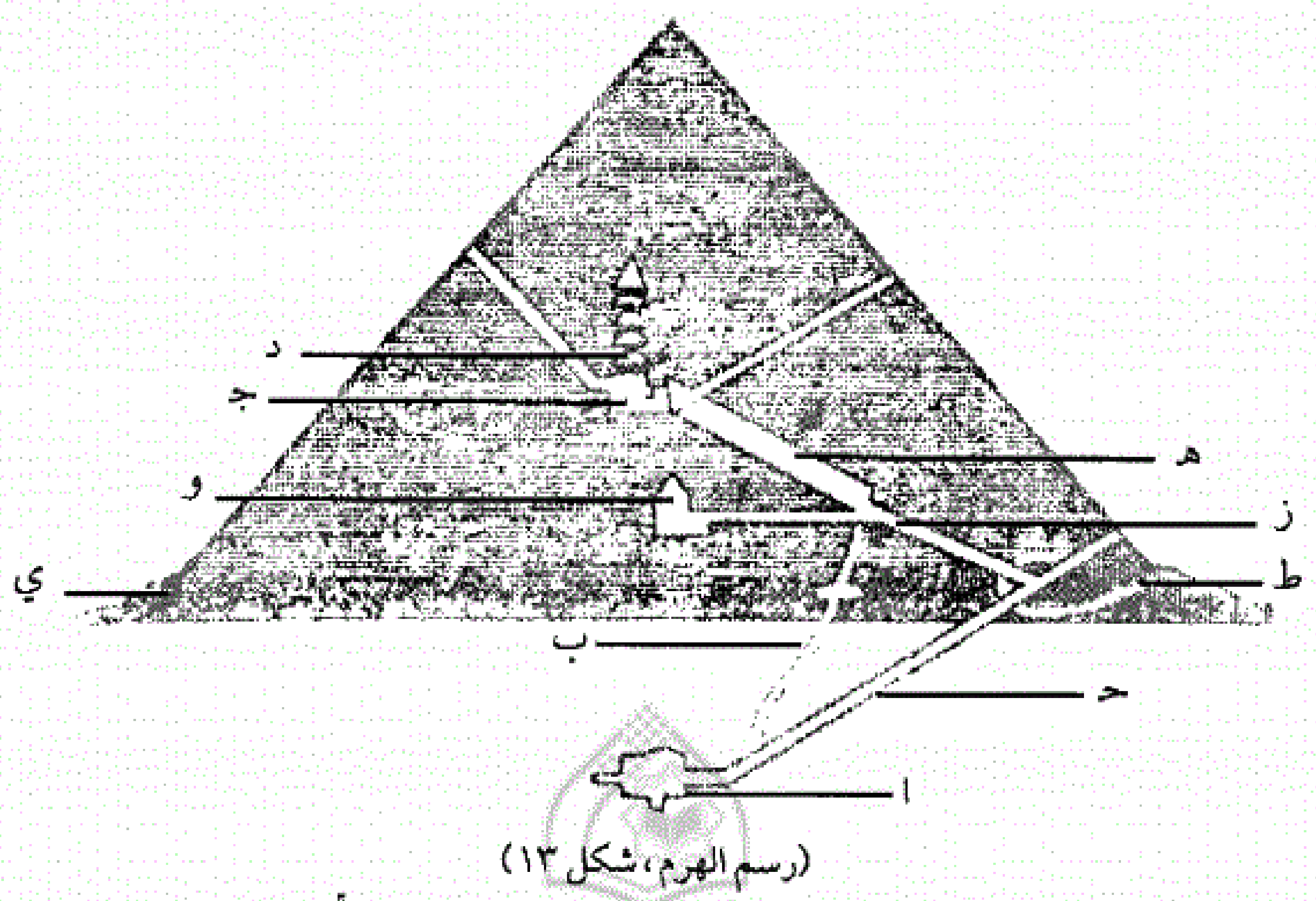
فقال صاحبي : عجباً لهذا المقام ، إني لم أر أحداً من المفسرين ذكر هذا ، فقلت : إن هذه العلوم لم تظهر إلاّ في زماننا ، وللقرآن عجائب وبدائع يظهرها الله حيناً بعد حين ، والنبي صلى الله عليه وسلم لما توفي جعل الله في القرآن أسراراً تظهر وقتاً بعد وقت ، كأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يزال حياً ، وهذه معجزاته تتوالى ليطمئن الناس ويوقنوا بربهم ويزيدوا علماً كما قال تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[طه : ١١٤] .

فالمسلم يزيد علماً ، والمسلم يقرأ جميع العلوم ، والعلوم فروض كفايات ، والمسلم ما دام قادراً على النظر والفكر فهو مأمور به شكراً لربه ، وزيادة معرفة .

إن المسلمين في مستقبل الزمان سيكونون أرقى علماً من غيرهم ، ولهذا التفسير إن شاء الله دخل في تشويقهم إلى كل علم وكل حكمة وكل جمال في الأرض وفي السماء ، لأنه مصداق لقوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[فصلت : ٥٣] ، فهذا التفسير فيه بعض الآيات التي أراها الله للناس في زماننا .

معجزة للقرآن في هذا الزمان

ومنها هذا الهرم الذي أفضنا في الكلام عليه، الداخل في قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾[يونس: ٩٢]. انتهى.



(رسم الهرم، شكل ١٣)

بيان قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾

اعلم أن صورة الهرم المرسومة أمامك فيها تعاريج يقصد منها إضلال من يريد دخول الهرم معجزة لقوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾، وذلك أنه لن يكون آية من قدماء المصريين إلاً من بقيت جثته محفوظة، وكيف تبقى محفوظة إلاً ببناء يكنها وضلال الذي أراد سرقتها وإجماع دول أوروبا وأمريكا على حفظها، هذا هو المعجزة القرآنية.

انظر إلى نقطة (ا) التي هي رواق تحت الأرض، فذلك لا يمكن الوصول إليه الآن لأن طريقه مسدود.

ثانيها: نقطة (ب) وهي الرواق المعروف الآن باسم رواق الملكة، وتلك التسمية لم يقم دليل عليها للآن.

ثالثها: نقطة (جـ) وتعرف باسم رواق الملك.

رابعها: نقطة (د) وهي بسطة يخرج منها مجريان للهواء انزلق منهما حجران كبيران فأغلقا منفذي رواق الملك غلقاً محكماً بعد وضع جثته فيه داخل تابوته.

خامسها: نقطة كل من (هـ و ز ح) وهي سراديب معدة لتوصيل الأماكن لبعضها.

سادسها: نقطة (ط) وهي بسطة يخرج منها السرداب الذي فتحه المأمون.

سابعها: نقطة (ى) وهي البئر التي تحير فيها عقول أولي النهى.

والقصد من ذلك كله أن يضلّ السائر فلا يهتدي إلى السبيل. ونقل أستاذنا في الأثر الجليل ما نصه: «قال أبو محمد عبد الله بن عبد الرحيم في كتابه تحفة الألباب: فتح المأمون الهرم الكبير وقد دخلت في داخله فرأيت قبة مربعة الأسفل مدوّرة الأعلى، كبيرة في وسطها بئر وهي مربعة ينزل الإنسان فيها، فيجد في كل وجه من تربيع البئر باباً يفضي إلى دار كبيرة فيها موتى من بني آدم عليهم أكفان كثيرة أكثر من مائة ثوب على كل واحد، وقد بليت لطول الزمان، واسودّت أجسامهم، وهم مثلنا ليسوا طوالاً، ولم يسقط من أجسامهم ولا من شعورهم شيء، وأجسامهم قوية لا يقدر الإنسان أن يزيل عضواً من أعضائهم البتة، ولكنهم خفوا حتى صاروا كالغثاء لطول الزمان. انتهى».

ونقل عن غيره أنهم بعد اللتيا والتي والجهد الطويل والمشقة وجدوا في أعلاها بيتاً مكعباً، وفي وسطه حوض من الرخام مطبق، فلما كشفوا غطاءه لم يجدوا فيه غير رمة بالية، فعند ذلك كفّ المأمون عن ثقب ما سواه. انتهى.

شكر الله على الحكمة والعلم وأن الإسلام أعتق الإنسانية من الخرافات

إني أحمد الله على نعمة العلم والحكمة، إليك اللهم الشكر على ما تفضلت بالحكمة وألهمت من العلم، أذكر أيامك معي وأذكر أيام أن كنت مجاوراً في الجامع الأزهر حوالي سنّ العشرين، ثم أرجع إلى بلادي في القرى ببلاد الشرقية، ثم أخرج من بين البيوت لعلي أحدّث عنك النفس بالليل خالياً، وكنت أنشد قول مجنون ليلى:

وأخرج من بين البيوت لعلني أحدّث عنك النفس بالليل خاليا

وكنت أسامر النجوم الراقصات في دياجي الظلمات، وأفكر في أمرها وأمر هذا العالم، وأمر آثار قدماء المصريين، وأمر الأمم التي في الأرض التي مدت في بلادنا السكك الحديدية وقطارها.

ولطالما كنت أقول: يا ليت شعري، ما هذه الأطلال القديمة؟ وما علوم أهلها، وماذا تصنع الأمم اليوم في علومها وصناعاتها؟ ولماذا لا أرى للمسلمين حركة فكرية مثلهم؟ ولماذا أرى شيوخ الدين لا يفكرون فيما حولهم؟ إلى آخر ما في كتاب «التاج المرصع» في أوله.

كل ذلك كان ديدني، وأذكر أني كنت عاهدتك أنني إذا اهتديت لحلّ المعمى من هذا الوجود وعرفت بعضه، فإني أنشره لمن بعدي حتى لا يضل شبان بعد ضلالي ولا ينالهم نصب كما نالني، بل أنا أجعل ما أعلمه لهم شراباً خالصاً سائغاً للشاربين.

هذا ما كان يجول بخاطري، فهاأنا ذا اليوم أتحدث بنعمتك عليّ وأقول: لقد منّ الله عليّ بعد طول الزمان واليأس والنصب، بالحكمة والعلم، وألهمني أن أؤلف هذا التفسير الذي أرجو أن يكون ذخيرة ونوراً للأذكياء بعدي.

إن أكثر ما أكتبه في هذا التفسير يجول بنفسي الآن ويكون قويّ الهجوم على النفس، بحيث لا يفارقني في غدوّي ورواحي، وخلوتي وجلوتي، وسمري مع الأصحاب وصحتي، ونومي ويقظتي، فلا ملجأ لي من هذه الخواطر إلاّ بكتابتها، ومتى سطرتها هدأت النفس واستراحت واستقبلت غيرها، ذلك شأني في هذا التفسير.

وهذا الذي أكتبه في هذا المقام قد كان خاطره قوياً، فكما كنت أتخيل هذه الأمور في الصغر متحسراً أشد الحسرة على جهلي بها، هكذا أنا اليوم أجد في النفس ميلاً قوياً إلى كتابتها ونشرها، وأحس بأني بلغت أملي من هذه الحياة بذلك، ولله في خلقه شؤون. ويخطر لي أن هذا سيكون سائقاً وشائقاً لأولي الذكاء إلى حوز العلم والحكمة.

وإني كثيراً ما يقع في قلبي أنني لو لم أكتب ما يهجم على نفسي من الخواطر الجميلة الهاجمة عليّ، فإن الله يعجل العقوبة لي في هذه الحياة.

ولقد منّ الله عليّ بنشره، لقد منّ الله عليّ بذلك وشرح صدري له، وقد كتبت ما أجده فيها، والله هو الولي الحميد.

تفصيل أتم لقوله تعالى: ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ وكيف أعتق الإسلام الأمم من الخرافات

اعلم أن الديانات القديمة كلها كانت أشبه بهذا العالم الذي نعيش فيه، ألا ترى رعاك الله أن الشوك يصحب الورد؟ والغذاء الذي تأكله تصحبه فضلات؟ والثمر لا يكون إلاّ معه الورق؟ والحب لا يكون إلاّ مع العصف؟ هكذا كانت الديانات، فإذا نزل إدريس على المصريين بدين سماوي، فهاهو ذا قد تغير الدين وصار ممزوجاً بخرافات، حتى إنك لترى أنهم وجدوا كثيراً من الأحجار المنحوتة على هيئة الأهرام، والمسلات موضوعة في المقابر بجوار الأموات، وهكذا وجدوا أحجاراً رسمت عليها صورة الأهرام وبإزائها علامة الكوكب المتقدم، وكل ذلك للتبرك، فكانت الأهرام رمزاً لهذا المعبود الذي كانوا يصورونه في معابدهم في هيئة جسم إنسان له رأس طائر «أبيس» وهو أبو قردان، وكانوا يعبدونه أيضاً.

إن في نظر ذلك لعبرة للعقلاء، فانظر إلى قبلتهم وهو الهرم كيف جعلوه مع كوكب الشعرى مناط الألوهية، ثم انظر في مسألة السماء كيف كانوا يقولون: إن جميع الأجرام السماوية تحت رياسة الشمس، وتارة كانوا يرسمون السماء على شكل وادي مصر تشقه المجرة، وقد مثلوها بالنيل وحصروها مثله بين سطحين ممتدين من الجنوب إلى الشمال، وقسموا السماء إلى أقسام كأقسام مصر، والشمس تطوف عليها كل يوم في مسيرها من المشرق إلى المغرب، وتدخل في المساء في فتحة جبل مثلوه بـ« جبل العرابة المدفونة » أو « الخرابة المدفونة » التي بمديرية جرجا بالصعيد، ثم تغور في سراديب وتقاسي آلاماً وتضيء على قوم آخرين، ثم ترجع لنا كرة أخرى بعد المشقة والآلام.

وقالوا أيضاً في الروح الشقية تحوّل دعواتها وصلواتها إلى عبث وهزؤ فتجلد وتلعن وتبحث عن جسم إنسان لتسكنه وتكون في مرض وذل أو جنون، أو عن جسم حيوان وتدوم على ذلك قروناً إلى أن تستوفي العذاب ثم تموت وذلك بشهادة القلب. قال أستاذنا المذكور: وقد وجد على أحد أوراق البردي ما صورته: « أيها القلب الذي خلقت لي وأنا في بطن أمي وأتيت معي إلى الدنيا لا تنازعني ولا تشهد عليّ بين يدي الله ». أما الروح الراضية المرضية فإنها بعد الحساب أخذ بيدها الرجاء الصالح وتحفها الشياطين، ولكن تلاوة العزائم تمنعهم، ثم تتحد الروح بأوزيريس وتصير مثله، أي: تدخل في العنصر الذي خرجت منه وتقطع المساكن السماوية وتزور جسمها متى شاءت، ولذلك يحنطون الأجسام.

هذه آراؤهم في السماوات وآراؤهم في الأرواح وآراؤهم في الدين . فانظر أيها المسلم إلى دين الإسلام ، إن الديانات القديمة فيها الغث والسمين ، واختلط فيها الكذب بالصدق ، كما هو شأن الناس في أقوالهم وأفعالهم ، وكما هو شأن مآكلهم ومشاربهم ، ولكن الله يريد رقي الإنسانية ، فماذا فعل؟ أنزل الدين المسيحي ، فماذا حصل؟ لم يرض بالأصنام ، وجعل الإله واحداً ، ولكن أتباعه جعلوه ثلاثة فجاء الإسلام وقال كلا ، الإله واحد ، هناك زلزلت الأرض زلزالها ، زالت الأصنام تماماً ، وفات الزمان الذي تقدس فيه الشمس والكواكب ، ونزل قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴾[النجم : ٤٩] ، فليست الشعرى التي ترسم على أحجار المصريين مع هرمهم هي الله ، بل هو ربها ، وأيضاً ليست الشمس هي الإله ، وبعد ذلك انطلقت العقول وقام المسلمون بحركة العلم في العالم من القرن السادس الميلادي إلى القرن الحادي عشر .

وهنالك تعلمت أوروبا من المسلمين كما وضح بعضه في آخر سورة « التوبة » ، ويتضح باقيه في قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾[الآية : ٥] في سورة « إبراهيم » عليه السلام ، وصار المسلم بل كل عاقل في الأرض ، فك عقال عقله المسلمون ، يقرأ كل علم وكل فن ، ويقرأ المسلم : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[طه : ١١٤] ، ويقرأ قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت : ٥٣] ، فآيات الله في كل بناء وشجر وحجر وكوكب ؛ فالهرم آياته ، والنجم آياته .

وتدرج الأمم من الجمود في القرون الأولى إلى الحرية العلمية اليوم في عصرنا آياته ، وتنوير المسلمين الأولين للعالم الإنساني من آياته . وسترى في سورة « إبراهيم » تصميم العلامة « سديو » الفرنسي ، وجزمه أن العرب وسائر الأمة المحمدية هم نور العالم ، ولولاهم لم يكن لهذه الدنيا رقيّ ، وأتى فيه بمئات الأدلة القطعية كما رأيت ، وسترى بعضه .

ولذلك ترى الأمم اليوم أن الشمس التي هي سيدة الكواكب عند قدماء المصريين والبابليين صارت في أخريات الشموس كما أطلعتك عليه في سورة « البقرة » و« آل عمران » و« الأنعام » وغيرها حتى أن بعض تلك الشموس ضوؤها مقدار ضوء شمسنا ٨٠٠٠ ثمانية آلاف مرة ، بل أكثر من ذلك ، وأن الشموس لا حدّ لعظمتها وعددها ، وأنها تبلغ مئات الملايين ، ولا يزال الكشف يزيدنا بياناً .

إذن علم قدماء المصريين من العلم الذي حدث وانتشر بسبب ظهور الإسلام الذي حرّك أوروبا والعالم للبحث .

إن دين الإسلام جاء لمحو الخرافات ، وللاعتماد على العقل ، ونبذ كل ما ليس معقولاً ، هذا هو سرّ قوله تعالى : ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾[يونس : ٩٢] ، فالآية هنا واسعة النطاق من علوم وصناعات بلا اعتقاد يحصر الفكر ، وبالقرآن عندنا فك عقال العقول حتى اقتنصت شوارد العلم في الأرض وفي السماء .

إن الإنسان اليوم غيره بالأمس ؛ فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

لطيفة وذكرى

قد كنت وأنا مراهق رأيت أهل قريتنا قد عثروا على رجل مدفون في قاع بركة أمام قريتنا ، ولم يجدوا إلاّ عظامه ، وقد وجه وجهه إلى جهة الجنوب ، وقد بني عليه قبر بكتل من الأرض المصرية

الحصيد الجافة المعروفة في بلادنا بالشراقي، وقد حفظ ذلك القبر جثته آلاف السنين وهو تحت وجه الأرض بنحو ثلاثة أمتار.

فهأنا ذا أحمد الله عزّ وجلّ اليوم إذ عرفت سرّ هذا الدفن، وأنه قصد به التوجه للهرم المشمول بعناية كوكب الشعرى، وعرفت اليوم أن هذه خرافات، وأن الإسلام محا ذلك وجعل قبلتنا الكعبة، ودأبنا النظر في كل كوكب وجمال كل شمس، ووجهنا وجهنا لله لا للكواكب، ولكن ندرس كل كوكب وكل شمس، وقد فتح الله للناس أبواب السماء فدرسوها، وهاهم أولاء يدرسون علم الأرواح كما اطلعت عليه في سورة «آل عمران» و«البقرة»، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وفي اعتقادي أن هذا التفسير وأمثاله سيفتح مجالاً للأمم الإسلامية، وستقوم أمم بعدنا من المسلمين يرقون رقياً عالياً، ويحدثون في الأرض قوة كما أحدث أجدادنا أصول هذه النهضة، والحمد لله رب العالمين. اهـ.

وجدان المؤلف أيام الشباب والمشيب
وكتاب الله تعالى وأمم الإسلام

هاأنا أحدثك أيها الذكي عني أيام شبابي ومشيبي بأوسع مما تقدم، فأقول: ذكرت لك آنفاً شرقي إلى العلوم أيام الشباب، وهاأنا ذا أوضحه فأقول: قد كان يطربني مر النسمات على الأعشاب فيسرني تغريدها ويطربني تمايل الأغصان وحفيف الأوراق وتغني الحشرات وعصف الرياح ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾[التكوير: ١٧-١٨]، وإذا غربت الشمس وظهرت النجوم أجلس على بساط من الحشائش، وآخذ أستمع لما في الحقول من نغمات، وأنظر لما في السماء من نجوم باهرات وكنت كأني في محفل جمع بين بهجتين: بهجة النظر للراقصات الحسان القاصرات الطرف الناضرات البهجات وهي النجوم، وبهجة الموسيقى تشنف الآذان ببدائع الألحان، فالمناظر سماوية والنغمات أرضية، هذه الصور الجميلة عندي طبعت في المخيلة يوماً فيوماً وليلة فليلة، دام ذلك سنين وسنين.

وقد كان لخلوّ الجوف بالصوم، وللقيام ببعض الليالي، أثر في ذلك الجمال والبهجة والشوق، ذلك الجمال الخيالي دعا العقل إلى الجمال العلمي ظواهر المحاسن في الطبيعة التي ارتسمت في خيالي لا تفارقه، ألجأت القوة العاقلة أن تتجمل بالمحاسن كجمال الخيال، ولا محاسن للعقل إلاّ صور معنوية هي الحكمة والنظر في مختلف العلوم.

الجمال مغناطيس العلوم يجذب إليه كل ما هو جميل معنوي، جمال الوجوه في الحي يجذب العاشقين، وانطباع الخيال بالجمال يجتذب العلوم والحقائق لتسكن في العقول.

جلّ الله وجلّ العلم، إن شبيه الشيء منجذب إليه، وللمجاورة حكمها، جاور الخيال العقل في الدماغ، فلما رجع الأول بالدرر الحسان من الكواكب والنغمات حنّ الثاني إلى حقائق الموجودات ليتحلى بالحكمة ويزدان بالعلوم.

النفس واحدة والعالم واحد، العالم الذي نعيش فيه واحد، ونفوسنا تنظر له أيام الصغر واحداً فجميع العلوم عندها علم واحد لا علوم، كما أن العالم أشبه بجسم واحد، هكذا العلوم المختلفة كأنها واحد، العلوم كشجرة واحدة لها فروع وأغصان.

ضعف الإنسان فوق الأرض، فلم يطق الفرد الواحد أن يعرف هذا الوجود، فقسم أوصافه إلى أقسام: سمي كل قسم منها علماً مع أنها كلها أوصاف شيء واحد هو هذا العالم، لهذا نرى العلوم قسمت على الأفراد كما وزع الإحساس في الجسم على الحواس؛ فللسمع غير ما للبصر.

هكذا العلوم قسمت على الناس، فيحسن زيد ما لا يحسن عمرو، ذلك لضعفهما كما ضعفت العين أن تضم السمع إلى البصر، وضعفت الأذن أن تضم الإبصار إلى السمع ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾[القصص: ٦٨]، ﴿ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ﴾[الرعد: ٤١]، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾[النساء: ٢٨]، فلولا هذا الضعف لكانت جميع العلوم عنده علماً واحداً. كنت أنظر للأشياء جميعها بلا فارقة بين علم وعلم، أنظر للآثار والأطلال والأشجار والأخبار، وتاريخ الأمم والصناعات وأمم الفرنجة وأمم الإسلام ودين النصارى ودين الإسلام.

ذلك هو الذي حركني إلى سائر العلوم التي اطلعت على كثير منها بمدرسة دار العلوم وعلى باقيها بالاطلاع على علوم شرقية وغربية.

هاأنا ذا الآن في العقد السابع من حياتي أنظر في أمر نفسي فأجد الغرام القديم والحب والشوق قد تجلت لها مع طرب وسرور كما قال مجنون ليلى:

فشاب بنو ليلى وشبّ بنو ابنها وأعلاق ليلى في الفؤاد كما هيا

فنفسي في شيبها مغرمة كما كانت في أيام شبابها، بل هي أشد غراماً، والغرام اليوم بالنشر والتعليم، والغرام إذ ذاك بالتحصيل، وفي النشر ازدياد للعلم وابتهاج بالتحقيق.

كتاب الله تعالى

لقد كنت أيام الشباب لا أرى في هذا القرآن معاني لأني حفظته بلا عقل ولا فكر، وكنت أسيء الظن بمن يقولون: إنه يدعو إلى العلوم، وكنت أقول: إن هؤلاء مراؤون كاذبون، فلما درست ونظرت أيقنت بأن هذا القرآن يدعو الناس إلى مختلف العلوم، ويشوقهم لها كما كنت أشتاق لها زمن الشباب، فكأن هذا القرآن يدعو النفوس إلى فطرتها.

وإذا قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾[التوبة: ١٢٨] ففيه تلميح إلى ما قررنا فنفوسنا تطلب كل العلوم وهذا القرآن يشوّق لها: ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٣٨]. وما ذكرته الآن سيظهر أثره في أمم الإسلام.

أمم الإسلام

إن الأمم الإسلامية تطلع اليوم على أمثال هذا الكتاب، وهناك نفوس خلقت مقصورة على النظر، مجبولة على التفكر، فستقابلها الحيرة والحسرة، كما قابلتاني أيام شبابي، ولكن الله أذن بإبراز هذا التفسير ليكون مفتاحاً يفتح للعقول مجال النظر، فيفرّون من سجون الجهالة العامة في البلاد الإسلامية، وينطلقون من حبس العقول إلى ساحات الجمال وباحات العلوم وحدائق الحكمة، ويشمون أزهارها ويقتطفون ثمارها.

هذا الكتاب تبصرة لمستزيد، ومنهج لمريد، وبلغة لقاصد، وزاد لمسافر، وفك عقال معتقل، وفتح باب، وهدى وذكرى لأولي الألباب. انتهى.

تحفة مهداة للمستبصرين في الإسلام والنظر في كتب الفرنج وجمال الصور الموجودات في الأرض والسماوات

تبيّن من هذا أن سبب هذا التفسير ومبدأه النظر في جمال هذه الدنيا صغراً، وتحصيل العلم، وحب النشر في الكبر، ذلك كله مبدؤه النظر في جمال الأرض وجمال السماء.

ولقد اطلعت على كتب الفرنجة للمبتدئين فرأيتها محلاة بالصور الجميلة الحسنة من شجر وزرع وثمر وكوكب وقمر، بحيث يشاهد الطفل في مدرسته صور ما كنت أشاهده في الحقول، فتبارك الله الذي ألهم الناس أن يحاكوا الطبيعة ويشاكلوا صور الموجودات وجمالها.

هكذا فلتفعلوا أيها المسلمون، لتقم طوائف منكم وليدرسوا نظم التعليم ونظم الكتب والصور التي فيها، والحكايات التي تدرس للأطفال، والتحف العلمية اللذيذة، ولتتخذوا لكم أحسن المثل وأجمل الطرق، ولتعلموا أبناءكم حب هذا الجمال كما أحببناه، فكل هذه الموجودات آيات الله، وكله نور الله، وكله دين الإسلام، والحمد لله رب العالمين. انتهى تفسير القسم السادس من سورة «يونس».

القسم السابع

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ (٩٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٩٧) فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٧) قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ (١٠٩) ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾ من القصص على سبيل الفرض والتقدير ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ فإنه محقق عندهم ثابت في كتبهم على نحو ما ألقينا إليك، والمراد تحقيق ذلك والاستشهاد بما في الكتب السابقة، وأن القرآن مصدق لما فيها، والخطاب وإن كان للنبي صلى الله عليه وسلم فالمقصود أمته، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «لا أشك ولا أسأل»، ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ أي: الشاكين بالتزلزل عما أنت عليه من الجزم واليقين.

وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ من باب التهييج والتثبيت وقطع الأطماع عنه كقوله: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴾[القصص: ٨٦]، ﴿ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ أي: وجبت عليهم لأن استعدادهم يمنعهم من قبول الإيمان ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ ﴾ فإنهم لا يؤمنون بها ﴿ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ فحينئذ لا ينفعهم الإيمان كما حصل لفرعون الذي قال: ﴿ ءَامَنتُ ﴾[يونس: ٩٠] بعد فوات الفرصة كما في قوله: ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾[يونس: ٥١]، فانظر كيف ذكر فرعون وغرقه لمناسبة ما مضى في هذه السورة، لتكون تلك القصة تطبيقاً على هذا القول، فقوله في مسألة فرعون: ﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾[يونس: ٩١] هو القول المتقدم آنفاً: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ وهو بمعنى ما جاء في سورة «الأنعام الآية: ١٥٨»: ﴿ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا ﴾، وقد أوضحت المقام هناك بما لا مزيد عليه، وهاهنا يقول الله في هذا المعنى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾.

ثم أتبعه سبحانه بما يفيد فتح باب التوبة وقت القدرة، فقال: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ ﴾ أي: فهلا كانت قرية من القرى التي أهلكناها آمنت قبل معاينة العذاب، ولم تؤخر الإيمان كما أخره فرعون ﴿ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ ﴾ بأن يقبله الله منها ويكشف العذاب عنها ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ لكن قوم يونس ـ وهو استثناء منقطع ـ ﴿ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ ﴾ أول ما رأوا أمارة العذاب ولم يؤخروه إلى حلوله ﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي: إلى انتهاء آجالهم.

يروى أن يونس عليه السلام بعث إلى أهل نينوى من الموصل، فكذبوه وأصروا على تكذيبه، فوعدهم بالعذاب إلى ثلاث، فلما دنا الموعد أغامت السماء غيماً أسود ذا دخان شديد، فهبط حتى غشي مدينتهم، فهابوا فطلبوا يونس فلم يجدوه فأيقنوا صدقه، فلبسوا المسوح وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، وفرّقوا بين كل والدة وولدها، فحنّ بعضها إلى بعض وعلت الأصوات وأظهروا الإيمان وأخلصوا التوبة، وتضرعوا إلى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم الضرّ. ويقال: إنه كان يوم عاشوراء يوم الجمعة ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ بحيث لا يشذ منهم أحد، وإنما لم يجتمعوا على الإيمان، بل منهم من لم يقبله للنظام الذي اختاره الله بحيث يختلف الناس باختلاف الأمزجة والأحوال والأخلاق، وأن الاستعداد هو الذي عليه مدار الارتقاء والانحطاط، ولن يكون القضاء إلا على مقتضى الحقائق الثابتة، وهؤلاء هذه حقيقتهم، وهل يشاء الله إلا ما هو حق؟﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ ﴾ بما لم يشأ الله منهم ﴿ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ فخلاف المشيئة

مستحيل، وقد كان صلى الله عليه وسلم حريصاً على إيمان قومه شديد الاهتمام به، ولذلك قرره بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي: بإرادته وألطافه وتوفيقه ﴿ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ ﴾ أي: العذاب ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ لا ينتفعون بعقولهم فلا ينظرون الحجج والآيات ولا يفكرون فيها فيكونون غافلين عما حلّ بالأمم السالفة وما أصابها من خير أو شر وعقل وفكر وجهل وغباوة كما جاء آنفاً ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾[يونس: ٩٢].

ونعى على المسلمين غفلتهم عن ذلك، وعما أعقبه من السماوات والأرض وعجائبهما، فقال: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ من عجائب صنعه والآيات والعبر واختلاف الليل والنهار، وخروج الزروع والثمار مما لا يتناهى من حكم بارعات وآيات بينات وغرائب مدهشات، كما أمرهم بالنظر في عجائب الأمم وأبدانها الباليات وآياتها الباهرات.

فمن قرأ العلوم الفلكية والعلوم الرياضية والطبيعية فهو من الموحدين توحيداً حقيقياً أرقى من علم التوحيد المشهور إذا وجه نظره إلى نظام العالم العام، وتعجب من جمال صنعته، أما إذا قرأه قراءة الغافلين كأكثر من يتعلمون بالمدارس اليوم، فأولئك عن ذلك مبعدون، وهم عن الله غافلون.

وهكذا من قرأ علوم المصريين والبابليين والآشوريين والأوروبيين في تاريخهم وأحوالهم العجيبة، يكون ذلك منه امتثالاً للدين وترقية للعقل، وله ثواب عظيم ما دام يرمي لغرض شريف.

ولما كان ذلك لا ينتفع به إلاّ ذوو الاستعداد العقلي، أردفه بقوله: ﴿ وَمَا تُغْنِى ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ بحسب ما سبق به العلم، و«ما» نافية ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ مثل وقائعهم كما يقال: أيام العرب لوقائعها، ﴿ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ أي: فانتظروا إهلاكي إني معكم من المنتظرين هلاككم، ولقد جرت عادتنا فيما مضى أنا نهلك الأمم الذين كذبوا ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ من تلك الأمم إنجاء كذلك الإنجاء، ننجي محمداً صلى الله عليه وسلم وصحبه حين نهلك المشركين، حق ذلك حقاً علينا، وهذا هو تقرير قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ خطاب لأهل مكة ﴿ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى ﴾ وصحته وسداده، فهذا ديني فاستمعوا وصفه.

ثم وصف دينه فقال: ﴿ فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي: الأصنام ﴿ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ يميتكم، وإنّما وصفه بذلك ليريهم أنه هو الذي يتقي ويخاف بخلاف ما يعبدون، وهو ما لا يقدر على شيء فكيف يخاف ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: بأن أكون، أي: أن الله أمرني بذلك بما ركب فيّ من العقل وبما أوحى إليّ في كتابه ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ أي: وأمرت بالاستقامة في الدين بأداء الفرائض والانتهاء عن القبائح أو في الصلاة باستقبال القبلة، فهذا عطف على «أن أكون» ﴿ حَنِيفًا ﴾ حال من الدين أو الوجه، أي: مستقيماً عليه غير معوجّ عنه إلى دين آخر ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ مع المشركين على دينهم ﴿ وَلَا تَدْعُ ﴾ لا تعبد ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ ﴾ في الدنيا والآخرة إن عبدته ﴿ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ إن لم تعبده ﴿ فَإِن فَعَلْتَ ﴾ عبدت ﴿ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ من الضارين لنفسك ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ﴾ يصبك ﴿ ٱللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ بشدة وأمر تكرهه ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ ﴾ فلا رافع للضر ﴿ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ﴾ بنعمة وأمر تسرّ به ﴿ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾

لا مانع لعطيته ﴿ يُصِيبُ بِهِۦ ﴾ بالخير ﴿ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فتعرّضوا له بالطاعة ولا تيئسوا من غفرانه بالمعصية ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ الرسول أو القرآن وليس لكم بعده عذر ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ بالإيمان والمتابعة ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ﴾ لأن نفعه لها ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ بالكفر ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ لأن وبال الضلال عليها ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ بحفيظ موكول إليّ أمركم، وإنّما أنا بشير ونذير ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾ بالامتثال والتبليغ ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾ على دعوتهم وتحمل أذيتهم ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ﴾ بالنصر وإظهار دينك ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ لأنه لا يمكن الخطأ في حكمه، لأنه مطلع على السرائر كاطلاعه على الظواهر بخلاف حكام الناس، فليس لهم إلاّ الظواهر.

خاتمة في عجائب هذه السورة وما تقدمها من السور

انظر إلى عجائب هذه السورة وما تقدمها. انظر كيف ذكر في أوائلها بدء الخلق وهو يعيده، وكيف جعل الشمس ضياءً القمر نوراً، وكيف قدر المنازل وعلم عدد السنين والحساب، وذكر اختلاف الليل والنهار، وأخذ يذمّ الذين هم عن آياته غافلون، وجعل لهم النار بما كانوا يكسبون.

وانظر كيف ذكر في خواتيمها كما ذكر في أوائلها، ذكر أنه جعل جثة فرعون الموضوعة في نجوة أي: مكان مرتفع من الأرض آية وذمّ المعرضين عنها كما ذمّ المعرضين عن آيات السماوات والأرض؛ فهناك يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [يونس: ٧ ـ ٨]، وهنا يقول: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ [يونس: ٩٢]، فجعل الغافلين عن آيات الله في الأمم كالغافلين عن آيات الله في السماوات والأرض.

عجب عجاب للقرآن وحكمه العجيبة، وهنا أمر بالنظر في السماوات والأرض، وأوعد الذين لا يعقلون، فقال: ﴿ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ ﴾ أي: العذاب والخذلان ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي: لا يستعملون عقولهم.

فانظر كيف كانت أوائل السور كخواتيمها، نظر وفكر وتعقل وذم للغافلين، وانظر كيف سترى بين الجهل بالعوالم العلوية والسفلية والجهل بأحوال الأمم كأمة المصريين، فهذه من القرآن دلائل واضحات أن علوم قدماء المصريين وغيرها كعلوم الفلك والطبيعة من تركها من الأمم أصبحوا في أسفل سافلين، ولهم جهنم في الآخرة وهم في الدنيا أيضاً معذبون لأنهم جهلاء ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ ﴾ لا يعرف العلوم الكونية والنظامية والسياسية ﴿ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ ﴾[الإسراء: ٧٢] لا يرى طريق النجاة، والمقصود أن تكون هذه العلوم قائماً بها طوائف من الأمة لكل علم جماعة.

فمن قرأ تاريخ المصريين فهو قارئ لآيات الله، ومن قرأ علومهم فهو مطالع لآيات الله، وكذلك الآشوريون والبابليون وجميع الأمم.

ومن درس ما عرفه الألمان والإنجليز والأمريكان من علوم الفلاحة والسياسة والتجارة والنجارة والحدادة والدباغة وما شاكل ذلك، كان مطلعاً على آيات الله بدرسه للعلوم التي يرضاها، والحكمة التي للعباد أهداها.

فويل للمسلمين الغافلين، وويل ثم ويل لهم إذا غفلوا بعد ما بيناه، وهلاك لهم إذا ناموا بعد ما بسطناه.

فيا ليت شعري ماذا يريد المسلمون؟ أوَلم يكفهم أن الله سلط عليهم أوروبا فملكت بلادهم شرقاً وغرباً وهم نائمون؟ أوَلم يكفهم أنه ألهم طائفة من المسلمين الآن فنبهوا المسلمين أن جميع العلوم والصناعات واجبة فرض كفاية وهم غافلون؟ أوَما علموا أن العذاب حل بهم وهم لا يشعرون؟ وسلام ثم سلام على من يفهمون المسلمين في الأقطار الإسلامية واجباتهم وعلومهم التي حرموا منها وهم لا يعلمون.

وكما فعل ذلك في هذه السورة فعل في سورة «الأعراف»، فجعل في أوائلها ذكر الرياح والسحاب والمطر والماء والثمرات، وفي أواخرها النظر في ملكوت السماوات والأرض، وحذرهم من اقتراب آجالهم.

هكذا فعل في «الأنعام»، فجعل في أولها خلق السماوات والأرض والظلمات والنور وفي أواخرها أنه أنشأ جنات معروشات وغير معروشات وأنه رب كل شيء.

وفي «المائدة» ذكر في أوائلها حل الأنعام وحرمتها، وقصة ابني آدم المشتملة على أن الإنسان يتعلم من الحيوان، وذكر في أواخرها أنه له ملك السماوات والأرض.

وفي سورة «النساء» ابتدأ بذكر خلق الإنسان وأنهم من نفس واحدة، وجعل في أواخرها ذكر السماوات والأرض مكررة.

وهكذا سورة «آل عمران» ابتدأها بوصف الله بأنه الحي القيوم، وكيف خلق الجنين في بطن أمه وصوّره، وجاء في أواخرها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[الآية: ١٩٠] الخ.

وهكذا «البقرة» جاء في أوائلها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[الآية: ٢١] الخ، وفي أواخرها: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[الآية: ٢٨٤] الخ.

فهذه السور من ابتداء «البقرة» إلى هذه السورة، هذه كانت مبادئها، وهذه كانت خواتمها، كلها حاضة في أوائلها وأواخرها على النظر في علوم السماوات والأرض، فأما هذه السورة فقد أبانت أن الغافلين عن علوم الأمم السالفة ملومون غافلون، والغافلون معذبون في جهنم، والعذاب هنا في ترك فرض الكفاية.

اللهم ألهم أمتنا الإسلامية عقولاً راقية ونفوساً كبيرة؛ فوالله لئن لم ينته علماء الإسلام عن هذا التقصير لتكون هذه الأمة في الهالكين، ويستبدل الله بها غيرها ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[محمد: ٣٨]. فيا عجباً لأمة الإسلام كيف ينامون؟ كيف يغفلون؟ وهذا القرآن بين أيديهم يقرؤونه صباحاً ومساءً.

ولتعلم أيها الذكي المطلع على هذا الكتاب أنك مسؤول عن هذه الأمة، وإياك أن تقول من أنا؟ فإنك متى كنت مغرماً بقراءة أمثال هذا الكتاب فلا جرم تكون نفسك من ذوي الجد والعلم الذين يعرفون قيمة أنفسهم، وهم مصلحون فلتكن مصلحاً، ولترشد الناس بقلمك ولسانك وحديثك، ولتحرض الأمة على حوز العلوم.

فلعمري لقد قابلت طوائف هذه الأمة المسكينة ؛ من أهل جاوه، وسومطرة، وبلاد الملايو، وبلاد سيام، وبلاد الغرب، وغيرهم من الأمم والممالك، ومن بلاد الصين، فوجدتهم جميعاً خاملين خامدين نائمين لم يفطنوا، وذلك لما رسخ في عقول علماء الدين أن الدين بعيد عن العمران، بعيد عن الأوطان، بعيد عن العلوم، بعيد عن الصناعات، فضلوا بذلك وأضلوا وهم لا يعقلون، فلتنقذ الأمة من ضلالها، ولتنشلها من وهدتها، ولتطلعها على دينها الصحيح في نحو ما سطرنا، وفي مثل ما كتبناه.

والله هو الهادي إلى سواء الصراط.

تم تفسير سورة يونس عليه السلام.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة هود

وهي مكية، وهي مائة وثلاث وعشرون آية

وهي أربعة أقسام

القسم الأول: في المقصود من الرسالة، من أولها إلى قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الآية:٧].

القسم الثاني: تأنيبهم على استبعادهم البعث، والإلماع إلى نقص الإنسان، ومقاصد أخرى، من قوله: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ [الآية: ٧]، إلى قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الآية: ٢٤].

القسم الثالث: من قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [الآية: ٢٥] إلى قوله: ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [الآية: ٩٩] في قصص الأمم والأنبياء.

القسم الرابع: في طريق هداية الأمم إلى الفلاح، من قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ [الآية: ١٠٠] إلى آخر السورة.

هذه أقسام السورة، ولقد كنت لخصتها منذ ١٤ سنة وأنا مدرّس بدار العلوم، وقسمتها على هذا النمط، ولكن القسم الثالث تبعه قسمان موضحان له تابعان له، فصارت الأقسام ستة. ولما كان للإنسان في كل سنٍّ من أسنانه عمل يناسبه، وإنشاء يلائمه، ورأي يوافقه، رأيت أن أكتب ذلك الملخص لتطلع على ما كتبته إذ ذاك وأنا مدرس بدار العلوم، وتوازنه بما أكتبه الآن، فستجد أن الرأي اللاحق هو السابق، فسأذكر ذلك الملخص ثم أتبعه بتفسير السورة إن شاء الله. هاك ما كتبته إذ ذاك لتطلع على مجمل تفسيرها كأنه مرآة، ثم أذكره مفصلاً في اللاحق.

تفسير هذه السورة، مقاصدها ست

المقصد الأول: من أول السورة إلى قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الآية: ٧]

ابتدأ الله عزَّ وجلَّ بالمقصود من الرسالة، وهو عبادة الله عزَّ وجلَّ، والإنابة إليه بالتوبة، وعدة المؤمنين التائبين بالفوز في الدارين والسعادة في الحياتين الدنيا والآخرة، وإنذارهم بالعذاب إن أعرضوا فقد جمع بين الإنذار والتبشير والإخافة والإطماع، وهذه هي الطريقة المثلى، وذلك في قوله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [الآية: ١] إلى قوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [الآية: ٣].

ثم أخذ يشرح سعة علم الله وإحاطته بالكائنات، فلا تخفى عليه خافية بما أبان من اطلاعه عليهم وهم مستغشون بثيابهم في اختلائهم وفي أسرتهم وعند نومهم ويقظتهم، وعلى الدواب البرية والبحرية في غدوها ورواحها وليلها ونهارها، وتقديره أرزاقها وقيامه بما يقيم به أودها، ويبقي حياتها ويحفظ نسلها إلى أجل مسمى، ثم شرح قدرته عزَّ وجلَّ بما أبدع من عجائب السماوات وغرائب الأرض، ولم تكن شيئاً مذكوراً حينما كان عرشه على الماء، فما قدمناه منحصر في العبادة والتوحيد والإنذار إجمالاً والتبشير، ولقد كانت العناية بصفات الله أتم، والاهتمام بقدرته وعلمه أعظم، ليكون أدعى للخضوع لعظمته، والإيقان بعلمه وحكمته، وذلك أدعى لإجلاله والخوف من عقابه وهيبة سلطانه وامتثال أمره، واجتناب نهيه، والإيقان ببديع حكمته، حتى لا يكون العالم بلا غاية، ولا أعمال العباد بلا نتيجة.

والمقصد الثاني: وهو من قوله: ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ ﴾ [الآية: ٧]، **إلى قوله:** ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الآية: ٢٤]

أخذ فيه يؤنبهم على استبعادهم البعث بعد الموت، ووصفهم له بالسحر، واستبطائهم عذاب الدنيا إذ يقولون: ﴿ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴾ [الآية: ٨]. وما أجمل أن يشرح خلق الإنسان العام وما فيه من النقص والجهل فهو اليؤوس من الفرج، الكفور بالله إذا أصابه الضر، وهو الفرح البطر الفخور إن أذاقه الله نعمه، ذلك لجهل الإنسان وقصر نظره الحيواني الطبيعي، ولا مفر من هذه الخلة الشائبة إلاَّ بالصبر في الضراء والسراء بالعفة والسكينة والوقار، وبضبط النفس في الغنى، والتعالي عن الائتناس بالمادة، وأن يفكر في زوال الحياة وفناء اللذات، وانتقال المال من يد إلى يد، وتصرم الآجال وذهاب الأموال وسرعة تقلب الأحوال، وبضبط النفس من فقر وغنى يصير الإنسان رجلاً كاملاً، وما أنسب أن يسلي النبي صلى الله عليه وسلم مما يضيق به صدره بما يقولون عليه تسلية له وتثبيتاً لفؤاده، فأنزل عليه ما يثلج صدره، إذ قال: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ [الآية: ١٢].

ثم شرح حال المرائين والمنافقين والمشركين وأبان لهم أن أعمالهم حابطة، وأظهر ما عليه المؤمنون والنبي وصحة حجتهم ووضوح طريقتهم، وتبلج نور شمسهم وانقشاع الغيوم بأضوائه، ووضوح الحجة بالقرآن، وسطوع النور بالبيان، فقوله: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ ﴾ [الآية: ١٧] الخ، فلم يبق من أنواع الإيضاح إلاَّ أن يمثل أولئك الذين لم يروا شمس الهداية، ولم يتبينوا نور العلم والحكمة وسطوع الحجة الواضحة في القرآن بأنهم عمي لا يبصرون، صم لا يسمعون، والآخرون مبصرون سامعون.

فتعجب كيف تدرج من أول السورة إلى هذا المقام من حال إلى حال، فتوحيد يتبعه عبادة يتلوه نظام وعلم يتلوه إنذار بعذاب من بعد ذلك إيضاح وإيضاح، وبيان يقفوه بيان، حتى صار المعقول محسوساً والغائب مشاهداً، فصدع بالأمر فوصف قوماً بالعمى والصمم، وآخرين بالبصر والسمع، فالعمى عن رؤية السماوات والأرض والدواب ومستقرها ومستودعها، والصمم عن سماع الموعظة والإنذار والتبشير، ولم يبق بعد هذا البيان إلاَّ أن يقصّ القصص ليعتبروا، ويقوّم البلدان ليذكروا، ويسمعهم التاريخ ليزدجروا لعلهم يبصرون عاداً، إذ قال: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ ﴾ [الآية: ٥٩] الخ.

ولعلهم يسمعون ما حلّ بالأمم الغابرة والأجيال البائدة، ولا يكونون صماً عن المواعظ، عمياً فلا يبصرون آثار الأمم البائدة وأطلالها الهامدة وأحوالها الغائبة، ذلك هو العجب العجاب.

المقصد الثالث: من قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾[الآية: ٢٥] **إلى قوله:** ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾[الآية: ٩٩]. وفيه تخطيط البلدان التي سكنتها هذه الأمم والإلماع إلى تاريخهم.

ذكر الله في هذه السورة عاداً وثموداً وإبراهيم ولوطاً وشعيباً، فقوم نوح نبيهم نوح، وعاد نبيهم هود، وثمود نبيهم صالح، وقصص إبراهيم لم يذكر معه قومه فيها، وأهل سدوم بناحية حمص بالشام نبيهم لوط، وأهل مدين نبيهم شعيب، وأهل مصر نبيهم موسى.

مساكنهم: أما قوم نوح فقيل بالهند، وقيل بالعراق وما والاها، وأما عاد وثمود فهما بجزيرة العرب حوالي اليمن، وأما إبراهيم فقد كان في تلك الحال بفلسطين من أعمال الشام بعد أن رحل بابن أخيه لوط من أرض بابل، فكان هذا بفلسطين وهذا بسدوم، وهي خمس قرى بينها وبين فلسطين نحو أربعة فراسخ، وأما أرض مدين فعلى شاطئ البحر الأحمر تجاه بلاد صعيد مصر من الجهة الشرقية، وأما أرض الفراعنة فمعلومة وهي مصر.

ألا تتعجب كيف كانت الأمم المذكورة في السورة محصورة في جزيرة العرب وما حولها داخلة الآن في حوزة الإسلام.

ليتعجب طلاب العلم وليتذكروا كيف كانت هذه السورة جامعة لقصص الأمم المحيطة بالكعبة أو ما يقرب منها، وكيف أراد الله إيقاظ أقوام سكنوا تلك الأقطار بعد نومتها وحياتها بعد موتها، وعزها بعد ذلها، وشرفها بعد ضعتها، وكيف دخل الإسلام هذه الأقطار وعمّ هذه الديار فدخل اليمن وما حولها، وضم جزيرة العرب ومصر والعراق وبعض أقطار الهند، هذه بعض حكم القصص لم يذكرها الله إلاّ إيقاظاً لأهلها فاستيقظوا، وتذكيراً لأهلها فتذكروا.

المقصد الرابع: استنتاج الأخلاق مما ذكر في المقصد الثالث

جرت عادة الله أن لا يهلك أمة، ولا يبيد دولة، إلاّ إذا عاث أهلها في الأرض فساداً، أو بطشوا بطش الجبارين، وطغوا وبغوا واستكبروا وأفسدوا، فتكون العاقبة الهلاك في الدارين، والعذاب في الحياتين والشقاء بالويلين، فإن الله لا يهلك القرى لكفر أهلها إذا كانوا مصلحين لشأنهم منظمين مدنهم حافظين لأمرهم، ضابطين لنظامهم، قائمين بأعمالهم كما قال تعالى في هذه السورة: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[الآية: ١١٧]، فأما إهلاك قوم نوح فبسبب الإعراض عن الهدى واستمراء مرعى الجهل والإخلاد إلى الأرض، والتباعد عن الرشد، واتباع طرق الغي والاستعلاء على العقلاء الذين آمنوا، واسترذالهم واستهزائهم بالعلم والهدى، وأنفتهم أن يأخذوا العلم عن بشر مثلهم، والحكمة عن واحد منهم، إلاّ أن نفوسهم حيوانية وجبلاتهم حجرية، كمثل أولئك الذين لا يرضخون إلاّ لمعلم غريب عن الديار، نازح عن الأوطان، لما أنهم لا يعقلون إلاّ كما تعقل العامة الجهلاء من الخضوع للجبارين، والأخذ عن المجهولين أو السحرة الماكرين أو القوم الشاذين، لقوة سلطانهم بالترهات وحيلهم بالطلسمات، أما العقول فهم عنها معزولون، ثم إن الكبر والجهل صنوان، وهما رضيعا لبان وفرسا رهان، وخليلان لا يفترقان، وشقيقان لا ينفصلان، فهلكوا بالغرق وبادوا بالطوفان.

وأما قوم عاد فلقد طغوا في الأرض وبغوا وقالوا: من أشد منا قوة، فأبادتهم الرياح والزعازع وأهلكتهم، فأصبحوا لا ترى إلاَّ مساكنهم.

وأما ثمود فكفروا بالنعمة ولم يشكروها وجمعوا بين نقيضين: تعنت في طلب الآيات وخوارق العادات، وكفر على نعمة أعطوها، فلم يحمدوا الله فيشكروها، بل ذبحوا الناقة ظالمين وأكلوا لحمها كافرين، فاصفرّت الوجوه ثم احمرّت ثم اسودّت ثم أخذتهم الصيحة التي صاحها جبريل، وزلزلت الأرض ورجفت بهم رجفة فأصبحوا هالكين، جمعت ثمود بين الخستين: معاداة العلم بالتعنت، وطلب الخوارق للعادات والبغي والظلم، فقد أساءت في القوة العلمية ولم تحسن في القوة العملية.

وقوم لوط فسقوا وأولعوا بالشهوات الجثمانية، ففعلوا ما يبيد النسل وطغوا في شهوة الفرج، كما طغى أهل مدين فيما به قوام الأجسام من المكيل والموزون، وما طغيان قوم فرعون إلاَّ كعاد وقوم نوح، فالنتيجة أن قوم نوح وقوم فرعون وعاداً ملكتهم القوة الغضبية وأضلتهم النفس الشيطانية، وقوم لوط وأهل مدين ضلوا بالقوة الشهوية، هؤلاء فيما يقي الأجسام، وهؤلاء فيما يديم النسل، فهؤلاء فيما يسدّ الجوعة، وهؤلاء فيما به يتناسل الحيوان والإنسان.

وقوم شعيب عليه السلام أغمضوا القوة العقلية فاستحبوا العمى على الهدى. هذه مجامع الأخلاق ذكرها الله في هذه السورة تذكرة لهذه الأمم وإيقاظاً لها، وإيذاناً بأن الأمم التي أهملت شأنها فلم تقو إرادتها ولم تستيقظ عقولها ولم تصلح شؤون نفوسها، أو تلك التي اغترّت بأنفسها وفرحت بما عندها من العلم، ونامت على مهاد الراحة، واستكبرت عن أخذ العلم ممن كانوا أعلى منهم مقاماً وأرقى شأناً وأوسع حكمة، كمملكة مراكش أيام استقلالها وعظمتها، أو تلك التي أطلقت أيدي العابثين من أبنائها، فلم يأخذوا على أيدي الظالمين، فساد الفساد بتطفيف المكيال والميزان وعموم الرشوة، وإعطاء المرء ما لا يستحق من الأعمال، وبخس الفضلاء حقوقهم، وترك حبل الأمور على غاربها، فأولئك لا محالة ذاهبون للدمار، واقعون في شرك الويل والثبور.

المقصد الخامس: استنتاج النظام العام الحالي من هذه السورة في هذه الأمم، وكيف كان هلاكهم تابعاً لسقوطهم في الأخلاق والفضيلة والآداب، وكيف رجعوا لتاريخهم القديم اليوم

وإنّما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

إن هذه الأمم التي قصها الله في هذه السورة بعد أن هلكوا، واستؤصلت شأفتهم، ملكت أرضهم، وسكنها قوم آخرون، وهي الآن بلاد الإسلام، فنحن أهلها المالكون وأصحابها المسيطرون، ولما طغى أهلها البائدون أخذتهم صاعقة العذاب الهون؛ فمنهم من أغرق، ومنهم من أهلك بريح صرصر عاتية، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسفت دياره فصاروا صعيداً جرزاً، وتلك القصص من المسلمات عند سامعي القرآن، فلنقس حالنا اليوم بمن حللنا ديارهم واتخذنا مساكنهم وننظر هل أحسنا الخلافة وعرفنا قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

نرى أن البلاد العربية خاوية من العلوم، خالية من النظام، عريقة في التقاطع والتدابر، وهكذا مصر لما أن رأت بصيصاً من النور لم تعرف كيف تبصر، ولم تزن أعمالها، وخلطت عملاً صالحاً

وآخر سيئاً، وهذا القول منذ ١٤ سنة كما قدمت لك، أما الآن فإنها آخذة في الاستقلال والرقي، وهكذا أرض بابل وما بين البحرين، فإن الجهل لا يزال ضارباً أطنابه في ربوع الإسلام، فلذلك أحاطت به من كل جانب المصائب، وحاق بنا المكروه من كل جانب، وهذا مقدمة لعذاب الخزي في الحياة الدنيا مثل ما حلّ بأسلافنا، حذونا حذوهم حذو القذة بالقذة، وما ذكر الهلاك الدفعي إلاّ لينذرنا بالهلاك التدريجي، والعذاب العظيم باحتقار الأمم لنا، واستهزائهم بنا، فلقد تركنا عقولنا وشأنها، فلم نربِّ القوة العقلية ولم ننمِّ الفكر الإنساني، وكثرت الرشا والغشّ في المبيعات كما فعل أهل مدين، وتجرأنا على المحرمات كقوم ثمود، والطامة الكبرى أننا فرحنا بما عندنا من العلم، وصممنا آذاننا عن الحكمة التي أرسل الله أنوار شموسها على أرض المغارب، وكسا بها وجه اليابان والصين، وأذاقها لأمة الأمريكان، فتكبرنا عن العلم ونحن الجاهلون، وأعرضنا عن الحكمة ونحن معرضون، ونمنا والناس مستيقظون، هذا ما كتبته إذ ذاك، ولكن الآن دبت الروح في جميع هذه البلاد وعسى أن ترقى هذه الأمم وهم فرحون مستبشرون.

المقصد السادس: دواء هذا الداء وخاتمة السورة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ [الآية: ١٠٠] **إلى آخر السورة.**

لقد بان لك حالنا اليوم وما أحاط بنا من مكروه وما نزل بنا من شرّ، وكيف أصبحت أمم الإسلام غارقة في بحار الجهل، تائهة في قفار الضلال، بعيدة عن طريق الهداية إلاّ قليلاً، وكيف عكفوا على المجد القديم، واستكبروا في الأرض بغير الحق، واكتفوا بما عندهم من علم قديم ومجد موروث، وأهملوا الأخلاق والفضائل، وقال قائلهم لمن يسأله عن سبب انحطاط أمم الإسلام: إنها المعاصي، ولو سألته أيّ هي؟ لقال: الغيبة والنميمة والخمر وما أشبهه. وأكثرهم يجهل أن الجهل أكبر المعاصي وأقبح المخازي، وأن عكوف كل امرئ على شأن نفسه وحده وتركه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أسوأ أثراً وأكثر خطراً وأعظم ضرراً من غيبة ونميمة.

ولا سبيل لصلاح البلاد الإسلامية وإسعاد الأمة المحمدية إلاّ أن يجدّوا في العلوم والصناعات وأحكام التجارات والإمارات ونظام المدن والجماعات، ولم يؤيسنا ربنا من السعادة ولم يقنطنا من إصلاح حالنا وتغيير العادة.

ألا ترى كيف ذكر الدواء بعد الداء فقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [الآية: ١١٤-١١٦]، فإن معناه: هلا كان في الأمم الغابرة والقرون البائدة مرشدون ناصحون وعلماء واعظون وحكماء مبصرون ينهون غوغاءهم ويرشدون جهالهم، ويضربون على أيديهم، كما فعلت أمة اليابان والصين والأمريكان، فإن الأمة إذا اقتربت من العطب وانسلّ إليها الإهلاك من كل حدب، فأيقظ أهلها الموقظون، وأرشدها لموضع الداء الناصحون، أرجعت العز إلى نفسها، ونصرت على عدوها، وإذ ذاك لا ينالهم هلاك الدارين، ولا يحيط بهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا، ولا عذاب السعير في الأخرى.

وتعجب كيف يقول بعد أن أتم قصة فرعون: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾[الآية: ١٠٠]، وكيف أرجع الظلم إليهم وقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾[الآية: ١٠١] الخ، ولكن ظلموا أنفسهم فما نفعتهم الآلهة المعبودة، هكذا لم ينفع أهل الشرق اليوم من يعدهم ويمنيهم من بعض الرؤساء الجاهلين، بل زادوهم تتبيباً.

ثم قاس أحوال الأمم في الأرض بهذه الأمم المذكورة، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾[الآية: ١٠٢]، ثم شرح عذاب الآخرة وكيف يسعد قوم بالجنة ويشقى آخرون بالسعير.

مقاصد الدين أمران: بقاء الأجسام بنظام المدنية وحفظ النسل وسعادة الأرواح بالعلوم والشوق إلى معرفة الله والعبادة، ولا أرواح بلا حياة ولا حياة بلا نظام.

لذلك كان جلّ مقاصد هذه السورة حفظ الأجسام وبقاء المدن ونظام الجمعية وحفظ الأموال ليهبّ الناس لجمعها، ويتضافروا على العمران، ويكثر النسل، فنهى الله عليهم البخس في المبيعات واللواط والاستكبار عن العلم النافع، فهذا كله لبقاء الأجسام وهو النظام المدني.

ولقد أرشد الله لحفظ الأرواح وتزكيتها بالعبادة والتوحيد والأخلاق الفاضلة. فتعجب كيف غفل المسلمون اليوم عن النظام المدني، وكيف يقرؤون ولا يعلمون ويعيشون ولا يفكرون. إني أنذر المسلمين اليوم كما أنذرهم الله، وأقول لهم: ليقم في كل قطر من أقطار الإسلام رجال يحضون على العلوم ليكثروا ليرشدوا إخوانهم، ليأمروا بالمعروف، لينهوا عن المنكر، أحذر المسلمين أن يهلكوا كما هلك من قبلهم، إني أنذرهم صاعقة المدافع والعذاب الواقع ما له من دافع، وحصد النفوس وذهاب الفلوس وضياع القرى، ومن يعش يره.

آيات الأخلاق، آيات العلوم، آيات الأحكام، آيات النظام العام

آيات العلوم من هذه السورة إحدى عشرة آية:

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[الآية: ٤] إلى قوله: ﴿فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[الآية: ٦].

وقوله: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الآية: ٤٤].

وقوله: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الآية: ٥٦].

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾[الآية: ٥٧].

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[الآية: ١١٨] إلى آخر السورة.

وهذه الآيات في الأكثر تبيان لعظمة الله عزّ وجلّ وجلاله وقدرته وسلطانه وعلمه ورحمته التي وسعت كل شيء.

ومن أعجب ما في هذه الإحدى عشرة قوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الآية: ٥٦].

لن يعقل دقائق إحاطة الله علماً بالدواب إلاّ من قرأ علوم الحيوان، ووقف على غرائزه وعجائبه وبدائع تركيبه ومحاسن صنعته، وما أتيح له من أعضاء منظمة، ووهب من قوى درّاكة وصور برّاقة ونفوس مختارة.

إن في الحيوان لآيات، وفي النحل لعجباً، وفي النمل لحكماً، واقرأ إن شئت هندسة العنكبوت، ونظام بيوت النمل، وبدائع دودة الحرير، ونظام الجراد، ودود القطن، وكيف أكلت مما نلبسه، ولبستا مما نسجت أختها دودة الحرير، فكيف كانت إحداهما تخلع علينا لباسها، والأخرى تسلبنا ما زرعنا لنلبسه؟ إن في الحيوان والإنسان لغرائب ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤] كل ذلك في كتابي «جمال العالم». انتهى.

آيات الأخلاق:

منها قوله: ﴿الٓر كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُ﴾ [الآية: ١] إلى قوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [الآية: ٣] في هذه الآيات الثلاث خلق التوبة.

ثم إن قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ [الآية: ٩] إلى قوله: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الآية: ١١] فيه ذمّ خلق الأشر واليأس وطلب الصبر على البأساء وضبط النفس في السراء والغنى.

وقوله: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا﴾ [الآية: ١٤] إلى قوله: ﴿وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الآية: ١٦] فيه ذمّ صفة الرياء.

وقوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ [الآية: ٦١] الخ فيها خلق التوبة وشرفه.

وقوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الآية: ٨٤] فيه طلب العدل في الكيل والميزان.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ [الآية: ١١٠] إلى قوله: ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الآية: ١١٥] فيه الأمر بالاستقامة وترك المداهنة والركون إلى الظلمة والصدع بالحق والاستعانة بالله وفعل الحسنات والصبر.

أما آيات الأحكام:

فقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٤-١١٥]، وقد نزلت في عمرو بن عرفجة بائع الثمر، وقد قبل أجنبية، وهذه الآية تدلّ على أوقات الصلوات الخمس، فطرفا النهار: الفجر فيه صلاة الغداة، والعشيّ فيها الظهر والعصر، والزلف: أي: الساعات القريبة من النهار لصلاة المغرب والعشاء، ولا تكفر الصلاة إلاّ الذنوب الصغائر على الأوجه.

أما آيات النظام العام:

فهي فحوى السورة ومقصودها والله أعلم.

هذا هو الملخص الذي كتبته في ذلك التاريخ، فلأشرع في تفسير السورة تفصيلاً بعد ما عرفتها إجمالاً وقرأت حكمها الشريفة وعجائبها المنيفة، لتكون على بينة من معانيها وفي الفهم، على صراط مستقيم.

القسم الأول

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ ﴾

لأبتدئ الكلام على البسملة، وعلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾.

جرت عادة العلماء في الإسلام أن يسهبوا في الكلام على البسملة في أول كتبهم، ويشرحوا ما يخصها من العلوم الاثني عشر الأدبية، كالنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والخط والإنشاء الخ. أما في هذا التفسير فإني تكلمت عليها في أول سورة «الفاتحة»، وبينت الكلام في رحمة الله عزَّ وجلَّ، أي: في المقصود من إنزال القرآن إلى هذه الأرض، إن أكثر العلماء رحمهم الله أرادوا ترقية العقول واتساع الذهن بالعلوم التي هي آيات الفهم.

أما أنا فإني بحمد الله أكتب هذا التفسير لأناس لهم حظ من هذه العلوم، فعليّ أن أوجه الهمم إلى ما هو المقصود من ذكر الرحمة، وقد ذكرت شيئاً منها في «الفاتحة» وشذرات في سورة «آل عمران» عند قوله تعالى: ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾ [الآية: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الآية: ٢٧] فبينت هناك رحمته عزَّ وجلَّ في الحشرات وغيرها، وأنه سبحانه آخذ بناصيتها، وهكذا عند قوله تعالى في سورة «الأنعام الآية: ٣٨»: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾، وذلك في قوله تعالى في سورة «الأعراف الآية: ١٥٦»: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾.

وهاهنا أقول: إن الله كرر الرحمة في القرآن في أول السور فوق المائتين، وهكذا ذكرها في مواضع كثيرة كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ في سورة «يوسف الآية: ٩٢»، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل قال في نبينا صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ولا جرم أنه الآن في العالم الأعلى، فوجب أن نكون نحن المسلمين على الأرض قائمين بالرحمة، والرحمة على قسمين: رحمة بالحيوان، ورحمة بالإنسان.

أما الرحمة بالإنسان فلن تتم لنا إلاَّ إذا أصبحنا عالمين بقدر طاقتنا بعلوم هذه الدنيا حتى نرقي نفوسنا ونرقي غيرنا، ومستحيل هذا الرقي إلاَّ بنشر العلوم بيننا أولاً، وهكذا الصناعات، وحينئذ

نرشد غيرنا ونكون رحمة، أما الآن فلا، فمن يجهل الرحمة العامة كيف يستعملها وكيف ينشرها بين الناس، فرحمتنا على مقدار عملنا فيها، وعملنا فيها على مقدار علمنا، وعلمنا اليوم قليل.

وأما الرحمة بالحيوان، فإننا معاشر الأمم الإسلامية لم ننشرها بين الشعب، بل حصرت في كتب الفقه والأمم الإسلامية ساهية لاهية عنها، والفرنجة قاموا بجمعيات للمحافظة على الحيوان في بلاد الإسلام وهذا بسبب كتبهم التي ألفوها لصغارهم، وفيها ما يرقق القلب على الحيوان ويورث الشفقة.

فلأذكر ما جاء في الأحاديث الصحيحة عنه صلى الله عليه وسلم، ثم أتبعه بما يفتح الله به، وقبل أن أذكر الأحاديث أقدّم مقدمة فأقول:

إن العالم على قسمين: عالم لطيف وعالم كثيف. فالعالم اللطيف لا ندري منه شيئاً إلاّ العلوم والأنوار والجمال، نحن في هذه الأرض نحس بنعمة العلم وبنعمة الجمال وبجمال النور، هذه النعم الثلاثة نحس بأنها خالية من الحزن ومن الكدر والنحس والشقاء. يقف الإنسان مبهوتاً أمام الجمال فينسى كل حزن ويشعر بسرور وخفة روح ولطف الحب الذي سببه الجمال يأخذ بلبّ صاحبه على مقدار الإحساس بالجمال، فيغيب عن كل حزن وكدر في ذلك الزمن الذي غشى الحب على قلبه، ولقد عرف الناس أن الحب درجات: درجة دنيا، وهو حب الجهال للجمال الظاهري فإنه سريع الزوال وحب العلماء لجمال العلم، فهذه درجة وسطى، وحب الحكماء وأولي الألباب لخالق الجمال، وهذه هي الدرجة العليا، فالجاهل يلهيه الجمال الحيواني في وقت ما من حزنه وغمه وشقائه، والعالم والحكيم يجدان لذة لا يحس بها الجاهل في علمهما وحكمتهما وإدراك منظم هذا الوجود على قدر طاقتهما، وهكذا النور الذي هو عالم وسط بين الماديات والمعنويات يسرّ النفس على قدر إدراكها له.

هذه مظاهر تبعث في النفوس ارتياحاً لعالم المجردات الذي لم ننله في هذه الدنيا، أما عالم الماديات فإن الرحمة فيه لا تكون إلاّ باستعمال الحكمة، وإظهار بدائع القدرة، واستكمال صور الموجودات بأنواع التنظيم والإحكام، إذ يظهر أن هذا العالم المادي الذي نعيش فيه، عالم متأخر تغلب عليه الشقاوة، ولكن يد القدرة وعجيب الإبداع والإحكام قرّبه من الرحمة، وفي هذا التفسير من عجائب التدبير لأجل الرحمة ما يكفي اللبيب مثل ما ذكر في سورة «البقرة الآية: ١٦٤» عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وفي «آل عمران الآية: ٢٦» عند قوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾، وفي آخرها أيضاً، ومثل ما ذكر أول سورة «المائدة»، وهكذا ما جاء في آية: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾[الأعراف: ١٥٦]، فلا نعيده ولكن نشير إلى هذا الأخير مما ذكر هناك.

(١) مثل أن الأرض يعوزها ما يقلل أضرار المواد الرطبة التي يفسد الجو بقاؤها فيحصل الهلاك لذلك خلق الذباب والجراد ونحوهما من الحشرات.

(٢) وكثير من هذه الحشرات تضر الزرع، فجاء البرد أيام الشتاء فقتل تلك الحيوانات.

(٣) وهذا البرد يضر البذر والزرع الناشئ حديثاً زمن الشتاء، لا سيما في البلاد التي اشتد بردها، فجعل لها الثلج واقياً ما تحته من بذر وزرع في البر، ومن سمك في البحر لأن الثلج فوق سطح البحر يمنع البرودة عما تحته، فيبقى الماء يغدو السمك فيه ويروح برحمة الله، ثم يشتد حر الشمس فيذيب الثلج فيخرج الزرع نضراً بهياً جميلاً.

فانظر لتدبير منظم حشرات لإقلال الرطوبة، فبرد لقتلها، فثلج لإضعاف آثار البرد، فشمس لإزالة ذلك الثلج ليخرج النبات، هذا مثل واحد من آلاف آلاف الأمثال التي نراها في هذا العالم تدلنا أن النظام والحكمة والتدبير هي التي جعلت في عالمنا بعض الرحمة لا كلها. إن أرضنا كثيرة التغير سريعة التبدل قصيرة الأعمار كثيرة الزلازل، منيت بالشر ممزوجاً بالخير، فلا خير إلاّ جعل مصحوباً بشر، ولا نفع إلاّ مع ضر، ذلك كله لأن عالمنا غير مستعد لتمام الراحة، فليس من العالم اللطيف الجميل الذي تطول فيه الأعمار، ويظهر فيه الجمال، ويتلألأ فيه باهر الأنوار المدهشة، بل إن ما لدينا من النور يصرفنا عن السرور به الرزايا الأرضية، هذا هو عالمنا، لعلك من هذا تفهم الحديث الذي أخرجه الشيخان والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه».

إن هذا الحديث لا يعقله إلاّ من درس علوم الطبيعة والفلك، وكلما ازداد الإنسان علماً ازداد بصيرة، نحن رأينا الناس لا يرتقون في هذه الدنيا في مال أو علم إلاّ بنصب وتعب، رأينا نظام الحيوانات في البرية مبنياً على المغالبة، ورأينا الآساد تأكل الظباء رحمة بالآساد وبالظباء وبالناس، فلولا هذه الخصلة لملأت الحيوانات الآكلة العشب السهل والجبل، ولملأت رممها عند هلاكها أقطار الأرض، فكان الوباء، فاقتضت الحكمة بقاء العالم، وليس لهذا طريق إلاّ أن يخلق حيواناً يقلل ذلك التكاثر ويطهر الأرض من الرمم فيجعلها في جوفه، بحيث يطحنها ويحيلها إلى مادة لا تعفن فيها، فيكون بعضها من جملة جسمه وبعضها فضلات خارجات من السبيلين، فهذه وأمثالها تدبير ولطف ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فهذا التدبير يدهش العقول المفكرة، وترى فيه ما لا يخطر ببال المشعوذين من الحيل المعجبة للناظرين المدهشة للمفكرين. ولعل هناك عوالم ألطف وألطف، فتكون الحياة فيها أشرف وأشرف وأبقى وأطول، ويكون الأحياء أعلم وأعلم، لا كما نحن عليه في الأرض من رحمة أقل وعلم ضئيل حتى خاطبنا الله قائلاً: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، فقلة علمنا مناسبة لقلة الرحمة الواصلة إلينا التي منعها نقص استعدادنا حتى لم تنل من الرحمة إلاّ واحداً من مائة، ووافق الحديث الآية.

الحديث ينص على أن رحمتنا واحد من مائة، والآية جعلت علمنا قليلاً، قلَّ العلم فقلت الرحمة، وليس ذلك كله إلاّ من نقص عالمنا الذي نعيش فيه ولم نستعد إلاّ له، إن نبينا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، وقد ورد في الأحاديث ما أوجب علينا أن نحذو حذوه فيها مثل حديث ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما. عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم شجنة من الرحمن من وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله تعالى» أخرجه أبو داود إلى قوله: «من في السماء»، والترمذي بتمامه، والشجنة؛ بكسر الشين المعجمة وفتحها بعدها جيم: القرابة المشتبكة كاشتباك العروق.

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس» أخرجه الشيخان والترمذي.

وفي رواية أخرى لأبي داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: «لا تنزع الرحمة إلاّ من شقي». وقد وردت أحاديث في رحمة الله تعالى، منها الحديث المتقدم الذي جاء فيه ذكر مائة رحمة عن الشيخين والترمذي، وورد فيه زيادات لمسلم مثل قوله: «فبها»، أي: فبالرحمة الواحدة تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض.

وجاء في حديث رواه الشيخان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبي، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها إذ وجدت صبياً في السبي فأخذته فألزقته ببطنها فأرضعته، فقال صلى الله عليه وسلم: أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا والله، وهي تقدر على أن لا تطرحه، قال فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها».

وجاء في رحمة الحيوان ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فشرب ثم خرج وإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقي، فسقى الكلب فشكر الله تعالى له فغفر له. قالوا: يا رسول الله، إن لنا في البهائم أجراً. قال: في كل كبد رطبة أجر» أخرجه الشيخان وأبو داود.

وفي رواية أخرى: «أن امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حارّ يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش، فنزعت له موقها فغفر لها به». الموق: الخف.

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: «كان أحب ما استتر به رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته هدف أو حائش نخل؛ الهدف: ما ارتفع من الأرض. وحائش النخل: نخلات مجتمعات فدخل حائطاً ـ بستاناً ـ فإذا فيه جمل، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم حنّ وذرفت عيناه، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح ذفراه فسكت ـ ذفري البعير: الموضع الذي يعرق من قفاه خلف أذنيه ويجعل فيه القطران وهما ذفريان ـ فقال: من رب هذا الجمل؟ فقال فتى من الأنصار: هو لي يا رسول الله. فقال: أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكا إليّ أنك تجيعه وتدئبه ـ تتعبه بكثرة استعماله ـ» أخرجه أبو داود.

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا تتخذوا ظهور دوابكم منابر، إنّما سخرها الله لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلاّ بشقّ الأنفس، وجعل لكم الأرض فعليها فاقضوا حاجتكم» أخرجه أبو داود.

وعن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه رضي الله عنه قال: «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فرأينا حُمّرة؛ بضم الحاء وتشديد الميم: نوع من الطير في شكل العصفور؛ تعرش ـ ترفرف ـ وترخي جناحيها وتدنو من الأرض لتقع عليها ولا تقع، فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من فجع هذه بولدها؟ ردّوا ولدها إليها، ورأى قرية نمل قد أحرقناها، فقال: من أحرق هذه؟ فقلنا: نحن. قال: إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلاّ رب النار».

وروى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قرصت نملة نبياً من الأنبياء فأمر بقرية نمل فحرقت، فأوحى الله تعالى إليه أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبّح» اهـ.

نظرة في هذه الأحاديث
وفي الآية التي نحن بصدد الكلام عليها

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ الخ، ويقول هود: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾، ويقول في سورة «الأنعام الآية: ٣٨»: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ الخ.

وهاهو رسوله صلى الله عليه وسلم يقول: «شكا الجمل إليّ»، ويأمر صاحبه بالرفق به. ويقول: «غفر الله لبغي سقت الكلب بخفها». ويقول في الطائر: «من فجع هذه بولدها»؟ هذه الأحاديث توجب النظر والبحث وتوجب على علماء الإسلام في سائر الأقطار أن ينشروها ويشرحوها ويقولوا للناس في نشراتهم وفي كتبهم: ينبغي عدم أخذ صغار العصافير والطير من أعشاشها.

خطاب إلى علماء الإسلام

أيها العلماء، ويا أيها المسلمون، أما آن لكم أن تذيعوا هذه الأحاديث وتقولوا للأمة: إياكم وأخذ فرخ الحمام من أمه قبل استكمال تربيته، وذبح العجل ما دامت أمه ترضعه، وإياكم وصيد الطيور البرية ما دامت تربي أولادها، وتقولوا: يجب دراسة علم الطير والدواب والحشرات، وفهم طباعها فهماً تاماً، ثم جعل الأحكام مطابقة لذلك بحيث تحرمون الصيد في وقت التربة والبيض وما أشبه ذلك.

إن هذه الأحكام يختلف فيها الحكماء اختلافاً كثيراً، ولكن لا معنى للخلاف مع وجود الحديث. ولعل الأمم المسيحية أقرب إلى الرحمة منا.

اللهم إني أبرأ إليك من هذا الجهل الفاشي في أمة الإسلام، اللهم قد نبهت وأوضحت، وحسبنا الله ونعم الوكيل، اللهم إن نبيك محمداً صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة، وقد أنذر وحذر، ولكن الناس أهملوا، والأمم كلها تيقظت إلى هذه الرحمة، ونحن اليوم جهلاء بها وأنت أرحم الراحمين، فألهم العلماء في الإسلام إكمال ما ابتدأناه وشرح ما أجملناه. ألهمهم إلهي أن ينظروا في هذا الوجود، ألهمهم أن ينظروا في الأمم حولهم، ويقرؤوا علومهم بلغاتهم، فإنهم يجدونهم قد عطفوا على هذه الحيوانات وفكروا فيها، ومنهم من يرحمها، وقد ألفوا جماعات تجوس خلال ديارنا لرحمتها وإن كان علمهم أبتر وناقصاً، ألهمهم أن يفكروا في أمر الإسلام وكيف يكون المسلمون أقل رحمة بالحيوان من غيرهم غفلة وجهالة وبعداً عن الحق، أنت قد ذكرتنا بأن هذه أمم أمثالنا، وما فرطت فيها، وأن عليك رزقها وأنك تعلم مستقرها ومستودعها وأنك آخذ بناصيتها، فإذا كانت هذه منزلتها منك فكيف جهلنا نحن المسلمين منزلتها عندنا؟.

أباح المسلمون صيد الحيوان بلا قيد ولا شرط، وخالفوا العلماء وخالفوا رسولك القائل: «من فجع هذه بولدها ردّوا إليها ولدها». هذا الحديث مذكور في كتاب «تيسير الوصول لجامع الأصول» فهو في حكم الأحاديث الصحاح.

ألم يأن للمسلمين أن يدرسوا هذه الأمم درساً مدققاً؟ إننا وإياها نكون أسرة واحدة، فهي تساعدنا في الزرع والضرع والسفر، وهي المغنيات لنا لتطربنا في حقولنا، والمعطيات لنا ملابس ومساكن

ومناظر جميلة، ومنها القاتلات لحشراتنا الفاتكات بزرعنا، وكيف يعرف الإنسان أن ولد الحمام يخالف ولد البط والإوز والدجاج من حيث عطف الأبوين، وأن الفريق الأول في حاجة إلى الأبوين معاً يعطفان عليه لضعفه ويطعمانه، وأن الفريق الثاني يخرج قليل الحاجة إلى الوالدين لقوته بالريش والمنقار والقوة والاستقلال، والجري وراء أمه من وقت الولادة، وتعاطي الغذاء من الأرض، فلذلك لم يحتج إلى عطف ذكر البط والديك، بخلاف ذكر الحمام الذي يعاون الأم، ويعطفان معاً على الولد ويتقطع قلباهما أسفاً وحسرة وحزناً إذا فارقهما وهو ضعيف.

أقول: كيف يعرف الناس ذلك كله إلا بالدرس والعلم؟ أفلا يحسن أن يتنبه العلماء وحكومات الإسلام بعد ظهور ما كتبناه هنا إلى هذا الأمر، ويحرموا الناس صيد أمثال الخطاف والعصفور والسمان أيام تربية الأولاد، وهكذا صيد أفراخها الضعاف، أي: أن يتركوا الأبوين والذرية أيام الحضانة ثم يصطادون ما يشاؤون بعد ذلك حين استقلال الولد عن الوالدين فيصبح الأفراخ في غنى عن الأبوين فلا يتقطع قلبهما ولا يترك الأفراخ الصغار مقطوعات لا عائل لها.

ومتى زال سبب العطف زال التحريم، وهناك يكون المسلمون قائمين بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل: «ردوا ولدها إليها» وذلك لسبب الحزن الشديد والعطف من الأم المرفرفة، فأما بعد الاستغناء فإن الأولاد تكون مباحة، وإذن يصبح هناك فرق بين صغار الحمام وصغار الدجاج، فيؤخذ فرخ الدجاج وهو صغير لأن الأم لا يتقطع قلبها أسى وحسرة، أما الحمام فبعكس ذلك، وهكذا بقية الطيور التي يقول فيها الحديث: «ردوا إليها ولدها»، ويكون ولد البط كولد الدجاج، لأن المدار على شدة العطف وعدمه. هذا ما أراه في هذا المقام.

إن هذا الكتاب عام للمسلمين من جميع المذاهب، فلا هو خاص بأهل السنة ولا بالشيعة ولا بالإمامية ولا بالزيدية، بل هو تفسير للقرآن مع الاستعانة بالسنة، فهاهو ذا كتاب الله، وهاهو ذا حديث رسوله صلى الله عليه وسلم، وهاهو ذا وجدانكم ورحمتكم وإحساسكم الشريف أيها العلماء وعطفكم ورحمتكم ورحمة رسولنا صلى الله عليه وسلم، فهل ترون أننا نكون أقسى الأمم ونبينا بعث رحمة للعالمين، البوذية يحرّمون جميع الحيوان، ونحن أمة وسط فأبيح لنا حيوان، وحرّم علينا آخر، وأمرنا بالنظر والاعتبار.

وتقدم في سورة «المائدة» أن هناك حيوانات نافعات لنا منعت حكومتنا المصرية صيدها بسبب ما كتبناه كما ستراه في سورة «يوسف» قريباً، فقلنا: فليحرّم صيد هذه الطيور لمنفعتها لنا في حقولنا ولتجعل هذه قاعدة، إن المسلمين يدرسون علوم هذه الدنيا، ويحرمون صيد كل حيوان نافع لهم، وهذا أمر يجب ألا يختلف فيه العلماء، فمن قطع إصبع نفسه أو يده حرم عليه، هكذا هذه اللاتي تساعدنا قتلها حرام، لأن ذلك يفوت منفعتها، أما التحريم الذي أذكره هنا فهو للشفقة والرحمة التي تكررت في أول كل سورة، وفي كل ركعة صباحاً ومساء وفي القرآن وفي الحديث.

فمن الجهالة والتقليد الأعمى المذموم الأبله ألا يفرق المسلم بين أفراخ الحمام مثلاً وأفراخ الدجاج، فلتأمر حكومات الإسلام قاطبة بتحريم اصطياد كل طير في فصل الربيع إبان تربية أولادها، حتى يستغني الصغار عن الأبوين، ومن هذا الحمام الذي نربيه في منازلنا، فليحرّموا عليهم ذبح صغار

الذرية ما دامت في حضانة الأبوين ، فأما الصغار منها إذا استكملت قوتها فهناك يكون آلام الأمهات قد قلّ كثيراً وخفّ ، فلا بأس إذن من أخذها .

قد اعتاد المسلمون أن يقدموا دروس الصلاة والصيام على أمثال هذا ، وكان الأجدر أن تؤلف كتب للصغار فيها عجائب هذه الدنيا باختصار ، ويذكرون فيها بعض الأخلاق ورحمة الحيوان ، وذلك كله قبل الكلام على أركان الإسلام ، حتى إذا اشتاقوا لربهم وأحبوه بجمال صنعه وعموم رحمته ، أخذوا يبينون لهم كيف يصلون ليصلوا إليه وليقربوا منه ، فيصلون بحب لما يعرفون من عموم رحمته لهم ورأفته بهم وبالحيوان ، هذا ما وفقت له اليوم ، والحمد لله رب العالمين .

فعليك أيها الذكي القارئ لهذا التفسير أن تنشر هذا بين الناس بقلمك ولسانك وما لك من قوة وقدرة أو إمارة ، فالمسلمون اليوم في حاجة قصوى إلى الذكرى ، وأنا أرجو أن يحيي الله بك قلوباً وقلوباً ، فإن الكتاب لا عمل له ، وإنَّما العمل للرجال ، والله عزَّ وجلَّ يسألني عن المسلمين ويسألك عنهم ما دمت موقناً بما تقرؤه في هذا التفسير ، والله هو الولي الحميد ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم . انتهى الكلام على البسملة ، فلأشرع في تفسير السورة .

التفسير اللفظي

قال تعالى : ﴿ الٓر ﴾ تقدم في أول سورة «آل عمران» هذا ، ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ نظمت نظماً رصيناً محكماً لا يقع فيه نقض ولا خلل كالبناء المحكم من الفساد ، وليس ينسخها دين بعدها ، وأحكمت بالحجج والدلائل ، ويصح أن يقال : إنها من : حكم ـ بالضم ـ إذا صار حكيماً ، فإن فيها أمهات الحكم النظرية والعملية كما قدمنا في ملخص السورة ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتۡ ﴾ كما تفصل القلائد بالفرائد فمن دلائل توحيد إلى أحكام إلى مواعظ إلى قصص أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد ، أي : بيّن ولخّص ، و« ثم » للتراخي في الحال لا في الوقت كما تقول : محكمة أحسن الإحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل ﴿ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ ﴾ فلذلك أحكم الآيات ﴿ خَبِيرٍ ﴾ بتفصيلها فلذلك فصلها . ولما كان في فصل معنى القول جيء بـ« أن » المفسرة في قوله : ﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴾ كأنه قيل : أي لا تعبدوا الخ ، ثم عطف عليه ﴿ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ﴾ من الشرك ﴿ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ ﴾ بالطاعات ﴿ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا ﴾ يطول نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة ، ويعشكم في أمن ودعة وعيشة مرضية ونعمة متتابعة ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ﴾ إلى أن يتوفاكم ﴿ وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ ﴾ ويعط كل ذي فضل في دينه جزاء فضله في الدنيا والآخرة ، وهذا وعد للمؤمن التائب بثواب الدارين ﴿ وَإِن تَوَلَّوۡاْ ﴾ وإن تتولوا ﴿ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴾ يوم الشدائد في الدنيا بقحط أو قتل كما حصل ، فقد أكلوا الجيف كما قيل وقتلوا في الغزوات النبوية ، وفي الآخرة أيضاً بعذاب جهنم ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ ﴾ رجوعكم ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ فيمتع من يستحق الرزق ويعطي ذا الفضل فضله ، ويعاقب المسيء ويثيب المحسن يوم القيامة .

وهذه الآيات دالة على قدرة الله تعالى ، ثم أتبعها بما يفيد عموم علمه كما عمت قدرته ، فأبان ما كان عليه المشركون فإنهم إذا دخلوا بيوتهم يرخون ستورهم ، ويحنون ظهورهم ، ويتغشون بثيابهم ويقول الرجل منهم : هل يعلم الله ما في قلبي ؟ فردّ الله عليهم قائلاً : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ ﴾

يعرضون بقلوبهم من قولهم: ثنيت عناني، وهم قد أرخوا الستور، وأحنوا الظهور، واستغشوا بالثياب ﴿ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ ﴾ ليطلبوا الخفاء من الله بتلك الأعمال ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ ويحنون ظهورهم ويرخون ستورهم ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ ﴾ فلا تفاوت في علمه بين سرهم في تلك الستور والثياب، وعلنهم في المجامع والمحافل ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي: بالأسرار ذات، أي: صاحبة الصدور، وإذا علم ما خفي في الصدور فعلمه بغيره أولى.

ولما أثبت قدرته وعلمه العامّين لجميع نوع الإنسان، شرع يقررها لجميع الكائنات مبتدئاً بالذوات التي هي أقرب إلى الإنسان لمشاركتها له في الحسّ والحركة مثنياً بالسماوات والأرض، خاتماً باستنتاج أنه قادر على البعث، فقال: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا ﴾ غذاؤها ومعاشها ﴿ وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا ﴾ في الأصلاب ﴿ وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ ﴾ في الأرحام؛ فإثبات القدرة بعموم الرزق وإثبات العلم بأنه يعلم مستقرها ومستودعها كما ذكر في الإنسان أنه يمتع متاعاً حسناً متى استحق ذلك، وأنه يعلم ما يسرّ وما يعلن على سبيل اللف والنشر المرتب ﴿ كُلّٞ ﴾ كل واحد من الدواب وأحوالها ﴿ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ مذكور في اللوح المحفوظ قبل خلقها ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ﴾ تقدم شرحها فيما مضى في «يونس» وفي أول «الأنعام» ﴿ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ ﴾ وقد تقدم تفسير هذا في أول سورة «يونس» بأن الماء: العلم، أي: وكان ملكه قائماً على العلم ولا يزال كذلك، وإنما خلق السماوات والأرض ليربي ذوي الأرواح فيهما بالخير والشر، وهذا قوله: ﴿ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ ﴾ أي: ليختبركم بين الحياة والموت أيكم أخلص عملاً، ولولا ذلك لكان خلق العالم عبثاً ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾[الأنبياء: ١٦] بل خلقناهما لنربي فيهما نفوساً ونرقيها لحياة دائمة غايات شريفة ويكون لها حياة وموت وارتقاء وانحطاط ابتلاء وامتحاناً.

لطائف

اللطيفة الأولى في قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ ﴾ الخ

لما اطلع على هذه السورة بعض العلماء حدثني قائلاً: إني رأيت ﴿ الٓرۚ ﴾ في سورة «يونس» وفي سورة «هود» قد ذكر الله بعدها الحكمة، فهو سبحانه يقول في «يونس»: ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾، وهنا يقول: ﴿ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ﴾، ثم يقول: ﴿ فُصِّلَتۡ ﴾، ثم يصف نفسه بأنه حكيم وأنه خبير، ومعلوم أن كلام الله موزون بميزان.

وإذا كنا نرى جميع أفعاله موزونة في أصغر الذرات فهكذا فليكن كلامه، فلماذا أكثر من ذكر الحكمة بعد هذه الحروف؟

ج ـ لو أنك اطلعت أيها الفاضل على ما تقدم في هذا التفسير لأمكنك الجواب ولعرفت الحقيقة.

س ـ كيف لا أعرفه وأنا متذكر كل ما قلته أنت في هذا المقام؟

انظر، ألم تقل في سورة «آل عمران»: إن ﴿ الٓمٓ ﴾ جاءت لإيقاظ المسلمين للغرور الذي فشا في الإسلام كما اغتر اليهود، وإن نتيجة ذلك وجوب نشر العلوم الفلكية والطبيعية والرياضية والعقلية وإلا حقت كلمة العذاب علينا، وهذا واضح في سورة «آل عمران»، وأيضاً أنت قلت: إن ﴿ الٓمٓ ﴾

في سورة « البقرة » مذكر بمسألة الجهاد وبمسألة تحليل العناصر ومعرفة حقائق المادة بعلم الكيمياء العضوية وغير العضوية ، لأن هذه الآيات هناك مبدوءة بهذه الحروف ﴿ الٓمٓ ﴾ ، فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ ﴾ [البقرة : ٢٤٣] الخ ، وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] فصارت هذه الحروف مشيرة لعلم الكيمياء وللجهاد ولتعميم العلوم ، وكذلك في ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ [الأعراف : ١] جاء فيها ما يقرب من هذا مفصلاً موضحاً شارحاً المقصود من ﴿ صٓ ﴾ [ص : ١] التي تشير إلى القصص ، وأن تلك السورة قد جاء فيها قصص آدم وبنيه من الأنبياء ، وأن هناك استنتاجاً قد ذكره الله في نفس السورة ليعلمنا كيف نستنتج من القرآن ومن كل شيء كمسألة اللباس الذي زال عن آدم المذكّر بأنه أنعم علينا بالقطن والكتان الخ ، وأنه أنعم بلباس التقوى الذي هو خير الخ . وهكذا توالت قصص الأنبياء هناك وظهر أن كل حجة احتج بها المعاندون كانت أشبه بحجة إبليس ، كأن يقولوا : « هذا ما وجدنا عليه آباءنا » ، فصار الاغترار بالآباء أشبه باغترار إبليس بأصله وأنه من نار ، وأن الناس على الأرض اليوم وقبل اليوم وبعد اليوم سائرون على هذا النمط .

فهذا بعض ما تقدم في معاني هذه الحروف ، فكيف تقول إني لو كنت عرفت ما تقدم لعرفت الجواب؟ أما أنا فإني بعد ما تقدم أقول إنه لا يكفي للجواب . فإن تكرار الحكمة والتفصيل وأنه خبير يدل على مغزى أعم مما تقدم وأبعد مدى وأقوى وأهم .

ج ـ إن هذه الحروف أنزلها الله في القرآن ليخرج بها المسلمين من ظلمات الجهالة إلى مشارق النور ومباهج الحكمة ومناهج السعادة وباحات الجمال وساحات العلم والكمال .

علم الله عزّ وجلّ قبل أن يخلق الخلق أن المسلمين سينامون نوماً عميقاً وهم غير مقصرين ، بل هم مخلصون لربهم ولدينهم ، فأنزل هذه الحروف لترفع الغشاوة عن أعينهم بعد نومتها وتوقظ جماعاتهم بعد غفلتها .

س ـ أما كون هذه الحروف ترفع عن أعينهم الغشاوة ، وكونهم غير مقصرين في نومهم ، فهذان أمران لا أعقلهما وكيف أعقلهما؟

ج ـ أما كونهم غير مقصرين في نومتهم فإني أوضحه لك . أنا من البلاد المصرية ، ولي نظراء من بلادنا ، توجهنا إلى الأزهر لنتعلم العلم ، فوجدنا أمامنا النحو والفقه والتوحيد ، وهكذا علوم اللغة العربية وعلم الأصول وما أشبه ذلك . تلك العلوم التي انحدرت إلينا عن آبائنا وأجدادنا من عصور مضت ، وقد سلطت عليهم ملوك وأمراء ، ووقعوا فيما وقعت فيه الأمم من الضنك ، ولم يستخلصوا لنا من ظلم الظالمين إلاّ ما وصل إلينا .

تعلمنا هذه العلوم ثم نظرنا حولنا فرأينا أمماً ودولاً وعلوماً ، فرجعنا إلى القرآن فوجدنا أن العلوم التي ارتقت بها الأمم يطلبها القرآن فعلاً نصاً صريحاً فنصحنا الأمة بتلك العلوم .

أقول لك : لولا اطلاعنا على هذه العلوم ما أمكننا أن ندعو الأمة لها ، فأسلافنا الذين ورثوا هذا العلم كان أكثرهم لم يطلع على هذه العلوم ، ومن اطلع منهم ألف ونصح الناس بقراءتها ، ولكن الجهل كان يمنع الناس من اتباعهم . على ذلك نقول : إن أحوال الأمم الإسلامية كانت محتمة عليهم أن يعيشوا على هذا المنوال .

فإذا كان علماء الدولة العباسية قد حاز كثير منهم المعقول والمنقول ودعوا إليها، كالغزالي رحمه الله والرازي، ومثلهما ابن رشد بالأندلس، وكثير غيرهم، فإن المتأخرين أرغموا أن يتعلموا العلوم النقلية، وقلت فيهم العقلية فهم كانوا لا يعلمون، ولذلك ترى كثيراً منهم حاربوا المفكرين في هذه العلوم، كما تراه واضحاً في سورة «الأنعام الآية: ٩١» عند قوله تعالى: ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾، فإذن علماء الإسلام المتأخرون منهم من عرف ودعا لما عرف، ومنهم من جهل، ومنهم من عرف أن هذه حق ولكنه خاف على شهرته، فحارب القائمين بها، وهؤلاء كلهم عند ربهم وهو يجازي كلاً بما فعل.

فالمدار في الأمم على شيوع الفكرة، فمتى شاع أمثال ما كتبنا في هذا التفسير، فإن الأمة تسير على منواله ومنوال أمثاله ولا تقصر.

والمسؤول الآن عن هذا العلوم أمثالك أنت ممن أيقنوا بهذه الفكرة فهم هم المسؤولون كما أنني أنا مسؤول، ولكن الله سبحانه أعانني بنشر هذا الكتاب وهو حقاً سيعينك كما أعانني بأن تنشر الفكرة بين المسلمين، فأنا وأنت وكل من عرف هذه الآراء التي رأيتها في هذا الكتاب فهو مسؤول، أما الذي لم يطلع فكيف يعلم الناس؟ فالناس على حسب أساتذتهم ومن يعاشرونهم، فعلم الناس فالله سائلك عنهم، واحذر من التقصير.

هذا معنى قولي إنهم غير مقصرين في قولهم، أي غالباً، فتجد علماء الدين الإسلامي اليوم راضين بما حصلوا من العلم، وذلك بسبب ما لقنه الأساتذة لهم، والخلف يتبع السلف، ولكن هذه النهضة الحالية ستقلب التعليم رأساً على عقب ويصبح الجو الإسلامي جو الحكمة وعلم وإبداع واختراع ونظام وإطلاع على بدائع الجمال الإلهي وروائع الإحكام الصمداني وغرائب النور السماوي. هذا شرح لقولي إنهم كانوا غير مقصرين، وأما:

س ـ فقال: أرجو ألا تجيب عن السؤال الثاني، أي: أن هذه الحروف سبب في إزالة الغشاوة إلاَّ بعد أن أسألك في نفس الجواب الأول.

ج ـ سل ما بدا لك.

س ـ ما أهم الأسباب في جهل المسلمين بجمال هذا العالم الذي نعيش فيه، مع أن الله لا يعرف إلاَّ به، والحكمة لا تتم إلاَّ به، والعقول لا ترتقي إلاَّ به، ونظام الأمة لا يتم إلاَّ به.

ج ـ قد أشرت إليه في الإجابة.

س ـ هذا لا يكفي.

ج ـ قد تكرر ذكر هذا في التفسير في مواضع كثيرة.

ذلك أن الإمام الغزالي في كتاب الإحياء شرحه شرحاً وافياً، وبيّن أن علماء الفقه في زمانه اعتادوا أن يسموا هذه الأحكام الشرعية بلفظ «فقه»، ولفظ «فقه» كلمة ممدوحة، فإن الله يقول في القرآن: ﴿ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾[الأنعام:٩٨]، فهي كلمة مدحها القرآن والحديث فجرت على الألسن بأنها الأحكام الشرعية، وصرفت الناس عن جمال ربهم وعجائبه ونباته وحيوانه وشمسه وقمره ونجومه الباهرات، وعجائبه الظاهرات، وآياته المدهشات، وحكمه العاليات، ثم درج الخلف على ما

كان عليه السلف، وأصبح العالم في الإسلام هو من يتعاطى هذا العلم في ذلك العصر، وبه يتولى القضاء ويتصدر في المجالس، ويصبح غنياً بالمال والعظمة والجاه، يحتاج إليه الملوك في تصريف الدولة، لأن الفتوى عليها مدار أمر الأمة، لأن الأمة إسلامية والأحكام شرعية، ذلك هو ملخص ما قاله الإمام الغزالي.

ثم أخذ يذمهم ويقول: هؤلاء يقرؤون هذه العلوم للدنيا لا للآخرة، وجعلتهم شراً من الشياطين، وندد كثيراً، وقال: كيف يتركون الطب والسياسة وجميع العلوم ويقولون: إنهم يقرؤون فرض كفاية، مع أن فرض الكفاية جميع العلوم والصناعات، إذن هم لا يريدون إلاَّ الدنيا، وإلاَّ فلماذا لا يقرؤون الطب وتركوه في يد النصارى واليهود؟

هذا ملخص كلام الإمام الغزالي، فانظر كيف رأينا أننا نحن جئنا في زمان لا دولتنا قوية الجانب فنعتز في الدنيا بها، ولا نحن متعقلون فنرضي ربنا.

فإذا كان العلماء في زمن الإمام الغزالي يطلبون الدنيا، وكانت عندهم دنيا، فكيف نقرأ علم الدنيا الذي لا يأتي بالدنيا أيضاً، لأن أكثر العلماء من الشافعية والحنفية والمالكية، والحنفية في بلادنا المصرية أكثرهم لا يولون القضاء، لأن القضاء اقتصر على مسألة الأحوال الشخصية، وأصبح القانون الفرنسي هو الساري في بلادنا.

وقد علمنا أن بلاد الترك قد جرت على قانون دولة أوروبية، فإذن يكون على رأي الغزالي علماء الدين إذا ساروا على نهج المتقدمين أسوأ حالاً ألف مرة من الذين كانوا في زمن الإمام الغزالي، لأن أولئك طلبوا دنيا ولا آخرة لهم، فنالوا الدنيا لأنهم لهم صولة بصولة الدين.

أما المتبحرون في هذه المذاهب في هذا الوقت فهم لا ينالون دنيا ولا آخرة إلاَّ على نياتهم فقط، أما الدنيا فلا وظائف لأكثرهم، وأما الآخرة فإنها لا تنال إلاَّ بأعمال تحتاج لها الأمة وعلوم كذلك، والأمة في حاجة إلى صناعات وعلوم أخرى غير القضاء، والعلوم التي تنال بها الآخرة هي الأخلاق وتهذيب النفس ومعرفة عجائب الله تعالى في سماواته وأرضه حتى يكون الإنسان موقناً شاكراً.

هذا هو السبب الذي حصر علماء الإسلام في الدوائر الضيقة، وهناك سبب آخر وهو حصر طائفة من الأمم الإسلامية في حفظ القرآن بلا عقل ولا فهم، وهذه أيضاً نكبة أخرى، بل القرآن يفهم ويعقل إما مع الحفظ وهو أفضل، وإما بلا حفظ، ونتيجته ترقية العقول والعلوم والأمة ومعرفة جلال الله.

س ـ ما سبب اقتصار طائفة في مصر وبلاد المغرب وبلاد العرب ونحو ذلك على حفظ القرآن بلا عقل ولا فهم؟

ج ـ من أسبابه ما جاء في «الإتقان في علوم القرآن» للعلامة السيوطي، قال في الجزء الثاني صفحة ١٥٥ ما نصه:

فصل: أما الحديث الطويل في فضائل القرآن سورة سورة، فإنه موضوع كما أخرج الحاكم في المدخل بسنده إلى أبي عمار المروزي أنه قيل لأبي عصمة الجامع: من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة، وليس عند أصحاب عكرمة هذا؟ فقال: إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن، واشتغلوا بفقه أبي حنيفة ومغازي ابن إسحاق، فوضعت هذا الحديث حسبة.

وروى ابن حبان في مقدمة تاريخ الضعفاء عن ابن مهدوي قال: قلت لميسرة بن عبد ربه: من أين جئت بهذه الأحاديث؟ من قرأ كذا فله كذا؟ قال: وضعتها أرغب الناس فيها.

وروينا عن المؤمل بن إسماعيل قال: حدثني شيخ بحديث أبيّ بن كعب في فضائل سور القرآن سورة سورة، فقال: حدثني رجل بالمدائن وهو حي، فصرت إليه، فقلت له: من حدثك؟ قال: شيخ بواسط وهو حي، فصرت إليه، فقلت له: من حدثك؟ قال: شيخ بالبصرة، فصرت إليه، فقلت له: من حدثك؟ قال: شيخ بعبادان، فصرت إليه، فأخذ بيدي فأدخلني بيتاً فإذا فيه من المتصوفة وبينهم شيخ، فقال هذا الشيخ: حدثني. فقلت: يا شيخ من حدثك؟ فقال: لم يحدثني أحد، ولكننا قد رأينا الناس قد رغبوا عن القرآن فوضعنا لهم هذا الحديث ليصرفوا قلوبهم إلى القرآن. قال ابن الصلاح: ولقد أخطأ الواحدي المفسر ومن ذكره من المفسرين في إيداعه تفاسيرهم. اهـ من «الإتقان» المذكور للعلامة السيوطي رحمه الله تعالى. فإذن ظهر لك الأمران: انكباب الناس على الفقه، وانكبابهم على حفظ القرآن. فالأول: للقضاء في القرون المتقدمة، وللاتباع وحسن النية في القرون المتأخرة. والثاني: لأجل الأحاديث التي أكثرها موضوع لأجل حفظ القرآن.

س ـ الآن قد آمنت بأن هذه هي أسباب الفقه وحفظ القرآن. فأرجو الآن أن ترجع الموضوع الذي كنا فيه فقد صددتك عن إكمال الكلام، فإنك كنت قد ابتدأت تجيب عن قولك، لماذا كانت هذه الحروف هي التي ستوقظ الإسلام؟.

ج ـ تبيّن مما قدمته لك أن المسلمين غالباً تقودهم العادات والأتباع، والعامة يتبعون الخاصة، والخاصة يتبعون من قبلهم، ولا يفكرون لماذا سار الأولون على نمطهم. قال: نعم. قلت: فهذه الحروف قد أنزلها الله في القرآن وذكر الحكمة والتفصيل، قال: ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ فالله حكيم، والله خبير والله فصل الآيات، والله أحكمها.

هذا كله ينبئنا عن أمر بعيد الغور عظيم المغزى، فإن العاقل إذا سمع هذا القول وعرف أنه قول الله يقول في نفسه: لماذا هذا كله بعد حروف لا معنى لها؟ فيفكر فيها طويلاً ثم يقول: إنَّما أفردها الله بالذكر في أول السور لأمر هام وهو ما أشرت إليه سابقاً، ألا وهو قراءة جميع العلوم.

إن هذا العصر عصر الكيمياء، إن الكيمياء ترجع المركبات إلى عناصرها الأولى، والعناصر الأولى قد بلغت ثمانين، ولها جدول ستراه في سورة «العنكبوت»، والجدول عجيب شيق جميل يدلنا على حكمة ونظام بديع، حتى إن من يطلع عليه يدهشه هذه الحكم، فإنك ترى أن كل عنصر له مع العناصر التي قبله في صفه والتي بعده والتي فوقه والتي تحته، أي: في الصف الأفقي، وفي الصف الرأسي نسب وزنية وأخرى طبيعية وكيماوية؛ فسترى هناك أن العناصر التي بثها الله في الأرض والكواكب والنبات والحيوان، مثل الأكسوجين والأدروجين إلى آخرها عند النظر إلى صفاتها الطبيعية والكيمائية والوزنية تصبح متشابهة مرتبة منظمة مصفوفة، بحيث لو غاب أحدها لعرف محله من هذه الصفوف.

ولقد أخبر العلماء عن بعض العناصر قبل كشفها، ولما كشف ثلاثة منها وضعوها في موضعها فصارت أشبه بجسم إنسان واحد عرف موضع عينه وأذنه وبطنه وهكذا، فانظر لعناصر متفرقات في البراري والقفار والبحار لما جمعها العلماء شكلت شكلاً واحداً في هيئة تدهش العقول.

فهذه العناصر هي أصل العالم الذي نعيش فيه، وهذه العناصر كلها ترجع إلى عالم لم يره أحد يسمى «الأثير»، وهو عالم واحد لا يشم ولا يذاق ولا يلمس ولا يسمع ولا يرى.

هذا هو الذي منه كانت العناصر، ومن العناصر كانت هذه السماوات والأرضون على رأي العلماء في عصرنا الحاضر الذي هو أقرب إلى القرآن وإلى حروف ﴿ الٓمٓ ﴾ و﴿ الٓرۚ ﴾ التي في هذه السورة، فإن القرآن وجميع الكلام في سائر اللغات مركب من الحروف الهجائية، ولن تعرف لغة من اللغات إلاّ بتحليلها إلى حروفها الأولية، ولا يتسنى الكتابة ولا طبع كتاب ما إلاّ بإفراد الحروف ثم تركيبها؛ فكما لا نعرف اللغات إلاّ بمعرفة حروفها، هكذا لا يعرف شيء من هذا العالم إلاّ بتحليله، ولا يعيش حيوان ولا إنسان إلاّ بتحليل المواد التي حوله، وإلاّ لم يكن شيء في عالم الحيوان ولا عالم النبات؛ فالله عزّ وجلّ حكم على عالمنا الذي نعيش فيه ألا يكون حسن قوام إلاّ بالتحليل ورجوع المركبات إلى عناصرها سواء أكانت أغذية للأجسام أو أغذية للعقول، فلا غذاء لإنسان أو حيوان أو نبات ولا علم لعالم بأمر من أمور هذا العالم إلاّ بتحليل ذلك المعلوم، ولا رقي في صناعة أو طب أو زراعة إلاّ بتحليل الأشياء إلى عناصرها.

س ـ هذا كلام غامض، وأيّ مناسبة بين العلوم وهضم الطعام؟ إن هذا مما يسمى المفارقات لا الموافقات.

ج ـ إن الذي أذكره الآن هو الحقائق وسأوضحها لك الآن، ولتعلم أن هذا هو السر الذي نزلت له هذه الحروف، وهذا أوان ظهوره للناس، لأن الله علم أن المسلم منقاد للقرآن، وقد جعل الله هذه الحروف لتكون نوراً يستضيء به المسلمون لأنه حكيم ولأنه خبير ولأنه أحكم الآيات ولأنه فصلها، ومن تفصيل الآيات أنه أتى بحروف الهجاء التي هي أصول للكلمات، فكأن الكلمات فصلت إلى حروف، وكما أن الحروف أصول الكلمات هكذا العناصر أصول هذه المخلوقات. فعلى المسلمين أن يبرعوا في فن التحليل والتركيب في هذه العوالم التي هي مركبات من العناصر كما ركبت الكلمات من الحروف. هذا هو السر الذي أراد الله إظهاره في هذا الزمان.

س ـ أرجو أن توضح هذا المقام من وجهين: أولاً: كيف كان الإنسان هو الذي يحلل هذه العوالم؟ثانياً: كيف تستدل هذا الاستدلال، وهل رأيت أحداً من العلماء نحا نحوك في هذا الاستدلال؟

ج ـ اعلم أن الله وضع هذا الهيكل الإنساني بهيئة ناطقة بما يأتي: أي أن الجسم الإنساني كأنه الآن أمامي بهيئة خطاب من الله للعباد، وهذا ما يسمعه قلبي الآن بكلام أفصح من كلام اللسان، وأسرع قولاً في الأذهان.

يقول الله: أي عبادي المسلمين، إن العالم الذي تعيشون فيه خلق لأجل أن تحللوه وتركبوه، وإلاّ فلا بقاء لكم ولا سعادة في الدنيا ولا الآخرة. أي عبادي المسلمين، هاأنا ذا خلقتكم على الأرض وخلقت لكم النبات والحيوان والمعدن، فنفس أحدكم واحدة، ولكنها لها قوى ظاهرة وأخرى باطنة، فبالقوى الظاهرة التي لنفوسكم حللتم مركبات العالم حولكم.

ألم تروا إلى أسماعكم كيف اختصت بعالم الأصوات التي في المادة سواء أكانت حيوانية أم إنسانية أم نباتية موسيقية وغير موسيقية.

ألم تروا إلى أبصاركم كيف اختصت بالصور والأشكال والألوان والأضواء والحركات والسكنات والأحجام والأشكال والسطوح والقرب والبعد.

ألم تروا إلى أذواقكم المثبتة في ألسنتكم كيف اختصت بأن تميز الحلو من الحامض والملح والحرّيف والمزّ والعفص والمرّ وغير ذلك.

ألم تروا إلى حاسة الشم فيكم التي تميز الروائح الخبيثة من الطيبة، وإلى حاسة اللمس التي تميز الناعم الملمس من الخشن، والحار من البارد، والثقيل من الخفيف، والصلب من اللين.

أي عبادي، هذه صفات المادة، وهي ست وثلاثون صفة مقسمة على حواسكم الخمس، أنا الذي خلقت لكل امرئ منكم نفساً واحدة، وجعلت لها خمس قوى، وقسمت المحسوسات على هذه الحواس، أنا الذي حللت هذه المحسوسات بهذه الحواس، فهذا نوع من التحليل الذي أودعته فيكم، ولكن أكثركم لا يعلمون. إن العالم الذي أنتم فيه غليظ كثيف، فانظروا رحمتي أيها المسلمون كيف تلطفت فجعلت حواسكم وأعضاءكم، فلطفت هذا الغليظ فصلح لطعامكم ولعلمكم، حللت الغذاء في أجسامكم حتى استحق أن يلتحق بجملة أجسامكم، وحوّلت صور المواد حولكم إلى عقولكم فكانت مواد لها تزيدها ذكاء وفطنة، كل هذا من نوع التحليل.

أيها المسلمون، فلماذا حرمتم أنفسكم من رحمتي الواسعة التي وسعت جميع العالمين؟ ضربت لكم الأمثال بأجسامكم وبعقولكم وأريتكم أني لطفت المادة فصلحت لأغذيتكم وأدويتكم وتعليمكم وأدخلتها في عقولكم فامتزجت صور معانيها بعقولكم كما امتزجت لطائف موادها بأجسامكم.

كل هذا أبرزته لكم أيها المسلمون على هياكلكم، رحمة بكم وحناناً وسعادة، وأنتم أيها المسلمون تصرون على الجهالة، فأبرزت ذلك في الحروف التي في أوائل السور لعلكم تعقلون.

يعيش ابن آدم ويموت، بل ربّما يكون من العلماء وهو لا يدري أني جعلته بطبعه يحلل المخلوقات أمامه بحواسه، وهو لا يشعر وأكثر الناس لا يشعرون.

أي عبادي المسلمون، هاأنا ذا قسمت المخلوقات حولكم على حواسكم، فجعلت الشموس والأقمار والنيران من قسم الحاسة البصرية وجعلت النغمات في الجو من اختصاص الحاسة السمعية، وجعلت الحلاوة وما معها كلها من قسم الذوق الذي في ألسنتكم، وجعلت رائحة الورد العطرية وضدها من حاسة الأنف الشمية، وجعلت الحرارة والبرودة والنعومة الخ من قسم حاسة اللمس، أليس هذا هو التحليل؟ لا تقدر حاسة واحدة أن تقوم بهذا كله ففرّقته على الحواس الباطنة.

فإذا اجتمعت هذه الصور في عقولكم استحلت قواكم الباطنة منها صوراً حفظتها عندها، فكانت هناك رسوم وأشكال في عقولكم، فيها تتصرفون، وبمعانيها تتغذون، كما أنكم بأجسامكم تعيش أبدانكم، فبصور المحسوسات ترتقي العقول، وبالتغذي بها تبقى الأجسام.

الأغذية والعلوم لا يتمان إلّا بالتحليل

وكأنه سبحانه يقول مخاطباً لنا بهذه البيئة التي نعيش فيها أيضاً، يقول: أي عبادي، هذه الأغذية المحيطة بكم من حيوان ونبات ومعدن، بها تعيشون وتتفكهون وتتداوون وتفرحون وتمرحون وتسرّون ولم يتم ذلكم لكم، ولن يتم إلاّ بتحليلها إلى أصغر أجزائها.

ألا ترون أن الطعام تتناولونه بقواطعكم وأنيابكم وأضراسكم، فكل من هذه يعمل في الطعام عمله، فمنها ما هو للقطع كالسكين، ومنها ما هو للتمزيق كالسنان، ومنها ما هو للطحن، ثم يبتل الطعام بالريق فيساعد على هضمه، ثم ينزل في المعدة فتقابله العصارات المختلفات فتزيد في هضمه، أي: رجوعه إلى مادة أشبه باللبن قد وصلت إلى أقصى تحليلها، حتى يمكنها أن تركب مرة أخرى في أجسامكم فتصبح لحماً وشحماً وظفراً وعظماً وكبداً وقلباً ورئة وكلية وشعراً ومخاً ومخيخاً وهكذا، فلولا رجوعها إلى أدق حالاتها بالتحليل ما أمكن أن يكون هيكلاً عظيماً أو وجهاً جميلاً أو شكلاً بهياً عجيباً.

أي عبادي المسلمين، هذه أعمالي في بنيتكم تحليل لغذائكم ثم تركيب لأعضائكم، هذا عملي في حياتكم وحياة حيوانكم ونباتكم، ولولا هذا التحليل التام ما كان هذا التركيب الجميل، هذا هو الذي تشاهدون آثاره، هذا عملي في أجسامكم، ويشابهه عملي في عقولكم، فأنتم قد خزنتم صور المحسوسات في عقولكم وربيتموها في نفوسكم.

وكما أني فصلت المحسوسات على حواسكم، هكذا صور المحسوسات في نفوسكم قد قسمتها على قواكم الباطنة.

فهذه الصور المرسومة في عقولكم التي اقتبستموها مما تشاهدون، قد جعلت فيكم قوى في الدماغ، منها ما يحلل ويركب لتلك الصور، كما تتصورون أعلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجد، ومنها ما يحلل المعاني ويركبها بقوة عاقلة تتصرف فيها كعلم المنطق وكتدبير المعاش، ومنها قوة تحفظ الصور وأخرى تحفظ المعاني لأجل أن تستحضروا ذلك عند الحاجة إليه، وهذا كله تحليل.

فهذه المادة لا سلطان لكم عليها إلاَّ بتحليلها إما تحليلاً مادياً وإما تحليلاً عقلياً، والتحليل المادي إما بالحواس الخمس وإما بتحليل الأغذية، والتحليل العقلي بالخيال وبالعقل.

أي عبادي المسلمين، هذا هو فعلي في حياتكم الجسمية والعقلية، لا حياة لكم إلاَّ بتحليل الغذاء، ولا علم لكم إلاَّ بتحليل المعلومات، هذا حاصل عندكم ولكن أكثركم عنه غافلون، لهذا أنزلت هذه الحروف، إن هي إلاَّ تحليل للألفاظ لأرشدكم إلى مستقبل أمركم.

إن مستقبل الإسلام العلم والحكمة
وتفصيل هذه العوالم كما فصلت الآيات

إن مستقبل الأمم جمعاء مرتبط بدراسة نظام هذه الدنيا، ولا دراسة إلاَّ بتحليل الموجودات المادية والمعنوية.

ولا جرم أن هذه الحروف من عالم الكلام، وعالم الكلام يكاد يكون وسطاً بين عالم الحس وعالم العقل، وإن كان هو من أعراض المادة، ولكنه لطيف يقرب في لطفه من عالم الضوء الذي يقرب من الأثير فيكون تحليل الكلمات إلى الحروف رمزاً إلى دراسة هذه الدنيا كلها دراسة تامة، ترجع الأشياء إلى أصلها، كما رجع الطعام إلى مادته في أجسامنا، وكذلك المعقولات في عقولنا حللت هكذا، فليكن مستقبل الإسلام وهو النظر في ملكوت السماوات والأرض، ولكنه نظر يقيني ولا يقين إلاَّ بتحليل العلوم تحليلاً تاماً. انتهى.

ولقد ظهر أن هذا العصر عصر الكيمياء، فبها تقدمت الزراعة والصناعة والطب وجميع مرافق الحياة، فالكيمياء الآن عليها مدار الحياة، وناهيك ما في هذا التفسير من خبر كشف استخراج السكر من نشارة الخشب والذرة.

وكذلك كشف أن الفحم يقرب في تركيبه من البترول، وأن كلاً منها يحتوي على كربون وعلى أكسوجين بمقادير مختلفة، وأنهم يجتهدون في أن يجعلوا مقدار الأكسوجين في الفحم مساوياً له في البترول، فيحول الفحم إلى بترول، وحينئذ يصبح في العالم قوة جديدة لا يستهان بها.

ويظن قوم أن الناس سيجدّون حتى يخترعوا قوتاً لنا مما نشاهده من أضعف المواد المخلوقة، هذا فعل الكيمياء في وقتنا الحاضر، فهي قوام المدنية الحاضرة.

هذا هو الذي يرمي إليه القرآن، هذا هو بعض السر في ذكر هذه الحروف في أول السورة، وهذا هو بعض الحكمة التي ذكرها القرآن، وهذا هو الزمان الذي ناسب ظهور هذه العلوم فيه. فإذن هذه الحروف خزنت في القرآن لأجل هذا الزمان حفظناها وحفظها من قبلنا، لنوصلها لمن بعدنا مع مقصودها، وهو حوز جميع العلوم، وما العلوم إلاّ بعد التحليل والتحليل هو الذي أتت به الحروف، فقل ما تشاء في العلوم وفتش، فإنك لا ترى علماً إلاّ فيه تحليل فتركيب، ولا تركيب إلاّ بعد التحليل التام، وأخصها فن الكيمياء.

إن المخلوقات التي حولنا ونعيش بها مادياً وعقلياً كلها ترجع لهذا المعنى، نحن نأكل النبات والحيوان فنتغذى بمادتهما ونحلل أجزاءهما ونركبها ونقتني صورها في عقولنا ونحللها ونركبها، وهكذا نفعل في المعاني، وذلك لتغذية عقولنا، وترانا نذكر الثور والأسد في كليلة ودمنة وابن آوى، ونتخيل حيل ابن آوى وضحكه على الأسد وعلى الثور حتى أوقع بينهما العداوة، فافترس الأسد الثور ثم ندم، ثم حاكم ابن آوى فقتله بالجريمة السياسية، وترانا نتخيل الحمام وهو يتخلص من شبكة القانص كأهل مدينة واحدة متحدين.

وكذلك نرى الغراب والسلحفاة والظبي وما شاكلها قد اجتمعت، وهي طوائف متنافرة لمصلحة وهكذا نرى السنور والفأر لما فاجأهما عدو لهما أخذ الفأر يقرض قيود السنور ولم يأمن لعدوه القديم وهو السنور، وأبقى بعض طيات الحبل فلم يقطعها حتى اقترب الصياد خيفة أن يفترسه القط.

وهكذا تخيلنا وتصورنا صوراً شتى في الحيوانات كابن عرس والناسك الذي رجع فوجد ابن عرس قد قتل الثعبان الذي أراد أن يفتك بابن الناسك، فظنّ حماقة أن ابن عرس قتل ابنه هو فعجل بقتله، ثم تبيّن له أنه أخطأ، لأن ابن عرس حافظ على ابنه فندم ندماً شديداً، وهكذا من الحكم التي لاحظها الإنسان وتخيلها ووضعها على ألسنة الحيوانات. كل ذلك لصفاء ذهنه وذكاء عقله وجودة قريحته، وكل ذلك لم يخرج عن كونه تحليلاً وتركيباً، والتحليل هو الوارد في الحروف التي في أوائل سور القرآن، وأعقبها الله بذكر الحكمة والتفصيل، والحكمة والتفصيل ظاهران واضحان في هذا الوجود المحسوس والمعقول.

أنزل الله القرآن وقال إنه أحكمه الخ، ومعلوم أن الكلام اسم وفعل وحرف، والاسم والفعل كلمتان دلتا على معنى، والحرف كلمة لم تدل على معنى في نفسها، أما هذه الحروف التي في أول

السور فهي حروف لا معنى لها في نفسها ولا في غيرها، فأين هي من الحكمة وقد نزلت في كتاب مقدس أنزله الله، والكتب السماوية تكون إشارتها أبلغ من عبارة غيرها.

أبو بكر الصديق والشافعي، وكيف استنتجا من القرآن
تفطن الصحابة والمجتهدون لأمثال هذا المقام

إن القرآن كتاب مقدس، والكتب المقدسة شريفة المغزى، ولكل حرف ولكل كلمة ولكل آية منها سر يلاحظ ويعلم. وإذا كان الأمراء والملوك ورؤساء الجمهوريات في وقتنا متى جاء دورهم في القول ونطقوا بجملة تحركت الأسلاك البرقية براً وبحراً ونشروها في أقطار الأرض، وشرحوها شروحاً، وبحثوا ووقفوا واستنتجوا، وأخذوا بمنطوقها ومفهومها ومقدمها ومؤخرها، وألقوا عليها ما يحمله بعيران وثلاثة إذا جمع ما كتب في الأمم كلها. فما بالك بمن هو الذي خلق الدول والأمم كلها؟ فماذا تقول في كلامه؟ فإذن لنا الحق أن نوضح ونستنتج ونفهم ونقول: لم جاء بهذه الحروف التي لا معنى لها في أوائل السور، بل نقول: كيف يفاجئنا الله هكذا في أول سورنا القرآنية بهذه الحروف وهي التي لا معنى لها؟ ثم نسمعه يقول لنا بعدها: إن هذا الكتاب أحكمت آياته وفصلت، ويقول: إنها من لدن حكيم خبير، كل هذا ليفتح لنا الطريق، ناهيك ما استنتجه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، إنه استنتج من شيء ليس بحرف ولا صوت ولا فعل ولا اسم، بل هو استنتج من تقديم كلمة على أخرى فقط، وماذا استنتج منها؟ استنتج منها الدولة الأموية والدولة العباسية، استنتج منها دولاً وممالك وملوكاً، لولا هذا الاستنتاج لم تكن الدول ولا أولئك الملوك في الأندلس وفي الشرق.

ألم تر إلى ما ورد أنه رضي الله عنه لما وقف في سقيفة بني ساعدة وخطب أيام وفاة النبي صلى الله عليه وسلم والأنصار يقولون: منا أمير ومنكم أمير، قال لهم قولاً أقنعهم، وماذا قال؟ قال: إن الله قدّم المهاجرين على الأنصار، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، فلما قالها طأطأت الرؤوس وخشعت القلوب وخضعت الأعناق ورضي الأنصار بخلافة قريش ولم يعارضوهم، لماذا هذا كله؟ لأمر معنوي هو تقديم وتأخير، قدم الله كلمة على أخرى فأذلت وأعزت، وجعلت دولاً وممالكاً في قوم، وحرمت آخرين في زمن ألف وثلاثمائة سنة، أي: ١٣ قرناً، كل هذا لتقديم كلمة على أخرى. وترى الإمام الشافعي اعتبر هذا في الوضوء، فأوجب الترتيب في أعضائه، لماذا؟ لأن الله رتب، فقدم عضواً على آخر، فلذلك يجب علينا تقديمه في وضوئنا، فإذا كانت هذه حال الصحابة والمجتهدين قبلنا، فالأمر هنا أهم وأعظم، ذلك ليس تقديماً ولا تأخيراً، بل هو إثبات لأمور عجيبة مكررة في ٢٩ سورة، وهي حروف تبلغ نصف الحروف الهجائية، وقد كررت في أول القرآن ووسطه وآخره، فهذا أمر عظيم أعظم ألف مرة من تقديم أو تأخير، بل هذا أمر أعظم، فكيف يأتي في القرآن إلا لغاية أعظم وأعظم، إن الغاية والسر قد ظهرا في زماننا، فإذا كان تقديم المهاجرين على الأنصار أنام دولاً وأقام دولاً، فهكذا فليكن ما هو أهم وأعظم، وهي هذه الحروف القرآنية المفرّقة لإيقاظ المسلمين في آلاف السنين الآتية لدراسة جميع العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والنفسية والعقلية والنقلية، ذلك هو السر المخزون والجوهر المكنون خزنه الله في القرآن لأهل هذا الزمان.

س ـ هل تريد أن الإنسان منا يعرف جميع العلوم؟.

ج ـ كلا ، لقد ضرب الله لنا المثل بأنفسنا ، فلكل امرئ منا نفس واحدة ، وقد قسمت العلوم بالمحسوسات على حواس متعددة ، فهكذا فلتكن الأمة ، يخصص نواب الأمة أو رئيس الجمهورية أو الملك ، كل طائفة من الأمة لعلم من العلوم خاصة أو لصناعة ، وهذا هو المسمى فروض كفايات ، فكما قام السمع بالأصوات والبصر بالصور والأشكال الخ ، وكان في ذلك مصلحة جميع الجسم ، هكذا تكون الأمة .

س ـ إن أوروبا قامت بهذا العمل كما طلبه الله في القرآن وأبرزه في هذه الحروف .

ج ـ أوروبا فعلت ذلك بعقولها ونعم ما فعلوا ، أما المسلمون فقد أناموا عقولهم وجهلوا دينهم وهاهو ذا الآن قد ظهر سره وسيطلع على هذا السر المسلمون في هذا التفسير وفي غيره ، ويقرؤون العلوم معقولة ومنقولة ، ويقومون بدورهم في الحياة ويعرفون علوم الأنفس وعلوم الآفاق ، والحمد لله رب العالمين . اهـ .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى :

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾

اعلم أن القرآن أصبح اليوم مفسراً بالعلوم التي عرفها الناس شرقاً وغرباً ، وأن العلماء في أوروبا قد تبحروا في علم الحيوان ، فلما اطلعنا على ما كتبوه في كتبهم وما ترجم عنهم ، ألفينا هذه العلوم كلها مقصود القرآن ، فقل لي رعاك الله : يقول الله في سورة « الأنعام الآية : ٣٨ » ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ ، وهنا يقول : إنه ﴿ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ ، ويقول : عليه رزقها ، ويقول : إن ذلك كله في كتاب مبين ، وإذا كان الكتاب الذي فيه رزق الحيوان ومستقره ومستودعه مبيناً ، فإن الحيوان يسير على نهج قويم تبعاً للكتاب الذي بينت فيه أعماله .

ولقد ذكرت حوادث عجيبة للحيوان في سورة « الأنعام » في المجلد الرابع فارجع إليها إن شئت وهاهنا أذكر حوادث حيوانية أخرى تعرفنا كيف كان ذلك في كتاب مبين ، وكيف كانت هذه كلها أمماً منتظمة المستقر والمستودع ، كما سترى في سورة « النور » عند ذكر الطير هناك ، أن لها رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، كالتي تكون من أواسط إفريقيا إلى بلاد الإنجليز في فصل من السنة ، وهكذا طيور أوروبا تأتي إلى مصر وتونس والجزائر ، وهو أمر عجب ستراه هناك مفصلاً ، وهكذا النحل والنمل والعنكبوت وعجائبها كل في سورته ، فانتظره واقرأ وارق لتكون عليماً حكيماً ، فهاك ما أذكره لك من عجائب الحيوان ومستقره ومستودعه .

العجيبة الأولى : قضايا الطير وأحكامها

اعلم أن الناس في عصرنا الحاضر أدركوا أن للحيوان إدراكاً خاصاً وتدبيراً محكماً على قدره ، فقد رأوا :

(١) أن الطير قد تقيم المحاكم وتتحاكم كالبشر ، فمنها ما يشاهد في الغربان ذات القنازع التي تكون بجزائر « شتلندا » فهذه تجتمع في حقل أو على تلّ ، وينتظر بعضها بعضاً يومين أو أكثر عند توانيه عن الحضور حتى تجتمع كلها معاً ، ثم تفرد اثنين أو أكثر منها جانباً ، وتقيم عليها غرباناً تحرسها فتمنعها من الفرار ، ويشرع ما بقي في النعيق والنعيب جماعات جماعات ، أو كلها معاً مدة من الزمان ، ثم تهجم

على المحجور عليها هجمة واحدة، ولا تزال تنقدها وتنقرها بمناقيرها حتى تمزقها كل ممزق، ويمضي كل منها بعد ذلك في السبيل الذي جاء منه، فالمحجور عليها بمثابة المجرمين، والحارسة لها بمثابة الحرس، والجماعات الناعبة والناعقة بمثابة القضاة والمحامين والمنفذين للأحكام. ولذلك زعم المشاهدون لهذه الفعال أن غربان «شتلندا» تقيم المحاكم وتتحاكم كالبشر.

(٢) ومنها ما شاهده القس «أدمند فقس» في غربان بلاد الإنجليز المعروفة بالغدفان، قال: كنت يوماً راكباً جوادي فسمعت نعيباً شديداً ملأ الآفاق، فالتفتّ وإذا غدفان كثيرة في حقل فدنوت منها ووقفت حيث أراها ولا تراني، وجعلت أراقبها فإذا هي منتظمة في حلقتين حول غداف في الوسط، وكلها تنعق وتصفق بأجنحتها شديداً كأنها تنقد غيظاً وتهيج انتقاماً، والغداف الذي في وسطها ينعق ويصفق مثلها ويقاومها ويخاصمها، والحراس تطير هنا وهناك وكأنها لا تنتبه إلى ما حولها لاشتغالها بما هو دائر بين رفقائها، ولذلك لم ترني ولم تنذر بالخطر كجاري عادتها، وبعد هنيهة تغيرت أحوال الغداف الذي في الوسط بغتة، فنكس رأسه وخفض جناحه وأقلّ من النعيب كأنه أقرّ بذنبه، فجعل يطلب الصفح عنه، وحينئذ وثب عليه غدفان الحلقة الداخلية ومزقته بمناقيرها، ونعبت الغدفان كلها نعباً شديداً وطار بعضها بعيداً وبعضها قريباً. اهـ.

والغداف مشهور بالسرقة والاختلاس، فتسطو صغاره على عشاش كباره وتسرق ما فيها من دقاق الحطب، وتبني أعشاشها بها تخفيفاً لمشقة جمعها عنها، ولكنها لا تفعل ذلك إلاّ إذا كانت الكبار غائبة عن أعشاشها فلا تراها، ثم متى عادت ووجدت أعشاشها مسروقة لا تزال تبحث عن السارق حتى تعرفه، فتشكو أمرها إلى جماعة الغدفان فتبعث ثمانية أو عشرة منها إلى عش السارق فتخربه ولا تبقي له أثر.

(٣) حكى بعض المصعدين في جبال «الب» قال: كنت يوماً أصعد في جبل من جبال سويسرا، فأتيت مطمئناً من الأرض قد أحدق فيه ستون أو سبعون غراباً بغراب واحد، وأكثرت من النعيق والتصفيق كأنها تتشاور في أمره، وكانت تصمت أحياناً فيبتدئ هو بالنعيق والتصفيق كأنه يدافع عن نفسه دفاع المتهمين أمام المحاكمين، ولا يزال يفعل ذلك حتى تعود جماعة الغربان إلى الصياح والغوغاء ويضيع صوته بين أصواتها فيصمت، واستمرت على تلك الحال مدة، وكأنها رأت ثوب التهمة عليه فأعملت فيه مناقيرها حتى قتلته ومزقته إرباً إرباً، ثم طارت وتفرقت وغابت عن الأبصار وهل هذا إلاّ كونها أمماً أمثالنا وقد علم خالقها مستقرها ومستودعها.

(٤) ومن ذلك ما يشاهد في العصافير، وهو أنه إذا تشاجر اثنان منها يذهب أحدهما إلى جماعة العصافير، ثم يأتي أربعة أو خمسة منها، وتنقضّ على المعتدي وتبادره بالنقد، وهي تتواقع بعضها على بعض حتى ينال منها كفافه، وكأن جماعة العصافير تصفح عنه بعد ذلك فتعامله معاملة من لم يرتكب ذنباً.

وحكى الأب «بوجان» الفرنسوي أن خطافاً بنى عشاً، فرآه عصفور فدخل إليه وامتنع فيه عليه، فاستغاث الخطاف برفاقه، فجاءت مئات وحاولت إخراج العصفور منه فلم تستطع لأنه كان محوطاً بالقش من كل جانب، وكان ينقد التي تهاجمه من الباب نقداً شديداً فيصدها ويطردها مولولة

من الألم، ولما أعياها أمره رجعت عنه وظن الناظرون أن العصفور قوي عليها، ولكنها ما غابت حتى رجعت والطين ملء أفواهها، فهجمت على المنفذ وسدته بالطين لتقتل العصفور داخله خنقاً جزاء اعتدائه، ذلك أنها أمم أمثالنا علم الله مستقرها ومستودعها.

(٥) ومنها ما رواه المرسل الفرنسوي «لا كروي» عن السبيطر، وهو أنه كان يوماً راكباً قارباً فرأى جماعة من طائر السبيطر المعروف بمالك الحزين ترعى في الماء الضحضاح، فقاربها محاذراً لأنها شديدة النفرة والإجفال، واختبأ وراء شجرة بحيث يراها ولا تراه، والذي نبهه إليها شدة لغوها ولغطها، فلما وقف لمراقبتها سكتت وأحدقت بسبيطر منها من كل جانب، ووقف السبيطر بينها لا يبدي حراكاً، ثم عادت إلى ما كانت عليه من اللغط واللغو، وبقيت كذلك مدة ثم سكتت فجأة ووثبت عليه وما زالت تنقره حتى قتلته. قال «لا كروي» المذكور: وكل من رأى ما رأيت يحكم أن السبيطر المقتول تعدى شريعة جماعته فحكمت عليه بالقتل وقتلته.

(٦) وروى الكتاب عن اللقالق روايات كثيرة تؤيد ما ذكرنا وتدل على أن اللقلاق شديد الأنفة والغيرة على عرضه، من ذلك أن جراحاً فرنساوياً مقيماً في أزمير رغب في الحصول على لقلق رغبة شديدة فلم يحصل عليه، واتفق أنه عثر على عش لقلاقين فاختلس بيضهما منه وأبدله ببيض الدجاج، ولما أفرخ البيض إذا الفراخ كلها دجاج لا لقالق، فغاب الذكر ثلاثة أيام ثم عاد ومعه لقالق كثيرة، فنزلت كلها وأحاطت بالأنثى، وجعلت تلقلق وتلغط شديداً ثم وثبت عليها ومزقتها تمزيقاً وطارت فلم يبق في العش حيّ.

ومن ذلك ما رواه المطران «ستنلي» الإنكليزي عن لقلاقين في جوار مدينة برلين، وهو أنهما بنيا عشهما على مدخنة بيت، فطلع صاحب البيت ووجد فيه بيضة، فأخذها ووضع بيضة إوز مكانها ولم يشعرا بها، ثم أفرخت البيضة إوزة، فلما رآها الذكر طار وحلق فوق العش وهو يلقلق شديداً حتى غاب عن الأبصار، وبقيت الأنثى في مكانها تربي فرخ الإوز كأنه فرخها. وبعد أيام سمع أصحاب البيت لغطاً شديداً في حقل بجانبهم، فنظروا وإذا جماعة من اللقالق قد اجتمعت معاً وأخذت تلقلق شديداً حتى وصلت أصواتها الفضاء، ثم صمتت، ووقف لقلاق على عشرين ذراعاً منها، وجعل يصوّت كأنه يخاطبها ثم عاد، ووقف آخر مكانه ولقلق لرفاقه كالأول، وما زالت تفعل ذلك حتى قارب الزوال، ثم طارت كلها معاً طالبة العش، وأمامها دليل منها هو صاحب العش، وكانت أنثاه ملازمة عشها وهي خائفة خوفاً شديداً ولا تبدي حركة، فلما دنا منها دفعها دفعاً عنيفاً حتى أخرجها من العش، ثم انقضت اللقالق عليها ومزقتها ومزقت فرخ الإوز معها وخرّبت العش وطارت.

وروى القسّ «موريس» أن بعضهم أبدل بيض اللقالق ببيض الدجاج في عش، والأنثى لا تدري ذلك، فلما فرخ البيض ورأى اللقلقان أن الفراخ فراخ دجاج اغتاظا ومزقا الفراخ بمناقيرهما.

وحكى آخر أن رجلاً أتى بلقلاق ووضعه مع آخر داجن في بيته، فقام الداجن على رفيقه ونقده نقداً مؤلماً حتى اضطره إلى الفرار وهو على آخر رمق، وبعد أربعة أشهر عاد ومعه ثلاثة غيره، فهجمت على اللقلاق الداجن وما زالت تنقره حتى أهلكته انتقاماً، وهذا كله تفسير للقرآن وبيان المستقر والمستودع وأنها أمم أمثالنا.

(٧) إن الذي يراقب طبائع الحيوان الأعجم يحكم أنه يدرك وجوده حق الإدراك، وما يترتب على ذلك الإدراك أيضاً.

انظر إلى الكلب مثلاً تر من أفعاله وظواهره أنه عالم بوجود نفسه، اطرح له عظمة ينهشها، فتعلم أنه يدرك حقوقه ويدافع عنها، راقبه جرواً ابن سنة أو سنتين يلعب مع ولد ابن أربع سنوات أو خمس، تعلم أنهما كليهما ينشرحان باللعب، ويفهم أحدهما الآخر، فوجدان أحدهما مشابه لوجدان الآخر، وراقبه بالغاً يذهب للصيد مع صاحبه، فتجد أنه يفهم ما يجب عليه فعله، ويفعل ذلك الواجب كما يفعله الصياد صاحبه، فيصيد كما يصيد ويفرح عند الفوز بالطريدة، ويغتاظ عند الفشل كما هي الحال مع صاحبه.

إن الكلب لا يستطيع أن يحوّل انتباهه للبحث عن قوى عقله، والنظر في أفعالها، وأن يكشف الشرائع التي هي خاضعة لها، إلى غير ذلك من مباحث الفلاسفة وعقلاء الناس، ولكن ذلك لا يستطيعه الأولاد الصغار أيضاً، وربما عجز عنه أكثر العامة الذين لا يهمهم إلاّ ملاحظة ما حولهم، ولا يلتفتون إلى الكليات والبحث عن أفعال قولهم.

فعقل الكلب كما قيل مناسب لحاله، كما أن عقل الطفل مناسب لحاله، ولا يمكن أن يعقل الطفل عقل الفيلسوف الكبير ما لم يخرج عن الطفولية، وكذلك لا يعقل الكلب عقل الفيلسوف ما لم يخرج عن الكلبية، فالتفاوت في العقل بين البالغ والطفل والكلب تفاوت في الدرجة فقط، ولا يستدل منه على أن عقل الإنسان نوع وعقل الكلب نوع آخر، أو على أن الوجدان خاص بالإنسان دون غيره من الحيوان.

(٨) قد اشتهر الكلب بالأمانة والوفاء، وهما من أجلّ الصفات، وقد ثبت بالتجربة والمشاهدة أن الأصناف العليا من الكلاب متصفة بأوصاف أخرى أدبية، فكلاب «نيوفوندلندا» التي تنتشل الغرقى، وكلاب «سان برنار» التي تنبش الناس من تحت الثلوج متصفة بعزة النفس، فلا يمكن أن تقبل رشوة ولا أن تسرق شيئاً ليس لها، وهي تموت حباً بالوفاء، فتبذل حياتها دون وديعة أودعتها، والحراس التي تقيمها أسراب الوحش والطير لتحرسها من قدوم مفاجئ عليها، تثبت في أماكنها بأرواحها، وتلك صفة من أجلّ الصفات الأدبية.

(٩) إن إناث الوحش والطير تصبر على الجوع والعطش والألم، لتطعم صغارها وتسقيها وتنجيها من الأوجاع، فلو لم تكن تستطيع ضبط أهوائها وشهواتها ما فعلت ذلك. وأسراب القردة والفيلة وبقر الوحش والوعول والطيور والقواطع ونحوها يتسلط بعضها على بعض ويخضع بعضها لبعض، وكلب الراعي يتسلط على الغنم وقد يسوسها كساسته وهي تنقاد له انقيادها للراعي.

ومتى اتفقت القردة على نهب حقل من الحقول يتقدمها كبيرها دليلاً، فيمشي على رجليه منتصباً، ويتعكز على عصا بيديه وهو يتلفت يميناً ويساراً حذراً من عدو يفاجئها، وهي تتبعه دابة على الأربع متحذرة حتى تصل إلى الحقل، ثم يقيم الدليل حراساً منها على أطراف الحقل فتقف تحرس ولا تمد يدها إلى ما أمامها، وتتفرق البقية في الحقل فتعيث فيه وتمرح وتأكل حتى تشبع، ثم يقطف كل منها سنبلتين أو ثلاثاً ويحملها للحراس فتأكلها متى رجعت إلى مخبئها.

(١٠) الطائر الذي يبني عشه في مكان ظليل يتسلط على الطبيعة وحرها وبردها، كالبناء الذي يبني القصور الباذخة، وكل باني وكر وقاطن وجر يسود على الطبيعة في ذلك، لأنه يتخذها لإتمام حاجته وقضاء أغراضه، وكل صائد وقانص من الوحش والطير يصيد ويقنص ويطعم صغاره باستخدام الطبيعة، إذ لا تأتيه الطرائد عفواً، وكل من راقب أفعال الحيوان لا يسعه إلاَّ الإقرار بأنه يستخدم الطبيعة على قدر حاجته أيضاً. انتهت اللطيفة الثانية.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾

لقد تقدم الكلام على هذه الآية بما يشرح صدور الحكماء ويمزج العلم بالدين والحكمة بالقرآن، وهناك قد تجلى من المعاني ما يبهر الأبصار ويشرح الصدور، وفسرت هذه الآية بآيات أخرى في القرآن.

ولأذكر لك هنا وجهاً آخر لتفسيرها موافقاً للذي ذكرناه مشهوراً: روي عن رزين العقيلي رضي الله عنه قال: «قلت يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء، وخلق عرشه على الماء» أخرجه الترمذي. والعمى ـ مقصوراً ـ معناه: لا شيء ثابت، لأنه مما عمي عن الخلق لكونه غير شيء، فكأنه قال في جوابه: كان قبل أن يخلق خلقه ولم يكن شيء غيره، ثم قال: ما فوقه هواء وما تحته هواء، أي: ليس فوق العمى الذي هو لا شيء موجود هواء ولا تحته هواء، لأن ذلك إذا كان غير شيء فليس يثبت له هواء بوجه. والعماء ـ بالمد: السحاب الرقيق وهو حق أيضاً، فإن العوالم المحيطة بنا كانت كالبخار المنتشر الذي يدور ويجري، كما في آية أخرى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾[فصلت: ١١]، ثم تكونت الشموس والسيارات والأقمار، فالمراد بالسحاب الرقيق على هذه الرواية: إنما هو عالم الشموس قبل تكوينها، وقد تقدم في تفسير «البقرة» أن علماء الفلك رصدوا الآن ستين ألف سديم في حال التكون الآن، تدور حول نفسها كما كانت شمسنا قبل تكوينها وتمام حالها، ثم هذه الستون ألفاً بعد آلاف الآلاف من السنين ستكون شموساً كشمسنا ولها أقمار توابع لسياراتها وسيارات، كما حصل لأرضنا إذ كانت قديماً كذلك فكانت كالدخان المنتشر وهي دائرة، ثم تقلصت بعد آلاف الآلاف من السنين حتى صارت على ما هي عليه وهي الآن تتناقص، وبعد آلاف الآلاف تخرب أرضنا، ثم أخواتها السيارات، ثم أمّهنّ الشمس.

وهذا كله سرّ قوله في الحديث: «كان ربنا في عماء قبل خلق السماوات والأرض»، أي: كان مدبراً للسحاب عالياً عليه، لا أنه كان فيه، كما في قوله: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾[طه: ٧١] يعني على جذوعها، وهذا أبلغ في التمكين.

فالله تعالى متمكن من هذا السحاب، أي: البخار المنتشر يتصرف فيه ويدبره وينظمه تنظيماً محكماً ويجعله سماوات وأرضين، ويخلق فيه مخلوقات عظيمة.

قال أبو بكر البيهقي على المعنى الأول: في كتاب «الأسماء والصفات له»، وقوله صلى الله عليه وسلم: «كان الله ولم يكن شيء قبله»، يعني: لا الماء ولا العرش ولا غيرهما. وقوله: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ يعني: وخلق الماء وخلق العرش على الماء، ثم كتب في الذكر كل شيء. انتهى.

فتعجب كيف ورد الحديث بالمد والقصر على اختلاف الروايتين؛ فإحداهما ذكر فيها أن لا شيء مع الله، والثانية أن الله كان مدبراً للسحاب.

فإذا لاحظنا أن عالماً لم يكن موجوداً البتة فهناك العمى، وهو العدم المحض، وإذا لاحظنا أن عالمنا كان بخاراً منتشراً بعد انعدامه فهناك تدبير في ذلك البخار حتى يصير شموساً، ثم يتم الخلق ويكون على مقتضى العلم، وهذا هو قوله: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾، فالعدم ثم الدخان ثم خلق العالم على مقتضى العلم وهو المقصود بقوله: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾، ولا يزال كذلك كقوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[النساء: ٩٦].

فتعجب كيف يطابق الحديث ما جاء في علوم العصر الحاضر، وأن العالم كان بخاراً، وأن هذا أمر مقرر في العلوم الحديثة، ثم كيف كان هذا العالم الذي نحن فيه منظماً على مقتضى العلم، وتعجب كيف اتضح معنى كون العرش على الماء بعد ذلك.

ولا يتم لك فهم هذا المقام إلاّ إذا قرأت ما جاء في سورة «يونس» في مسألة العرش، وهناك ترى العجب العجاب، وحكمة الله في القرآن، وجمال التعبير، وحسن التنسيق.

فما أجمل العلم، وما أبهج الحكمة إذا ازدانت بالدين، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

انتهى القسم الأول.

القسم الثاني

﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾

أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي: ولئن قلت يا محمد ذلك لهؤلاء الكفار ﴿ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ يعني: القرآن ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ يعني: إلى أجل محدود، وأصل الأمة في اللغة: الجماعة من الناس، فكأنه قال سبحانه إلى انقراض أمة ومجيء أمة أخرى ﴿ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴾ أي: أيّ شيء يحبس العذاب، وذلك منهم لاستهزاء، يعنون أنه ليس بشيء ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ ﴾ العذاب ﴿ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ﴾ أي: لا يصرفه عنهم شيء ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي: ونزل بهم وبال استهزائهم ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ رخاء وسعة في الرزق وبسطنا له الدنيا ﴿ ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ ﴾ يعني: سلبناه ذلك كله وأصابته المصائب فاجتاحته ﴿ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ ﴾ يعني: يظل قانطاً من رحمة الله آيساً من كل خير ﴿ كَفُورٌ ﴾ أي: جحود لنعمتنا عليه أولاً، قليل الشكر لله، بل مبالغ في كفران ما سلف له من النعمة.

قال بعضهم: يا ابن آدم، إذا كانت بك نعمة من الله من أمن وسعة وعافية فاشكرها ولا تجحدها، فإن نزعت عنك فينبغي لك أن تصبر ولا تيئس من رحمة الله، فإنه العوّاد على عباده بالخير. ثم قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ ﴾ أي: ولئن أنعمنا على الإنسان وبسطنا له العيش بعد الضيق والضنك ﴿ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ ﴾ أي: المصائب التي ساءتني ﴿ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ ﴾ بطر بالنعم مغتر بها ﴿ فَخُورٌ ﴾ على الناس، مشغول عن الشكر والقيام بحقها، وإنما عبّر بالمس والإذاقة ليبيّن أن الإنسان ييئس ويفخر لأدنى ضر وأدنى نعمة، ويشير إلى أن نعم الدنيا ونقمها قليلة بالنسبة لما في الآخرة.

ثم استثنى من نوع الإنسان من صبروا على الضراء إيماناً بالله واحتساباً وثقة بعدله ورحمته، وأنهم بالضراء يرتقون عنده فقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ شكراً للنعم التي ذاقوها في حالة السراء ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة العصر]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ ﴾ ثم فسره فقال: ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة المعارج] الخ. وهذا المقام قد استوفيته في سورة «البقرة» فارجع إليه إن شئت.

ولما كان صلى الله عليه وسلم كاملاً والكمال ينال أعلى الخصال فيصبر على الضراء، نبه الله على ذلك تعليماً لأمته أن يصبروا على الضراء كما صبر النبي صلى الله عليه وسلم على المستهزئين الذين إذا تلا عليهم القرآن قالوا له: هلا أنزل عليك كنز لتنفق منه على الأتباع كالملوك؟ وهلا جاء

معك ملك يصدقك؟ وهذا تضيق منه الصدور ويبعث على كتمان بعض القول حتى لا يصاب صاحبه بمكروه، وهذه الحال جبلة في النوع الإنساني لأنه يائس إذا مسه الضر وهذا ضر عظيم.

قال العلماء: ولا يلزم من توقع الشيء لوجود ما يدعو إليه وقوعه لجواز أن يكون ما يصرف عنه، وهو هنا عصمة الرسل من الخيانة في الوحي، قال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ﴾، يقول الله: إن هذه الحال تدعو إلى كتمان الوحي وضيق الصدر، فإن الاستهزاء وما أشبهه يدعو لذلك، ولكن العصمة النبوية منعت من الخصلة الإنسانية العامة وذلك تعليم لجميع أهل العلم في الأمة الإسلامية أن يصبروا كما صبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن لا ييئسوا من روح الله، وأنهم مستمدون من هذه الروح الشريفة، فليصبروا كما صبر الأنبياء وخاتمهم نبينا صلى الله عليه وسلم، ليكونوا ممن استثناهم الله في هذه الآية إذ قال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾، ثم قال الله له: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ أي: ليس عليك إلاّ الإنذار بما أوحي إليك، فسواء ردوا عليك أو اقترحوا فأمرهم هيّن، فما بالك يضيق صدرك؟ وكيف يضيق وأنت قد أديت ما وجب عليك من التبليغ، فليس عليك هداهم وقد أمرت بصبرك على أذاهم ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ فهو يحفظ ما يقولون ويفعل بهم ما يجب أن يفعل فتوكل عليه، وكل أمرك إليه، فما عليك إلاّ البلاغ بصدر منشرح فلا التفات إلى استكبارهم ولا مبالاة بسفههم واستهزائهم ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ «أم» منقطعة، و«الهاء» ضمير راجع لـ«ما يوحى إليك» ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ كما افتريت أنا بزعمكم هذا القرآن، وأنتم عرب مثلي وفيكم الفصحاء والبلغاء والشعراء، فإذا افتريت هذا القرآن فافتروا عشر سور مثله وأظهروا فصاحتكم وبلاغتكم، وقد تحداهم في سورة «يونس» بسورة واحدة في الإخبار بالغيب والوعد والوعيد والأحكام وما أشبه ذلك، لأن الفصاحة والبلاغة بدون ما ذكر أسهل، أما الوعد والوعيد والأحكام والإخبار بالغيب فهي دقيقة المعاني تحتاج إلى عقول أنضج ونفوس أكمل حتى تقبل النفوس على آرائها، وشتان ما بين النائحة والثكلى.

فأين الثريا وأين الثرى وأين معاوية من علي

فلما تحداهم بهذا الكلام أمره أن يقول لهم: ﴿ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ حتى يعينوكم على ذلك ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ في قولكم إنه مفترى ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ ﴾ بإتيان ما دعوتم إليه، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لأنهم كانوا يشاركونه في التحدي الذي يثبت يقينهم ويكمل إيمانهم، ولذلك رتب عليه قوله: ﴿ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾ ملتبساً بما لا يعلمه إلاّ الله ولا يقدر عليه إلاّ هو ﴿ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي: واعلموا أن لا إله إلاّ هو، فأما تلك الأصنام فليست بآلهة فهي عاجزة عن كل شيء، وفي هذا تهديد وإقناط لهم من أن تجيرهم آلهتهم من بأس الله إذا جاءهم، ودلالة على وجود الله ووحدانيته بصدق هذا الكلام الثابت بعجزهم عن الإتيان بعشر سور مثله في البلاغة، بل بسورة واحدة في الأحكام ونحوها.

ولما كان هذا الكلام برهاناً على صدق النبوة ووحدانية الله، رتب عليه قوله: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ الخطاب للمسلمين أيضاً، أي: فهل أنتم ثابتون على الإسلام راسخون فيه مخلصون، إذ تحقق عندكم

إعجازه، كأنه قيل أسلموا وأخلصوا لله العبادة؛ ولما كان الكفر مع وضوح الحجة وظهور المحجة وبيان عجزهم الظاهر من عدم إتيانهم بعشر سور مثله مفتريات كما يزعمون، مزرياً بالقوة العقلية موقعاً في الرياء والتظاهر بخلاف الواقع، ناسب أن يؤتي بعدها بما ينفر النفوس من الرياء، فوصف المرائين بخمسة أوصاف:

الأول: أنهم يوفون أجورهم على أعمال البر في الدنيا بالصحة والعافية والرزق وما أشبه ذلك.

الثاني: أنهم لا يبخسون، أي: لا ينقصون من أجور أعمالهم في الدنيا.

الثالث: أنهم ليس لهم في الآخرة إلا النار.

الرابع: أنهم في الآخرة حبط ما صنعوه فليس لهم عليه ثواب.

الخامس: أن عملهم في نفسه باطل، فترتب على بطلانه ما تقدم في الرابع مع عدم الثواب عليه وهذا هو قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ يعني: بعمله الذي يعمله من أعمال البر والطاعات والصدقات، كأن يظهر الإنسان الأعمال الصالحة ليحمده الناس عليها أو ليعتقدوا فيه الصلاح أو ليقصدوه بالعطاء، وكأولئك المنافقين الذين كانوا يطلبون بغزوهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم ولا يريدون ثواب الآخرة، وكالذين يتعلمون العلم لغير الله تعالى ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ﴾ أي: نوصل إليهم جزاء أعمالهم في الدنيا من الصحة والرياسة وسعة الرزق وكثرة الأولاد، وندفع عنهم المكاره ﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ لا ينقصون شيئاً من أجورهم، وذلك القول في أهل الرياء والمنافقين والكفرة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ﴾ في مقابلة ما عملوا لأنهم استوفوا ما تقضيه صور أعمالهم الحسنة، وبقيت النيات السيئة فيستوفونها في النار، فأما الكافر والمنافق فلهما التأبيد.

وأما المؤمن فالعذاب منقطع بعد أجل محدود ﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا ﴾ أي: لم يبق لهم ثواب في الآخرة لأن الثواب على الإخلاص، وهؤلاء لا إخلاص عندهم ﴿ وَبَٰطِلٌ ﴾ في نفسه ﴿ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ لأنه لم يعمل على ما ينبغي، وبطلان العمل ترتب عليه عدم الثواب، وعدم الثواب ألزمهم النار، فالجملة الأخيرة علة لما قبلها، وهي علة لما قبلها فافهم.

ولما كان ما تقدم رافعاً لشأن المخلصين في أعمالهم، وواضعاً لشأن المرائين، أردفه بما يفيد أنه لا تقارب بين الطائفتين تأكيداً لما تقدمه، فقال: أتجعلون الفريقين في منزلة واحدة، فمن كان على بينة من ربه كمحمد صلى الله عليه وسلم ومؤمني أهل الكتاب، وكل مؤمن مخلص، كمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها؟ إن بين الفريقين تباعداً وتبايناً، فالهمزة للإنكار ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ أي: على برهان من الله، وبيان أن دين الإسلام حق وهو دليل العقل ﴿ وَيَتْلُوهُ ﴾ أي: ويتبع ذلك البرهان الذي هو دليل العقل ﴿ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾ شاهد من الله يشهد بصحته وهو القرآن، ويتلو ذلك البرهان أيضاً من قبل القرآن كتاب موسى عليه السلام وهو التوراة حال كونه، أي: كتاب موسى ﴿ إِمَامًا ﴾ كتاباً مؤتماً به في الدين، قدوة فيه، ﴿ وَ ﴾ حال كونه ﴿ رَحْمَةً ﴾ أي: نعمة عظيمة على المنزل إليهم لأنهم به يفوزون في الدار الآخرة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي: من كان على بينة من ربه ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ بالقرآن ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ من أهل مكة ومن تحزب معهم على رسول

الله صلى الله عليه وسلم ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ يردها لا محالة ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ من الموعد أو القرآن ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لقلة نظرهم واختلاف فطرهم.

ولما نفى التوازن والتقارب بين الفريقين شرع يفصل الكلام على الفريق الكاذب فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن أسند إليه ما لم ينزّله أو نفى عنه ما أنزله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ في الموقف بأن يحبسوا وتعرض أعمالهم ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ جمع شاهد، كأصحاب جمع صاحب، أو شهيد كأشراف جمع شريف، وهم الملائكة والنبيون والجوارح لأن الأفواه يختم عليها وتتكلم الأيدي والأرجل، وهذه لا كذب عندها، لأن شهاداتها فطرية لا دخل للكذب فيها، بخلاف اللسان، فهؤلاء كلهم أشهاد يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: في الدنيا، وهذه الفضيحة تكون في الآخرة لكل من كذب على الله ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهذا تهويل عظيم لظلمهم بالكذب على الله ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يصرفون الناس عن دينه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يصفونها بالانحراف عن الحق والصواب، أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالردة ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي: والحال أنهم كافرون بالآخرة، وكرر «هم» للتأكيد، ثم وصف هؤلاء الظالمين بثمانية أوصاف فقال:

(١) فهم لا يعجزون الله في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم.

(٢) وما كان لهم من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه.

(٣) وعذابهم يضاعف لأنهم أضلوا الناس كما ضلوا.

(٤) ما كانوا يستطيعون استماع الحق.

(٥) وما كانوا يبصرون الحق.

(٦) وهم الذين خسروا أنفسهم حيث اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله.

(٧) وبطل عنهم وضاع ما اشتروه وهو ما كانوا يفترون.

(٨) ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: لا محالة ﴿أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ أي: لا أحد أبين وأكثر خسراناً منهم.

وهذا قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ إلى قوله: ﴿هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

ثم أتبع هؤلاء بضدهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ اطمأنوا له وخشعوا له، من الخبت، وهو الأرض المطمئنة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ دائمون.

ولما وصف كلاً من الفريقين بأوصاف على حدة، أخذ يضرب لهم مثلاً مجتمعين فقال: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ هل يستوي الفريقان تمثيلاً وتشبيهاً وهو منصوب على التميز ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تنتفعون بضرب المثل.

انتهى التفسير اللفظي.

لطيفة في قوله تعالى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا ﴾ الخ

لقد حملنا الآية على عموم الكافرين والمنافقين والمؤمنين الذين يطلبون بعملهم الرياء والسمعة :

(١) روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « قال الله تبارك وتعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه » أخرجه مسلم .

(٢) وقال صلى الله عليه وسلم : « من تعلم علماً لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار » أخرجه الترمذي .

(٣) وقال صلى الله عليه وسلم : « تعوذوا بالله من جبّ الحزن ، قالوا : يا رسول الله ، وما جبّ الحزن؟ قال : واد في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم ألف مرة . قيل : يا رسول الله ، من يدخله؟ قال : القرّاء ، والمراؤون بأعمالهم » أخرجه الترمذي .

(٤) وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزى بها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يعطى بها خيراً » أخرجه البغوي بغير سند .

تحذير

إياك أن تصدك الآيات والأحاديث الواردة في ذم الرياء عن فعل البر والطاعات ، فإذا خطر لك أمر فزنه بالشرع ، فإن كان مأموراً به فبادر إليه فإنه من الرحمن ، فإن خشيت وقوعه على صفة منهية كعجب أو رياء فلا بأس عليك في وقوعه عليها من غير قصد بها ، بخلاف ما إذا أوقعته عليها قاصداً لها ، فعليك إثم ذلك فتستغفر الله منه .

قال السهروردي صاحب « عوارف المعارف » لمن سأله أنعمل خوف العجب أو لا نعمل حذراً منه؟ فقال : اعمل وإن خفت مستغفراً منه . أي : إن وقع قصداً ، وقد قيل : إن ترك العمل للخوف منه من مكايد الشيطان . كما في جمع الجوامع وشارحه .

وهذه إحدى مصائب المسلمين اليوم ، فالصالحون يخافون الرياء ، والطالحون يعملون الشر .

انتهى تفسير القسم الثاني من السورة .

القسم الثالث

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾

وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ
وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ
ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ
جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم
بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ
رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ
مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ
بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم
مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا
فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ
عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ
وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا
بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ
وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ
سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ
بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ
ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ
فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ
مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ
ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ
أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ
وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ
تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ
قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ
عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ
تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ
﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ

﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا
تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى
وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ
أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا
وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ
كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا
لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ
هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ
﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى
شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ
رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ
نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ
﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ
أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ
ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ
يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ
بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا
تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ
قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠
عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ
وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ
ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ
عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا
سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ
كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ
فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ

مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾ ۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴿٩٧﴾ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ﴿٩٩﴾

قصة نوح

هذه القصة تبيّن ما يلاقيه الدعاة إلى الخير من مصادمة الظالمين الذين يردون الدعوة ولا يسمعون الحجة، ويودون لو يكونون بلا علم يسمعونه ولا دين يتبعونه ولا هدى ولا كتاب منير، فانظر كيف ابتدأ الدعوة بالإنذار والتخويف، وكيف قابله عظماء قومه بطعنهم:

أولاً: في شخصه هو، قائلين: أيّ مزية لك علينا، وأيّ فضل؟ وكيف ينزل الوحي عليك دوننا، وما دمنا متماثلين في الخلقة متشاركين في العقل فمن ذا الذي يصدّق بامتيازك علينا واختصاصك بفضيلة دوننا؟.

وثانياً: إن الذين اتبعوك ما هم إلاّ سفلتنا وأراذلنا كالحاكة والأساكفة وسائر أصحاب الصناعات الخسيسة، فكيف نتبعك وأنت ومن معك على ما وصفنا؟.

ثالثاً: إن هؤلاء الأتباع مع خستهم ودناءتهم ما اتبعوك إلاّ وقت حدوث ظاهر رأيهم أو أول رأيهم، فاتباعهم لك ليس عن روية ونظر وتعمق في الفكر، وإنّما هو عن شيء عنّ لهم بديهة، فهؤلاء مع فقرهم وتأخرهم في الأسباب الدنيوية فلا جاه لهم ولا مال ولا شرف في الحياة الدنيا، لم يتبعوك عن فكر ونظر الخ. فقوله: ﴿ بَادِىَ ٱلرَّأْيِ ﴾ من: بدا يبدو: ظهر، أو بدأ يبدأ: إذا فعل الشيء أولاً، وانتصابه على الظرف.

رابعاً: ويلزم من ذلك أنه لا فضيلة لك يا نوح ولا لمن اتبعك، ثم إنا فوق ذلك نظنك كاذباً في دعوى النبوة ونظنهم كاذبين في دعوى العلم بصدقك، فلا نبوة لك ولا علم لهم بصدقك، وهذه هي حجج قومه، وهي موافقة لما يحصل في كل داع وأتباعه، فإن الناس لا يزالون يكذبون الداعي ويصفونه بالكذب ونحوه، ثم يعطفون على أتباعه، فتارة يذمونهم بأنهم ليسوا على شيء، وتارة بأنهم اتبعوه لجهالتهم وقلة عقلهم، فالطعن إما في المتبوع وإما في التابع وإما في العلاقة القائمة بينهما، وقد تم كل ذلك في الآية ووضح.

وهذا تعليم من الله لنا أن نشمر عن ساعد الجد ونقوم بالأمر ولا نبالي بالذم فينا ولا فيمن معنا من المصلحين، ولا في العلاقة القائمة بيننا، بل يجب أن تكون تلك الأقوال مشجعة لنا، ونحرص على ما أنعم الله بها علينا كما فعل سيدنا نوح، فانظر ماذا قال في الرد عليهم:

فإنه ردّ على الأول قائلاً: ﴿ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ رداً على قولهم: ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾.

ورد على الثاني وعلى الثالث معاً، فقال: ﴿ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾ حتى أطلع على ما في نفوس أتباعي وضمائرهم، أي: لا أقول عندي خزائن الله ولا أقول أنا أعلم الغيب ﴿ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ ﴾ أي: ولا أحكم على من استرذلتموهم من المؤمنين لفقرهم ﴿ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ﴾ في الدنيا والآخرة لهوانهم عليه مساعدة لكم ونزولاً على هواكم ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ من صدق الاعتماد، وإنّما عليّ قبول ظاهر إقرارهم إذ لا أطلع على خفيّ أسرارهم ﴿ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ إن قلت شيئاً من ذلك، وقوله: ﴿ تَزْدَرِىٓ ﴾ من ذرى عليه: إذا عابه. وقال أيضاً في الردّ: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ حين سألوه طردهم ليؤمنوا به أنفة من المجالسة معهم ﴿ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ فيشكوني إليه إن طردتهم. وقال أيضاً: ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ ﴾ من يمنعني من انتقامه ﴿ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ تتعظون.

وردّ على الرابع قائلاً: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ فأدعي فضلاً عليكم بالغنى حتى تجحدوا فضلي بقولكم: ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ ﴾. وقد تقدم أن القسم الرابع جزآن:

الجزء الأول: ادعاؤهم أنه لا فضل لنوح وأتباعه عليهم، وهذا ردّ عليه.

والجزء الثاني: أنهم يظنونهم كاذبين، فردّ عليهم قائلاً: ﴿ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ تتسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل، وتجهلون لقاء ربكم كما تجهلون أنهم خير منكم، وهذا هو قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾،

﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ : أخبروني ، ﴿ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ : بيان ويقين من ربي الذي أنذرتكم به ﴿ وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ هدياً ومعرفة ونبوة ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : أخفيت عليكم أو « خفيت » على القراءتين ، ومعنى « عميت » ـ بالتخفيف ـ لم تهدكم ، كما لو عمي على القوم دليلهم في المفازة فبقوا بغير هاد ، فالحجة كما تكون بصيرة ومبصرة تجعل عمياء ، لأن الأعمى لا يهتدي ولا يهدي غيره ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ أنلزمكم على الاهتداء بها ﴿ وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ لا تختارونها ولا تتأملون فيها ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ﴾ أجراً يثقل عليكم إن أديتم ، أو عليّ إن أبيتم ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ وبقية الآيات ظاهرة المعنى ، فلا نطول بذكرها ، وهي آيات اعتراض القوم ، فقد لخصناها آنفاً وهي مذكورة في المتن ، ولما كانت حجج نوح قد وضحت ورد عليهم وقرر الرد وأبان ولم يترك لهم باباً أربى عليهم ، وطوقهم بالبراهين المقنعة ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا ﴾ خاصمتنا ﴿ فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾ كما ظهر فيما تقدم ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ من العذاب ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ في الدعوى والوعيد ، فأما مناظرتك فلا تؤثر فينا ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ ﴾ عاجلاً أو آجلاً ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ بدفع العذاب أو الهرب منه ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ أي : إن كان الله يريد أن يغويكم ، فإن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي وهو جواب لما أوهموا أن جداله كلام بلا طائل . ثم قال : ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ ﴾ خالقكم والمتصرف فيكم وفق إرادته ، وقد جرى علمه القديم على مقتضى الحقائق الواقعة الإلهية ، وإنكم تخلقون على حال لا ينفع فيها النصح ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فيجازيكم على أعمالكم .

ولما كانت هذه القصة عجيبة والجدال فيها مؤثراً ذكر الله ما يختلج في عقول بعض الكفار أن هذا وأمثاله مختلق مفترى من عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى هذه الجملة المعترضة : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ أي : بل أيقولون اختلق القرآن محمد ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي ﴾ إثم إجرامي ، والإجرام : اقتراف السيئة واكتسابها ، يقال : جرم وأجرم ، أي : اكتسب الذنب وافتعله ﴿ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ يعني من الكفر والتكذيب ، وهذا قول مقاتل وأكثر المفسرين إن الخطاب لنوح عليه السلام .

ثم أخذ يتمم القصة فقال بعد أن انتهى الجدال وجاء القول الفصل : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ فلا تحزن حزن بائس مستكين ، والابتئاس افتعال من البؤس ، وهو الحزن والفقر ، والمعنى : فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك وإيذائك ، فقد حان وقت الانتقام من أعدائك ، وهذا هو التاريخ العام ، وكل مصلح في الأرض ، فأولاً ذمّ له ولأتباعه وللرابطة بينهما ، ثم الرد عليهم ، ثم العناد التام ، ثم ظهور الحقائق واضحة جلية ، فلذلك دعا نوح على قومه ، فقال : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦] .

فصل

(١) صنع السفينة . (٢) استهزاء قومه به . (٣) النجاة من الهلاك بركوب السفينة . (٤) هلاك من عصاه من أهله . (٥) المقصود من القصة ، وهو أن العاقبة للمتقين ، وأن الصابرين ينالون الفوز في آخر الأمر .

صنع السفينة واستهزاء قومه به

قال تعالى: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي: ملتبساً بأعيننا، كأن لله أعيناً تكلؤه وتحفظه لئلا يزيغ في صنعته عن الصواب ﴿ وَوَحْيِنَا ﴾ وإنا نوحي إليك ونلهمك كيف تصنع ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ﴾ ولا تراجعني فيهم، ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم ﴿ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ محكوم عليهم بالإغراق، وقد قضى به وجفّ القلم فلا سبيل إلى كفه ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ استهزؤوا به لعمله السفينة في برية بعيدة عن الماء، وأيضاً كانوا يقولون: يا نوح، قد صرت نجاراً بعد أن كنت نبياً ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ إذا أخذكم الغرق في الدنيا وجهنم في الآخرة ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ ويعني به إياهم، ويريد بالعذاب عذاب الدنيا وهو الغرق ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ وينزل عليه عذاب الآخرة الذي هو دائم، وقوله: ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ أي: جماعة منهم، إلى قوله: ﴿ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ جملة حالية، فقوله: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ ﴾ متصل بقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ عذابنا، أي: وكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد، فحتى هذه هي التي ابتدأ بعدها الكلام أدخلت على الجملة من الشرط والجزاء، وهي غاية لقوله: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ ﴾. وقوله: ﴿ وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ أي: وجه الأرض أو أشرف موضع فيها.

نجاته هو ومن آمن معه

قال تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا ﴾ في السفينة وهو جواب الشرط ﴿ مِن كُلٍّ ﴾ من كل نوع من الحيوانات ﴿ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ ذكراً وأنثى، والزوجان كل اثنين لا يستغني أحدهما عن الآخر كالذكر والأنثى، والعينين والأذنين يقال لكل واحد منهما زوج، والنعلان في الرجلين يقال لكل واحد منهما زوج، فقوله: «من كل» إما منوّن، أي: من كل نوع زوجين، وإما غير منوّن، أي: احمل فيها من كل زوجين اثنين، والمعنى واحد على «كل». وقوله: ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ عطف على «زوجين». وقوله: ﴿ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ بأنه من المغرقين، يريد به ابنه كنعان وأمه المسماة واعلة، فإنهما كانا كافرين ﴿ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾ أي: والمؤمنين ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ قيل: كانوا ٧٩، زوجته المسلمة وبنوه سام وحام ويافث ونساؤهم، و٧٢ رجلاً وامرأة من غيرهم، ولقد ذكر العلماء طولها وعرضها ولا فائدة في ذلك لنا. ويقال: إنه جعل في أسفلها الدوابّ والوحش، وفي وسطها الإنس، وفي أعلاها الطير، وكانت ثلاثة بطون ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا ﴾ أي: صيروا فيها، وإنّما سمي ركوباً لأن السفن في البحار كالدواب على الأرض، وقوله: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ جملة حالية من «ها» أي: اركبوا فيها حال كونها إجراؤها وإرساؤها كائنان بسم الله على وجه، ومجريها ومرساها ـ بفتح الميم والراء ـ من: «جرى» مصدراً ووقت، وبضم الميم وفتح الراء من: «أجرى» للوقت والمصدر؛ يعني أن نوحاً عليه السلام أمرهم بالركوب ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم الله. يقال: إنه كان إذا أراد أن تجري قال: بسم الله، فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال: بسم الله، فرست. ﴿ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي: لولا مغفرته لما فعلتم من الذنوب ورحمته لكم ما نجاكم، ثم ركبوا فيها يقولون: بسم الله، كما أمروا ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ ﴾ وهم فيها ﴿ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ الموج: ما ارتفع من الماء إذا اشتدت عليه الريح، فشبهه سبحانه بالجبال في عظمه وارتفاعه، وكل موجة منها كجبل من تراكمها وارتفاعها.

هلاك من عصى من أهله

قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ ﴾ كنعان، وكان ابنه من صلبه ﴿ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ ﴾ عن أبيه وعن السفينة وعن دين أبيه، وهو مفعل، من: عزله إذا نحاه وأبعده ﴿ يَٰبُنَىَّ ﴾ بفتح الياء، وفي قراءة بكسر الياء، والأولى اقتصار عليه من الألف المبدلة من الياء، والثانية اقتصار عليه من ياء الإضافة ﴿ ٱرْكَب مَّعَنَا ﴾ في السفينة، أي: أسلم واركب معنا ﴿ وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ في الدين والانعزال ﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ أن يغرقني ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ أي: إلاّ الراحم، وهو الله تعالى، أي: لا عاصم اليوم من الطوفان إلاّ مكان من رحم الله من المؤمنين فلا يعصمك الجبل ولا غيره، وإنّما يعصمك مكان المؤمنين وهي السفينة، ويصح أن يكون الاستثناء منقطعاً، أي: لكن من رحمه الله يعصمه ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ ﴾ أي: بين نوح وابنه ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ فصار من المهلكين بالماء ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى ﴾ جعل الأرض والسماء كأنهما من العقلاء يطيعان ما يؤمران به إظهاراً لنفاذ الأمر وسرعة الإنجاز وحصول المأمور به حالاً كما يفعل المأمور مع الآمر القاهر القادر، والبلع: النشف، والإقلاع: الإمساك، ثم قال: ﴿ وَغِيضَ ٱلْمَآءُ ﴾ نقص ﴿ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ وأنجز ما وعد به من إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين ﴿ وَٱسْتَوَتْ ﴾ واستقرت السفينة ﴿عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ يقال: إنه جبل بالجزيرة بقرب الموصل ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يقال: بعداً بعداً لمن لا يرجى عوده، ثم استعير للهلاك، وحصّ بدعاء السوء ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ ﴾ أي: أراد نداءه ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ أي: بعض أهلي لأنه كان ابنه ﴿ وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ ﴾ وإن كل وعد تعده فهو الحق الثابت الذي لا شك في إنجازه والوفاء به، وقد وعدتني أن تنجي أهلي، فما بال وعدي ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ أي: أعلم الحكام وأعدلهم، فلا فضل لحاكم على غيره إلاّ بما تجمل به من العلم وما اتصف به من العدل، وأيضاً إنه يحكم بالحقائق لاطلاعه على بواطن الأمور ودخائلها، أما الحكام الأرضيون فإنهم يحكمون بالظاهر ويذرون البواطن لمن هو أحكم منهم وهو أحكم الحاكمين ﴿ قَالَ ﴾ الله ﴿ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ إذ لا ولاية بين مؤمن وكافر، ثم علل ذلك بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ أي: إنه ذو عمل فاسد، وجعل نفس العمل الفاسد للمبالغة. وقرئ: «إنه عَمِلَ غير صالح» أي: عمل عملاً غير صالح ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ ﴾ نجاة ﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أنه ليس أهلاً للنجاة.

وذلك أن نوحاً عليه الصلاة والسلام سأل الله أن ينجي ابنه من الغرق، وكان من أهل النفاق يظهر الإيمان ويخفي الكفر؛ كالمنافقين زمن النبي صلى الله عليه وسلم؛ فلم يعلم حتى أعلمه الله، كما حصل لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كما تقدم في سورة «التوبة»، فقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: من الذين وعدت النجاة لهم وهم المؤمنون حقيقة في السر والظاهر، وقد خاطبه الله بقوله: ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾، ثم أتبع الأمر بعدم السؤال بقوله: ﴿ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ ومعنى ﴿أَعِظُكَ﴾ أنهاك، وهذا كما نهى رسولنا صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[الأنعام: ٣٥]. ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ ﴾ في الاستقبال ﴿مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ ما لا علم لي بصحته ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى ﴾ وإن لم تغفر ما فرط مني من السؤال ﴿ وَتَرْحَمْنِىٓ ﴾ برحمتك

التي وسعت كل شيء ﴿أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أعمالاً، ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ أي: انـزل من السفينة إلى الأرض مسلماً من المكاره، كالغرق من جهتنا أو بتحية منا ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ وهي الخيرات النامية، وهي في حقه كثرة أولاده وأتباعه، فقد جعل أكثر الأنبياء وأئمة الدين من ذريته ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ أي: وعلى أمم ناشئة ممن معك، وهم الأمم إلى آخر الدهر لأنهم ذرية من معه في السفينة ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ أي: وأمم كافرة يحدثون بعدك سنمتعهم في الدنيا إلى منتهى آجالهم ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

ثم خاطب النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿تِلْكَ﴾ أي: قصة نوح، مبتدأ خبره ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: بعضها، وقوله: ﴿نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ خبر ثان ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ وهذا خبر ثالث ﴿فَٱصْبِرْ﴾ على مشاق الرسالة وأذى قومك كما صبر نوح، وتوقع في العاقبة لك ولمن كذبك نحو ما كان لنوح وقومه ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ﴾ في الفوز والنصر والغلبة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يذرون الشرك والمعاصي. وهنا لطائف:

اللطيفة الأولى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ الخ

هذه الآية في غاية الفصاحة والبلاغة حتى خصصها بعض العلماء بالتأليف، لفخامة لفظها وحسن نظمها ودلالتها على الحال مع الإيجاز البديع.

فانظر كيف ابتدأ الكلام بلفظ ﴿قِيلَ﴾ بالبناء للمجهول، فلم يذكر الفاعل لعظم قدرته وجلالته، وكيف خاطب الأرض أن تبلع والسماء أن تقلع، وهو مجاز عجيب. وكيف كان ﴿غِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ يغني عن جمل كثيرة ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ قام مقام العبارة الطويلة الدالة على هلاك قوم ونجاة آخرين، وهكذا فكل جملة كأنها درس خاص مع الجزالة وحسن التعبير. وفي هذا المقام من المحاسن ما لا متسع للعبارة عنه والذوق كاف فيه.

اللطيفة الثانية

اعلم أن هذه القصة قديمة العهد ذكرت في الكتب السابقة، وما مقصودها إلاَّ إبراز رجال في الأمم يكونون قدوة للصالحين ومنبعاً للكمال، إليهم تشدّ الرحال وعليهم يعوّل الرجال، وبهم تصلح الحال، ولو أنك درست تواريخ النابغين في سائر الأمم والأجيال، لم تر أحداً منهم نبغ إلاَّ على مثال نبوغ نوح عليه السلام، ولم يخلق الله في الأرض نبياً ولا حكيماً ولا عالماً إلاَّ إذا صادفه مثل ما صادفه نوح عليه السلام.

بل أقول: انظر أيها الذكي القارئ لهذا التفسير. ألم تجد في نفسك مثال ما جرى لنوح من بعض الوجوه؟ وكيف قرأت العلوم ودرست الكتب ثم وصلت لهذا التفسير وقرأته؟ ما كان ذلك إلاَّ بعد ما جاهدت جهاداً آذاك فيه الأقربون والغرباء، ثم لم تعبأ بذلك ونصرت وفزت بالعلم، وضل سعيهم وخاب فألهم.

فلعمرك لم يفز أحد في الدنيا بطائل إلاَّ بعد أن يناله النصب ويغشاه التعب، ويحل به الألم، ويسومه أهله وذووه سوء العذاب، فانظر رعاك الله قصة نوح ووازنها بسيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:

(١) النبي صلى الله عليه وسلم قال له قومه: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢] وقالوا: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] في مقابلة جدال نوح وقومه.

(٢) طلب كفار قريش من النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرد من معه من المجلس احتقاراً لهم وهم يجلسون بدلهم، فقال الله له: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وهذا كقول نوح: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

(٣) يقول الله تعالى لنبينا صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان: ٥٧]، ونوح يقول: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ﴾.

(٤) صنع نوح السفينة لنجاة قومه، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أتباعه بالهجرة إلى الحبشة، ثم هاجر هو وهم إلى المدينة، وهذه في مقابلة السفينة.

(٥) ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] وهو عم النبي صلى الله عليه وسلم، وطرد ابن نوح من رحمة الله ولم ينفعه أنه ابن نبيّ.

(٦) سخر قوم نوح منه فأفهمهم أنه هو الناجي وهم الخاسرون، وقد كان المنافقون يقولون: إن محمداً يعدنا ملك كسرى وقيصر، وإن أحدنا لا يقدر أن يقضي حاجته خارج المدينة، وكان كفار مكة يسخرون منه، فكرر في القرآن أن الله سينصره، وقد تم ذلك.

(٧) حمل نوح معه من كل نوع من أنواع الحيوان زوجين ذكراً وأنثى لبقاء النسل، وهكذا جميع الأنبياء والمصلحين، إنَّما خلقهم الله في الأرض للمنفعة العامة، ولا علامة لرجال الإصلاح والعظماء إلاَّ قصد المنفعة العامة، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في مقابلة ذلك، قيل له: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] لا فرق بين حيوان وإنسان وغيرهما من المخلوقات.

(٨) وكما غرق الكفار من قوم نوح قتل الكفار من قريش.

(٩) وكما نجى المؤمنون من قوم نوح؛ نجى المؤمنون من العرب، وأصبحت جزيرة العرب كلها إسلاماً، كما تقدم في سورة «التوبة».

(١٠) قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: كما نصرت نوحاً وكانت العاقبة له، فسيكون النصر لك فاصبر الخ.

ألا تتعجب من هذا القول كيف كانت هذه السورة تتلا في مكة ولا جيش ولا جند ولا مال لصاحب الرسالة، ثم يتلو عليهم هذا القول، ويقول الله له ستكون عاقبتك النصر كما كانت عاقبة نوح، وبعد ذلك بزمن قد تم هذا.

ولعمري إن هذه هي المعجزة الحقة، فإنه قصّ قصة نوح، وقد حصل له مثل نوح أولاً وآخراً، وقد تلاه عليهم في أول أمره بحيث لا يختلج في النفس أقلّ أمل في نجاح دعوته، وأن العرب وغيرهم يتبعونه، ذلك هو المعجزة الصادقة وذلك هو الذي به يصدق العاقلون.

مقصود القصة لسائر الفضلاء

أيها الذكي إن هذه السورة تقرأ دائماً، يقرؤها المسلمون ويكرر نظيرها في الكتب السماوية قبل القرآن، بل إن لها نظيراً كما سيأتي في كتب الدين الهندية.

فلعمرك ما بقيت هذه القصة في الديانات المتلاحقة على مدى الأزمان لألفاظ يكررونها، ولا لمجرد آيات يقرؤونها، وإنَّما هي حكم ومواعظ وآداب يتحلى بها الفضلاء والنابغون، فإذا رأيت في نفسك ميلاً إلى فضيلة أو علم أو نفع عام، فجاهد في سبيلك، واعلم أن الله معك مهما اعتراك من ضيق أو همّ أو مرض أو عداوة. واعلم أن الله لم يعطك الميل لتلك الفضيلة ولم يزرع في قلبك حب ذلك العلم إلاَّ وهو يريد سقيه وإنزال الغيث عليه لينميه، فاعزم وتوكل على الله، واتل قوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

وهذه القصة تنطبق على كل من يقوم بعمل شريف في نفسه وفي قومه، فإذا أراد المرء عملاً نافعاً لنفسه أو لأمته، لاموه أو لامته نفسه لوماً شديداً في أول الأمر كجدال قوم نوح، ثم يبطل الجدال ويجاهد الإنسان حتى يرسم له طريقاً للخلاص كالسفينة، ثم يعاديه أهله وولده، ففي الحديث: «أبغض الناس إلى العالم أهله وجيرانه»، فليسر في طريقه ولا يبالي بهم، ثم يسير في طريق الفلاح وينجو في الكفاح، وهو لسفينة نجاته ملاح، ويقال له: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

اللطيفة الثالثة: الطوفان في العلم الحديث

الطوفان عام وخاص

الطوفان العام

اعلم أن الأرض مكونة من ٢٦ طبقة عامة متميزة، وهذه الطبقات تكونت في ستة عصور كما تقدم مراراً، كل عصر منها يبلغ مئات الملايين بل آلاف الملايين من السنين، وهي العصر الأصلي والعصر الانتقالي والعصر الثانوي والعصر الثالثي والعصر الطوفاني والعصر اللاحق للطوفان أو العصر الحالي وفي كل عصر من هذه العصور الستة تكونت طبقات في الأرض، وهي مختلفة كما تقدم ذكرها في التفسير، وإنَّما الذي يهمنا في هذا المقام العصر الطوفاني، فقد قال علماء العصر الحاضر: إن تغيراً عظيماً فجائياً طرأ على وضع محور الأرض وقطبيها، فاندفعت على أثره المياه على سطحها اندفاعاً عاماً، وانقرض في هذا الطوفان كثير من الحيوانات، ولجأ بعضها تخلصاً من الغرق إلى شقوق ومغاور في أعالي الجبال، فهلكت جوعاً هناك، أو بافتراس بعضها بعضاً، أو خنقاً في وسط المياه المندفعة عليها، وقد كشف العلماء كثيراً من تلك المغاور الحاوية عظاماً عديدة من الوحوش الكواسر التي عاشت قبل حصول تلك الفاجعة، وهذا الرأي هو الذي يفهمنا كيف نقصت الحرارة فجأة في الأقطار القطبية، إنها نكبة عامة مريعة قلبت وجه الأرض، وبها انقرضت أنواع من الحيوان على بكرة أبيها، وتحولت المياه فجأة من مجاريها واندفعت بعزم على اليابسة، فحطمت أعلى الصخور، واقتلعت الغابات، وجردت الجبال من حللها السندسية، وتركت رواسب جديدة يقال لها في علم الجيولوجيا «الطبقات الطوفانية» وفي هذا العصر بدأ القطبان يكتسيان بالجلد، وهذا دليل على تناقص جسيم في حرارة الأرض، والتناقص المذكور حصل فجأة وليس بالتدريج، فإن علماء الجيولوجيا استدلوا على ذلك من آثار

فيلة، بل أجسام صحيحة من « الماموث » كشفوها في وسط الجليد الشمالي، فحكموا بحصول برد فجائي باغتها وقتلها قبل أن تتمكن من المهاجرة إلى أقطار أوفر اعتدالاً وأقرب إلى مزاجها.

ولما استتبت السكينة على وجه الأرض بدأ العصر الحالي وهو السادس، وفيه ثبتت اليابسة وازداد الهواء نقاء، وأرسلت الشمس أشعتها المنعشة فطابت النباتات وأنس الحيوان وظهر بعدها الإنسان، ولا يعلم أحد الآن هل كان الإنسان قبل العصر الحالي؟ أي: هل كان قبل الطوفان المذكور؟ ولقد وجدوا آثاراً تدل على ذلك، هذا هو الطوفان العام.

أين الطوفان الخاص الذي جاء به القرآن والكتب السماوية كما في هذا المقام؟

اعلم أن الطوفان المذكور في الكتب السماوية لم يعلم عنه علماء الجيولوجيا إلاَّ ما يأتي، وهو أنهم كشفوا أنه كان هناك بحر عظيم يمتد قديماً من البحر الأسود إلى الأوقيانوس الشمالي، وهذا البحر من آثاره بحر الخزر وبحر الأوزوف والبحيرات الكثيرة التي في بلاد الروسيا، وهي مالحة منتشرة في سهول التتر ومفاوز روسيا.

ولما ارتفعت جبال القوقاس اندفع قسم من المياه إلى الأوقيانوس الشمالي، والقسم الآخر انقلب إلى الأوقيانوس الهندي، فغرقت بلاد ما بين النهرين وجميع البلاد التي يسكنها أسلاف الشعب العبراني، وقد حفظت هذه الحادثة في تقاليد سائر الشعوب الذين يسكنون تلك البقاع.

وجاء في أسفار « الفيدا الهندية » في هذا المقام « تحوّل براهما إلى صورة سمكة »، وجاء يقول إلى الملك الصديق « فايفاسواتا »: إن زوال زمان العالم قد دنا، وعن قليل تباد كل نسمة من الوجود على وجه الأرض، فاصنع لك سفينة تدخلها بعد أن تأخذ معك بزوراً من كل النباتات، وانتظرني فأوافيك وعلى رأسي قرن تميزني به، فأطاع الملك الصديق أمر براهما، وعمر سفينة ودخلها بعد أن ربطها بحبل متين بقرن السمكة، فسارت السفينة في الظلمة سنين عديدة في وسط عواصف قاصفة، واستقر أخيراً على رؤوس جبال همالايا. اهـ.

هذا هو العلم الذي يعرفه الناس الآن من علماء طبقات الأرض ومن علماء الديانات، فهاأنت اذ رأيت الطوفان العام الذي هو قبل التاريخ، ورأيت الطوفان الذي عرفه بنو إسرائيل عن أسلافهم الذين كانوا بين النهرين، وعرفت البحر العظيم الذي خلف بحيرات في أوروبا الآن، وعرفت كلام البراهمة عن هذا الطوفان.

ثم اعلم أني ما كتبت لك هذا لأفسر به القرآن، كلا، وإنَّما أكتبه لتحيط علماً بهذه المسألة، ولتعشق العلوم، ولتبحث في عجائب صنع الله، وفي تقلبات هذه الدنيا وعجائبها، وتتعجب من هذه الأرض كيف تكونت، وكيف كان القطبان أشبه بخط الاستواء، تعيش فيهما الفيلة العظيمة التي لا نظير لها الآن، بل هي أشبه بالفيلة التي كانت قديماً تحمل مئات من الناس على ظهرها، ثم طرأ عليها البرد فجأة فماتت حالاً وبقيت إلى الآن دلالة على قدرة عظيمة، وكيف كان هناك بحر ثم زال من الوجود، وكيف كانت هذه القصة قد لهج بها أكثر الأمم العظيمة المتدينة.

فأما القرآن فإنه قصّ علينا هذه القصة ليرقينا بها وليدلنا على أن الصابرين فائزون، وقد أبنا هذا أيّما تبيان، فافرح بما آتاك الله من فضله، واعلم أن الله عزَّ وجلَّ ما أنزل هذه القصة لأجل المباحث التي ذكرناها ونحوها، وإنّما أنزلها لما فيها من القدوة الحسنة واليقين، إن الذين هم مصلحون وقلوبهم مفطورة على الإصلاح فائزون في آخر أمرهم.

ولعمرك إن هذه القصة في القرآن تعطي المصلحين إيقاناً وإيماناً وعلماً أنهم بعد الصبر فائزون، وهذا قد أوضحناه تمام الإيضاح. انتهى الكلام على قصة نوح عليه السلام.

ثم قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ أي: وأرسلنا إلى عاد الخ، عطف على قوله: ﴿ نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ وهوداً عطف بيان ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ على الله لاتخاذكم الأوثان شركاء وجعلها شفعاء ﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ﴾ وذلك كخطاب نوح لقومه بذلك، وخطاب النبي صلى الله عليه وسلم لأن النصيحة ما دامت مشوبة بالمطامع لا تنجع ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أفلا تستعملون عقولكم فتعرفوا الحق من الباطل والصدق من الكذب ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾ اطلبوا مغفرة الله بالإيمان به ثم توبوا إليه من ذنوبكم السالفة ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ كثير الدرور ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ وكانوا قوماً أصحاب زرع وبساتين وكانوا مدلين بما أوتوا من قوة وبطش، وقال بعضهم: حبس الله عنهم المطر وأعقم أرحام نسائهم ثلاث سنين، فوعدهم هود عليه السلام على الإيمان والتوبة بكثرة الأمطار وتضاعف القوة بالتناسل.

يقال: إن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال لحاجب معاوية لما شكا له قلة الولد: عليك بالاستغفار، فكان يستغفر في اليوم سبعمائة مرة فولد بنين، ولما سئل الحسن عن سبب ذلك استدل بهذه الآية وبآية نوح: ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ ﴾[نوح: ١٢]. ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ ﴾ ولا تعرضوا عما أدعوكم إليه ﴿ مُجْرِمِينَ ﴾ مصرّين على إجرامكم وآثامكم ﴿ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ كما قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾[الأنعام: ٣٧] لجحود الطائفتين آيات النبيين ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ﴾ أي: وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك. فقوله: «عن قولك»: حال من الضمير في: «تاركي آلهتنا» ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أقنطوه من إجابته وتصديقه ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ ﴾ أي: أصابك، من عراه يعروه إذا أصابه ﴿ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ أي: ما نقول فيك قولة إلاَّ هذه المقالة، وهي: ﴿ ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ فأنت يا هود لست تخالفنا وتسب آلهتنا إلاَّ لما أصابك بعض آلهتنا بخبل وجنون لأنك سببتهم فانتقموا منك بذلك، ونحن لا نفهم أمرك إلاَّ على هذا الوجه ﴿ قَالَ ﴾ هود مجيباً لهم ﴿ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ ﴾ على نفسي ﴿ وَٱشْهَدُوٓا۟ ﴾ أنتم عليّ أيضاً ﴿ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ﴾ وهي الأصنام التي كانوا يعبدونها ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ﴾ احتالوا في كيدي وضري أنتم وأصنامكم التي تعتقدون أنها تضر وتنفع فإني أرى أنها لا تضر ولا تنفع ﴿ ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ لا تمهلون، ثم أكد هذا بقوله: ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ﴾ أي: إنه فوّض أمره إلى الله واعتمد عليه ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ الناصية مقدم الرأس، وسمي الشعر الذي عليه ناصية للمجاورة، وكان العرب إذا أرادوا إطلاق أسير جزوا ناصيته ليمنوا

عليه ويعتدّوا بذلك فخراً عليه، فخاطبهم الله بما يعرفون، يعني أن الله هو مالكها والقادر عليها وهو يقهرها، لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته، والدابة كل ما يدب على الأرض ويدخل فيه جميع بني آدم والحيوان لأنها جميعها تدب على الأرض ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي: إن ربي ـ وإن كنتم مسخرين له مقهورين ـ لا يعاملكم إلاّ بالإنصاف والإحسان والعدل، فيجازي كلاً بما فعل المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي: تتولوا وتعرضوا عن الإيمان بما أرسلت به إليكم، فلم يقع مني تقصير في التبليغ وإنّما التقصير منكم ﴿ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ أي: إنكم إن أعرضتم عن الإيمان يهلككم الله ويستبدل بكم قوماً غيركم أطوع منكم وهذا عذاب الاستئصال ﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ ﴾ بتوليكم عن الإيمان ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ رقيب عليه مهيمن فما تخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مؤاخذتكم وهو يحفظني من أن تمسوني بسوء، فكما يحفظ أعمالكم ويعاقبكم يحفظني من السوء ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ بإهلاكهم وعذابهم ﴿ نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ ذلك أن العذاب إذا نزل عمّ، فلما أنجاهم الله كان ذلك رحمة من الله، وأيضاً الإيمان والطاعة من رحمة الله، فما تسبب عنهما من رحمة الله لأن كلاً من عند الله ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ شديد. ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ ﴾ وهذه قبيلة عاد، كأنه قيل سيحوا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا بقبورها وآثارها.

ثم وصف حالهم فقال: ﴿ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ أي: كفروا بها ﴿ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ ﴾ لأنهم عصوا رسولهم، ومن عصى رسولاً فقد عصى الجميع ﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أي: اتبعوا أمر كبرائهم الطاغين، وعنيد، من: عند عنوداً، إذا طغى، فعصوا من يهديهم وأطاعوا من يغويهم ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أي: أردفوا لعنة تتبعهم، واللعنة الطرد والإبعاد من رحمة الله ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ ﴾ أي: وفي يوم القيامة أيضاً تتبعهم اللعنة كما أتبعتهم في الدنيا، ثم ذكر السبب لزيادة الإيضاح فقال: ﴿ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ ﴾ أي: كفروا بربهم ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ ﴾ أي: هلاكاً لهم أو بعداً من الرحمة ﴿ قَوْمِ هُودٍ ﴾ عطف بيان لـ«عاد»، والقصد من هذا العطف المبالغة في التنصيص للتأكيد، انتهى التفسير اللفظي لقصة عاد وما قبلها.

جوهرة في معنى قوله تعالى

﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

يعيش الناس ويموتون وتتلاحق الأمم وتتسابق في هذه الحياة، ثم يردون أحواض المنايا أمة بعد أمة، ودولة بعد دولة، وهم يأكلون الحيوان ويشربون ألبانه ويلبسون صوفه وفراءه، ثم أكثرهم يموتون ولا هم يذكرون، لا يذكرون عجائب هذا الحيوان وغرائبه وغرائب النبات، ولا الحكمة المدبرة التي خصصت لكل طائفة منه لوناً وشكلاً وأحوالاً خاصة، ينظر الناس إلى هذه الصور والأشكال ثم لا يذكرون لم هذا الاختصاص.

(١) ولم نرى الزنبار مثلاً محلى بشكل جميل مزوقاً بهجاً، ولكنه يحمل سلاحاً يعدو به على من يمسه بسوء.

(٢) ونرى الفيران الصغيرة والكبيرة والوطاويط إما رمادية اللون أو سوداءه.

(٣) ولماذا نرى بعض السمك مرقشاً منقوشاً بهيئة بهجة كأنها هيئة البساتين الجميلة، والأكثر على خلاف ذلك إذ يكون ظهره أزرق مائلاً للسواد أو للخضرة، وهو من أسفل أبيض اللون.

(٤) ولماذا نرى الجمل والأسد لهما لون خفيف رملي أو صخري رملي.

وهكذا من أمثلة كثيرة لا يخطر للناس أن يفكروا فيها، وإنّما الرأي العام عند هذا النوع الإنساني أن ذلك أمر عادي.

والجواب على ذلك هو عين ما نقل عن الكسائي لما سئل: لم بنيت «أيّ» على الضم؟ فقال: أيّ هكذا خلقت.

هذا الإنسان أوله وآخره قديمه وحديثه عالمه غالباً وجاهله مستوون في الغفلة والإعراض عن بحث ما حولهم وفهم الدروس التي ألقاها الله عليهم، وهذه هي الدروس الحقة والعلوم التي أنزلها الله للناس وآيات تنزلت عليهم وطلاسم وألغاز وزينة زين بها الأرض لامتحان عباده لينظر أفيشكرونه بمعرفتها أم يكفرونه بالتلهي ببهجتها والغفلة عن معرفتها، ذلك هو مثل المسلمين وغير المسلمين الحاليين الذين سكنوا هذه الأرض وهم عن آياتها معرضين.

اللهم إنك أنت الذي أسكنت أرواحنا في هذه الأجسام الأرضية، وأحطتنا بعوالم خلقت من الجمال، وحفظت من الوبال، وأحطتها برحمتك وكلأتها بمنتك، فهي بعنايتك وكلاءتك في بهجة وسرور ونعيم وحبور، وجعلتها بحسب حقائقها مكللة بالنور مرموقة بنظرك مكفولة بحفظك، وجعلت أعيننا غالباً في غطاء عن جمالها رحمة منك لنا وعطفاً وإحساناً.

ذلك لأن هذا الجمال الكامن في تصويرها وخلقها لو تبدّى لنفوسنا دفعة واحدة وعرفناه لسكرنا ولذهلنا ولذابت مهجنا من الاطلاع على أسرارها لأنها من النور خلقت ومن الحكمة صنعت، وكيف تقوى أرواحنا التي لم يكمل حظها من القوة ولم تصل إلى غاية الكمال أن تغرق في بحر الحكمة الذي ليس له قرار.

اعلم أني لما وصلت إلى هذا المقام حضر لي صديق صالح فاطلع على هذا فقال: هذه المقدمة لم تخرج عن مقدمات كثيرة من المتصوفة الذين تنشرح صدورهم فينشئون المقالات تلو المقالات، ولم يزدد الناس من مقالاتهم كمالاً في علم ولا معرفة لحقيقة إلاّ قليلاً منهم ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، ابتدأت المقال بأسئلة في الفيران والجمال وأمثالها، ولم تجب عليها ثم أخذت تتغزل في الوجود، وهذا الغزل أراك ورثته من كتب المتصوفين.

إن الأمم الإسلامية اليوم لن تقوم من كبوتها إلاّ بعلم يفتح أعينها لهذا الوجود، فأما إذا أكثرت في الإغراب، وأبعدت في الإرقال، وزوّقت الجمل، وجئت برائع الكمال وبديع النظام، فما علمت حرفاً، ولا زدت للناس ذكراً فاهجم على الحقائق هجوماً كما رأيته في كثير من الأجزاء السابقة في هذا التفسير، إن الكتب إذا خلت من الحقائق المشاهدة عكف الناس على قراءتها وغفلوا عما حولهم، فهل تحب أن يقرأ الناس هذا التفسير وهم مغمضون؟ فقلت له: هدّئ روعك وأحسن ظنك، واعلم أن المقال الذي شرعت فيه الآن علم غزير وفن شريف جميل سيريك:

حكماً نسجت بيد حكمت ثم انتسجت بالمنتسج

إنك سترى من آيات الله وعجائب حكمه ما لم يعلمه أكثر المتعلمين في العالم الإنساني، ذلك أني اطلعت على عشرات من عجائب ألوان الحيوان وأشكاله، وكيف كان ذلك كله قد وضع بدقة وحكمة وغاية مقصودة، اطلعت على ذلك في كتب الفرنجة، أي: في موسوعات علومهم، وهذه الكتب لا يؤلفها إلاّ المختصون بالعلوم، ثم لا يطلع عليها أغلب المتعلمين لأن أكثرهم لا يسعى إلاّ لغذائه ولردائه ولمظهره بين الناس، وأمثال هذا إنّما تتحلى به العقول وتساق به إلى الكمال، وأكثر الناس في الشرق والغرب عن هذه المعالي معرضون.

تشبيه الأرض بدرّة

إن ما سألقيه عليك اليوم هو النور والبهجة والجمال، إن هذه الأرض في حقيقتها بعد ما تسمع اليوم ما أتلوه عليك أشبه بدرّة بهجة جميلة متلألئة، قد سطعت عليها أنوار الكواكب وأشرقت عليها أضواء السيارات، يتلاقى على ظهرها الجمالان: جمال الأنوار، وجمال الدرّة، فترى أرضنا قد امتزجت على سطحها الألوان السبعة التي في قوس قزح بأضواء هذه الجوهرة، فتداخلت الأشكال وتشابكت الألوان وامتزجت الصور في أمواج فوق أمواج، وبحار من الصور والأشكال البهجة والجمال، تلك صور هذه الأرض في عقولنا بعد أن ترى ما سأقصه عليك الآن، بل هذه هي الصورة التي ظهرت في خيالي بعد ما قرأت هذا الموضوع الذي أنا بصدد ذكره الآن، على أن هذا التشبيه دون الحقيقة.

نعم، الله نور السماوات والأرض، والنور على قسمين: نور محسوس، ونور معقول، ونور النجوم والشموس والأقمار وضوء الجواهر، كل ذلك محسوس ولا مناسبة بين المحسوس والمعقول إن النور المحسوس بالأبصار قد سبق ذكره في سورة «الأنعام» وسورة «يونس»، وقد رسمت هناك الصور الشمسية والأشكال الكوكبية والمجرة وأنواع السدم والقنوان، قد تقدم هذا كله، وتقدم شرح ذلك من علم الفلك، بحيث يسهل على القارئين فهمه، ولكن هذا كله هو النور الحسي، أما النور العقلي فهو أكمل وأكمل، وهو النور الذي أنزل في هذه السورة سورة «هود»، إذ يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[الآية: ٦]، ثم يذكر أنه استوى على العرش، وأن عرشه على الماء، وأنه يدبر الحكمة، فهذا باب آخر من أبواب العلم وهو علم الحقائق، ويقول هود: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾[الآية: ٥٦] الأخذ بنواصي الدواب ليس بالأمر السهل، إنه يحتاج إلى علم الأمم كلها، ودرس هذا الوجود كله.

أنزل الله القرآن وقال لنا: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ في سورة «يونس الآية: ٥»، ومدح المفكرين فيها، وهكذا في سورة «الأنعام» وغيرها، ولكن في سورة «هود» أتى بما هو أبعد مرمى وأدقّ مغزى، يدل على ذلك قوله: ﴿ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ﴾ إشارة إلى الحكمة المودعة في الحيوان وغيره، وقوله: ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ فيه إشارة إلى عجائب الوجود الذي نعيش فيه سيفصلها الله ويظهرها للناس، وإلاّ فكيف يقول لنا: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ والناس في الشرق والغرب لا يرون هذا الأخذ بناصية الدواب، لأنهم يرون الدواب ولا يرون الآخذ بنواصيها، فالآخذ بالنواصي لا يرونه، ولكن نفس الأخذ بالنواصي هو الممكن للناس معرفته، ولا يمكنهم ذلك إلاّ بالعلوم والحكمة.

أنزل القرآن على أمة العرب وأمة العرب نشرت القرآن ثم نامت، ولكن الله لا ينام، لأنه هو القائل: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة:١٩] والقائل: ﴿سَأُورِيكُمْ ءَايَـٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء:٣٧] والقائل: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل:٩٣].

فهاهو ذا أرانا بعض آياته في كتب أسلافنا المتقدمين وفي كتب المتأخرين من الفرنجة، أولئك الذين عرفوا بعض العلوم ونبغوا فيها، ولكنهم لا يعلمون أن هذا يطلبه القرآن، بل هم فوق ذلك يكتبون العلم محققين لمسائله، ولا يفكرون إلاّ في الصنعة، أما الصانع فلا يعوّل أكثرهم على ذلك أثناء كتاباتهم، أما أنا فإني أقول بأعلى صوتي: أيها المسلمون، كتاب الله المنزل عليكم لا تدرك بعض أسراره إلاّ بقراءة جميع علوم الشرق والغرب، ثم لا يتم مقصوده إلاّ باجتهاد أبناء الإسلام بعد قراءة علوم القوم، إذ يزيدون على ما علموه وهم مجدّون، وأقول أيضاً: ﴿هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ [يوسف:٦٥] هي منطبقة تمام الانطباق على آيات القرآن، فهاأنا ذا الآن أيها الأخ أريك العجب، وستعلم أن هذا من بيان الله الذي سخر له الفرنجة، وهو الذي أعثرني عليه وهداني لفهمه، فهذه البضاعة بها يمير الله قراء هذا التفسير، ويحفظ بها سائر المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ويزيدهم علماً بجدّهم واجتهادهم أسوة بإخوة يوسف إذ قالوا: ﴿هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [يوسف:٦٥] الخ.

فقال صاحبي الصالح: فأجب أولاً عن الأسئلة المتقدمة، ثم اذكر ما تريد ذكره من عجائب الحيوان. فقلت: إن الألوان على قسمين: ألوان براقة بهجة ذات أشكال تلفت الأنظار، وألوان خفيفة لطيفة ليس لها بريق ولمعان. أما الأولى فإنّما أعطيت لحيوانات عندها ما يحميها من أعدائها ويحفظها من المغيرين عليها، فأما الألوان الخفيفة اللطيفة فإنّما تعطى إلى الحيوانات التي من مصلحتها ألا تظهر بوضوح لأحد أمرين: إما لأنها عرضة للمغيرين عليها، وإما لأنها لها فريسة، فخفة ألوانها ولطفها أقرب إلى اختفائها عن أعين فرائسها، فيمكنها أن تنال منها غذاءها ولو بنصب وتعب في العشي والإبكار، هذه هي القاعدة العامة ذكرتها الآن توطئة لما أفصله فأقول:

من عادة الحيوان أن يكون لونه مشاكلاً لما حوله، وهذه المشاكلة تكون سبباً لوقايته، لأنه بها يختفي عن أعين الرقباء.

الكلام على الزنبار

فخذ الزنبار مثلاً تره زاهي اللون منقشاً مرقشاً، لماذا؟ لأنه أعطي حمة بها يهجم على من يؤذيه، لذلك اقتضت حكمة الله عزّ وجلّ أن يكون بمظهره المعلوم، لأنه لا يخاف عدواً يغير عليه، فهو في مأمن سلاحه الذي يحمله. فالزنابير إذن أشبه بالأمم القوية إذ يجوس رجالها خلال البلاد في الشرق والغرب ظاهرين، لأن لهم دولاً تحميهم وتحافظ عليهم، ودولة الزنبور هو سلاحه، فسلاحه يقوم مقام سلاح الدول في حفظ رعاياها.

ألست ترى أن الله أخذ بناصية هذا الزنبار، فجعل له شكلاً جميلاً مزوّقاً، وأعطاه سلاحاً وقال له: كن حراً طليقاً أيها الزنبار، لأني أنا الآخذ بناصيتك وأنا على صراط مستقيم، اللهم إنا نحمدك على العلم ونشكرك على الحكمة.

الكلام على الفيران والوطاويط والبوم

وخذ الفيران مثلاً آخر، والوطاويط التي تكون إما رمادية اللون وإما سوداءه، فسبب ذلك أن هذه الحيوانات من الحيوانات الليلية لخوفها من الحيوانات القانصة المهلكة، فهي أبداً في النهار مختفيات، فإذا ظهرت ليلاً وكان لها لون غير السواد وما قاربه نمّ ذلك اللون عليها فعرّضها للعطب فكانت من الهالكات.

وانظر إلى البوم فإنك تجد لونه ترابياً فيه بقع ملونة كثيرة لوناً خفيفاً، وذلك ليحصل التشابه بينه وبين قشر الشجر والأرض أثناء النهار، ولا يكون كثير الوضوح أثناء الليل، أليس هذا الصنع معناه أن الله آخذ بناصية البوم؟ نعم، أخذ بناصيته فلوّنه على الهيئة التي بها يعيش فيأكل الفيران وغير الفيران لمصالح هذا المخلوق، وإلاّ فلماذا يختص البوم باللون الذي يكون حافظاً له؟ وبغير هذا اللون المخصوص يفنى البوم ولا يكون في الوجود.

الكلام على السمك

وانظر إلى السمك فإن الذي نراه لامعاً بهجاً، فإنه يكون عيشه في قاع البحر محوطاً بالجمال الرائع من أعشاب بحرية لامعة، ومرجان نابت في قاعها بهيج، ونبات من الشقائق بهية، فيكون ذلك القاع أشبه بحديقة خيالية عبقرية حسنة، فيخلق ذلك السمك مناسباً لما حوله حتى يختفي فيما هناك من الأشكال، وبذلك يتوارى عن الأبصار.

أما السمك الذي يرى ظهره أزرق مائلاً للسواد أو للخضرة وبطنه أبيض، فذلك لأنه يعيش أقرب إلى سطح الماء في البحر، فصار ظهره مناسباً للجو ولزرقة الماء في البحار، فيختفي عن أعين الطيور القانصة للسمك، وجعل بطنه أبيض ليختفي عن أعين السمك المفترس، فيتشابه لون بياض بطنه بلون الماء فلا يفترسه السمك المغير.

الكلام على لون الجمل والأسد ونحوهما

أما الجمل والأسد ونحوهما وتلونهما باللون الخفيف الرملي فذلك لأنهما من سكان الصحراء والصحاري لا أشجار فيها ولا مراعي، فالأسد لو كان لونه زاهياً كالزنبور لفرت منه فريسته، والجمل لو كان كذلك لكان عرضة لافتراس الحيوانات المفترسة، فتهجم عليه كالنمر والأسد والذئاب، فأعطى كل منهما لون ما حوله من الرمال ليشتبه بها، وبالصخور الرملية التي تحيط به. وهكذا ترى القنبر وأنواعاً أخرى من الطير، وكل ما له فروة من الحيوانات الصغيرة ذوات الأربع وجلد بعض الحيات والضباب، كل ذلك ملوّن بلون الرمال وقاية من الله، وحفظاً لتلك الحيوانات، فسبحان الخلاق العظيم.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: إنني وجميع المتقدمين من أبناء مصر وبلاد الشرق وأكثر بلاد أوروبا يقولون غير ما تقول، يقولون: إن الوسط قد أثر في هذه الحيوانات فهذا أمر طبيعي لا غير، فأما الأخذ بالناصية الذي ذكرته فإن المتعلمين لا يقولون به. قلت له: حياك الله وبياك، ألم تذكر أنني بينت لك أن هذا العلم لا يكون عند المتوسطين في العلوم؟ إن هذه الآراء إنّما يعرفها الحكماء في أوروبا وفي الشرق، فأما تلاميذ المدارس في كل أمة فإنهم كالعامة في هذه النظرات، بل هم المتحيرون في هذا الوجود، ولا يحظى بالحكمة منهم إلاّ الأقلون أولئك هم المفكرون. فقال: هات برهانك وانقل لي ما

قاله أكابر حكمائهم في عصرنا، حتى لا تتهم بأنك إنَّما تحاول أن تجعل القرآن موافقاً للعلوم بالحق أو بالتحايل. فقلت: قد جاء في كتاب «موسوعات العلوم» المسمى «سايِنس فور أُلل» في المجلد الثاني صفحة ١٢٨ وما بعدها ما يأتي:

إن المفكر العادي يرى أن ألوان الحيوانات قسمت ووزعت بلا صنعة ولا علم، وترى المناطق الحارة الاستوائية كل شيء فيها لونه بهيج زاه زاهر في حيوانه ونباته بخلاف ما عندنا، ثم بيان السبب في أن هذا أحور وذاك أبيض الخ، كل ذلك عند أكثر الناس لا يفيد ولا ينتج، بل هو عبث، ثم قال: وسأبين لك أن حيوانات كثيرة ألوانها نافعة لها، بل إن كثيراً منها تتوقف حياتها على حماية ألوانها لها ولولا تلك الألوان لانقرضت تلك الحيوانات وبادت من الوجود.

ثم أخذ يبيّن تلك الحيوانات واحداً واحداً بدقة وحكمة وفقه وتفكير في الهواء والبر والصحراء والجبل والبحر والأقطار الحارة والباردة، وفي هذه قال: نبحث في جهات القطب الشمالي، فإن لون البياض هو السائد في تلك الأقطار، وقد ترى هناك السواد والسمرة إذا كان ذلك أصلح للحيوان في تلك الأقطار.

الأرنب والدب والثعلب القطبيات

ثم قال: كل دبّ في الأرض أسمر أو أسود إلاَّ دبّ القطب الشمالي فهو أبيض، وهكذا أرنب القطب والبوم، كل هذه بيضاء أو قريبة من البياض، والثعلب القطبي أبيض، والأرنب الذي يسكن الجبال العالية، فهذا يتغير إلى البياض زمن الشتاء، وهناك طائر يسمى «بسترميمن» وهذا خير مثال للحماية بالألوان، فهو موافق لألوان الأحجار التي يقع عليها ويلازمها، ولا يقدر الإنسان أن يميز سرباً منه وهو في زمن الشتاء يلوّن بالبياض لأجل حمايته بمشاكلته للثلوج، فهو يلون في الصيف بلون الأحجار، وفي الشتاء بلون الثلج لحمايته أيضاً.

الغنم القطبية والسمور والغراب وألوانها هناك

ثم قال: وهناك ثلاثة أنواع من الحيوان تخالف لون الثلج في تلك الأقطار:

أولها: نوع من الغنم يسمى «غنم مسك»، فهذه لونها السمرة مع السواد، فتستبين وتظهر وسط الجليد، وسبب هذا أنه يعيش جماعات، وليس لفرد منه أن يعيش وحده، فلون السواد والسمرة الذي يظهرها وسط الثلوج ظهوراً واضحاً ضروري حتى يعرف كل خروف منها أصحابه، ولو كان لونها كلون الثلوج لضل القطيع وتفرق وافترسته المفترسات، فهذا النوع بين نارين: إما حياة محمية بالسمرة مع السواد ليتعارف أصحاب السرب الواحد، ويغتفر في جانب هذا أن ينفرد الواحد بعد الواحد ضالاً الطريق أو مريضاً فتختطفه المفترسات كالثعلب القطبي، أما أفراد السرب فهي متعاونات لها حراس يعرفون مواقع الخطر فيفرون بالقطيع كله فيعيشون ويكثرون، وإما لون كلون الجليد به لا يميز بعضها بعضاً فتهلك كلها، لا جرم أن أول الأمرين خيرهما، وهذا هو الذي حصل في الوجود.

النوع الثاني: السمور، فإنه يحتفظ بفروته العظيمة الثمينة الجميلة السمراء في أيام شتاء «سيبيريا» القارس، وذلك لأنه يلازم الأشجار ويأكل من ثمارها، وهو نشط ويختطف الطيور بين الأشجار فيقتنصها فيأكلها، ولو كان لونه السواد لميزته الطيور ففرت منه فلم يأكلها.

النوع الثالث: الغراب، إنه يكون في أقصى الأقطار القطبية الشمالية، ولكنه دائماً أسود. ذلك لأمرين:

أولاً: أنه لا عدو له يفاجئه إذا تميز في وسط الثلوج.

والثاني: أن فريسته ـ وهي الجيفة ـ لا تفر منه إذا أراد أكلها، فلذلك حفظ له سواده ولم يغير ذلك كله لمنفعة الغراب نفسه. ثم قال: هذه المسائل الثلاث من البراهين الدالة على ما ذكرناه من أن الألوان مقصودة لحماية الحيوان، وهذه الحجة صادقة ومكذبة لمن يقولون إن البياض في الأقطار الشمالية من أحد أمرين: إما من تأثير البرد مباشرة على الحيوان، وإما من تأثير انعكاس البياض من الثلج على الحيوان، فهذه الأنواع الثلاثة علمتنا أن بياض الحيوان إنَّما يكون لما ينفعه البياض ويحفظه في حياته، أما التي لا تحتاج إلى حماية البياض أو تلك التي ينفعها السواد فإنها تلون به ولا تلون بالبياض، ثم قال: إذن سبب التغير لا يرجع عقلاً إلى الأمور الخارجة عن الحيوان، بل هو راجع إلى قوانين مختلفة، تدور كلها حول حفظ الحيوان ومنفعته، لا على الوسط الذي تعيش فيه حشرات تلوّن بلون جذوع الأشجار، وحشرة أبي دقيق التي تلوّن بلون الأوراق الجافة. فلما أتممت هذا القول أخذ يقول: يا عجباً، أهذا كلام الحكماء بأوروبا في عصرنا؟

فقلت: نعم هذا هو الذي رأيته ونقلته، وسأشرح هذا المقام إن شاء الله ما بقيت حياً في سورة «المؤمنون الآية: ١٧» عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ﴾، وهناك أبيّن هذا المقام بإيضاح وأثبت لك الصور التي رسمها القوم بالتصوير الشمسي، فترى هناك إن شاء الله حشرات طائرات، ثم إنها تجثم على شجرة عتيقة، فيخيل للرائي أنها عبارة عن غصن غليظ من الشجرة قد كسر أعلاه حديثاً، وما ذلك إلاَّ أن هذه الحشرة قد خلقت بحيث تكون على هذه الحال لئلا يعرفها قانصها من الطيور آكلات الحشرات، وهكذا ترى هناك صور حشرات ألوان أجنحتها تشبه تمام المشابهة ألوان الأوراق الجافة، حتى لا يفطن لها آكل الحشرات، وهكذا بعض الحشرات من أبي دقيق الذي تراه هناك مرسوماً على الشجرة، وهو لا يتميز من أزهارها التي تلون بلونها، كل ذلك ستراه إن شاء الله، ولا يسع المقام ذكره هنا. فقال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

بيان أن هذا معنى قوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ الخ

فقلت: أليس هذا يكفيك في معنى قوله تعالى على لسان هود: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، فانظر إلى التعبير بـ ﴿رَبِّى وَرَبِّكُم﴾، فهو مربي هود ومربي قومه، وهو مربي كل حيوان وحافظه، وهو على صراط مستقيم، أي: هو عدل لا يجور، والجور هنا: إعطاء الحيوان ما لا ينفعه أو ما يضره، فلو أنه أعطى السمك الذي في قاع البحر لون الذي عند سطح الماء، فكان في ظهره زرقة مع سواد أو خضرة لامتاز بهذا اللون، فتعرّض للمهلكات، ولو أعطى السمك الذي عند سطح الماء ما أعطاه للسمك الذي يعيش في قعر الماء في البحار الحارة التي يكون قاعها مزداناً بجمال الحيوان والنبات لامتاز هذا بلونه البراق البهيج عند سطح الماء، فرآه ما فوقه من الطيور الصائدات، وما تحته من السمك المفترسات. إذن ثبت بالعلم الذي نشر اليوم في أنحاء أوروبا وأمريكا واليابان وجميع العالم الإنساني أن هذه الآية يفسرها حكمة

الحكماء وعلم العلماء، ويضعف عن فهمها أكثر رجال الدين في البلاد الإسلامية الذين لم يعرفوا نظام ربهم واكتفوا بإيمان العجائز، وهكذا أكثر المتعلمين بمدارس مصر والشام والعراق وأوروبا وأمريكا واليابان، فإن هؤلاء كالفقهاء في الإسلام، والفرق بينهما أن الفقيه يقول: هذا فعل الله، وهؤلاء الذين أخذوا شهادات عالية من المدارس يقولون: هذا فعل الوسط والبيئة، وأن الثلج أثر على ما حوله من الحيوان، فأعطاه البياض، وأن الرمل في الصحراء أثر في الجمل والأسد فجعل ألوانهما كألوان رمال الصحراء، وقد ظهر لك بطلان ذلك كله بالبرهان.

العرش والرحمة والعلم

قد جاء في أول هذه السورة أنه ما من دابة في الأرض إلاَّ على الله رزقها، وأن كل ذلك في كتاب مبين، وأن عرشه على الماء، وجاء في سورة أخرى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾[غافر: ٧]، فالذين يحملون العرش، أي: الملك والذين حول العرش هم المدبرون لهذا العالم من العوالم المجردة عن المادة، والعوالم المادية كأرضنا ترى فيها نفوساً صغيرة في أجسام إنسانية لتزداد علماً، وبعضها يرتقي إلى أن يصير مع أولئك المجردين عن المادة من الملائكة، ويدبرون كتدبيرهم كل بقدره، فهؤلاء الملائكة يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون، والتسبيح يرجع لمعرفة أن الله مترفع عن المادة وما يناسبها وعن سائر المخلوقات، والتحميد لا حقيقة له إلاَّ بإدراك الحقائق، فإن الحمد إنَّما يكون على نعمة، والنعمة إن لم تعرف فلا حمد عليها، وكلما كان الإنسان أو الملك أكثر علماً كان أكثر حمداً، والحمد جاء في اسم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وجاء في قول المصلي قبل كل مكتوبة: «اللهم آت سيدنا محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته»، فذكر الحمد وتكراره في الصلاة والدعاء كله راجع للعلم، فلا حمد إلاَّ على علم، والمجهول لا حمد عليه.

فهؤلاء الملائكة يسبحون بحمد ربهم، وهم علماء بما حمدوا عليه وهم مؤمنون، لأن الحمد لا يكون إلاَّ مع إيمان، ولكون المؤمنين شاركوهم في الإيمان العام أخذوا يستغفرون لهم ويقولون: ﴿ وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾.

فياليت شعري، كيف تعلم أن الله وسع كل شيء رحمة وعلماً إلاَّ بمثل ما ذكرناه، وتعجب من ذكر الرحمة مصحوبة بالعلم لأن الرحيم الجاهل لا يقدر أن يضع الأمور في مواضعها، فيعطي السمك الذي عند سطح الماء لون المرقش المزين الذي في قاع البحر الحار، فيموت السمك فريسة هذا النقش والتصوير والتزويق، ويعطي بجهله الجمل لون الطاووس، وكذلك الأسد، فيهلك الأول بالحيوانات المفترسة، والثاني بفرار الغزلان والبقر والجاموس والغنم والمعز إذا رأيته في عرض الصحراء.

فالرحمة لا تكون إلاَّ مع العلم، والرحمة بلا علم حماقة، وهذا المعنى هو المذكور هنا وهو قوله: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، ولن يكون على صراط مستقيم، أي: عدل، إلاَّ إذا علم طرق المنافع والمضار، فأعطى الأول ومنع الثاني، فقوله هناك: ﴿ وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ يقرب من قوله هنا: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

فقال صاحبي: ما معنى قوله في أول السورة: ﴿ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ بعد ذكر أن كل الدواب عليه رزقها، هل الكتاب الذي كتب فيه كل شيء اطلعنا عليه، وأبان لنا شيئاً من تلك العلوم؟ فقلت: كتاب الله ولوحه المحفوظ لا يعرفه إلاَّ هو، ومن يريد تعليمه، ولكن هذا الكتاب له آثار. فقال: وما هي الآثار؟ قلت: انظر إلى التصوير الشمسي، ألست ترى أن الناس يصورون الجبال والأنهار والكواكب والمزارع والحصون بالتصوير الشمسي فيعرفونها معرفة عامة؟ قال: بلى. قلت: فهل الصورة الشمسية فيها مزايا الأصل من كل وجه؟ قال: كلا. قلت: هكذا هنا إن الله لم يطلعنا على اللوح المحفوظ، أطلعنا على الصورة المنطبقة في الأرض منه، فهذه الطوائف الحيوانية والنباتية التي قرأت بعضها هنا وفينا تقدم في هذا التفسير والتي ستقرؤها إن شاء الله في سورة «المؤمنون» إذا درسناها حق دراستها أرتنا جمال ذلك اللوح المحفوظ، فإن الإتقان في الصنع بحيث ترى الفأر والأسد والجمل وطوائف الحشرات والسمك كل واحد منها قد أعطي ما به حياته.

ذلك كله نظام وترتيب، والنظام والترتيب إنَّما يكون من العلم؛ فالعلم والحكمة المخبوءان عنا المحفوظان عند الله قد ظهرا في هذا الوجود، وبانا أيّما تبيان لمن يدرسون، أما الذين يعيشون وهم ساهون لاهون مكتفون بقشور العلوم وبما نالوا من شهادات من مدارس عالية، فأولئك ربما كان غرورهم بعلمهم القليل يحملهم على إنكار ما لم يعرفوا، والتظاهر بالإنكار ليدفعوا بذلك الإنكار والتكبر والخزي والعار أمام الذين يعلمونهم، فإذا سئلوا في مثل هذا المقام قالوا: هذه أشياء يقتضيها الوسط والبيئة وأحوال الجو وهكذا.

واعلم أن الله عزَّ وجلَّ حجب أكثر النوع الإنساني عن معرفة هذا وأمثاله رحمة منه بهم، كما قدمت في أول المقام، ولو أنهم عرفوا ذلك لسكروا ولانبهروا، فكان فرحهم عظيماً، لكن الله برحمته شغل الناس بإطعام أنفسهم وبملابسهم وبعداواتهم وأعمالهم، فهم في شغل شاغل. كل ذلك ليقوي عقولهم حتى يستأهلوا لمعرفة هذا الوجود، ولو عرفوه الآن لذابت أكثر النفوس، فهو هنا حجبها ليقويها ولا يعطيها من العلم إلاَّ بمقدار، على حسب قابليتها.

فإذا رأيت زيداً يحقر هذه المسائل فلا تعجب لأنه الآن يربى بالنقم والنعم والعز والذل والفقر والغنى، لتتربى نفسه في الصيف والشتاء والخريف والربيع فتشتد وتقوى، حتى إذا فارقت روحه بدنه استحق من العلم على مقدار ما استعد له، فحجب الناس عن العلم لم يكن بخلاً ولكنه يحرمهم منه إلى أمد معلوم لمنفعتهم لا غير، وإذا رأيت نفوساً متعطشة إلى هذه المعارف ونالت بعضها، فاعلم أنها استحقت ذلك، ذلك هو الصراط المستقيم والحمد لله رب العالمين.

التسبيح والتحميد

استيقظت قبيل فجر يوم الأحد ٣١ يوليو سنة ١٩٢٧، فخطر لي أن هذا الموضوع يعوزه التمام، فهأنا ذا ذاكر ما انشرح له صدري تتميماً للمقال فأقول:

لقد علمت أن الألوان جعلت لحماية الحيوان فيما تقدم، وفيما سيأتي في سور أخرى. فاعجب لذلك، واعجب لقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤]. من هنا فليقرأ المسلمون التسبيح والتحميد.

التسبيح: تنزيه، والتحميد: آثار للنعم؛ هذا هو مقصود التسبيح، أمرنا بالتسبيح في صلواتنا، وسبّحنا في الركوع، وسبّحنا في السجود في كل واحد ١١ مرة، وحمدنا في الرفع والاعتدال فقلنا: ربنا لك الحمد، وحمدنا في أول الفاتحة في كل صلاة، فنحن قوم حمادون، ونحن الذين قيل لنا: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الروم: ١٧ـ ١٨]. وجاء في سورة «يونس» السابقة قوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الآية: ١٠]، هذا المقام هو سر التسبيح وسر التحميد الذي لا نفهمه.

نحن سبّحنا وتسبيحنا لفظي، وحمدنا وحمدنا لفظي، فإذا لم نتبع اللفظ معناه كنا ضالين، ومعنى الحمد ومعنى التسبيح يظهر في أمثال هذا المقام مقام الألوان.

الله أكبر، جلّ الله، وجلت الحكمة، اللهم إنك أنت الذي أبرزت هذه الأشكال الحيوانية الآتية صورها فيما سيأتي، وأنت الذي رسمت عليها تسبيحك وحمدك، فبالأول نزّهناك عن العبث في صنعك والبعد عن الصواب في خلقك.

لقد كسوت الحيوانات أكسية لونتها بألوان خاصة فكانت وقاية لها، فألبست الدبّ في الأقطار الشمالية قباء أبيض، وخلعت على الزنبور حلة مزركشة مزوّقة براقة، يراها الناظرون، وحبوت سكان الصحارى من الدواب ألوان رمالها، وأفضت بنعمك على تلك المخلوقات التي هي في كلاءتك، وزينت بعض الحشرات بزينة تشبه زينة حيوانات من نوعها، وبهذه المشابهة أوهمت أعداءها أنها لها سلاح كسلاح المشبه به اقتصاداً منك في عملك، ولطفاً منك بمخلوقاتك، ورحمة بها، فحميتها من أعدائها بمجرد المشابهة اللونية لما له سلاح من نوعها كما سيأتي صور ذلك فيما سيأتي من مجلدات هذا التفسير في محله إن شاء الله. وإذا رأينا حشرة كزرق الطير، وإذا رأينا طائراً ليلياً يسمى «سكانك» في أمريكا الشمالية قد ازدهى لونه وجمل شكله فصار في الليل ظاهراً واضحاً، وقد طال ذنبه الأبيض الزاهي الذي هو علم له يرفعه ليعرف، أقول: إذا رأينا هذا وذلك فإننا نقول إننا نزهنا الله بعقولنا لا بألفاظنا فقط، نزهناه عن العبث، أي: العبث في وضع هذه الألوان وهذه الأشكال، فنرى أن شكل زرق الطير للحشرة المذكورة إنّما جعله الله وقاية لها، فليس هذا ازدراء واحتقاراً ولهواً ولعباً، بل الحكمة أصبحت معروفة لنا، فإن الطير لا يشك في أن هذا زرقه فيصد عنه، فيكون هذا الشكل رحمة بالحيوان فإذا سمعنا الله يقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[ص: ٢٧] فذلك لأن الذين كفروا بالله يقولون: إن العالم جاء بالمصادفات والامتزاجات، وهكذا ظن جميع الجهال وجميع المتعلمين تعليماً ناقصاً، ولكن الذين اتبعوا الأنبياء منهم يؤمنون ويصدقون ولكنهم لا يفقهون الحقائق، ويخطر لهم أن هذا العالم باطل، ولكنهم يدفعونه بإيمانهم وتصديقهم، والإيمان غير اليقين، وهكذا نقول في الطائر المذكور الآتي شرحه في المجلدات الآتية إن شاء الله تعالى.

نقول: إن هذا الطائر الأمريكي قد أعطاه الله سلاحاً، وهو أنه ينشر رائحة كريهة بها يدفع كل هاجم عليه، فجعل الله هذا الذيل الطويل البهج الجميل الأبيض ليكون علماً له يرفعه، فتراه الطيور الكواسر فتفر منه ولا تقربه لأنه نشر علمه يقول: أنا البطل المغوار، أنا الليث الكرار، أنا الذي أدفع أعدائي بسلاح عجيب النشأة غريب، فلدني الإنسان فاخترع الغازات الخانقة والمعمية، فأنا أول من

حارب الأمم بالغاز الكريه شمه، وأعدائي من الحيوان ليس عندها وقاية تقيها على أنوفها من رائحتي الكريهة، كما استعمل جيوش الخلفاء أكنة على أنوفهم في الحرب الكبرى وقاية لها من غازات الألمان الذين قلدوني في اختراعي، فلي السبق عليهم في هذه الصناعة.

إذا فهمت هذا فهمت قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾[الإسراء: ٤٤]، فجعل التسبيح ملتبساً بالحمد، وهذا هو الحق، فإن الحشرة التي على لون زرق الطير قد كتب على بدنها ما نصه: أنا أنزه الله عن العبث في وضعي على هيئة قذرة فلم يجعل هذا عبثاً وإنّما جعله لمنفعتي. فقول الحشرة إن هذا الوضع ليس عبثاً وإنه لمنفعتها، تضمن التسبيح والحمد معاً، لأن النعمة هنا هي الوقاية من الهلاك، والوقاية مرتبطة بهذا الشكل القذر، فقذارة الشكل بها النجاة، فمتى قلنا بها النجاة، نزهنا الله عن العبث، وصارت له منة على الحيوان، فالتسبيح هنا ملازم للحمد، فهذا هو سر: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ فالتسبيح هنا مع الحمد لا ينفصل أحدهما عن الآخر.

فهذا الشكل أفادنا الأمرين معاً: تنزيه الله عن العبث، وفضله على عباده، ومثل هذا نقول في الطائر الأمريكي، فرائحته الكريهة التي يطلقها على عدوه هي شيء قذر، والله لم يخلق هذا القذر الكريه الرائحة عبثاً، بل جعله وقاية لمن اتصف به، فحصل الأمران: تنزيه الله عن العبث في وضع هذا القذر المكروه الرائحة، والمنة والنعمة على الحيوان؛ فالتسبيح والتحميد متلازمان، وهذا يفهمنا معنى قوله تعالى في سورة «يونس الآية: ١٠» قبل هذه: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. فهذا المقام فتح لنا باب فهم ذلك على قدر طاقتنا البشرية.

إن تسبيح أهل الجنة وتحميدهم ليس كتسبيحنا ولا كحمدنا، بل هم يسبّحون ويحمدون بطريق الإلهام كما ورد في الآثار: إنهم يلهمون التسبيح والتحميد كما نلهم نحن النفس، فالتعبير بالإلهام يفيد أن ذلك التسبيح وذلك التحميد قد ظهر الآن في هذا التفسير شعاع نور منه، فإن ألوان الطيور وأشكالها وهكذا كل حشرة وكل حيوان جميعها امتزج فيها التسبيح بالتحميد، ولكنه معقد غير معقول إلاّ لقليل من الناس، ولذلك قال لنا: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤]، إن تسبيحهم مندمج في حمدهم.

إن هذه العوالم كلها عبارة عن كتاب كتبته بيدي، يدل دلالة أوضح من دلالة ما تكتبونه بأيديكم وما تتلفظونه بألسنتكم، ولكنكم تقصرون عن إدراك ذلك وأنتم في هذه الأرض، ولا يفهم بعضه إلاّ أناس اخترتهم لذلك، وهم الذين قلت فيهم: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[فاطر: ٢٨] ولا يتم الفهم إلاّ بعد الموت لأولي الألباب، ولذلك جعلت تسبيح أهل الجنة مفصولاً عن حمدهم، والتسبيح على قدر التحميد، أريد بذلك أن المعاني المعقدة عليكم والمعاني المخبوءة في هذه الصور والأشكال التي هي حروفي وكلماتي التي خفيت عليكم وأنتم هنا فلا تفهمونها، هي التي ستظهر لأهل الجنة فيعقلونها بطريق الإلهام، فتفصل لكم الأشياء تفصيلاً كما فصلت الحمد هنا عن التسبيح، بحيث تعقلون جمالي، وقد قويت أرواحكم فحملت ذلك، فصارت في لذة لا يحلم بها ولا يقدر على تحملها أهل الأرض، هذا تحقيق بعض المعاني في قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ الممتزج بالتحميد، بخلاف أهل الجنة إذ يسبحون ويحمدون بالفهم والعقل لا بمجرد اللفظ كما تفعلون.

هذه هي المعاني التي خبأها الله في صور الحيوانات التي تعيش بين ظهرانينا فهو آخذ بناصيتها، وهم أنفسها تسبيح، وهي أنفسها حمد، ونحن اليوم لا نعقلها وسنعقلها بعد الموت.

واعلم أن هذا التفسير فتح لباب هذه المعاني، وسيكون في هذه الأمة حمادون ومسبحون بطريق العلم والحكمة، ويكونون نوراً للناس، وتكون هذه العوالم في نظرهم جنة عرضها السماوات والأرض، وأيّ جنة وأيّ لذة أبقى وأرقى وأعلى من الوقوف على الحقائق التي ستكون نوراً لنا في هذه الدنيا، ويوم القيامة نهتدي به لعلوم أعلى، والعلوم هي حقائق التسبيح والتحميد.

إذا علمت هذا علمت كيف أمر المسلم بالإكثار من التسبيحات والتحميدات بكرة وعشياً، ولماذا يقول صلى الله عليه وسلم لفاطمة رضي الله عنها لما سألته خادماً كما في البخاري: «إذا أخذتما مضاجعكما فسبحا ثلاثاً وثلاثين، واحمدا ثلاثاً وثلاثين، وكبرا ثلاثاً وثلاثين»، ثم ذكر أن هذا خير لهما من خادم، أليس ذلك معناه أن العلم هو اللذة القصوى، فإذا كان الخدم لراحة بدن المخدوم ـ وبعبارة أخرى ـ إذا كانت الحياة فيها لذات كالبقاء فيها، وكالتلذذ بالمال والخدم والحشم، فإن هناك ما هو خير لسعادة الإنسان، وهي إدراك الحقائق، الذي دخل تحت التسبيح والتحميد والتكبير، وذلك كله مخبوء في العوالم التي نشاهدها أمثال هذا الطائر الأمريكي، وهو بدن مركب من أجزاء، أو كلمة مركبة من حروف دلت على معان لا يفهمها إلا الخاصة، ولا يفهمون منها إلا قليلاً، وفهمها هو عز الدنيا وعز الآخرة، وسعادة الروح وسعادة البدن. وهذه الكلمة من كلمات هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩].

فهاأنت أيها الذكي أخذت تقرأ في هذا التفسير بعض كلمات الله في اللوح المفتوح أمامك، وهو هذه الدنيا، وأكثر الناس حولك لا يعلمون، والحمد لله رب العالمين.

المتعلمون تعليماً أوروبياً يجهلون حقائق العلم في أوروبا وفي الإسلام

تبيّن لك من هذا المقال في تفسير قول هود: ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ الخ أن كل دابة لا تعطى لوناً ولا شكلاً إلا لمنفعتها بحسب الاستقراء حديثاً، وهاك ما كتبه العلامة «روبرت برون» في كتاب «موسوعات العلوم» المتقدم ذكره، قال ما ترجمته في صفحة ٢٨٤ من المجلد الثاني: لقد كتبنا في مقال سابق من صفحة ١٢٨ إلى صفحة ١٨٧، أقول: هي المقالة التي استخلصنا بعضها هنا وستذكر فيما بعد، في الألوان الحافظة للحيوان، واجتهدنا أن نلقي شعاعاً من العلم ووضوح الحقيقة في المقصود من هذه الألوان الخاصة وفي أصولها، من حيث إنها بها يختفي الحيوان عن أعدائه الآكلات له، وعن فريسته التي لا بد له من اصطيادها، ولقد أبنا هناك كيف كان موضوع الألوان متسعاً متشعب الأطراف في الطبيعة، وكيف أن ما كان يظهر للناس من الألوان إنه للزينة وللزخرف.

(١) حينما كنا نبحث الحيوان وهو محبوس في أقفاصنا، يريد أمثال الطاووس.

(٢) وحينما نلاحظ صورته في دار التحف، ظهر الآن أنه خطأ محض وضلال مبين، لأن تلك الألوان جميعها لحفظ كيان الحيوان والمحافظة عليه إذا درسناه وهو في وطنه الأصلي، أو رأيناه وهو

جاثم للاستراحة وقد اتخذ شكلاً به ينجو من خطر الهجمات. انتهى بإيضاح قليل، وهذا القول يفيدنا فائدتين:

الفائدة الأولى: أن الناس في غفلة معرضون عما حولهم، وأن المتعلمين في بلاد الشرق الذين قرؤوا لغة أو لغتين مع بعض العلوم، هؤلاء هم كأكثرهم فقهاء الإسلام، وهؤلاء ممن قال الله فيهم: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[الأنعام:١١٦].

أما ظن هؤلاء المتعلمين تعليماً أوروبياً، فإنه اتجه بغرور إلى أن ما أخذوا فيه شهادة من مدارس أوروبا هو العلم كله، وهم في الوقت نفسه يجهلون حقائق العلوم عند الأوروبيين، فأكابر علمائهم في العلوم الطبيعية قد رأيت الآن نص ما نقلته عنهم، وأنهم يعيبون الذين يكتفون من الحيوان بظواهره ولا يعقلون حقائقه، وأما ظن الفقهاء فظاهر أنهم يتركون النظر في هذا العالم ظانين أنهم عرفوا كل شيء، فالأولون كفروا لقلة علمهم، والآخرون جهلوا ما يطلبه الإيمان، ولو أن الطائفتين كانوا غير مخدوعين لدرسوا وحققوا؛ فالكفر في الأولين للغرور، والجهل في الآخرين للغرور، وهاهي ذه علوم أوروبا التي نقلناها عن حكمائهم في عصرنا، فأعداء الشرق هم الفقهاء الغافلون، ومتعلمو العصر المغفلون؛ فالفقهاء بادعائهم نصر الدين قد هدموه وهم غافلون، والمتعلمون تعليماً أوروبياً بتركهم الدين واحتقارهم كل دين أعربوا عن جهلهم بعلوم ساداتهم في أوروبا، ويقول الله في الطائفتين: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[غافر:٨٣]، وهذا تمام الفائدة الأولى.

الفائدة الثانية: إن هوداً عليه السلام كان يناوئه قومه ويعادونه، وهكذا سائر الأنبياء، فهؤلاء كلهم قد آذتهم أممهم، فقال لهم هود: أنا لا أخاف منكم ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾، واحتج على ذلك بدليل وهو أن الله آخذ بناصية كل دابة، فإن وقع بي مكروه فهناك أحد أمرين: إما أنه ينجيني منه، وإما أن ذلك المكروه يكون سبباً في ثواب الآخرة، كما قال تعالى على لسان نبينا صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾[التوبة:٥٢]، فجعل النصر حسنى، والقتل في سبيل الله حسنى، وهذا هو معنى التوكل، أي أن الإنسان يجتهد في عمله، والنتيجة تسلم لله، وتكون هي خيراً للإنسان بحسب حاله، كما أننا رأينا الطائر الأمريكي قد جعل المكروه من رائحته والمحبوب من شكله الزاهي الزاهر كلاهما لحفظه، وكما رأينا تلك الحشرة التي شكلها شكل زرق الطيور قد جعل ذلك الشكل القبيح لوقايتها، فهنا قبيح وحسن لوقاية الحيوان، وقبيح خالص لوقايته أيضاً، هذا هو الذي يقصده هود عليه السلام، يقول: إن الله تكفل بالحيوان وجعل المكروه والمحبوب لمنفعته، فهاأنا ذا أتوكل على الله وأقول: إن المكروه والمحبوب نافعان لي، والشر كالخير، لأن النتيجة هي الفائدة لي، وربي الذي رأيناه جعل المكروه والمحبوب نافعين للحيوان هو نفسه الذي قدّر لي المكروه والمحبوب؛ فبالقياس للذتي في الحال، والثاني للذتي في الاستقبال، وهذا هو قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[هود:٥٦]. اهـ.

زيادة إيضاح ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

إنه يربينا على صراطه المستقيم، وهو يهدينا الصراط المستقيم كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَاطِ اللَّهِ﴾[الشورى:٥٢-٥٣]، فقول المسلم: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

يريد صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، وأن الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض يدبرهما بالقسط والعدل، فيجعل الفأر أسود، والزنبور أحمر، والطائر الليلي الأمريكي فيما تقدم أبيض ذا ذيل طويل، والحية والضب بلون الرمال، ولا يجعلهما كالطاووس، وهكذا مما لا نهاية له يفعل ذلك على صراطه المستقيم؛ فلو عدل عن هذا الصراط لفنيت الفيران بظهور ألوانها ليلاً، ولو لم يعط الزنبور حلته البراقة الدالة على ما له من سلاح لهجمت عليه الطيور الآكلات للحشرات، وهكذا مما علمته.

هذا فتح لنا سر القضاء والقدر، القضاء والقدر سرهما محجوب عن الناس جميعاً، لأننا في الأرض محبوسون، وما أوتينا من العلم إلاّ قليلاً، وليس ذلك بخلاً من الله كما لم يكن منع إعطاء الفأر لون الطاووس بخلاً منه، بل ذلك منة وفضل، ولكن ما ذكرناه هنا فيه بصيص من نور ذلك السر. ذلك أنه جاء في سورة «الأنعام»: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الآية: ١٤٨-١٤٩].

الله أكبر، جلّ الله، وجلّ العلم، وظهر بعض السر، وأذن الله بارتقاء المسلمين وبعلوّ كعبهم في العلوم. إن هذا التفسير منحة من الله، ذلك أن أبواب العلم اليوم قد فتحت ومن أجلها ما نذكره في هذا المقام. ذكر الله أن الذين أشركوا سيحتجون بالقضاء والقدر على صاحب الرسالة، ويقولون: إن كل شيء بمشيئة الله، فلم هذا الوعيد والإنذار على الكفر والذنوب، ومنهم أكثر المتعلمين اليوم والجهلاء، فأجابهم أولاً بالتهديد بأنهم يذوقون البأس كأمثالهم من الأمم، وثانياً يصفهم بالحرمان من العلم، ولو كان عندهم علم لهداهم، والعلم شيء والظن شيء، فالعلم اليقيني هو النظر في هذا الوجود، والنظر به يكون اليقين الذي اتصف به الخليل، وهذا اليقين إنّما يكون بمثل النظر في أنواع الحيوان المذكورة.

إن الناس في مستقبل الزمان سينالون حظاً عظيماً من علوم الحيوانات وغيرها، وهنالك يدرسون بالعلم والحكمة، وإن الله لم يعط حيواناً لوناً ولا شكلاً ولا هيئة إلاّ جعل ذلك نافعاً له، وعند التحقق من هذا يزول الاعتراض بالقضاء والقدر، لأن القبح والحسن وغيرهما كلاهما لمنفعة نفس الحيوان، ولست أقول لك إن هذا كل الحجة، بل هو فتح لبابها.

يحيب الله كل سائل متكل على القضاء والقدر بأن العلم هو الذي يعرّفه صراط الله المستقيم، ومتى علم الناس، أدركوا بعض حجة الله البالغة، وأيّ حجة أبلغ من خواص الحيوان وعجائبه؟. ظهر مما تقدم وسيأتي في سورة «المؤمنون» أن كل حيوان يجب أن يكون على ما هو عليه، وإلاّ لهلك، فهاهنا أمور:

الأول: أن لكل حيوان شكلاً ولوناً لا يصلح لغيره.

الثاني: أن هذا هو العدل، وسواه ظلم، لأنه يترتب عليه هلاك الحيوانات.

الثالث: أن النقص لا فرق بينه وبين الكمال والحسن والقبح، كذلك فكل ذلك لبقاء الحيوان، فيكون نقصه بالنسبة لغيره كمالاً بالنسبة له.

هذه هي حجة الله البالغة، هدانا إلى أوائلها في هذا التفسير، هذا صراط الله المستقيم، فكيف يكون صراطنا نحن في قوله لنا: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾.

قد علمت أن الله يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ﴾[الشورى: ٥٢-٥٣] الخ، فصراطنا هو نفس صراط الله، ولكن صراطنا على حسب أحوالنا.

أولاً: أن نعلم أن ما يحدث لنا من الحوادث ونراه نقصاً لنا أو ضراً نتيجته المنفعة لنا قياساً على الحيوان الذي عرّفنا كيف كان الله على صراط مستقيم.

ثانياً: أن نذر الإفراط والتفريط في الأمور، ونكون وسطاً في كل شيء في الكلام والأكل والحب والبغض وهكذا، وهذا ملخص علم الأخلاق.

ثالثاً: نزيد علماً حتى نوقن أن ما أصابنا من مكروه فهو نعمة علينا، كما أن سواد الفأر نعمة عليه، بل الذنوب التي تورثنا ندماً ربما كانت سبب إشراق قلوبنا، فإذن لا يكون فرق بين المرض الجسمي والمرض الديني، وهو الذنب في أن كلاًّ منهما قد ينير العقل.

رابعاً: أن نكون حكماء فلا نقول كلمة، أو نعمل عملاً إلاَّ إذا وزناه كما رأينا الله وزن الألوان والأشكال، ولم يعطها إلاَّ لأربابها، فلا بخل عنده ولا هو حائد عن الصراط المستقيم. اهـ.

بهجة الأنوار في عجائب الحيوان

يظهر لي أن هذه الدنيا لا نهاية لعجائبها ولا غاية لبدائعها، هاأنا ذا ألمعت إلى ما ستقرؤه في سورة «المؤمنون» من عجائب الألوان في الحيوان، وبعد ما كتبت ذلك عثرت على أمر يدهش العقول ويحير اللب، ستقرؤه في سورة «الرعد الآية: ٤» عند قوله تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ ﴾، سترى هناك أمراً عجباً.

ذلك أن من النبات ما هو مفترس لا يتغذى من التربة، ولا يتعاطى خلاصة النبات كالغزلان والجمال، بل لا يأكل إلاَّ اللحم أو الحشرات، وله طرق خاصة لصيد فريسته، ومنه ما يسمى بالنبات الجزار، لأنه متى وقعت فريسته في قبضته لم تفلت منها بل يفترسها، وسلاحه في ذلك أمران: حسن ألوانه مع الجمال، ومقدار من العسل موهوب له من الله، فهذان أعطيا له ليكونا سبباً لخداع الحشرات، فتسرع إليه فتكون غذاء، وهناك ترى صور تلك النباتات وشرحها.

أليس هذا من قوله تعالى: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾؟ أخذ الله بناصية هذه الدواب النباتية، اطلع عليها فعلم أنها لا قوة لها لتنتقل بها من الأرض، فماذا فعل لها؟ أمر الحشرات أن تطوف حولها، وأعطى هذه الدواب المذكورة من نعمه عسلاً ومنظراً حسناً ليكونا سبب في دخول هذه الحشرات في المذبح، فلا تخرج منها، وإنَّما تدخل في ضمن غذاء ذلك النبات.

اللهم إنا نعجب من صنعك وحق لنا أن نعجب، أخذت بنواصي كل دابة، يعيش أقوام ويموتون من أهل الأديان ومن الملحدين، وأكثرهم يغفلون لا يفطنون، يسمعون أن ذلك النبات يفترس الحيوان فيمرون عليه مرّ الكرام، فلا المتدين يدهش لذلك، ويكون سبباً في بحثه وسعادته وجمال العلم في قلبه ولا الملحد يعقل كيف خلق هذا، وكيف سهلت له الأسباب حتى حظي بغذائه بدون انتقال، وعذب الإنسان والحيوان في طلب الرزق، ولم كان البذل مقدراً بمقدار الحاجة، عجز النبات الحيواني عن

السعي فأرسل له ما يأكله بحيل خلقت فيه ، وأعطى سائر الحيوان قوة ، فأبعد مطالبنا على مقدار قوانا اللهم إني أعجب لهذه الدنيا اختلفت أعمالها واتفق نظامها .

حياة الأرضة

ثم إني اليوم نظرت فيما قاله العلامة « مترلنك » الذي أبدع في حياة النحل وألف في حياة « الأَرَضَة » على وزن بقرة ، وهي دودة عمياء ، ويسمون هذا النوع بالنمل الأبيض أو النمل الأعمى ، والحقيقة أنها ليست بنمل ولا هي بيضاء ، بل لونها جمع بين البياض والكدرة ، وهو « الأغبس » من الغبس ، وقد عرفته .

وبعبارة أخرى : لونها لون الأرض التي تعيش فيها ، وهي الآتية إن شاء الله في قوله تعالى : ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ﴾ الخ في سورة « سبأ الآية : ١٤ » ، فأحببت أن أوجز في وصفها ليزداد علمنا بقوله تعالى : ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ .

يقول هذا العالم : إن هذه الدابة عاشت قبل الإنسان مائة ألف ألف سنة ، وهذا بحسب ظنه وظن علماء زماننا . ويقول : إن حضارة هذه الحشرة أقوى من حضارة النمل والنحل ، وقد درس هذه الحشرة علماء مثل « كونج » و« هنري سميثمان » وغيرهما من فطاحل العلماء ، وهو حيوان يتراوح بين ٣ و١٠ مليمترات طولاً ، وأغلبه لا يكون له أجنحة ، وهو بطيء الحركة ، ولا يعيش في غير البلاد الحارة ، ولا يرى الشمس لئلا يموت ، ولا يعيش إلاَّ في الرطوبة ، وهو أنواع كثيرة : فمنه ما هو بناء يقيم هضاباً فوق الأرض ، ومنه ما يعيش في العراء ويمشي بين صفين من الجنود يحتمي بها من الأعداء ، ومنها ما يفتك بالأشجار ، وقد تكون مساكنها تعلو فوق الأرض أربعة أمتار ، ومحيط قاعدتها ٣٠ قدماً كأنها قالب سكر ، ومنها ما يبدو كالقناطر نصبت فوق أعمدة متعوجة ، وقد يستطيع الفارس أن يمشي من تحتها ، ومن مساكنها ما شوهد في أفريقيا الوسطى ، ولا سيما في « كنغو البلجيك » حيث يبلغ العلو من ستة أمتار إلى ثمانية أمتار .

ومن عجب أن هذه الحشرة يظن العلماء أنها قد أعطيت علماً بالكيمياء لم يعرفه الناس ، فإنها تعيش في أصقاع لا أثر للماء فيها ولا للحياة ، يقولون : إنها ربما أخذت الأكسوجين من الهواء وجمعته إلى الأودروجين الذي تجده في غذائها النباتي ليتكون منهما الماء ، ومعنى ذلك أنها تقدر أن توجد الماء بطريقة كيميائية عجز عنها الناس في الأرض .

وهذه الحشرة لها ملكة كما للنحل سترى رسمها إن شاء الله في سورة « سبأ » وبجانبها الملك ، فهي تملأ اليد ، وهو كالأنملة وحولها الضباط المحافظون على حياتها ، والكشافة الصغار المحيطون بها ، وهناك الذين يطعمونها عند فمها ، والذين يتلقون بيضها عند مؤخرها ، ثم إنها لا تقوم من مرقدها حتى آخر أجلها ، وهناك جنود وعمال ، والجنود والملك والملكة لا يتعاطين الطعام إلاَّ مما تعطيه لهن العاملات اللاتي تشبه من النحل العاملات فيه وهي الشغالة .

ومن عجب أن تلك المملكة العظيمة يقوم بها الملك والملكة والعمال والجند في الظلام ، وقد تفتك بالأشجار والمنازل والملابس والقرى ، ولولا النمل ومحاربته لها لأهلكت الحرث والنسل ، وأخربت كثيراً من بلاد نوع الإنسان .

ومن عجب أن هذه الدولة يتربى تحت إشرافها وفي مدينتها في الظلام جماعات كثيرة ذوات عيون وأجنحة، فإذا ولى الخريف ودنا موعد المطر، وتلك المخلوقات لم تزل في تلك القرية المحكمة السد المسدودة الكوى الكثيرة الجنود ذوي القوة والبسالة اللاتي يبلغن خمس عدد القرية، هنالك يحصل أمر عجب لا يدري من أين جاء، فما هو إلاّ أن يرى الإنسان هؤلاء الجنود ـ الذين وقفوا على الفتحات التي تأتي بالهواء ليلاً ونهاراً، لا يتركون موقفهم لحظة طول السنة ـ قد تخلت عن أماكنها لحظة واحدة في كل باب، وخرجت آلاف الآلاف من تلك المخلوقات ذوات الجناح والبصر، خرجت هذه المخلوقات فرحات إذا هناك جماعات يعلمن وقت خروجهن من العصافير والحيات والهررة والكلاب وسائر الحشرات، لا سيما النمل فتهجم على هذه القرائس التي خرجت في الجو كالعرائس، لأنها قد أعطيت قوة الذكورة والأنوثة، بخلاف التي في المدينة، فإن الذكورة والأنوثة فيها قد صارت آثاراً لا عمل لها، فهذه العرائس تفتك بهذه الجيوش التي حضرت لتقتات منها، وهكذا بنو آدم يحضرون ويقتسمون تلك الغنيمة مع الحيوان، فيجمع الإنسان ما يراه بالمجرفة ويأكله بعد التحميص، أو يعجنه بالسكر فيصير كاللوز ويبيعه في السوق كما في جزيرة جاوة.

هذا ما أردت ذكره من هذه الأرضة التي لا تبقي ولا تذر، حتى إنها فعلت ما لا حد له من عجائب التخريب، فقد تأتي على الشجرة الكبيرة فتأكلها ويبقى هيكلها كما هو، فإذا جلس أحد بجانبها واتكأ عليها انهارت ووقعت كأنها دخان، وذلك لأنها تحاذر أن يكون التلف ظاهراً، فهي تأكل جميع ما تحت القشر وترققه، ولها كثير من العجائب عسى أن أذكرها هناك في سورة «سبأ» إن شاء الله تعالى، وهاهنا يأتي العجب فنرجع إلى الفكرة العامة في هذا الوجود.

نظرتي في هذه الدنيا

أرجع فأذكر لك أيها الأخ فكرتي أيام الشباب فقد كنت أقول: هذا الوجود إن كان منظماً فله إله، وإن لم يكن منظماً فليس له إله، وصرت أقول في نفسي: إن هذا الوجود إذا كان بصنع مبني على تدبير وحكمة، فإننا معاشر الأحياء نكون سعداء، وإذا كان هذا الوجود عبارة عن مصادفة عمياء، فالحياة هباء لا قيمة لها. فلما اطلعت على ما رأيته في هذا الكتاب وغيره ظهر لي ما يأتي:

لقد تبيّن لي من صانع هذه الدنيا أنه عمد إلى المادة، وعلم أنها قابلة لما لا نهاية له من الصور والأعاجيب، فتلطف وابتدع كل وسيلة لبلوغ النهايات المختلفة من الصور، فبينما نراه قد خلق حيواناً يأكل الحيوان والنبات، إذا به قد خلق نباتاً يأكل من الحيوان ويأكل من النبات كما تقدم.

ألا تراه قد جمع بين الضدين آكل ومأكول؟ ويظهر لي أنه كما سحر عقولنا بما خلق من النبات الذي يأكل الحيوان، وهو لم يتنقل من مكانه، سحر عقول عوالم أخرى بخلقنا نحن، إذ جئنا نحن في الأرض وفينا المتناقضات. فنحن يحتاج بعضنا لبعض في الشرق والغرب، وكل لكل محارب، فإذا اطلعت عوالم أخرى علينا أدهشها هذا الصنع الغريب، فيقولون: قوم يحتاج بعضهم لبعض، وهم يقتتلون كيف يعيشون، وهكذا يرون فينا أفانين الأخلاق وبدائع المدنيات واختلاف الديانات، وكيف كان فينا من لا يعقل إلاّ شهواته، ومنا من يدرس الدنيا كلها، وهكذا فيعجبون من متناقضاتنا عجبنا من تباينات الحيوان والنبات.

هذا فيما نراه حولنا من هذه الدنيا والمادة التي نعيش فيها وفي أحوالنا العامة، فأما أجسامنا نحن وعقولنا فأمرهما عجب، فعل الله بها ما فعل بالمادة وبالحيوان والنبات، وذلك أنه كما عمد إلى المادة فخلق منها ما دقّ من الذرات وما عظم من الجبال، وهكذا الصلب والصخر ثم الماء والنور، وكذلك خلق الموز والحنظل والحلو والمر، أعني أنه استخرج من المادة كل ما يمكن حصوله منها، هكذا نراه خلق فينا المتضادات الصغر والكبر، والعز والذل، والصحة والمرض، والحزن والفرح.

هذه هي بعض صفات أجسامنا، صفات تدل على أنه استخرج من أجسامنا وأرواحنا كل ما أمكن حصوله منها، فهي تفرح وتحزن وتمرض وتصح وتضعف وتقوى.

إذن أجسامنا أشبه بالأرض فهي مزارع، فكما زرع في الأرض الحلو والمر، زرع فينا المحبوب والمكروه، وكأنه سبحانه رأى من العدل أن يعلمنا بكل ما نستعد له، أي أنه يفهمنا كل ما تستعد له أجسامنا وأرواحنا، هذا هو فعل صانع العالم يستوي عنده محبوبنا ومكروهنا، كما استوى عنده المر والحلو في الأرض، والصلب واللين في المادة والهواء والصخر.

إذن صانع هذا العالم يريد أن يستخرج فينا كل شيء كامن في استعدادنا أسوة بالمادة التي نعيش فيها، هذا هو النظام الذي رأيناه منذ عشنا في هذه الأرض.

إذن ما نتيجة هذا النظام؟

نحن الآن في الأرض قد حبسنا فيها، وليست عقولنا هي المسيطرة لأنها محبوسة، وإنما يمكننا أن نتلمس الجواب مما عرفناه في هذه الطبيعة. لقد جاء لنا وحي الديانات كلها بأن هناك عالم الآخرة، وعالم الآخرة تظهر فيه أرواحنا بمظهرها الحقيقي، والذي جاء في الدين كلام إجمالي، ونحن الآن نبحث في طبائعنا فنقول:

لعل هذه الأرواح إذا خرجت من الأجساد ينفعها أنها ترى مزرعة الفرح والحزن والألم واللذة التي ابتليت بها في الدنيا فيكون ذلك لها درساً.

ثم إن حيوانات الغابات تقل عندها الأمراض والشرور التي ابتلي بها الإنسان، فكأن كثرة العطب تتبع الرقي، وإلاّ لكان الحيوان أرقى من الإنسان.

وكما أننا في الدنيا تسرنا دراسة المر والحلو والغذاء والدواء، ونرى في ذلك لنا حكمة، هكذا إذا متنا واطلعنا في نفوسنا على ما قاست من ألم وما أصابت من لذة، وهكذا ما أحسنت من خير وما أساءت من شر، كل ذلك ليظهر لنا مزارع ومناظر تتأملها النفس، فترى في ذلك درساً يعينها على رقي آخر في عوالم أخرى.

ولعلنا إذا لم نجرب الخير والشر والضر والنفع والصحة والمرض هنا، نجد أنفسنا في نقص هناك ونحس بجهل عميق، لأن الروح لم تدرس نفسها ولم تعقل ما كمن فيها، فتكون إذن جاهلة بحال نفسها، وهذا الجهل يضر بها هناك، وربما كانت بعض النفوس ستتولى إدارة بعض النفوس أو العوالم بأمر الله تعالى كما قدمناه في بعض هذا التفسير عن العلامة الرازي وإخوان الصفا وعلماء الأرواح في أوروبا، فربما كان اتصاف الإنسان بالآلام واللذات يعطيه فهماً لما يتصرف فيه بإذن ربه، فهاهنا حالان للنفس: مكروه ومحبوب، كالمرض والموت والصحة والحياة.

فالذي ظهر لنا أن صانع العالم لما له من العلو والعظمة والكبرياء والبطش الشديد مع الرحمة التي لا نهاية لها، قد خلقنا ولم يبال بإحساسنا، بل نظر نظرة إلهية لا نظرة يجاري بها حواسنا وعواطفنا خلق الحواس والعواطف لأعمال في الحياة، ولكنه هو نظر إلى ما هو أسمى، فانظر ماذا ترى؟ تراه يتلطف بالجنين فيبطن أمه ويعطف عليه قلب والده، ويخلق له اللبن، ويحبب فيه المعلمين، ويخلق الزراع والتجار والجنود، كل هؤلاء للمحافظة بالرحمة، وتراه يتلطف مع النبات الجزار المتقدم، فيعطيه العسل خاصة ويجمل لونه، ليكون ذلك باباً لرزقه وفتحاً عليه.

هذا لطف عظيم، ولكنه يأتي بعد ذلك فيقلب الوضع، فيأتي للنبات من يقلعه، وللإنسان من يقتله أو هو يموت، فأين هذه الرحمة والعطف؟.

إذن نقول: نقيس ما غاب على ما شوهد، ونقول: إذا قتله أو أماته فمعناه أنه جعله في مكان آخر بحال أخرى، ثم أتبعه بالرحمة التي كان يكلؤه بها في الدنيا.

وإذن نقول: بهذا نفهم الحديث الوارد في الرحمة، وأنها مائة جزء، وقد ادخر الله منها تسعاً وتسعين في الآخرة، وأعطى واحدة لأهل الأرض، بها يتراحم الإنسان والحيوان، حتى إن الفرس ترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه.

هذه الآراء التي لاحظناها في هذا الوجود هي التي قد خبئت في قوله تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[الأنبياء: ٣٥]، أي: أننا استخرجنا منكم كل ما كمن فيكم من الشر والخير كما استخرجنا من المادة كل ما كمن فيها، ثم إنكم ترجعون إلينا وقد عرفتم ما فيكم من الصفات علماً لا تشوبه شائبة، لأن أعظم العلم ما كان بإحساس الحي نفسه وتجربته هو نفسه.

ويظهر لي أن نوع الإنسان لا يكمل إلاَّ إذا بلغ في العلم مبلغاً به يستوي عنده الموت والحياة تبعاً لسنة صانعه، هذا هو الحق؛ أما الإنسان اليوم فهو لا يزال جهولاً كافراً. إذن عمل الله تعالى هكذا:

(١) أب وأم. (٢) زراع وتجار وأطباء. (٣) حكومات. (٤) معلمون. (٥) منافع عامة في المخلوقات الحيوانية والنباتية وغيرها:

(١) أعداء محاربون. (٢) فقر وذل ومرض. (٣) اضطراب. (٤) جهل. (٥) الآساد والحيوانات الذرية للحمى والطاعون والموت.

هذان الجدولان وإن كانا ليسا كاملين قد تناويا على الإنسان فهو حي ميت، سعيد شقي، مريض صحيح.

وإذن الله تعالى من رحمته التي هي أعلى من إحساسنا، قد أحيانا وأماتنا وأتى لنا بالمتناقضات وهذا إنَّما جاء من طريق الوحي. أما من جهة العقل فهو من طريق التمثيل والقياس، فكأننا نقيس ما غاب على ما شوهد، لأن علومنا ناقصة لنقص هذا العالم الذي نعيش فيه بالنسبة إلى غيره.

شرف درس الحيوان ونظام الدنيا

أمامي الآن كتابان من كتب الفرنجة: أحدهما مملكة الظلام، المسمى أيضاً حياة الأرضة المترجم حديثاً إلى العربية الذي ذكرته قريباً، ومؤلفه «مترلنك»، والثاني كتاب «موسوعات العلوم» باللغة الإنجليزية للعلامة «روبرت براون» المتقدم ذكره.

وفي الأول ما ملخصه أن النحل قد يترك عاداته القديمة، فيدرك فائدة ما يصنعه الناس من أقراص الشمع ليضع فيها العسل فيختص إذن بعمل العسل وحده، وهكذا نراه إذا نقل إلى «أوستراليا» أو «كاليفورنيا» إذ يجد نفسه في صيف دائم ويدرك أنه لا يحرم أبداً من الأزهار، فيكتفي بكسب قوته اليومي ولا يصنع العسل، هكذا إذا وجد ما يعتاض منه كما في مصانع السكر، ثم يقول: إن النملة عندها حماقة تضاد ما عرفت من تعقل النحل، وذكر من ذلك أنها تخزن من الحب ما يزيد عن حاجتها، فإذا جاء المطر نبت ذلك الحب فيعلم به الفلاح فيهدم القرية الخ.

ثم قال: هل النمل أقل ذكاء من النحل؟ لا شيء مما نعرفه عنه يثبت ذلك، وربما كنا قاصرين عن فهم حاله، لأن درس القرية أصعب من درس العقير، وأصعب منها درس الأرضة.

ولا يخفى ما في هذا الدرس من الأهمية، لأنه متى عرفنا سليقة الحشرات وحدودها وعلاقتها بالذكاء وبالعقل العام، سهل علينا فهم سليقة أعضاء جسمنا التي تختفي فيها أسرار الحياة والموت. انتهى.

وهو قد وضح في موضع آخر من الكتاب أن الحشرات في تقلبها وتصرفها ونظامها بحكمة وانتظام الجنود والعمال والملك والملكة مع كثرة الأعداد بما لا حصر له لا سيما في حشرة الأرضة المتقدمة، لا يمكن ذلك إلاَّ إذا كانت تلك الجموع أشبه بأعضاء لجسم واحد، كما أن أعضاءنا كلها متحدة معاً مرتبطة، غاية الأمر أن جسمنا مندمج، وجسم تلك الحشرات منتفش متفرق في الهواء النقي، هذا ما قاله الأول.

وجاء في الثاني في المجلد الأول منه صفحة ١٨١ ما ترجمته: إن في أجسامنا من الوظائف والأعمال وأنواع الإحساس عجائب وغرائب مدهشات، ولكن لما كنا معتادين عليها أصبحت لا تستلفت النظر ولا تدهش العقل، فإن المألوف يظن أنه معروف لاعتياده والدأب عليه، وإنَّما الذي يلفتنا لغرابة هذه الأعمال في أجسامنا، والإحساس في إدراكنا، إنَّما هي المواهب العلمية الخاصة، فهي التي تدفع ما أسدلته يد العادة على عجائب أعمالنا وإحساسنا من الأستار وتوحي إلينا جمال أنفسنا وغرائب أجسامنا وبدائع تركيبها بطرق الملاحظات والتفكير فيما حولنا وما يحيط بنا من العوالم.

ثم قال: إن دراسة العوالم التي تحيط بنا أسهل تناولاً من دراسة أنفسنا، إن دراسة أنفسنا جسماً وعقلاً قد عجزت عن إيقاننا على بعض من عويصات المسائل المادية والعقلية، أما دراسة العوالم المحيطة بنا، فهي نبراس لدراسة أنفسنا الخ.

فهذان النصان المتطابقان يرجعان لغرض واحد، وهو أن دراسة هذه العوالم المحيطة بنا، تعرفنا دراسة أنفسنا، فإذا درسنا النبات والحيوان، وفهمنا قوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ ودرسنا نظير ذلك في أول السورة، وقرأنا علوم الأمم في هذا المقام، فإننا نكون إذ ذاك قد فهمنا لماذا قدم الله العوالم الأرضية على النفسية في قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]، أفلا تعجب معي أن يكون علماء أوروبا يقولون هذا القول، وهو نفس القرآن.

يقدّم الله النظر في الأرض على النظر في النفس، ويقول علماء أوروبا نفس هذا القول، يقولون: إن درس الحشرات يعلمنا علم وظائف الأعضاء، ويقولون: إن دراسة العوالم المحيطة بنا تعرفنا دراسة جسمنا، الله أكبر، جلّ العلم، وجلت الحكمة، وأشرقت الأرض بنور ربها.

لطيفة

هاأنت ذا رأيت حشرة الأرضة وأنها تعيش في الظلام، أليست هذه الظاهرة من العجائب التي تقرب لنا حال الأرواح الشريرة في الآخرة. هذه الأرضة تعيش في الظلام لا ترى النور، وهي محبوسة عاملة ناصبة، وإذا قايسناها بالطيور، كانت الآخرة أشبه بمن في الجنة، والأولى أشبه بمن في النار.

انظر إلى هذه الدنيا كيف كان الفرق بين حال حشرة الأرضة وحال النملة أو الطيور، كالفرق بين الحياة والموت، فإذا كان هذا الاختلاف في أرض واحدة صغيرة، فكيف يكون الاختلاف في عالم الآخرة بين عوالم كثيرة. اهـ.

فائدة هذه المباحث في آياتنا وهو قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ﴾ الخ

اعلم أن ما تقدم به نعرف نظام هذه الآية، فهو يقول: ﴿تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ﴾، والبرهان على أنه جدير بتوكلي أنني رأيته آخذ بنواصي الدواب جميعها فهو يحفظها ويغذيها ويرحمها، كما رأيت في هذا المقام، وإنَّما استدللت بالدواب لأنني ألحظها، وعسير عليّ أن ألحظ نفسي، ففهم رحمة الله في الحيوان أسهل من فهمها في الإنسان، كما أن دراسة نظام الحيوان وغيره حولنا أسهل من دراسة أنفسنا.

هذا هو السبب في استدلال هود بالأخذ بنواصي الدواب، فانظر وتعجب كيف يقول فلاسفة أوروبا قولاً هو الذي فهمناه من نظام الآية، وهذا من عجائب الحيوان.

وحدة هذا الوجود

إن نظام الأرضة المذكورة ونظام النمل والنحل ونظام الإنسان بعد أن درسناه وشرحناه كثيراً منه في هذا الكتاب، أفادنا أن كل هذه العوالم مشتبكة مرتبطة، يخدم الإنسان الحيوان والحيوان الإنسان، والأرضة مثلاً تراها تصدر آلاف الآلاف كل سنة فتأكلها الكلاب والطيور والهرر والإنسان كما تقدم، فهذه الأرضة تهضم فتات الخشب الجاف من الورق، فينقلب إلى أجسامها، ثم أجسامها طعام لنحو العصافير، ثم العصافير طعام الخطاف والإنسان وهكذا.

فهذا يدلنا أن هذا الوجود كله مدبر بعقل واحد كما ذكرناه في غير هذا المقام. إذ يظهر أن الله الذي خلق هذه المادة خلق لها أمراً آخر يسميه الفلاسفة عقلاً، وهذا العقل من نور الله وأشعة هذا العقل، وهذا العقل مثل شمس معنوية تصير في كل شيء بحسبه، فهي في الجماد تلاصق وجاذبية، وفي المعدن صلابة ولمعان وقوة خاصة، وفي الهواء لطافة، وفي الماء سلاسة، وفي النبات نمو وذبول الخ، وفي الحيوان حس وحركة، وفي الإنسان ازدياد الفكر والعقل، وفي الكون سير منظم وحركة دائمة، فلعل هذه الأشعة العقلية العامة أشبه بما نرى في أجسامنا، إذ أننا نرى الرجل الشهوي يقل عقله، والعفيف الذي حفظ شهوته قد يحفظ عقله، وهكذا نجد من أنهك قواه في عمل ما، ظهر أثر ذلك في تفكيره، فكأن في الجسم قوة واحدة إذا مالت إلى جهة حرمت الأخرى منها، فهي في السمع قوة لقبول الأصوات وفي البصر قوة لقبول الصور وهكذا، ويجد الناس أن العمي أذكى من المبصرين، فكأن قوة البصر تأخذ

من القوة العاقلة نصيباً فتضعفها، إذن هذا العالم فيه شعاع عقلي عام يشكل في كل شيء بحسبه، ولعل لذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾[لقمان: ٢٨]، وإلاّ فلماذا نرى هذا التعاون مع شدة التفاوت، وما هذه المباني التي تبنيها حشرة الأرضة المتقدمة التي قد تمتد أميالاً وترتفع أمتاراً وتصبح فيها مراع خصبة للحيوان أخصب من غيرها، ولماذا ينبت المرجان في البحار جزائر، وجزائر يسكنها الحيوان وينبت فيها النبات ثم يسكنها الإنسان. بر وبحر كلاهما تكون فيه دابة حقيرة تبني مساكن لنفع الحيوان والإنسان، وهكذا مما لا يتناهى.

ولعل لهذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[النور: ٣٥]، أي: منوّرهما، فهاهو ذا أظهر لنا أن نور الإدراك والنظام سار في عوالمنا المتجاذبة المتعاونة المتحدة، فإننا نرى الجسم الأكبر كالشمس يجذب الأصغر كالأرض، والأرض تجذب ما حولها، وتجذب قمرها، هكذا نجد العقل الأعلى يجذب العقل الأدنى، فكأن أمثال الأنبياء شموس، وكأن عظماء أممهم كالسيارات وهكذا، ونجد المدرسين يتبعهم تلاميذهم والرجل الصالح يلتف حوله ألوف من الناس، فدلنا هذا على أن نظام الأرواح كنظام الأجسام الكبير في الأرواح من حيث الكمال تتبعه الضعفاء الصغار في ذلك الكمال، والكبير في الأجسام حجماً تتبعه الصغار حجماً أيضاً، فالكبر والصغر في كلّ بحسبه حساً ومعنى.

فصل

(١) الوحدة في العالم اقتضت أن يفدي بعضه بعضاً.

(٢) وفي ذلك تلطف وحسن سياسة.

(٣) وفساد شيء صلاح آخر.

(٤) والإماتة شريعة كشريعة الحياة، وذلك لتخلو الأرض للباقين بعد الهالكين.

ولما وصلت إلى هذا المقام واطلع عليه أحد الفضلاء، قال: لو أنك أقفلت هذا الباب لكان أولى، فلقد أثرت ثائرة في نفسي وأخذت أقول: أليس من الظلم أن يتربى الأفواج من حشرة الأرضة لتكون طعاماً للهرة والكلبة؟ أولم يكن من الغش والخداع أننا نراها تخرج من قراها مسرعة لتفرح بالحياة الزوجية إذا المتون حاضر لديها، وهل من الصدق أن تخدع الحشرة المسكينة بقطرة من العسل عند النبات الجزار المتقدم وباللون الجميل، إن الذي يقرأ هذه العلوم يغمره الشك ويغشاه الكفر وكراهة هذا الوجود.

فقلت: أما كون الأرضة طعاماً للكلبة وللهرة، فهذا هو نظام هذا العالم الذي نعيش فيه، وأنا وأنت نفتخر بأن نكون طعاماً لحيوان، فكيف تنكر ما تستحسن وتظهر الكراهة لما أنت محبّ له، وتقع في هاوية المتناقضين. فقال: هذا لا أعقله وما بي من جهالة. فقلت: ألم تر إلى أهل الأرض قاطبة، أليسوا جميعاً يفتخرون بأنهم يقدمون أنفسهم للقتل، وهم يجاهدون في سبيل حفظ الشرف أو المال أو الوطن أو الدين، ومن ذا الذي يضنّ بنفسه على حفظ عرضه وشرفه؟ ومن ذا الذي يرى زوجه أو أخته قد أهين شرفها أو مست بسوء ثم لا يهجم على من فعل ذلك ولا يقاتله؟ وإذا خرّ صريعاً هو عدّ ذلك فخراً له ولأعقابه إلى حين.

إن أهل الشرق والغرب يحارب بعضهم بعضاً على الوطن ، وعلى الدين ، وعلى المال ، وعلى العرض ، وهم جميعاً متفقون أن هذا شرف وفخر للمقاتلين ، وهكذا أكثر الديانات .

ومن عجب أن النصارى دينهم ينهاهم عن قتال عدوهم ، ولكن الفطرة غالبة ، فهم الآن أول المقاتلين للأمم يعدون ذلك فخراً ، سواء أكان ذلك أخذاً للثأر أم ظلماً لاجتياح الديار ولأخذ الدرهم والدينار . فقال : إن الأرضة المذكورة قد أكلها الكلب أو الهرة أو الإنسان ، وفرق بين القتل وابتلاع الحيوان . فقلت : إننا معاشر بني آدم نقتتل في السفن الحربية ، ونقع فريسة للسمك ، ونحن جميعاً نعلم ذلك ونفتخر به ، وهكذا نقاتل في الطيارات فنهلك فتتخطفنا الطير ويحل بنا الهلاك . فقال : نحن نحارب لشرفنا مثلاً ونموت ، ولكن لماذا تكون هذه الخدعة في الحيوان؟ فهذه الحشرات الجاريات للهلاك بذبح النبات الجزار وأنواع الأرضة التي خرجت للعرس فصارت فريسة ، كل هذه مخدوعات ، وأين الصدق إذن؟ فقلت له : ونحن أيضاً مخدوعون ، ولسنا معترضين على الخداع ، بل نعدّه شرفاً ، فإن أحدنا يأكل لصحة بدنه ، فيكون ذلك البدن طعاماً للدود ، ويحارب العدو ليغيظه فيكون طعاماً للسمك أو العقبان ، فهو في الأول قصد حياته ، وفي الثاني إنقاذ شرفه ، لا أنه يكون طعمة للسمك ، ونبني الدور ونزرع النخل ويتمتع بذلك غيرنا بل أعداؤنا . فقال : وكيف يصح هذا الخداع؟ قلت : ليس خداعاً بل تلطف وحسن سياسة ، يعيش الحي مطمئناً ولا قلق لديه ولا اضطراب ، وقد تقدم في سورة « الأنفال » تكثير القليل ، وتقليل الكثير للسياسة وإصلاح الحال . فقال : ولكن هذا لا يشفيني ، ولماذا يكون الإنسان فداء لغيره وهكذا الحيوان؟ فقلت : للوحدة العامة ، فالعلم كله كأنه شخص واحد والبعض يخدم البعض ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[يوسف : ٢١] .

وإذن تكون هذه الدنيا ليست للحياة وحدها ، فالحياة بنظام والموت بنظام ، وموت الحي لتخلو الأرض للباقين ، ولولا الموت ما كانت الحياة ، فإذا أكل الدود لحم الإنسان ، وأكل الأسد لحم الغزلان ، وأكلنا نحن لحم الخرفان ، فإن ذلك لتنظف أرضنا به ، وتخلو لمن بعدنا ، ليكثر الإحياء بفضل هلاك الأموات ، فالموت مقصود والحياة مقصودة ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[القصص : ٨٨] .

موازنة بين حياة وموت الحيوان ونظيرهما في الإنسان

يموت الجراد بأكل الطيور والإنسان له ، فيحصل فائدتان : خلوّ الأرض منه لما يخلفه ، وانتفاع الأحياء بجسمه لأنه لا معطل في الوجود ، أما التقاء الجيوش الإنسانية براً أو بحراً فهاك فوائدها :

(١) تعليم الصبر والشجاعة .

(٢) والصناعات الحربية كالطيارات والسفن العائمة والغاطسة في الماء .

(٣) وإحراز الشرف للأحياء .

(٤) والعطف من الشعب على الأموات في ا لقتال وهذان في الأمم الغالبة .

(٥و٦) ومثل هذين في الأمم المغلوبة .

(٧و٨) وظهور الاتحاد في كليهما .

(٩) وأن تكون الجثث في البحر وفي البر طعاماً للسمك وللطيور التي خلقها الله .

هذا في القتال، أما في حال الطاعون وأكثر الأمراض، فإن الاقتصاد في طبيعة الوجود قضى أن ترسل جماعات من الحيوانات الذرية لها نظام خاص في الجسم، فتأكل اللحم وتشرب الدم، لأنه ليس من الحكمة أن يبني الحي جسمه بالأغذية الجيدة، فإذا مات لم تكن له فائدة، كلا، بل يرسل تلك الآلاف المؤلفة فتكون طاعوناً أو جدرياً أو حمى تيفوسية أو تيفوداً أو سرطاناً أو ما أشبه ذلك، فتتناسل وتتكاثر وتربى في الأجسام كما تربت الأجسام في الأرض، ثم يكون الموت فتتولى تلك الرمم حيوانات أخرى أولها الدود، ويعقبه غيره كالخنافس ونحوها وهكذا، ذلك لئلا يكون في الوجود معطل، إن هذا الوجود مبني على الاقتصاد.

ألا ترى أن اللسان يمضغ الطعام ويذوقه ويدبر نظام الكلام، فهذه ثلاث فوائد في عضو واحد ظاهرة للناس، فصانع هذا العالم عظيم الإحكام والنظام متقن حكيم، كل ذلك من قوله تعالى: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾[هود: ٥٦]، فهاهو ذا قد أخذ بناصية الأحياء إذا صحت أجسامهم، وأخذ بناصية الحيوانات الذرية العائشة في الأجسام التي يراد إهلاكها وهكذا. فلما سمع صاحبي ذلك قال: إذن الحرب أمر حتم لرقي الإنسان، لأنك أتيت فيه بمجمل الفوائد التي تبلغ نحو العشر، مع أنك تقول: إن السلام أمر لا بد منه في نوع الإنسان.

وأيضاً نرى البوذية يحرقون موتاهم، فأين فائدة أجسامهم التي لم يأكلها دود ولا غيره؟ فقلت: أما الجواب على السؤال الثاني فهو أن هؤلاء تتفرق عناصر أجسامهم في الهواء والأرض، فينتفع بها في الوجود. فقال: وهل هذه شريعة إسلامية؟ فقلت: كلا، ولكن نحن الآن في تبيان الحقائق التي نزل لها القرآن، ولكن متى جاء ذكر الشرائع بينا تحريم ذلك، فالحقائق مطلوبات والشرائع مصونات.

وإذا كنا نجد مسألة الولادة ليست على وتيرة واحدة، إذ نرى الإنسان مثلاً قد عمت الولادة فيه جميع الأسرات في العالم، ولكنها في النمل وفي الأرضة مثلاً قد اختصت بها الملكة، فأما البقية فقد توافروا على خدمة المجموع وبذل كل ما لديهن من قوة للجمهورية.

الإنسان لا يعرف اختصاص أحد بالولادة وإنتاج الذرية، ولكن النحل عرف ذلك، هكذا أمر الحياة، فما من امرئ إلا وهو موقن أنه لا بد لكل حي من رأس أو جلد أو أعضاء ودم، فكذب هذا تلك الحيوانات الدنيئة التي لا رؤوس لها والتي لا جلد لها كالحيوانات الهلامية والحشرات، إذ لا جلد لها ولا عظم ولا دم، وإنما هي لها قشور حلقية داخلها سائل أبيض لا عظم فيه ولا دم، وترى أمثال ذلك في الرزق، فأكثر الحيوان يسعى إليه على مقتضى احتياجه، وترى النبات الجزار المتقدم تسعى إليه الحشرات ليأكلها بجاذب يجذبها من تلك النباتات التي تأكل اللحوم.

فقال صاحبي: لقد أحسنت كل الإحسان، وأتيت بعلم جم لم يكن في الحسبان، ولكن أسألك سؤالاً واحداً وهو أنك تقول إن الأرضة تأكل ما خرج منها، فأين هذا؟ قلت: ستراه إن شاء الله عند الكلام عليها في سورة «سبأ»، فأما إذا كان هذا غريباً عندك فلتعلم أنها في ذلك كالإنسان، لأننا نأكل فضلاتنا وفضلات الحيوان بواسطة، إذ نحن نسمد بها أرضنا، فتنقلب تلك الفضلات في زرعنا حباً وعنباً وتفاحاً وغيرها وترجع إلينا، فنحن والأرضة سيان، ولكن هي أكلت فضلاتها مباشرة ونحن أكلناها بعد أن دخلت في معامل النبات فرجعت إلينا.

فقال صاحبي: لله در العلم يقرّب البعيد ويجمع المتفرقات ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[طه: ١١٤]، والحمد لله رب العالمين.

ثم قلت: أما مسألة الحرب وأنها ترقي الإنسانية، وأنني ذكرت أن السلم أمر لا بد منه، فلتعلم أننا الآن نصف ما وجدناه ونبيّن حكمة الله فيه، كما بينا فوائد اللسان الظاهرة الثلاث، فليس معنى هذا أننا إذا متنا لا يكون هناك حكم في حال الروح، كلا، بل الحكمة هناك أجمل وأعلى ولكنا لا نعقلها الآن، وإذا وجدنا مملكة الأرضة المتقدمة وكان لأفرادها عقل وسألناهن لذكرت لنا فوائد البراز الذي يكون لأفرادهن أشهى طعام، ثم هو ملاط لبنائها وسد لثغورها مع الرمل وطعام لصغارها، ويقوم مقام الإسفلت في تحسين طرقها وهكذا من الفوائد، أقول: فليس معنى هذا أنه ليس هناك نظام في الوجود أحسن من هذا، كلا، هكذا هنا فإن الأمم إذا غيرت أخلاقها وبطلت الحرب حصلت هناك حال جديدة أرقى وأرقى في نظام المدن والأخلاق، مثال ذلك في الثاني أن تبدل عاطفة الانتقام من الأعداء الذي يورث الفضائل المتقدمة بفضائل العطف مثلاً على الضعفاء، فيتحدر رجال أمة على ترقية وتحسين أمة جاهلة، ويكونون بالنسبة لهم كالآباء والأمهات بالنسبة لصغارهم، وهناك تكون فضائل لا تعد، كالفضائل التي تكون للأبوين بالنسبة لأبنائهما، كالعطف والحنان وبذل النفس والمعاونة بالنفس وإنكار الذات والصبر على هذه المشاق والاتحاد بين هؤلاء المحسنين، وحب المحسن إليهم للمحسنين، واتحاد الأمتين وتبادل المنافع، ثم مقابلة الإحسان بالإحسان، ونمو الأخلاق، وهكذا مما لا حصر له، فليس هذا الوجود له حد في تصرفاته وقابلياته.

عجائب القرآن وعجائب الطبيعة التي نزل لفهمها القرآن فهاهنا أذكر عجيبتين

العجيبة الأولى

أن القرآن تراه يدخل في غضون الكلام ما هو حكمة بحيث يكون كزهرة في شجرة، ويكون هو أهم المقصود من الكلام، وهذه الطريقة بعينها هي التي درجت عليها الأمم في فكاهاتها ورواياتها المؤلفة لاستيقاظ الشعوب، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١-٢] الخ، فإنه ذكر الشمس والنجم والجبل والإبل والوحش والبحر والنفس والصحف والسماء والجحيم والجنة.

هذه ذكرها الله على هذا الترتيب، ولكن أدخل في غضونها كلمة واحدة حفظت نصف النوع الإنساني من الهلاك، وهي: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾[التكوير: ٨-٩]، هذه هي الجملة التي أدخلها الله في وسط تلك العوالم المذكورة من أرضية وسماوية، فما نطق بها حتى امتنع العرب عن قتل البنات بدفنهن الذي يسمى وأداً، فانظر للتعليم والتربية، يذكر المخلوقات والمعارف العامة ويدخل في وسطها جملة قضت على قتل النساء، هكذا فعل في قصة هود وقومه هنا، أدخل في غضونها الأخذ بنواصي الدواب.

أفلا يكون هذا دافعاً للمسلمين إلى دراسة علوم الحيوان بعد هذا البيان كما دفع آباءنا إلى حفظ النبات وعدم قتلهن بالوأد بجملة واحدة.

هذه هي سياسة القرآن، هاهو ذا أتى بقصة عاد يسمعها العاقل فيرى ما الذي سيقت له، فيرى أجله علم الحيوان. اللهم أنت النور الهادي فاهد المسلمين إلى الرقي إنك أنت السميع المجيب.

العجيبة الثانية: المادة والكلام، زيادة إيضاح

انظر إلى ما تقدم من تنوّع الحيوان والنبات والإبداع، وتأمل أحوال اللغات الشرقية والغربية، هاأنت ذا رأيت المادة كيف تنوعت تنوعاً يقلبها على سائر وجوهها كما وضحناه، تقلبت المادة على وجوه تظهر كل ما كمن فيها.

فاعلم يقيناً أن الله عزّ وجلّ علم أن أكثر الناس لا يدركون سر المادة التي يعيشون منها، لذلك ألهمهم اللغات فنطقوا بها وتصرفوا فيها تصرفاً هو عين التصرف في المادة.

إن المادة كما تكون هواء وماء وسماء وأرضاً وصلباً ونحاساً وجواهر وحيواناً مختلفاً أنواعه الخ، هكذا اللغات المعبرات عن ذلك كله يتصرف فيها الإنسان، وهي التي تعبر عن كل ما صورته المادة، ولا يدرك تصريفها حق إدراكه إلاّ علماء الصرف والنحو والمعاني والبديع، أولئك الذين يركبون الجمل المختلفة ويشتقون من المصادر أفعالاً وأسماء الفاعلين وأسماء المفعولين والصفات المشبهات وأسماء التفضيل وأسماء الآلات وأسماء الزمان وأسماء المكان، وهكذا تصريف المفردات، فهكذا تصريف الجمل من اسمية وفعلية وشرطية وحالية وماضوية ومضارعية ومؤكدة وغير مؤكدة، وهكذا مما لا حصر له.

تبارك الله، خلق المادة وخلق اللغات، وجعلهما في التصريف كفرسي رهان، وذلك لحكمة الحكيم، ذلك ليعلم الصغار في أول أمرهم أن اللغة لا تقف عند حد، لأنهم إذ ذاك لا يقدرون أن يعقلوا تصرف المادة.

ولا جرم أن هذا يعدّ أذهانهم إلى إدراك تصريف المادة إذا كبروا. خلق الله علوم الصرف والنحو وغيرهما لصغار العقول ولصغار العلماء في الأمم، لتفتح أذهانهم لمعرفة جمال صنعه وباهر إبداعه وبالغ حكمته في تصريف هذه الكائنات، وهل ترى أبدع وأجمل وأشرف وأبهى وأبهر مما رأيت في هذا المقام من جعل النبات المأكول للحيوان آكلاً له؟.

أوليس هذا بعينه هو ما يفعله علماء النحو؟ إذ يجعلون المفعول فاعلاً والفاعل مفعولاً، تدريباً للتلاميذ، يقول الأستاذ للتلميذ: اجعل المفعول فاعلاً في هذه الجملة مع التصرف فيها، وهي: يضرّ الإنسان الخمر والمخدر والشاي والقهوة ودخان التبغ. فيقول التلميذ هكذا: متى عقل الإنسان ترك الخمر والمخدر الخ.

فهاهو ذا التلميذ أتى بالجملة مع حفظ المعنى، وجعل المفعول فاعلاً، وهكذا فعل الله في المادة، فجعل المأكول وهو النبات آكلاً للحيوان مع حفظ النظام، فجلّ الله وجلّ العلم، فبهذا فليفرح قراء هذا التفسير وليكونوا نوراً وهدى للعالمين، وأنا بذلك من الموقنين.

وحدة الوجود والإنسان عالم صغير

لعمري لا يعرف الناس معنى وحدة الوجود، ولا أن الإنسان عالم صغير، إلاّ بالتبحر في مثل ما ذكرناه لك فيما تقدم.

شمس هذا العقد الثمين

إن النحل والأرضة والنمل كلها تتقرب من ملكاتها وتربها أعمالها وترجع إليها، وهكذا جمهور نوع الإنسان يفعل مع رؤسائه، ولكن هناك في الإنسان طائفة هم فوق الجميع يعملون وينصبون، وتكون لهم خلوات مع ربهم في قلوبهم، يعرضون عليه أعمالهم في بهجة الأنوار وبهاء الأسرار. انتهى الكلام على قصة عاد.

فلنشرع في الكلام على قصة ثمود بتفسيرها اللفظي:

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ أي: وأرسلنا إلى ثمود، وهم سكان الحجر ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ يعني في النسب لا في الدين ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: وحدوا الله وخصوه بالعبادة ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ فهو المستحق للعبادة لا هذه الأصنام، ثم ذكر الدلائل العقلية على وحدانيته وكمال قدرته، فقال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ هو كونكم منها لا غيره، فإنه خلق آدم وحواء، وهو الذي خلق النطف والأغذية منها تتكون الأجسام، وكلها من التراب ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: عمركم فيها واستبقاكم من العمر أو أقدركم على عمارتها وأمركم بها ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ﴾ قريب الرحمة ﴿مُّجِيبٌ﴾ لداعيه ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ لما نرى فيك من مخايل الرشد والسداد، فكنا نأمل أن تكون مستشاراً أو سيداً عظيماً، ولكن هذا القول أيأسنا منك وانقطع رجاؤنا فيك، إذ ذممت آلهتنا وخالفت ديننا ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ ومن ذا يخالف ما درج عليه الآباء ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة، من أرابه ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ بيان وبصيرة وأتى بـ «إن»، وهي للشك باعتبار المخاطبين ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ نبوة ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ فمن يمنعني من عذابه ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ في تبليغ رسالته ومنع الناس من الشرك به ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ فأنتم باستتباعكم إياي لا تزيدونني غير أن تخسروني بإبطال ما منحني الله والتعرض لعذابه ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ﴾ حال كونها ﴿ءَايَةً﴾ وعاملها معنى الإشارة، و«لكم» حال من «آية» مقدمة ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ ترع نباتها وتشرب ماءها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ عاجل لا يتوانى عن مسكم لها بالسوء إلا يسيراً وهو ثلاثة أيام ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ﴾ عيشوا في منازلكم أو في داركم الدنيا ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ ثم تهلكوا ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أي: غير مكذوب فيه ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي: ونجيناهم من ذل يومئذ وفضيحته، وأي خزي أعظم من خزي من كان هلاكه بغضب الله وانتقامه ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾ القادر على تنجية أوليائه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب بإهلاك أعدائه ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ أي: صيحة أتتهم من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ صرعى هلكى ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ أي: كأن لم يقيموا في تلك الديار ولم يسكنوها مدة من الدهر، يقال: غنيت بالمكان، إذا أقمت به ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ أي: الحي.

واعلم أن هذه القصة جاءت في سورة «الأعراف» بأحسن تفسير على ما أعلم، فارجع إليه إن شئت.

قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ بشرى الملائكة المختلف في عددهم، فقيل: ثلاثة، وقيل: أكثر، بإسحاق ويعقوب وبإهلاك قوم لوط ﴿ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ سلمنا عليك سلاماً ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ ﴾ أي: وعليكم سلام، والجملة الاسمية في الرد أبلغ من الفعلية في الابتداء فافهم ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ أي: فما أبطأ في المجيء به، والحنيذ: المشوي بالحجارة المحماة ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أي: أيدي الأضياف ﴿ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ ﴾ أي: العجل المشويّ ﴿ نَكِرَهُمْ ﴾ أي: أنكرهم وأنكر حالهم لامتناعهم عن الطعام ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ ووقع في قلبه خوف منهم، والإيجاس: الإضمار وقيل: الإدراك ﴿ قَالُوا۟ ﴾ له لما أحسوا منه أثر الخوف ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ إنا ملائكة مرسلون إليهم بالعذاب، فأما كوننا لم نمد للطعام أيدينا فذلك أننا معاشر الملائكة لا نأكل، ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ ﴾ وراء الستر تسمع محاورتهم، أو على رأسهم للخدمة ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ سروراً بزوال الخيفة أو بهلاك أهل الفساد ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ وإنما خصت بالبشارة لأنه أولاً لم يكن لها ولد، ولإبراهيم ابنه إسماعيل، ومعلوم أن النساء أعظم سروراً بالأولاد، أي: فبشرناها بإسحاق ووهبنا لها يعقوب من وراء إسحاق، وعلى قراءة رفع «يعقوب» يكون مبتدأ، والجار والمجرور قبله خبره ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ﴾ أصله: يا ويلتاه، نداء للندبة، وهي كلمة يستعملها الإنسان عند رؤية ما يتعجب منه مثل: يا عجباه ﴿ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ ﴾ يقال: إنها كانت بنت تسعين سنة ﴿ وَهَٰذَا بَعْلِى ﴾ يعني: زوجي ﴿ شَيْخًا ﴾ وكان سن إبراهيم مائة وعشرين سنة يومئذ كما قيل ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ يعني: الولد من هرمين، وهذا تعجب بحسب العادة ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ قالوا ذلك منكرين عليها، فإن خوارق العادات عند أهل بيت النبوة ليست ببدع فمثلهم لا يستغربونه، كأنه قيل: إياك والتعجب، لأن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم و«أهل البيت» نصب على الاختصاص ﴿ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ أي: محمود لإنعامه العظيم ظاهر الكرم إذ أكرمكم بولد صالح ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ ﴾ الفزع، وهو ما أوجس في نفسه من الخوف حين نكر أضيافه ﴿ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ بالولد أقبل ﴿ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ أي: لما اطمأن قلبه بعد الخوف وامتلأ حبوراً بالبشرى، أقبل يجادلنا، أي: يجادل رسلنا، وصورة مجادلته إياهم أنهم قالوا له: ﴿ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ [العنكبوت: ٣١]، فقال: أرأيتم لو كان فيها خمسون مؤمناً أتهلكونها؟ قالوا: لا، قال: فأربعون، قالوا: لا، قال: فثلاثون، قالوا: لا، حتى بلغ العشرة، قالوا: لا، قال: أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا، فعند ذلك ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ﴾ [العنكبوت: ٣٢]، ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ ﴾ غير عجول في الانتقام ممن أساء إليه ﴿ أَوَّٰهٌ ﴾ كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس ﴿ مُّنِيبٌ ﴾ راجع إلى الله، والمقصود من ذلك أن الحامل له على المجادلة إنما هي رقة قلبه وحلمه ورحمته وحبه للناس، قالت الملائكة: ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ﴾ الجدال ﴿ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ قضاؤه بعذابهم من الله وهو أعلم بحالهم ﴿ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ غير مصروف بجدال ولا بدعاء، ثم خرجوا من عند إبراهيم متوجهين نحو قوم لوط، وكان بين قرية إبراهيم وقوم لوط أربعة فراسخ ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ

رُسُلُنَا لُوطًا ﴾ لما أتوه ورأى جمالهم وهم كانوا على هيئة غلمان حسان ﴿ سِيٓءَ بِهِمۡ ﴾ أحزن لأنه ظن أنهم من الناس، فخاف عليهم أن يفحش بهم قومه مع عجزه عن مقاومتهم ﴿ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعًا ﴾ تمييز، أي: وضاق بمكانهم صدره، وذلك كناية عن شدة الانقباض لعجزه عن مدافعة المكروه المتوقع حصوله لهم من قومه بفعل الفاحشة ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٌ﴾ شديد، من عصبه إذا شده، ويقال: إن امرأته أخبرت بهم قومها ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ ﴾ يسرعون كأنهم يدفعون دفعاً لطلب الفاحشة من أضيافه ﴿ وَمِن قَبۡلُ ﴾ ومن قبل ذلك الوقت ﴿ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ كانوا يعملون الفاحشة حتى مرنوا عليها وقلّ عندهم استقباحها حتى جاؤوا وهم مجاهرون بها يهرعون إليها ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي ﴾ أي: هؤلاء نساؤكم اللاتي هنّ بناتي، فإن كل نبي أبو أمته من حيث الشفقة والتربية. وفي قراءة ابن مسعود: «وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم»، أو هؤلاء بنات قومي ﴿ هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ ﴾ أنظف فعلاً ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ بترك الفواحش ﴿ وَلَا تُخۡزُونِ ﴾ ولا تهينون ولا تفضحون من الخزي ﴿ فِي ضَيۡفِيٓۖ ﴾ في حق ضيوفي، لأن من خزي ضيفه أو جاره فقد خزي، وذلك من دواعي المروءة والكرم ﴿ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴾ أي: رجل واحد يهتدي إلى سبيل الرشاد فكيف عن فعل السوء ﴿ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ ﴾ حاجة لأننا نودّ الاقتراب من الذكور لا من الإناث ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ وهو إتيان الذكور ﴿ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً ﴾ أي: لو أني أقدر أن أتقوى عليكم ﴿ أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴾ أي: أو أنضم إلى عشيرة يمنعوني منكم، وجوابه: «لقاتلتكم». قال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما بعث الله نبياً بعده إلاّ في منعة من عشيرته»، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم أتاني الداعي لأجبته»، فالمراد بالركن الشديد هو الله، كما قال محيي الدين النووي في الحديث، فإنه أشد الأركان وأقواها. روي أنه أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوروا الجدار، فلما رأت الملائكة ما حلّ بلوط من الكرب ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ ﴾ ركنك شديد، كما مر في الحديث ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ ﴾ بمكروه فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه في عقوبتهم، فأذن له، فضرب بجناحه وجوههم، فطمس أعينهم، فأعماهم، كما قال تعالى: ﴿ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ ﴾[القمر: ٣٧] فصاروا لا يعرفون الطريق، فخرجوا به وهم يقولون: النجاء النجاء، إن في بيت لوط أسحر قوم في الأرض، وقوله: ﴿ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ ﴾ جملة موضحة لما قبلها ﴿ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ ﴾ فسر بأهلك، ويقال: أدلج بهم ﴿ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ ﴾ في بعض من الليل، أي: آخر الليل عند السحر ﴿ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ ﴾ ولا يتخلف منكم، أو لا يلتفت إلى ما وراءه، أو لا يلتفت بقلبه إلى ما خلف ﴿ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ ﴾ منصوب على الاستثناء، أو مرفوع على البدل من «أحد»، فكأنه قيل: لا يتخلف منكم أحد إلاّ امرأتك، فإني لا أنهاها عن ذلك ﴿ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ ﴾ أو لا يلتفت منكم إلى ما وراءه أحد إلاّ امرأتك، فإنها ستلتفت فأنا لا أنهاها ﴿ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا ﴾ الخ، والنهي لها لا يفيد. روي: «أنه أخرجها معهم وأمر ألا يلتفت منهم أحد إلاّ هي، فلما سمعت هدّة العذاب التفتت وقالت: يا قوماه، فأدركها حجر فقتلها». وروي أيضاً: «أنه أمر بأن يخلفها مع قومها، فإن هواها إليهم، فلم يسر بها». فأصبحت هاتان الروايتان محتملتين: فإما أن تكون بقيت، وإما أن تكون خرجت والتفتت،

فإحدى الروايتين عليها المعنى ولا زال مبهماً. هذا تحقيق المقام، وإياك أن تظن أن مثل هذا التحقيق هو المقصود من القرآن، بل المقصود هو ما في القصة من الحكم، فلتسر في طريقنا، ولتجد في هذه السورة من الحكم والعجائب ما يبهر الأبصار قريباً.

وروي أنه قال لهم متى موعد هلاكهم، قالوا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ فقال: أريد أسرع من ذلك، فقالوا: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ قلبها جبريل فجعل أسفلها أعلاها إذ رفعها إلى السماء ثم قلبها عليهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ على المدن ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ من طين متحجر، وسجيل أصلها: سنكسكل فعرّب ﴿مَّنضُودٍ﴾ نعت لـ«سجيل» أي: متتابع، أو مجموع معدّ للعذاب ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ نعت لـ«حجارة»، أي: معلمة للعذاب ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ في خزائنه أو في حكمه ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي: وما هي من ظالمي هذه الأمة من مشركي مكة وغيرهم ﴿بِبَعِيدٍ﴾ فما من ظالم إلاّ وهو معرض للعذاب المعبر عنه بسقوط حجر عليه.

روي: «أنه عليه الصلاة والسلام سأل جبريل عليه السلام، فقال: يعني ظالمي أمتك، ما من ظالم منهم إلاّ وهو بمعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة».

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ أي: وأرسلنا إلى مدين ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ ومدين: اسم مدينة بناها مدين بن إبراهيم عليه السلام، أي: وأرسلنا إلى أهل مدين، وقيل: مدين اسم للقبيلة التي هي من ذرية مدين ابن إبراهيم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ وحّدوا الله ولا تعبدوا معه غيره. ولما شرح أمر العبادة شرع يذكرهم بما يفعلون من نقص الكيل والميزان، فقال: ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ بسعة تغنيكم عن البخس، أو بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ما تفعلون ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ مهلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾[الكهف: ٤٢] وأصله من إحاطة العدة، وهو إما عذاب الاستئصال في الدنيا، وإما عذاب الآخرة ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ أتموها ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل، والنهي المتقدم لتقبيح البخس والتنفير منه، والأمر هنا للترغيب في الفعل الحسن وهو إيفاء الكيل والميزان، فهناك للتنفير من الشر وهنا للترغيب في الخير، وبهما معاً يعتدل الناس ويتم الوعظ، فليكن القسط والعدل لا نقص ولا زيادة، فالازدياد وإن كان مندوباً قد يكون محرّماً إذا كان كيلاً أو وزناً ليتيم، أو في مال الحكومات، أو كان البائع وكيلاً، فكل ذلك تكون الزيادة فيه حراماً، فوجب العدل ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أموالهم وغيرها سواءً أكان بكيل أم بوزن أم بزرع أم بمساحة أم بتقدير فضل في أعمال عامة كالنظر في رجال الحكومة وتقدير قيمتهم وأحوالهم وكفاءاتهم، وما أشبه ذلك مما لا يعده الحصر ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ العثي والعيث: أشد الفساد، كالسرقة والغارة وقطع السبيل، ويشمل البخس والتطفيف، فإنه عثي في الأرض وإفساد فيها، ومن العثي: المكس ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ﴾ أي: ما أبقاه الله لكم من الحلال بعد التنزه عما حرم عليكم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما تجمعون بالتطفيف وبالبخس ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم مصدقين لي في قولي لكم، ويصح أن تكون البقية الطاعة فيما ذكر وغيره لقوله تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾[الكهف: ٤٦] ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أحفظكم عن القبائح وأحفظ نعم الله عليكم، وما أنا إلاّ ناصح أمين، وقد أعذرت حين أنذرت ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ﴾ أي: كثرة صلاتك ﴿تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾

من الأصنام ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ﴾ أو ألا نفعل ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ من البخس في الكيل والوزن ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ السفيه الضالّ، وهذه تسمية مقلوبة استهزاء به، كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[الدخان: ٤٩] وهذا ردّ لما طلبه من عبادة الله وحده ومن العدل في الكيل والميزان ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ﴾ من لدنه ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ وهي النبوة والرسالة والمال الحلال بلا بخس ولا تطفيف، يقول: أخبروني إن كنت على حجة ظاهرة من ربي وكنت نبياً على الحقيقة، أيليق بي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكفّ عن المعاصي، وهل بعث الأنبياء إلاّ لذلك؟ ولست أمنعكم عن تطفيف الكيل وبخسه وعن بخس الناس أشياءهم وأنا أستبد بذلك، كلا، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ يقال: خالفت زيداً إلى كذا: إذا قصدته وهو مولّ عنه، وخالفته عنه: إذا وليت عنه وهو قاصده ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾ ما أريد إلاّ أن أصلحكم بموعظتي ونصيحتي وأمري بالمعروف ونهيي عن المنكر ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ أي: مدة استطاعتي للإصلاح وما دمت متمكناً منه ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وما توفيقي لإصابة الحق فيما أفعل وما أترك إلاّ بمعونته ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدت ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أرجع في السراء والضراء، ثم اعلم أن «جرم» مثل كسب، يتعدى إلى مفعول وإلى مفعولين، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يكسبنكم ﴿شِقَاقِىٓ﴾ خلافي ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ إصابة العذاب ﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ من الغرق ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ من الريح ﴿أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾ من الرجفة، و«أن» وصلتها: ثاني مفعولي «جرم» ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ في الزمان، فهم أقرب الهالكين منكم، وفي المكان، فمنازلهم قريبة منكم ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ عظيم الرحمة، فاعل بهم من اللطف والإحسان ما يفعل الكثير المودة بمن يودّه، وذلك وعد من الله أن يقبل التوبة بعد وعيده للمذنبين على إصرارهم على المعاصي ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ استهانة بها وعدم مبالاة ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ لا قوة لك ولا عز فيما بيننا، فكيف تقدر على الامتناع منا؟ ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ ولولا عشيرتك لقتلناك بالرجم، وأيّ قتل شرّ من الرجم؟ وكان رهطه على دينهم، فلذلك أظهروا الميل إليهم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ فعدم قتلك لم يكن لعزّك علينا، وإنّما يعزّ علينا رهطك ﴿قَالَ﴾ في جوابهم ﴿يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: أهيب عندكم من الله حتى تركتم قتلي لعزة رهطي عندكم؟ فكيف لم يكن حفظي لأجل الله لا لرهطي، فكيف تركتم أمره ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي: نبذتم أمر الله وراء ظهوركم وتركتموه كأنه شيء ملقى ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: عالم بجميع أحوالكم لا تخفى عليه خافية منها فيجازيكم عليها ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: اعملوا قارّين على جهتكم التي أنتم عليها من الشرك والشنآن لي، وهي مصدر مكن مكانة فهو مكين إذا تمكن من الشيء ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ على مقتضى ما يأتيني الله من النصرة والتأييد ويمكنني ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ «من»: استفهامية علقت فعل العلم عن عمله، أي: سوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يفضحه وأينا هو كاذب، وهذا هو قوله: ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ عطف على ﴿مَن يَأْتِيهِ﴾ أي: سوف تعلمون من المعذب والكاذب مني ومنكم، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: ومن هو صادق لينصرف الأول لهم والثاني له، لكنهم لما جعلوه كاذباً قال: ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ أي: في زعمهم

﴿ وَارْتَقِبُوٓاْ ﴾ وانتظروا ما أقول لكم ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ منتظر، والرقيب: المراقب ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ بعذابهم وهلاكهم ﴿ نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ يعني بفضل منا لأنا هديناهم للإيمان وجعلناهم مطيعين ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أي: ظلموا أنفسهم بالشرك والبخس ﴿ الصَّيْحَةُ ﴾ إذ صاح جبريل عليه السلام بهم صيحة، فخرجت أرواحهم وماتوا جميعاً، أو أتتهم صيحة واحدة من السماء ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ أي: ميتين، يقال: جثم الطير، إذا قعد ولطأ بالأرض، فهو هنا استعارة ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ﴾ يعني: كأن لم يقيموا بديارهم مدة من الدهر من غني بالمكان: إذا أقام فيه مستغنياً به عن غيره ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ ﴾ البعد، والبعد: الهلاك، كالرشد والرشد ﴿ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ قوم صالح، وكان عذاب قوم شعيب بالصيحة من فوق رؤوسهم، وعذاب قوم صالح بالصيحة من تحت أرجلهم إذ أصابهم حر شديد.

قال ابن عباس: «لم تعذب أمتان قط بعذاب واحد إلاَّ قوم شعيب وقوم صالح، فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم، وأما قوم شعيب فأخذتهم الصيحة من فوقهم».

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ بحججنا والبراهين التي أعطيناه الدالة على صدق نبوته ﴿ وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ ومعجزة باهرة ظاهرة دالة على صدقه ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ أي: أتباعه وأشراف قومه ﴿ فَاتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ أي: ما هو عليه من الكفر وترك الإيمان بما جاء به موسى ﴿ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ أي: وما طريق فرعون بسديد ولا محمود العاقبة ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ ﴾ يتقدم ويقود قومه ﴿ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ ﴾ إلى النار، كما كان يقدمهم في الدنيا إلى الضلال، يقال: قدم بمعنى تقدم ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ جعل بصيغة الماضي كقوله تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ [النحل: ١]، وجعل النار بمنزلة الماء، فسمى إتيانها موروداً، ثم قال: ﴿ وَبِئْسَ الْوِرْدُ ﴾ المورد ﴿ الْمَوْرُودُ ﴾ الذي وردوه، فجعل فرعون كالفارط الذي يتقدم الواردة إلى الماء، وشبه أتباعه بالواردة، ثم قال: ﴿ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ الذي يردونه النار، وكيف لا يكون كذلك، والورد إنَّما يراد لتسكين العطش، والنار بضد ذلك ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ ﴾ أي: يلعنون في الدنيا ويلعنون في الآخرة ﴿ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ رفدهم، أي: بئس العون المعان، أو بئس العطاء المعطى. انتهى التفسير اللفظي.

ياقوتة مضيئة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ على لسان شعيب عليه السلام

اعلم أن المودة إنَّما تكون غالباً بين اثنين لهما علاقة واتصال وتجانس وتشابه في الطباع والعادات والأخلاق، ولذلك ترى المتشاركين في صناعة أو علم أو لغة أو وطن أو دين أو جنس أو أمر ما، فإنهما يتوادّان ويتحابان، وذلك لاقتراب الصفات، وكلما تباعدت الصفات تباعد الودّ، ولذلك تجد الأمم اليوم في عصرنا رجعت إلى الجنسية؛ فالألمان والفرنسيون واليابانيون والصينيون كل يقترب من جنسه بعد أن كانوا قديماً يتوادّون بالديانات، وهذا كله قديماً وحديثاً دالّ على أن المودة تابعة لتقارب الصفات.

هذا هو المعلوم في الأمم قديماً وحديثاً، ولكن الله تعالى إذا وصف نفسه بأنه رحيم، فإنا نفهم ذلك على معنى أنه مفيض الإحسان، وهذا أمر مفهوم؛ فإنا نرى الملك والأب والأم وأمثالهم يفيضون الإحسان على الرعية والولد وهكذا، فالأعلى يرحم الأدنى ولا غرابة في ذلك، فالله رحيم، أما الود

فأمره مشكل إذ المودة إنّما تكون بين المتجانسين، وقال في سورة «مريم الآية : ٩٦» : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ فذكر الرحمة هناك كما ذكرها هنا وأتبعها بالود، ولكن الود هناك مفهوم لأنه بين متجانسين في الود، إذ الإنسان كلما عمل الصالحات اقترب من أهل دينه للتجانس، أما الود هنا فهو الذي يحتاج إلى بيان.

أقول : إن هذا يحتاج لدرس العلوم جميعها من فلك وطبيعة وطبقات أرضية وعلم الحيوان والنبات والتشريح، هذه هي العلوم التي تعرّفنا معنى الود في هذا المقام.

إن هذا التفسير فيه نبذ كثيرة من هذه العلوم، والذكي إذا قرأها أصبح عنده مجموعة سهلة فيها خلاصة العلوم، هذه الخلاصة هي التي تفهمنا معنى الود، أي : ودّ الله للمخلوقات.

انظر إلى السمك وإلى النحل وإلى الجراد وإلى الدود وإلى النعامة وإلى الدجاجة وإلى النبات والأزهار وإلى الإنسان، فسترى في سورة «النمل» كيف ترى أن لها قرى ومساكن وجيوشاً منظمة وأظآراً جمع ظئر وحجراً على مقدار أسنان الأطفال كما يفعل الناس.

إن خالق العالم لما خلق النمل أعطاها من القوى والقدر والعلم على مقدار ما يناسبها، فكما يقول الحبيب لحبيبه : أنا أقدم لك هدية من الفاكهة التي تحبها، فيزيد ذلك في المودة لعلم كل من الخليلين بما في جبلة الآخر من المعاشرة، هكذا هنا أعطى الله النمل جيوشاً منها على مقدار طاقتها، وألهمها أن تتبع ملكتها وتنظم الحجرات وتربي الذرية كل منها في حجرة خاصة كأنها مدارس، فجعل مدارسها على مقدار حاجاتها، ولم يحملها ما لا تطيق من مدارس الإنسان وجيوشه وأساطيله، ولم يجشمها مشاقّ السفن والأساطيل البرية والبحرية، وهكذا سترى في سورة «النحل» ما أعطاها الله من قوت وما أفاء عليها مما يلائم حاجاتها.

ألا ترى إلى ما سيأتي في سورة الحجر الآية : ٢٢ عند قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ من جمال الزهر وبهجته، وكيف لوّنت الأزهار بألوان جميلة ليعشق النحل ذلك الجمال، فيطير سراعاً ليشرب من الرحيق المختوم في أسفل الزهرات، ثم يطير إلى أخرى وقد حمل على جسمه غبار الطلع فوضعه في الزهرات التي فيها أعضاء الإناث، وألهم النحل أن لا يدخل ويخرج من زهرة إلى زهرة، إلاّ إذا كانا من نوع واحد ليسهل الأمر عليه، فلا يصادف عناء في معالجة فتح الزهرات في ذلك اليوم، ومعنى هذا أن النحل أعطي ما يواتي مزاجه من العسل ومن ألوان الزهر ومن نظام الزهرات ليسهل عليه، ومن الإلهام أن لا يدخل زهرة غير التي هي من جنس ما دخلها أولاً، ذلك ليكون متمتعاً بالنعمة والسعادة، وليكون ذلك أصون لطلع الذكور من ذلك النوع من الزهر ليوضع على الإناث منه، ليدوم النبات كل سنة بالإلقاح رحمة بالنمل أيضاً.

أليس الرجل يقول لابنه : إني سأعطيك ثياباً فاخرة وهدايا، إذا نجحت في كذا وكذا. ويقول التلميذ لصاحبه : أنا قرأت كتاب كذا وهو أسهل فاقرأه، كل ذلك للمشاكلة والمقاربة.

إن المودة تقتضي أن يتلطف الودود لصاحبه بما يلائم طباعه لأنه عرفها بكثرة المخالطة، وترى الجراد ألهم أن لا يدخر وأن يضع بيضه في أرض صالحة له على بعد مخصوص من سطحها، بحيث تصلح الأرض، لأن تكون له كالرحم لتحفظه إلى وقت معلوم، وإنّما ألهم أن لا يدخر، لأنه هو وأمثاله

من الذباب والناموس التي ألهمت ألا تدخر لا تعيش إلى عام قابل، فإن البرد والحر يتعاقبان عليها فتهلك، فإذن سعيها للادخار عبث، فلذلك لم تلهم الادخار.

أما النحل والنمل فإنهما يعيشان سنين، فإذا جاء الشتاء نامت ولكن لا تموت كما يموت الجراد والذباب والناموس، لذلك ألهم هذان النوعان الادخار، وأنزل الله سورتين باسمهما سورة «النمل» وسورة «النحل» تنبيهاً على الفرق بينهما وبين غيرهما من الحشرات، ويقول الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾[النحل: ٦٨] الخ، وهذا الوحي للنحل وللنمل ولغيرهما، وحي بما يلائم كما يفعل الصديق الودود بصديقه.

وترى الدود لا حاسة له إلاَّ حاسة اللمس، فلا سمع ولا بصر ولا ذوق للطعام ولا شم، وإنَّما حاسة اللمس له هي القائمة بتدبيره، بل هي وزارة المعارف العامة للدود، بها تمتص ما حولها من الرطوبات، وتسبح في بطن البقرة والأسد والإنسان وفي لب الثمرة وفي دود المشّ، وهي فرحة سعيدة بما يناسب مزاجها، وكأن الله بودّه لها منع عنها ما يزعجها مما لا تحتاج إليه، فالسمع والبصر والشم والذوق والقوة العاقلة والمدارس كل هذه عبء ثقيل عليها، فلو أعطيت ذلك لكان لا فائدة منه، بل يضرها ولا تعيش به.

وترى النعامة في العراء تقسم بيضها ثلاثة أقسام: فتحضن بعضاً، وتجعل بعضاً قوتاً لذريتها، وبعضاً آخر تعرضه للحشرات فتقع عليه فتطعمه لذريتها إذا قويت على أكل تلك الحشرات. وترى الدجاجة لم يساعدها الديك في تربية أولادها لما أعطيت الأفراخ من قوة الريش والعدو السريع، وعكس ذلك الحمام. وترى أمر النبات كله عجباً، ويقول المحققون: إن له نوعاً من الإحساس والشعور على مقدار طاقته، وتراه في أثناء هذا التفسير في مواضع منه ولقد نال لطفاً من الله.

ألا ترى إلى ما ستقرؤه في سورة «الحجر» من الزهر، وكيف تنوعت أشكاله تنوعاً بديعاً، ولكل نوع منها حشرات خاصة تنام إذا أغمض الزهر أجفانه، وتستيقظ إذا تفتحت الأكمام وضحكت الأزهار، وهناك تأتي الحشرة وهي تغني فرحات بعرائس الزهرات ذات الحلل السندسية والروائح العطرية والولائم العسلية والمحاسن والبدائع الهندسية في الأوراق والأزهار ونظامها، وهكذا تراه يفعل مع الإنسان في نظام جسمه وعجيب تركيبه، وفي إلهام العقلاء، فكما يلهم النحلة عملها تراه ألهم الناس، فصنعوا ما يلائمهم من جري السفن في البحار، والقطرات في البر بالبخار بالكهرباء، وألهمهم أن يقطعوا البحار لطلب الرزق والحرب، ويجوبوا الفيافي ويغوصوا على الدر والمرجان في البحر، ويحفروا في الجبال وغيرها فيستخرجوا المعادن.

أعطى الله الدودة رطوبات، والنحلة زهراً وعسلاً، والإنسان معادن وكهرباء، وألهم كلاً من هذه المخلوقات ما استعدت له. هذا هو ودّ الله لمخلوقاته ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾[الحديد: ٤]، فكما أن الصديق مع صديقه يعرف ما يلائمه، هكذا ترى صانع الكون لكونه مع كل مخلوق أعطاه ما يلائم طبعه، وأبعد عنه ما لا يلائمه، ولذلك تراه لما علم أن عقولنا قاصرة لأننا في العالم الأرضي الضعيف، حجب عنا معرفة العوالم التي تسكن في المريخ أو المشتري مثلاً، وهكذا التي تسكن الكواكب الكبيرة الثابتة.

علم ذلك من طباعنا لأننا لو عرفناها واطلعنا عليها لذهلنا من ذلك الجمال ولدهشت عقولنا ولانبهرنا ، فمنعنا عن ذلك كما منع الدود أن يعرف السمع والبصر ، وإلا لم يطق ذلك ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾[الإسراء: ٣٦] .

فالله ودود ، ومن ودّه ما ذكرناه ، واعلم أن كل من قلد الله في الود كان أقرب إليه ، فكلما كان الإنسان أكثر نفعاً كان أكثر للناس وداً .

إن الأم والأب بتربيتهما لولدهما فقد ودّا ولدهما وداً شريفاً ، لأنهما قد جاوزا سنه فهما أعلى منه ، وقد تنزلا إليه وتلطفا ، فهما بهذا قد ارتقيا إلى نحو الود الإلهي ، هكذا العلماء والحكماء والمؤلفون يتنزلون لعقول الشعب وعلى مقدار تنزلهم يقتربون من ربهم .

إن الإنسان على مقدار منفعته وعموم فضله للناس يكون قد اقترب من الود الإلهي ، وعلى مقدار اتصافه بهذه المودة العامة يقترب من ربه ، كما أن الأب والأم اقتربا من ربهما على مقدار ما علما ولدهما ، هكذا سائر المصلحين .

إن الرحمة والود مقرونتان في قرن ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً على مقدار ما قاموا به للمنافع العامة ؛ فالرحمة هنا تساعد على الود لأن الودود يعطي من يوده ما يناسبه ، وهذه المناسبة تقتضيها الرحمة ، ولكن الرحمة أعم ، فكما تكون مع الود تكون مع العذاب ، فكم من عذاب في التعليم وبالحرب وبالضر كانت نتيجته العز والرقي كما قال أرسطاطاليس في كتابه إلى إسكندر المقدوني تلميذه : إن الأمة إذا أرخي لها العنان والترف أهلكتها البطنة ، والناس لا يحتملون الراحة ولكنهم يحتملون المشقات في الحرب وغيره ، فهم في حربهم نشطون فرحون ، وفي أمنهم ودعتهم أشرون بطرون ثم يهلكون .

إذا فهمت هذا عرفت بعض سر قوله تعالى في سورة « مريم الآية : ٤٥ » : ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ ، فإن اقتران العذاب بالرحمة هناك راجع إلى ما ذكرنا .

فالأمة المعذبة بالحرب والضر وكثرة الأعداء تكون مستيقظة نشطة كما قاله علماء الألمان قبيل الحرب الكبرى : إذا أردت رقي أمة فأوقد لها نار حرب فإنها تستيقظ من سباتها . وقال تعالى فيها : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾[مريم: ٩٦] فالرحمة جاءت مع العذاب كما علمت وجاءت مع الود ، إذن الرحمة عامة والود فرع من فروعها ، وهاهنا شعيب عليه السلام يقول : ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ ومن وده أنه ألهمني أن أعلمكم الدين لأرقيكم ، وعلى مقدار مودة الأنبياء والحكماء والعلماء بالتعاليم يكون قربهم من ربهم وشرفهم . انتهى القسم الثالث .

القسم الرابع

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأٓخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ

مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ النبأ، مبتدأ، خبره: ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ خبر بعد خبر ﴿مِنْهَا﴾ من القرى ﴿قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ أي: بعضها قائم وبعضها عافي الأثر؛ كالزرع القائم على ساق والذي حصد، وهذه الجملة مستأنفة، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بإهلاكنا إياهم ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بارتكاب ما به أهلكوا، وذلك لما جبلت نفوسهم عليه من النقص الذي هو نتائج أسباب خافية وظاهرة في هذا العالم الذي فطر على الخير والشر، ولكن الشر جاء عرضاً، ولا يترك الخير الكثير للشر القليل؛ ككفر هؤلاء، فلا بد من نفاذ أمرنا، لأن تلك هي حقائق الوجود الثابتة التي تعلق علمنا بها، وهكذا خلقنا وهكذا رتبنا ونظمنا المخلوقات ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾ فما نفعتهم ولا دفعت عنهم ﴿ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ﴾ يعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ عذابه، و«لما» منصوب بـ«ما أغنت»

﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ تخسير، يقال: تبَّ إذا خسر، وتببه غيره: أوقعه في الخسران؛ أي: ما دفعت عنهم عبادة الله شيئاً، بل أهلكتهم، ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي: ومثل ذلك الأخذ؛ ومحل الكاف الرفع ﴿ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ أي: أهلها ﴿ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ﴾ حال من القرى ﴿ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ مؤلم صعب على المأخوذ، وهذا تحذير لكل قرية ظالمة؛ من كفار مكة وغيرهم، فليبادر الظالمون بالتوبة ولا يغرهم الإمهال ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ فيما قصه من قصص الأمم الهالكة في هذه وغيرها من السور ﴿ لَءَايَةً ﴾ لعبرة ﴿ لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي: اعتقد صحة وجوده، فأما من يرى العالم لا فاعل له وإنما هي ذرات تتكون وتنحل فلا يقول بحساب ولا عقاب، فليس لهذا عبرة عنده، ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ ﴾ أي: يجمع له الناس لا محالة، والناس لا ينفكون عنه ﴿ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ أي: مشهود فيه أهل السماوات والأرضين، وقد اتسع فيه بإجراء الظرف مجرى المفعول به، وليس المقصود أن اليوم مشهود في نفسه، وإلا لبطل الغرض من تعظيم اليوم بتمييزه، فإن سائر الأيام مشهودة، ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ ﴾ أي: اليوم ﴿ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ الأجل؛ يطلق على مدة التأجيل كلها وعلى منتهاها، ﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ بحذف الياء وإثباتها «يأتي» والحذف في مثل هذا كثير في لغة هذيل، ونظيره قوله: ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ [الكهف: ٦٤]، والفاعل ضمير يرجع إلى قوله: «يوم مجموع له الناس» ﴿ لَا تَكَلَّمُ ﴾ لا تتكلم ﴿ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ أي: لا يشفع أحد إلاّ بإذن الله؛ ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ أي: أهل الموقف وهم الناس المذكورون في قوله: «مجموع له الناس» ﴿ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ فمنهم معذب ومنهم منعم ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ هو أول نهيق الحمار ﴿ وَشَهِيقٌ ﴾ هو آخره، أو هما إخراج النَّفَس ورده، والجملة حال، والعامل هو الاستقرار المقدر في النار ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ حال مقدرة ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ أي: مدة دوام السماوات والأرض، وذلك للتأبيد ونفي الانقطاع، كما تقول العرب: «ما لاح كوكب» والمقصود: التأبيد ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ هو استثناء من الخلود في عذاب النار، فإن أهل النار يخرجون من النار إلى الزمهرير وأنواع من العذاب غير النار، وكذلك أهل الجنة يتصلون بجناب القدس وبرضوان الله، وهذا أعلى من الجنة، أو ما شاء؛ بمعنى: من شاء؛ وهم قوم يقال لهم الجهنميون يخرجون من النار ويدخلون الجنة فهم مستثنون من أهل الجنة أيضاً لمفارقتهم إياها بكونهم في النار أياماً، فهؤلاء لم يشقوا شقاوة من يدخل النار على التأبيد، ولا سعدوا سعادة من لم تمسه النار، هكذا روى ابن عباس والضحاك وقتادة، وهؤلاء هم فساق الموحدين.

وقيل إن: «إلاّ» هنا بمعنى: سوى، والمعنى: سوى ما شاء ربك من الزيادة التي لا آخر لها على مدة بقاء السماوات والأرض، فالاستثناء راجع إما:

(١) لنوع العذاب كما يرجع لنوع النعيم فيما سيأتي، فالمقصود أنهم ينقلون من عذاب إلى عذاب، كما أن أهل الجنة ينقلون من نعيم إلى نعيم.

(٢) أو لنفس المعذبين، فمنهم من لا يخلد في أحدهما، كأهل المعاصي الموحدين.

(٣) أو للمدة التي تزيد على زمن السماوات والأرض التي نشاهدها، وتكون «إلاّ» بمعنى: غير.

(٤) وهناك وجه رابع وهو: مدة لبثهم في الدنيا والبرزخ، فليسوا في جهنم ما داموا فيهما، والاستثناء إذن من أصل الحكم.

(٥) وقيل: الزفير والشهيق هما المقيدان بتلك المشيئة لا الخلود، فالزفير والشهيق دائمان إلاّ في أوقات يعلمها الله.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ من غير اعتراض لأنه بناه على الحكمة العامة في العالم، وليس للناس ما يؤهلهم للوقوف على تلك الحقائق كاملة، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ وقد تقدم أنهم قوم موحدون عاصون لا يدخلون الجنة إلاّ بعد العذاب إذا كانت «ما» بمعنى «من»، أو أنهم ينالون ما هو أعظم من الجنة وهو رؤية الله تعالى ورضوانه، ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ غير مقطوع، فهذا الثواب لا ينقطع ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: فلا تشك بعد ما أنزل عليك من هذه القصص في سوء عاقبة عبادتهم وأنهم آيلون إلى الهلاك، وأن الأنبياء ومن تبعهم ناجون في الدنيا والآخرة، وهذا عدة بالانتقام منهم ووعيد لهم، وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ولكل من سار على قدمه من المؤمنين، وأن الله ناصره وناصرهم وخاذل أعدائه وأعدائهم؛ كما جربناه في هذه الحياة مراراً، وهم ما يعبدون إلاّ كما عبد آباؤهم من قبل، وقد قصصنا عليك ما نزل بآبائهم فسيلحقهم مثله، فإن المشابهة في الأسباب تستدعي المشابهة في المسببات، وقوله: ﴿كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم﴾ أي: كما كان يعبد آباؤهم، وهذا قوله تعالى: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ من العذاب ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ حال من النصيب لتقييد التوفية دفعاً لما يحتمل أن التوفية تكون للبعض مجازاً، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ فآمن قوم به وكفر قوم، كما اختلف هؤلاء في القرآن، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: كلمة الإنظار إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بين قوم موسى وقومك بالعذاب المستأصل ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ وإن كفار قومك ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع للريبة، ﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ وإن كل المختلفين المؤمنين منهم والكافرين ﴿لَّمَّا﴾ إلاّ والله ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ وقرئ «لَمَا» بالتخفيف، فـ«اللام» إذن موطئة للقسم، والثانية للتأكيد، و«ما» زائدة للفصل بينهما، ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فلا يخفى عليه شيء.

ولما أبان الله في هذه السورة كيف كانت عاقبة العاصين وخاتمة الصالحين؛ أمر نبيه صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه قائلاً: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي: استقم على دين ربك والعمل به والدعاء إليه كما أمر ربك؛ أي: دم على ما أنت عليه من الاستقامة ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ من الشرك والكفر؛ وهو عطف على ضمير الرفع في «استقم» ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ ولا تخرجوا عما حدّ لكم؛ أو: لا تغلوا في الدين فتجاوزوا ما أمرتكم به ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه، وهذا في معنى التعليل للأمر والنهي. قال ابن عباس: ما نزلت آية على رسول الله صلى الله عليه وسلم هي أشد عليه من هذه الآية ولذلك قال: «شيبتني هود وأخواتها» ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ ولا تميلوا إليهم أدنى ميل فإن الركون هو الميل اليسير؛ كالتزيي بزيهم وتعظيم ذكرهم والميل بالقلب إليهم وطاعتهم ومداهنتهم وتكثير سوادهم والرضا بأعمالهم ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: فتصيبكم النار بحرّها، كما يحصل اليوم

في الأقطار الإسلامية من التشبه بالفرنجة وتقليدهم ومداهنتهم والتزيي بزيهم واحترام تجارتهم وآرائهم وأخلاقهم وفسوق الفاسقين منهم. فلذلك حكم الله على أكثر الأقطار الإسلامية أن يصيبها نار الاستعباد في الدنيا والذل والفقر والاحتلال والاختلال والنذالة والضعف والجبن والخوف، وهذه مقدمة لعذاب جهنم، ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾[الإسراء: ٧٢].

وقد بينا في هذا التفسير في مواضع كثيرة أن الفرنجة ضحكوا على ذقون الشرقيين الغافلين، وألبسوهم ثوب المذلة والعار ومزقوهم شر ممزق، وكل ذلك لأنهم ركنوا إليهم وصدقوهم، ولقد قدمت أنهم أشبه بالمسيخ الدجال، فإنهم يظهرون جنة اللذات ويخفون نار الاستعباد. وقد ركن كثير من الأمراء إلى نار شهوات المال الذي يعطونه لهم، أو الألقاب الحقيرة الكاذبة التي يسمونهم بها، أو الوسامات التي يعلقونها على صدورهم، فأوقعوهم في نار الاستعباد والمذلة والخزي المبين، هذا كله سر هذه الآية.

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ﴾ من أنصار يمنعون العذاب عنكم والاستعباد والاحتلال واستنزاف الثروة وحلول الفقر بكم في الدنيا ﴿ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ أي: ثم لا تجدون لكم من ينصركم ويخلصكم من عقاب الله، أي: عذاب يوم القيامة، وفي الدنيا الذي هو مقدمة لعذاب الآخرة، وفيه وعيد لمن ركن إلى الظلمة أو رضي بأعمالهم. ومن عجيب الأمر أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: « شيبتني هود وأخواتها ». ولعمرك ما شيبته هود وأخواتها إلا لما في هذه السورة من العذاب الذي حاق بالأمة الإسلامية أسوة بالأمم الأخرى.

مصداق هذه الآية في تاريخ الأندلس
وفي الدولة العباسية بغزوة التتار

وتعجب كيف تمّ ما قاله الله تعالى؛ وهو أن الركون إلى الظلمة يعرض المسلمين إلى الهلاك والدمار، ثم يقول الله: ﴿ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ ولقد حصل ذلك وأصبح أكثر المسلمين غير منصورين، بل هم في قبضة الفرنجة، كل ذلك جاء مصداقاً لهذه الآية، يقول الله: ﴿ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ وقد حصل ذلك وأصبح أكثر المسلمين كعبيد للفرنجة لأنهم ركنوا إليهم، ووالله لم ينج من مذلة الفرنجة إلاّ الذين استقلوا بأعمالهم وتركوا الركون إليهم ورجعوا إلى أنفسهم ولم يتكلوا عليهم، واعتبر ذلك في الأمة الأندلسية إذ كانوا في أول أمرهم؛ حين كان الإسلام عزيزاً مهاباً؛ محافظين على أخلاقهم القومية وعاداتهم العربية وشيمهم النبوية، ثم تحولت الحال وساءت وأصبح المسلمون بعد الأنفة والعزة والشرف أسرى الأوهام، ومبدأ ذلك أن الفرنجة تعاهدوا مع أمراء الأندلس ورئيسهم ابن عباد، وتلك المعاهدة احتوت على ما يأتي: أولاً: حرية الدين، ثانياً: حرية التجارة، ثالثاً: حرية التعليم.

ولما تمت تلك المعاهدة أقام ابن عباد احتفالاً ومهرجاناً وأفراحاً دامت عشرات الأيام، ولقد حضر الأمراء جميعاً تلك المعاهدة ووقعوا عليها، وكان بعضهم قد ركبوا على جياد نعالها من ذهب. ولما تمت تلك الوليمة والأيام الراقصة رجعوا إلى ديارهم آمنين مطمئنين، ولم يرفض التوقيع على هذه المعاهدة إلاّ ابن مصعب فإنه قال: «ويحكم يا أبناء العرب وعظماء الإسلام كيف تبيحون حرية التجارة والتعليم في دياركم؟أفلا ترون أن القوم سيعلمون أبناءكم تاريخ أممهم ويحقرون آباءكم؟أولا ترون أن

الخمر يباع في بلادكم بعد الآن لحرية التجارة، وسينشر في البلاد الترف والنعيم، ويكثر المترفون والفسقة والفجار والخلاعة، وينتهي الأمر بفساد البلاد وخراب العباد وطرد العرب من الأصقاع الأوربية».
فلما سمع القوم مقالته هزءوا ساخرين ونبذوه أجمعين، وقالوا: لست في العير ولا في النفير، وهل يطاع لقصير أمر، أو يقام لغير رشيد وزن؟ و﴿ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ﴾[نوح: ٧] وقالوا: إن هذا كلام الذين لا يعرفون السياسة ولا هم من السياسيين.

فماذا جرى بعد ذلك؟ قضيت سنون تلتها سنون وصحّ ما تنبأ به ابن مصعب، وانتشر الخمر والفسوق، وصار كتاب «الأغاني» هو العمدة في البلاد، وانتشرت الخلاعة والفسوق، وصار الشبان يغازلون الفتيات في الطرقات شاربين وشاربات وسكرين وسكرات، وكثر الترف والنعيم، ولبسوا الحرير وتختموا بالذهب، وصارت الخلاعة مشرب الأدباء وخُلق الكبراء، فذهبت النخوة والدين، وسرى ذلك من الأحداث إلى العظماء والكبراء.

حتى إن أحد أمراء بني ذي النون اختطف فتاة رومية من أبيها وأدخلها قصره، فلجأ إلى أمير آخر مسلم فأدته مروءته أن يكاتب ابن ذي النون ذاكراً له عظم هذا الذنب وقبحه، فأبى أن يقبل قوله، فاتحد ذلك الأمير مع بارونات أوروبا وهجموا على ذلك الأمير ومزقوا شمله وخربوا قصره، وأولم الأمير الغالب للفرنجة الحاضرين معه وليمة دامت أياماً فرحاً بالانتصار وإظهاراً للافتخار، والأمة العربية إذ ذاك في انتحار، وهي لا تعلم ما خبأه لها الزمان، وكان العربي إذ ذاك في الأندلس يحقر نسبه وأخلاق آبائه وآراءهم وتاريخهم، ولا يأنس إلاّ بالأوربيين الذين ربوه في مدارسهم.

ولقد تجاوز هؤلاء الأساتذة حدّ العادة في تغيير أخلاق المسلمين، حتى إن راهباً في قرطبة من أساتذة المدارس التي يتعلم فيها المسلمون اشترى عنب قرطبة كله وعصره خمراً وحلف أن لا يبيعه لأحد إلاّ لتلاميذه من أبناء المسلمين لحبه إياهم، فصار الخمر من مستلزمات المدنية والعمران.

فماذا جرى؟ سارت الأمة شوطاً بعيداً حتى قرعت القارعة ووقعت الصاعقة، وأتى الملك «فرديناند» والملكة «إيزابله» وقصما ظهر البلاد وأزالا ملك بني عباد وأمراء الأجناد، وقبروهم أجمعين إلاّ قليلاً منهم رموهم في البحر أجمعين وقتلوهم مجندلين، ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴾، وما الله بغافل عما يعمل الظالمون، كل هذا مصداق لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾، فلم يجد أبناء الأندلس أولياء ينصرونهم لما أحاط بهم الإفرنج من كل جانب، وهم غافلون لأنهم ركنوا إلى الفرنجة، فأصبحوا حصيداً خامدين.

التتار في الشرق

وقد كان المسلمون قبل ذلك بنحو ثلاث مائة سنة في بلاد الشرق قد ثملوا بعزهم وسكروا بجاههم، فلم يظنوا في الأرض قوة أعظم منهم أيام قطب أرسلان إذ أرسل إليه «جنكيزخان» المسمى «تموجين» رجالاً من قومه ليتاجروا مع المسلمين بأموالهم ومعهم مال عظيم ومتاجر كبيرة، فخاف تجار المسلمين على أنفسهم وضياع تجاراتهم وبخس صناعاتهم، لمزاحمة أولئك الواردين لأن

بضاعاتهم أجمل وأبهج وأبهى وأرخص قيمة، فأرسل هؤلاء التجار الوطنيون رجلاً منهم فقال لقطب أرسلان: هل لك أن تأخذ التجارة من هؤلاء الذين حضروا، وأن ما معهم يكون غنى لدولة الإسلام وعزاً وجاهاً للحكومة، فغرّه ما يقول وأخذ المال الذي مع التجار الذي قيل إنه كان كثيراً جداً فأخذ تجارتهم وقتلهم أجمعين.

فلما ورد الخبر إلى «جنكيزخان» أرسل له خطاباً مع جماعة يحذره فيه من عاقبة ظلمه يقول فيه: «كيف تسيئون الجوار وتظلمون الناس ونبيكم صلى الله عليه وسلم لم يقل به، وعلي بن أبي طالب كذلك، أولم يخبركم نبيكم قائلاً: «اتركوا الترك ما تركوكم» إننا من أمة يأجوج ومأجوج وقد أوعدكم الله بأنهم سينسلون عليكم من كل حدب».

فلما جاء الخطاب إلى «قطب أرسلان» مزقه، وصلم آذان الرسل المرسلين من قبل «جنكيزخان»، فصام هذا الذي يعبد النار ثلاثة أيام تضرع فيها إلى الله أن ينصره على المسلمين الذين هم يخربون بلاد الله، وهو يسعى إلى الإصلاح، ولم يأكل ولم يشرب في تلك الأيام الثلاثة، ثم قام بجموعه وهجموا على الإسلام، فأزالوا دولة العباسيين ومزقوا المسلمين شر ممزق، وانتشروا في الهند وفي الروسيا، ولا تزال بقاياهم إلى الآن على نهر «فلجا» وغيره، ولكنهم أسلموا بعد حين، وهذا مصداق لقوله صلى الله عليه وسلم: «ويل للعرب من شر قد اقترب»، وسيتضح هذا المقام في تفسير سورة الكهف، عند قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٦]، وسترى فيه نص الخطاب الذي أرسله «جنكيزخان»، لتعلم أن المسلمين كما ركنوا إلى أوروبا فزالت دولتهم، ركن مسلمو الشرق إلى فجار التجار منهم فسلطوا الملوك على إيذاء الجيران فآذوهم، فسلط الله عليهم التتار. ذلك لأنهم ركنوا إلى الذين ظلموا، وهم تجار المسلمين، وأيضاً كان المسلمون غافلين جاهلين، لم يعرفوا قدرة بلاد التتار ولم يدرسوها، فهم كانوا بجغرافية البلاد المجاورة لهم جاهلين، فلما آذوهم سلطهم الله عليهم وهم لا يعلمون قواتهم ولا مقدار جيوشهم ولا عددهم ولا صبرهم على القتال، ذلك كله مصداق لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾.

مصداق هذه الآية في الأمم الإسلامية اليوم

ولقد قدمت مراراً في هذا التفسير كيف استولت الفرنجة على بلاد الشرق، وقلت إنهم استولوا عليهم بنفس الطريقة التي أهلكوا بها بلاد الأندلس، فإنهم كما أهلكوا الأندلسيين بالشهوات واللذات وفتحوا لهم باب الترف، فكثر الدَّيْن والإسراف والخمر والمجاهرة بالمعاصي مع الغانيات، ولبس الحرير والتنعم بالربا، واحتقار تاريخ الآباء وآرائهم وأعمالهم وخصالهم، وما هم عليه من التمسك بالدين، وما أشبه ذلك.

هكذا فعلوا ذلك مع أهل الشرق من التونسيين ورجال الجزائر والمراكشيين والمصريين، بحيث ترى الأغنياء من بلادنا الآن لا يهنأ لهم طعام إلا في مطاعمهم، ولا شراب إلا في قهواتهم وباراتهم، ولا مغازلة إلا مع نسائهم، ولا شراء إلا من محالّ تجارتهم، ولا لباس إلا على زيّهم، ولا خادمة إلا من أحسن نسائهم، ولا استدانة إلا من مصارفهم، وإذا أرادوا عملاً ما لا يكون إلا في أماكنهم التي لهم في بلادنا.

إذا علمت جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر لما سأله قائلاً: « قد شبت يا رسول الله » إذ قال صلى الله عليه وسلم: « شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعمّ يتساءلون وإذا الشمس كورت ». وفي رواية أخرى قال: « قلت يا رسول الله عجل إليك الشيب » فقال: « شيبتني هود وأخواتها الحاقة والواقعة وعمّ يتساءلون وهل أتاك حديث الغاشية ».

ويقول العلماء: لأن هذه السور فيها ذكر القيامة والبعث والحساب الخ، فهذا صريح في أنه يخاف عذاب الآخرة، ولا شك أن مما في سورة هود حساب الأمة المحمدية في الآخرة على أنها تركن إلى الذين ظلموا، وقد أظهر الله مقدمات هذا الحساب ودلائله فيما ذكرناه. وورد أيضاً: « ويل للعرب من شر قد اقترب »، وقد حصل ذلك بظهور التتار وغلبهم للمسلمين، كما سيتضح في سورة الكهف، وكما قدمناه الآن، فليعتبر المسلمون.

ولما كان اختلال الأمة ينشأ من ركونها إلى الذين ظلموا، وكانت إقامة الصلوات في أوقاتها مما يجمع القلوب ويؤدي إلى اتحادها، أعقب ما تقدم بقوله: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ﴾ غدوة وعشية وهو منصوب على الظرفية لأنه مضاف إلى الظرف، وصلاة طرف النهار الأول: الصبح، وطرف النهار الثاني: الظهر والعصر، ﴿ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ الزلف: جمع زلفة؛ من أزلفه: إذا قربه؛ أي: وساعات من الليل قريبة من آخر النهار وهي صلاة المغرب والعشاء، ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ ﴾ كالصلوات الخمس ﴿ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أي: الذنوب.

وفي الحديث: « إن الصلوات الخمس تكفر ما بينها من الذنوب »، ومثل الصلوات جميع الطاعات، قال صلى الله عليه وسلم: « وأتبع السيئة الحسنة تمحها »، ومن الطاعات: سبحان الله؛ والحمد لله؛ ولا إله إلاّ الله؛ والله أكبر؛ ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم، وقد ورد في الحديث أيضاً أنها مرادة بهذه الآية. وفي البخاري ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ؟ » قالوا: لا ! قال: « فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا ».

إن الذنوب الصغائر تكفرها الصلوات والطاعات، أما الذنوب الكبائر فلا يكفرها إلاّ التوبة النصوح بالإقلاع عن الذنوب بالكلية، وبالندم وبالعزم التام ألاّ يرجع إلى الذنب. وفي الحديث: « إن الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر »، وفي سبب النزول: أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني قد أصبت من امرأة؛ غير أني لم آتها، فنزلت.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما تقدم مما في هذه السورة من هلاك العاصين ونجاة الصالحين وما ولي ذلك من قوله: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ وما بعده ﴿ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ عظة للمتقين وتبصرة للمفكرين فيعرفون كيف تهلك الأمم إذا ظلمت، وكيف تمسهم النار في الآخرة إذا ركنوا إلى الظالمين، وأن الأنبياء الذين ورد ذكرهم في هذه السورة لم ينصروا إلاّ بعد الصبر، ولذلك قال: ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾ على ما تلاقي من قومك ومجادلاتهم وعداوتهم، كما صبر الأنبياء قبلك المذكورون في هذه السورة، وقد علمت أمرهم وأنه لم يضع أجرهم إذ أحسنوا في أعمالهم ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي: المصلحين أعمالهم كالاستقامة وعدم الركون إلى الذين ظلموا، وإقامة الصلاة، وفعل الحسنات، وجميع الأعمال الظاهرة

والباطنة، فإحسان العمل الباطني يرقي أخلاقنا، وإصلاح العمل الظاهري - كالصناعات - يرفع قدر الإنسان ويرقي عمله ويكسبه الغنى، وهذا ممدوح والله لا يضيع أجره كما هو مشاهد محسوس، فكل من أحسن عملاً لا يضيع أجره، وهذا يوجب على المسلمين أن يحسنوا ما يصنعون في أعمالهم الظاهرة والباطنة.

ولما كان القول المتقدم؛ وهو الأمر بالاستقامة؛ للنبي صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه ونهيهم عن الطغيان وعن الركون إلى الذين ظلموا حتى لا تمسهم النار كما مست الأمم السابقة لما طغوا كما هو مذكور في هذه السورة أشبه بالتخلية، ثم أمرهم بما هو كالتحلية من الصلاة بالليل والنهار مرتباً على ما ذكر في هذه السورة من إهلاك الأمم السابقة في الدنيا لكفرها، وفي الآخرة بالنار. لذلك أيضاً رجع إلى تفصيل الكلام على تلك الأمم قائلاً: هلا كان من هؤلاء الأقوام الذين ذكروا في هذه السورة وغيرهم من الأمم السالفة قبلكم رجال أولو رأي وعقل ينهون الناس عن إفسادهم في الأرض بتطفيف الكيل والميزان وبخسهما، وفعل الفاحشة التي لم يأتها أحد من العالمين، والكفر والمعاصي الكثيرة.

نعم إن بعضهم نهى عن الفساد في الأرض فنجيناهم، فأما الأكثرون فإنهم لم ينهوا عن الفساد في الأرض، واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه بالتنعم والترفه وحب الرياسة والثروة وطلب أسباب العيش الهنيء، ورفضوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونبذوه وراء ظهورهم ﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ وحكم عليهم بأنهم قوم مجرمون، وهذا قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ من الرأي والعقل أو أولو فضل، وإنّما سمى بقية لأن الرجل يستبقي أفضل ما يخرجه، ومنه: فلان من بقية القوم؛ أي: من خيارهم ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: لكن قليلاً منهم أنجيناهم لأنهم كانوا كذلك، فالاستثناء منقطع، فهؤلاء المستثنى منهم لم ينهوا عن الفساد في الأرض ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أنفسهم فلم ينهوا الناس عن الفساد ﴿مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ أي: ما عرفوا فيه التنعم والثروة الخ ﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ ولما كان ما تقدم يستدعي سؤالاً فيقال: يا عجباً، إن الله عزَّ وجلَّ رحيم، وكيف يهلك الناس إذا كفروا؟ وهانحن أولاء نرى الحيوانات راتعة في الماء والهواء والتراب، فلما خصّ الإنسان بالإهلاك في الدنيا فليكن الكافر في الأرض كالحيوان، أفلا يسع الله هؤلاء في أرضه؟ فما باله يهلكهم في الدنيا وينزع ملكهم ويشتت شملهم.

لذلك قال الله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ بشرك ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أي: وما كان ربك ليهلك القرى بمجرد شركهم إذا كانوا مصلحين بأن يعامل بعضهم بعضاً بالصلاح والسداد، ولذلك قيل: الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم والمعاصي. وكأن هذا تقرير لما تقدم في السورة، كأنه يقال: إذا أهلكت قوم لوط وقوم شعيب وغيرهما فإنّما إهلاكهم للذنوب المخلة بالأمن الضارة بالمجموع، وإذا كان المجموع فاسداً فلا بقاء له، بل يكون كالجسد الميت تنتن رائحته، فالأمة التي تكذب وتظلم وتفسق ويرتشي حكامها وتضل في أعمالها ولا تحسن عملاً، حكمت عليها بالهلاك، لأنها مجموع مختل غير منظم وهذه قاعدة طبيعية، فالأمة كالجسم إذا اختل خللاً عظيماً رئيسياً مات، وهذه حال كثير من أمم الشرق والإسلام الآن، وسيغير الله الحال بل ابتدأ سبحانه يفعل ذلك الآن.

ولما كانت الأمم الإسلامية اليوم قل فيها علم الأخلاق والعمل بها صارت قلوب أهلها متباعدة متباغضة، وهم لا يحسنون كثيراً من الأعمال وهي بأيدي غيرهم، سلط الله عليهم الفرنجة لأنهم لا ينهون عن الفساد في الأرض وقليل منهم الآن انتظموا في أعمالهم فاستقلوا في بلادهم الفرنجة والحمد لله.

فتعجب كيف أبان الله في هذه الآيات أن خراب الأمم تابع لظلمها الداخلي في أعمالها لا إيمانها وعلى ذلك لا يبالي بإيمان بلا عمل صالح، بل ينزل بأهله العذاب الشديد في الدنيا كما أشار إليه في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾، ومن الظلم ترك النهي عن المنكر. واعلم أن الفقهاء لأجل هذه الآية قدموا عند تزاحم الحقوق حقوق العباد على حقوق الله تعالى.

واعلم أن هذا المقام يقتضي أن يسأل سؤالاً، فيقال: إذا كان الله هو الخالق للعالم المنظم له وهو واحد فلم تطورت الأمم، وكانوا مختلفين أخلاقاً وديانات وآراء وكفراً وإيماناً، وهلا جعل الله الناس أمة واحدة ولم هذا الاختلاف؟ واعلم أن هذا السؤال يرد على عقول كثير من الناس، وهو بهذا المقام أليق لأنه في مقام هلاك الأمم وبقائها وتقرير حقائقها، وقد تم البحث هنا ودقق أيما تدقيق، واعلم أن العالم لو لم يكن مختلفاً لكان معدوماً.

ألا ترى أن الحكماء قد قرروا أنه لا يتساوى اثنان في الوجود، فلا رجل ولا امرأة من الناس يماثلان غيرهما من الرجال والنساء بل كل فرد من الناس والحيوان والنبات والمعادن والكون لا نظير له في الوجود. وقد برهنوا على ذلك ببرهان قاطع لا محل لذكره هنا، فما دام هناك خلق فلا بد من اختلافه، فالاختلاف ملازم للخلق، وما دام هناك خلاف فهو في الأجسام والألوان والعقول والآراء والديانات والأحوال وفي كل شيء.

فالعاقل الحكيم يعتقد أنه لا يكون وجود بغير اختلاف الموجودات، والجاهل يقول لم خلق الله الاختلاف مع أنه لا يمكن الخلق إلاّ مع الخلاف، ولا فرق بين الخلاف القليل والكثير، فكما يأتي بساعات النهار المختلفة أضوائها يأتي بالليل الذي هو غاية الخلاف مع النهار، هكذا يفعل في الديانات.

فكما يخلق تقيين متقاربين كأبي بكر وعمر وهما كساعتين، يخلق كافراً ومؤمناً كأبي بكر وأبي جهل، كما خلق الليل والنهار، فالنظام واحد في الأطوار الإنسانية والأحوال الكونية، ونتيجة ذلك هو أعلم بها، وهذا قوله: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ متفقين في الإيمان والطاعات، ولكنه لم يشأ ذلك لأن المشيئة تتبع العلم، والعلم يتبع المعلوم، والمعلوم ليس يكون إلاّ على النظام الأكمل، والنظام الأكمل لا بد أن يكمل فيه جميع الأحوال، كما كملت أحوال الليل والنهار بالظلام والضياء المتباين النتائج، والثمرات ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ في دياناتهم كما اختلفوا في جميع أطوارهم، وهذا الاختلاف يقلق راحاتهم ويزعج نفوسهم، ويكون سبب النزاع فيما بينهم ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ من أناس يكون اختلافهم غير داع إلى النزاع، بل هو كالوفاق حينما يرتقي نوع الإنسان ويكونون كأسرة واحدة يحب بعضهم بعضاً، ويكون اختلافهم في جميع أحوالهم ليتكملوا به ولكل منهم عمل خاص ينتفع الجميع به، فيكون الاختلاف فيما بينهم كاختلاف البنوة والأبوة والذكورة والأنوثة كل له عمل ينفع به المجموع، وتكون جميع أهل الديانات على حال لا يلعن بعضهم بعضاً بل يكونون أشبه

بأعضاء أسرة واحدة. ذلك هو العصر الذهبي الذي عبر عنه بأنه ينزل فيه عيسى ابن مريم، فتصلح القلوب بالمحبة، ويصبح الناس ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] في الدنيا. وقد ورد أن دين الإسلام يعم المسكونة إذ ذاك.

ولما كان الخلاف في جميع الأحوال أمراً طبيعياً، أعقبه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: خلق الناس ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وهي قوله للملائكة: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ لنقصانهم وبعدهم عن الكمال، فإذن أضعهم في المنازل التي استأهلوا لها، كما أخلق الدود في الطين، والحيات والعقارب في التراب، والحشرات في القاذورات، ولقد أكثرت في الدنيا من هذه المخلوقات في تلك الأماكن، لئلا يبقى مكان في العالم معطلاً بلا خلق، ولم أخلق الخلق عبثاً، بل كلاً لحكمة، فأنا لا أذر الروث والطين المنتن والقاذورات بلا مخلوقات فأكثرت خلقها فهكذا.

إن أكثر النفوس الإنسانية تموت ناقصة، فأضعها في قاذورات العالم الثاني لأعمال أنا بها عليم فتكون معذبة، وعذابها استعدادها، كما خلقت الدودة في الروثة، وكما أن الناس يأنفون من الروث ويقولون: لو خلقنا دوداً لتمنينا الموت ولكرهنا الحياة، والدود محصور مغمور مسكين، يعيش كأنه ميت ولا يعلم من الحياة إلاَّ ما يمس جلده، فهو خال من السمع والبصر والشم والذوق.

هكذا يكون في الآخرة خلق من الناس يأنف أهل الجنة أن يكونوا معهم، لما هم فيه من العذاب بالنار والجحيم، فضلاً عن خسة الحياة ودناءة الموقف وعذاب الخزي والمذلة والمخافة والضياع وانحصار القوى وانحباس النفوس.

وإلى هنا قد تم الكلام على الأمم وأحوالها، وما استنتج الله منها، وعلم نبيه وأمته، ووعظ وذكر وحذر وأنذر.

ثم شرع سبحانه يبيّن للنبي صلى الله عليه وسلم ولأمته مقصود هذه القصص وأمثالها، وأن المقصود من هذه الأخبار تثبيت فؤاده صلى الله عليه وسلم وفؤاد كل مؤمن يقرأ هذه القصص، فإن الإنسان إذا علم ما أصاب المصلحين قبله من البأساء والضرّاء، ثم تم النصر لهم في آخر الأمر يثبت قلبه وهكذا صلى الله عليه وسلم لما علم من هذه السورة كما علم من غيرها كيف كانت عاقبة الأنبياء وعاقبة أممهم من الأتباع والكفار تأسى وصبر وثبت قلبه لعلمه بالعاقبة، وهذا قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا﴾ وكل نبأ ﴿نَّقُصُّ عَلَيْكَ﴾، وقوله: ﴿مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ﴾ بيان لـ «كل»، وقوله: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ بدل من «كلاً» ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ﴾ أي: في هذه السورة ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وتثبيت قلبه معناه زيادة يقينه، فإن تكاثر الأدلة أثبت للقلب، وهكذا توارد القصص المتشابهة المغزى في موضوع واحد توجب الاستئناس.

هكذا قراءة المؤمنين لأمثال هذه القصص تورثهم موعظة من المعاصي، وتذكرهم أحوال الأمم فيقيسون عليها أنفسهم. ولما كان ما تقدم نافعاً له وللمؤمنين أمره أن يخاطب الكافرين قائلاً: اعملوا على حالكم وجهتكم التي أنتم عليها ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ على مكانتنا، وهذا كقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، ﴿وَانتَظِرُوا﴾ بنا الدوائر ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أن ينزل بكم مثل ما نزل بالأمم السابقة كما قصه الله في هذه السورة من الهلاك اللاحق بهم لما كفروا كما كفرتم.

ثم ختم السورة بالتوحيد وإرجاع الأمور كلها لله تعالى فقال: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وحده لا يخفى عليه شيء فيهما ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴾ ومنه أمرك وأمرهم فيثيك ويعاقبهم ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ أي: فمن كان كذلك فهو مستحق للعبادة لا غيره، فاعبده وحده وتوكل عليه يعني: وثق به في جميع أمورك، فإنه يكفيك كما في قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أنت وهم وجميع الخلق فهو يحفظ أعمالهم جميعاً لا يخفى عليه منها شيء، فيجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، والله أعلم. انتهى التفسير اللفظي.

لطيفتان

الأولى: في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ ﴾ الخ.

الثانية: ما أهم العلوم التي كان يرمي إليها الأنبياء في هذه السورة. وكيف خزنها الله في القرآن للمسلمين في هذا الزمان وكل زمان.

اللطيفة الأولى

اعلم أن من علماء الأمة الإسلامية من نظروا في هذه الدنيا ونظامها وحكمة خالقها، ورحمته التي وسعت كل شيء، وأن رحمته سبقت غضبه، وأن أول كل سورة بسم الله الرحمن الرحيم، وصلاة المسلم كلها دعوات تسند جميع أفعال الخلق إلى الله تعالى.

وهذا كله مما يوقع في النفوس أن خالق هذا العالم عنده رحمة عظيمة فوق رحمة الناس وفوق ما يعرفه الناس. كيف لا وهو القائل في هذه السورة: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ [الآية: ٦] وهو القائل على لسان بعض رسله: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الآية: ٥٦]. فالنظر في العالم والنظر في بعض الآيات والأحاديث جعل بعض العلماء يفكر في هذه الآيات ويقول: إن العذاب ليس يكون بلا نهاية.

قال العفيف التلمساني: إذا بلغ الانتقام الغاية انقلب رحمة، وقام المصطفى صلى الله عليه وسلم لجنازة، فقالوا: إنه يهودي، فقال: أليس الملك معها أليست نفساً؟.

قال العلامة زين الدين محمد، المدعو عبد الرؤوف الحدّادي القاهري المعروف بالمناوي، المتوفى بالقاهرة سنة ١٠٣٠هـ في شرحه على قصيدة النفس لابن سينا ما نصه: قال في الفتوحات المكية: «هذا أرجى ما يتمسك به أهل الله إذا لم يكونوا من أهل الكشف ولا التعريف الإلهي في شرف النفس الناطقة، وأن صاحبها وإن شقي بدخول النار فهو كما يشقى هنا بأمراض النفس والعلل والهموم، وأن ذلك كله غير مؤثر في شرفها إذا كانت من العالم الأشرف، فقام لها لكونها نفساً، أي: لذاتها، وهذا يؤذن بتساوي النفوس.

وفي رسالة القشيري عن بعض الصلحاء أنه ذمّ من رأى نفسه خيراً من فرعون، وقال: وهذه مسألة من أعظم المسائل تؤذن بشمول الرحمة وعمومها لكل نفس، وإن عمرت النفوس الدارين، ولا بد من عمارة الدارين، كما ورد أن الله سيعامل النفوس بما يقتضيه شرفها، بسبب لا يعلمه إلا أهل الله، فإنه من الأسرار المخصوصة بهم، فكما أن الحدّ يجمعهم كذلك المقام يجمعهم لذاتهم إن شاء الله تعالى.

وقال تعالى في الذين شقوا: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[هود:١٠٧]، ولم يقل: ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾[هود:١٠٨]، كما قال في السعداء، وقال أيضاً: «رحمتي سبقت غضبي»، وقال: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[الأعراف:١٥٦]. كل ذلك منه منّة، فإنه كتب على نفسه الرحمة، قال المناوي: إلى هنا انتهى كلام ابن عربي.

أقول: ولم يقتصر الأمر على الصوفية رحمهم الله، بل تعداهم إلى غيرهم.

قال ابن زيد: أخبرنا الله سبحانه وتعالى بالذي يشاء لأهل الجنة، فقال تعالى: ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾[هود:١٠٨]، ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار. وروي عن ابن مسعود أنه قال: «ليأتين على جهنم زمان ليس فيها أحد، وذلك بعدما يلبثون فيها أحقاباً». وعن أبي هريرة نحوه. وقال المناوي: إنه قد جاء في بعض الآثار ما يدل على خلاص الكل، وأن النار تفنى ويزول عذابها دون الجنة. قال ابن تيمية: نقل ذلك عن عمر وعن ابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم.

وأخرج عبد الحميد بن حميد عن عمر بإسنادين رجالهما ثقات: «لو لبث أهل النار في النار كعدد رمل عالج لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه»، وتداوله أئمة غير مقابلين له بالإنكار، قال ـ أعني ابن تيمية ـ وإنّما أراد جنس أهل النار الذين هم أهلها، وأما قوم أصيبوا بذنوبهم فقد علموا أنهم لا يلبثون قدر رمل عالج ولا قريباً منه، ولفظ أهل النار يختص بمن عدا المؤمنين كما يشير إليه عدة أحاديث، ولا يناقضه قوله تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾[هود:١٠٧] ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾[الحجر:٤٨] إلى أن قال: «ولكن إذا انقضى أجلها وفنيت كما تفنى الدنيا لم يبق نار فلم يبق عذاب» قال: وورد في عدة طرق عن ابن عمر: «وليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد، وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقاباً».

وجاء نحوه عن ابن مسعود، وأخرج عبد بن حميد عن الشعبي: «جهنم أسرع الدارين عماراً وأسرعهما خراباً»، ثم إن ابن تيمية رحمه الله أورد قول من يقول: إن الإجماع على خلاف ما ذكر ونحوه. وردّ هذا القول قائلاً: إنّما يظن الإجماع من لا يعرف النزاع، والمسلمون جميعاً أجمعوا أن عذاب جهنم دائم لا ينقطع، هذا قام عليه الإجماع، ولكن إذا بطلت جهنم بالكلية لا يقال إنهم خرجوا من جهنم، بل يقال إنها فنيت، فهم يعذبون ما دامت باقية، فإذا خربت فأين يعذبون؟ وفرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله، وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس.

هذا ملخص ما قاله المناوي، ثم قال: حكى ذلك كله ابن القيم وأطنب فيه ودفع قوادحه في نحو كراسة. ثم قال: والذي نعتقده ما عليه هداة هذه الأمة وجمهور الأئمة أن النار لا تفنى ولا يزول عذابها، قال: ووافق ابن القيم على نحو ما زعمه جمع من الصوفية كمّا تقدم. اهـ.

هذا وإنّما أريتك هذه الآراء المختلفة في هذا المقام لتعلم مقدار ما وصل إليه علماؤنا والمحققون منهم في هذا المقام والله يتولى هدايتنا.

اللطيفة الثانية

اعلم أن هذه السورة أشبه بثمرة الجوزة المقسومة إلى بيوت، كل واحد منها فيه اللب الشهي النافع للأجسام المغذي لنوع الإنسان، وإنّما شبهتها بتلك الثمرة لأن الجوز له قشر يحيط بلبّه، وفي

داخله بيوت منظمة محتوية على اللب المطلوب للآكلين، هكذا هذه السورة فيها القصص الدالة على نجاة الطائعين وهلاك العاصين.

والمقصود من ذلك كله العلم بنظام العالم وجماله وبدائع حكمته وغرائب خلقته، ولعلك تقول: يا للعجب! كلما وصلنا إلى آية أو قرأنا حكمة أرجعتها إلى الحكم الكونية والغرائب الخلقية.

فيا ليت شعري، ما لقصة نوح في سفينته، وهود في قبيلته، وصالح وناقته، وإبراهيم وامرأته، ولوط وقريته، وشعيب وجماعته، وموسى ونبوته؟. فأين قصص هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والأفلاك في دورانها، والأسماك في بحارها، والنباتات في حقولها، والحيوانات في فلواتها؟ والذي يخيل لي أنك مغرم بالعجائب الكونية تدور حولها كلما سنحت سانحة أو برقت لك بارقة.

إذا قلت هذا أيها الذكي، أقول لك: لا تعجل، وانظر ما أقول. ابتدأ الله السورة بأن الكتاب محكم الآيات مفصل كما تفصل الفرائد، وهو حكيم خبير، وأفاد أن علمه يعم ما بطن وما ظهر، وأن عليه رزق جميع الدواب، وهو العالم بمستقرها ومستودعها، وأن ذلك عنده في كتاب، وقد أسس ملكه جميعه على العلم، فلا دابة في الأرض من طير يطير وبهيمة تسير وسمك يجري وحشرة تسري، إلاّ وهو قائم بنظامه عالم بما يحتاج إليه رازق له منظم لأعضائه وحياته معطيه رزقه، فإذن ليس لدابة في الأرض إلاّ خالقها، ومنها الإنسان وهو أشرف المخلوقات، فهذا أساس هذه السورة.

ألا ترى إلى قول هود: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [الآية: ٥٦]. انظر كيف استدل بعلم الدواب، وأن الله قابض على ناصيتها، عالم بمستقرها ومستودعها أليس هذا ترديداً لما في أول السورة، دلالة على أنها مؤسسة على هذا الأساس، مبنية على هذا المبدأ، قائمة على قرار مكين من علم شامل وعمل دائم وحكمة عالية.

هاهو ذا النبي هود يقول: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الخ، وما برهانه إلاّ ما جاء في أول السورة وهو جوهرها ومقصودها، فيقول: إن الله ممسك بنواصي الدواب، ويعلم مستقرها ومستودعها، فكيف أكون نبياً وأخاف من المخلوقات والله آخذ بناصيتي، وربي على صراط مستقيم، لا يبقي إلاّ ما كان أنفع في الوجود، ولا شك أن العلم أبقى على العالمين والجهل أردأ للمخلوقين، وأنا قد أرسلت بالعلم، فهل يخذل الله المصلحين وينصر الجاهلين؟ كلا ثم كلا.

وانظر إلى نوح كيف يقول الله له: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [الآية: ٣٧] وذلك للمبالغة في الحفظ والرعاية، كأنه يراه بعيون كثيرة على سبيل التمثيل حتى لا يلحقه ضيم، فهو المنجي له، وهذا كقوله في المبدأ: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [الآية: ٦].

وقال الملائكة للوط: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ [الآية: ٨١]. ولقد نجى الله شعيباً وبقية الأنبياء، فانظر كيف رجع أمر الأنبياء جميعاً إلى مراعاة الله لكل ما دبّ على الأرض من الإنسان والحيوان، وحفظه لها، وأخذ الأنبياء يرددون ذلك المعنى حتى قال لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم في آخر السورة ما جمع ذلك كله فقال: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وهذا كالذي ذكر في الأساس من عموم علم الله، وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ هو عين ما قاله جميع الأنبياء لرسلهم، وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هو كقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [الآية: ٦].

فأول الأمر وآخره في هذه السورة أن الله محيط بعالم الحيوان وغيره، قائم بتدبيره، وأن الأنبياء جميعاً قد حققوا هذه الفكرة وعرفوها بما أوحي إليهم، فلا يبالون بأعدائهم، وهم متوكلون على الله، والآية التي ختمت السورة أتت بمجمل ما جاء فيها، هذا هو مقصود السورة، وهذا هو اللب.

واعلم أن إرسال الأنبياء والقصص الواردة في الكتب السماوية والأمر والنهي وغيرها ليس يقصد منها إلاّ ترقية الإنسان وإخراجه من ظلمات الجهالة بالعرفان، وكل ما ورد من علوم الأخلاق والآداب لم يقصد منها إلاّ ترقية العقول بالعلوم.

وهاهنا قد وصلنا إلى المقصود فنقول: كيف يعرف الإنسان أن الله آخذ بناصية كل دابة، وأنه يعلم مستقرها ومستودعها إلاّ بدراسة علم الحيوان.

يا عجباً كيف يعرف الناس أن الله آخذ بناصيتها إلاّ بالدراسة التامة، وما مثل الناس في ادعائهم أنهم يعرفون علم الحيوان وهم لم يدرسوه، إلاّ كمثل الجمال والبقر إذ تزعم أنها تعرف الحيوان المحيط بها من الجمال وبقية الدواب، أو كمثل من يظن أنه عالم بالشمس والقمر والكواكب، وهو لم يعرف إلاّ صورها الظاهرة، ولم يدرس من علم الفلك درساً واحداً، فكم في الأرض من مغرورين، وكم في بلاد الله من غافلين، وكم من صم بكم عمي فهم لا يعقلون.

أنزل الله سورة هود وبنى حجج الأنبياء على التوكل عليه لأنه القادر العالم الخالق العليم بأحوال الحيوان، فعلى المسلمين دراسة علم الحيوان كما يدرسون علم الفقه، كلاهما فرض كفاية.

فلأذكر لك أيها الذكي في هذا المقام عشرين عجيبة من عجائب الحيوان بعد ما قرأته في هذا التفسير وبعد ما بينته في هذه السورة نفسها، لتكون أنساً لك وجمالاً وكمالاً، ولتقبل بقلبك على دراسة العجائب الإلهية ولتكون من الموقنين.

خزائن الجواهر في سورة هود

اعلم أن هذه العجائب الكونية الحيوانية الآتية وغيرها من جواهر مخزونة في سورة «هود» مقصودة لنفسها.

فلعمرك ليس يراد من الإنسان إلاّ كماله الجسمي وكماله العقلي، والأخير أرقاهما مقاماً، ولن يتم ذلك إلاّ بنظام هذا العالم، ومن نظامه الجواهر التي خزنها الله في سورة «هود»، نعم خزنها للأجيال المقبلة وبعض الذين سبقوا من أولي العلم والحكمة الذين هم لله شاكرون ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾[سبأ: ١٣].

وأكثر الناس لا يشكرون الله لأنهم جهلاء بالحقائق، مكتفون بالظواهر، فلا يعرفون من سورة «هود» مثلاً إلاّ التاريخ وتطبيقه، والنحو وإعرابه، والبيان ومجازه، والمعاني وحقائقه، والبديع وجناسه ويتلهون بالبلاغة، وأن القرآن معجز العالمين تارة بعشر سور، وتارة بسورة واحدة من مثله، كل ذلك اكتفى به أكثر الناس عن الحقائق، وضلوا طريق الدقائق وما وصلوا إلى ما هم له طالبون.

ولعمرك لم يتعدّ أمثال هؤلاء أول الطريق، ولا قاموا للدين بأدنى نصيب، وما نالوا من ذلك كله إلاّ تصديق النبوة ولكنه تصديق يتبعه الأعمال والعلوم.

أما الأعمال فكالأخلاق التي تؤخذ من هذه القصص.

وأما العلوم فهاك هذه العشرين عجيبة تذكرة وبشرى للعاقلين الذين درسوا هذه الكائنات وأحكموها، وفقهوا بعض أسرار هذا الكون وأدركوها، وهم طوائف من أمم شتى وأزمان مختلفة، اختلفت دياناتهم وشرائعهم وبلدانهم وأزمانهم، وهم في الحقيقة متحدون، لأن علمهم الذي حصلوه هو نظام هذا الوجود وعجائب هذا الملك، فخذها عشرين عجيبة عسى أن تكون من أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾[هود: ١١٩]، فإنهم لما أدركوا عجائب صنع الله لم يختلفوا فيها بل اتحدوا وعرفوا بواطن الأمور ولم تلههم القشور.

العجيبة الأولى: لغات الحيوان

من غرائب أمر الحيوان أن لأنواعه طرقاً لتأدية المراد، كما أبان أهل العلم والاختبار، وقد شاهدوه في أدنى الحيوان، كالنمل والنحل، وقالوا: إن النمل يفهم أمثاله بطريقة اللمس بالقرون، وفي تلك القرون من قوة اللمس ما ليس للإنسان.

ويحكى أن «فرنكلين» كانت عنده جرّة من القند «عسل قصب السكر» ازدحم النمل فيها، فخشي «فرنكلين» على قنده، فعلق الجرة بحبل من السقف، فرأى نملة خرجت من الجرة وصعدت على الحبل، وبعد نصف ساعة رأى ما لا يحصى من النمل نازلاً على الحبل إلى الجرة، وكانت النملة حين تشبع تخرج تاركة مكانها لغيرها، وظل النمل بين صاعد وهابط إلى أن فرغت الجرة من القند. اهـ.

وعلى ذلك نقول: إن النملة أخبرت النمل حتى جاء إلى الجرة، وليس يلزم من قولنا إن للنمل لغة أن تكون لغتها كلغتنا، بل المقصود أن يفهم عنها ما يلزمها، فالمراد باللغة هنا كل ما أفهم المراد، ومن هذا نفهم: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ ﴾[هود: ٦]، ومن هذا وأمثاله فليفهم القرآن، وبهذا وأمثاله فليرتق المسلمون.

العجيبة الثانية: نظار النمل

قال بعض علماء العصر الحاضر: إن رؤساء العمل في النمل تضرب بقرونها حثاً للعملة، فتسرع وتبذل كل مجهود في العمل. ولقد شاهد ذلك في حرب النمل، فترى أنه عند التقاء الجيشين، يضرب أمراء الجيش الأرض بقرونهم، فتلتحم الحرب، ويشتد الكرب، ويعظم الهول، ويحمى الوطيس، وتقوم الحرب على قدم وساق، وتفتك الأبطال بالأبطال، ويكثر النزال ويحمل الجحفل على الجحفل وتحتجب الجنود في ظلام القسطل، وتظل نار الحرب تلظى إلى أن يتم النصر للقادرين وهم الغانمون، ويجتمع النمل على مدبّ كنصف محيط دائرة، وينطح المنذرين ـ بفتح الذال.

وبهذا نفهم: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أي: اللوح المحفوظ ﴿ مِن شَيۡءٍۚ ﴾[الأنعام: ٣٨].

العجيبة الثالثة: لغة النحل ولغة النمل متقاربتان

يقال إن لغة النحل ولغة النمل متقاربتان كالإنجليزية والفرنسية، وذلك أن هؤلاء العلماء جدّوا حتى سمعوا الأصوات منهما بطرق طبيعية، ووجدوا لصوتهما ولتنوعاتهما مشابهة.

العجيبة الرابعة: حكاية نملة

استيقظت نملة صباحاً نحو الساعة السادسة من تلقاء نفسها بلا منبه، فغسلت وجهها وأصلحت من شأنها بالمقرضة والمشط، اللذين وهبا لها من الله بحسب جبلتها، وهما في طرف قائمتيها المقدمتين، ثم نظفت القائمتين بفمها، وخرجت في سرب من أخواتها ماشيات في بعض دهاليز المنزل نحو غرفة الملك، فالتقت بأسراب أخرى سائرة إلى أشغال أخرى، وبينما هن سائرات وقفت هذه النملة فنزعت قشة علقت ببدن إحدى أخواتها في أثناء الطريق، كما يلتقط الرجل خيطاً علق برداء صديقه، فلما فرغت من ذلك أسرعت للحاق بسائر الرفاق، فاعترضتها في أثناء الطريق نتف من القش، فنظفت الطريق منها، وهي مع ذلك تغتنم الفرص للبحث على ما قد تعثر عليه من أطراف الجذور أو قطع الأوراق أو غير ذلك لتدخرها لطعامها. اهـ.

العجيبة الخامسة: الزنابير وتناسلها

ومن عجب أن المسلمين في أنحاء الكرة الأرضية إلاّ قليلاً ينظرون الزنابير السود والصفر والحمر، وهم عن آياتها معرضون، ويطردونها عن النحل وهم بعلمها جاهلون. تبارك الله عزَّ وجلَّ، فانظر أيها الذكي كيف تبيض الأنثى، وكيف يخرج الدود ويأكل ما تقتنصه الأم له، وكيف تصبح الدودة بعد ذلك «شرفيلجة»، وكيف تصير بعد ذلك زنبوراً كاملاً يطير بجناحين، إن الأنثى تبيض بيضها الذي لا يحتوي على غذاء لصغارها، كما يحتوي بيض الدجاج وبيض الإوز، تذهب فتقتنص بعض الهوامّ كالخنافس والذباب والفراش والبعوض أو الديدان أو العناكب، وتختلف الفريسة باختلاف أنواع الزنابير، فإن أتت الأم بالفريسة ميتة فبها ونعمت، وإن كانت حية أفرغت عليها من إبرتها سماً يسكرها ويخدرها، فتعطل حركتها، وهي محبوسة في نفقها المبني لبيضها، ثم تلقي بيضها على تلك الفريسة وتسدّ القفير سداً محكماً، وبعد يومين أو ثلاث يفقس البيض وتخرج ديدان تغتذي من جسم الحشرة التي هي عليها، حتى تنقضي المدة الدودية، ثم تصير شرنقة، ثم تصير طائراً فتطير، وما ذلك الطير إلاّ زنبوراً.

فانظر يا رعاك الله، كيف علمت أنثى الزنابير ـ بلا معلم، ولا كتاب، ولا نبي أرسل إليها، ولا دراسة ولا تجربة ـ أن بيضها الذي ستلقيه لا قوت فيه لأبنائها، وكيف ألهمت أن تعوّض بدله خنافس أو ديداناً أو ذباباً، وكيف أعطيت مادة سمية لتخدر بها تلك الفريسة، وكيف ألهمت استعمالها، وكيف كانت تلك المادة السمية لا تقتل الحشرات لئلا ينتن جسمها، ولا تبقيها قوية لئلا تهرب أو تكثر الحركات بل بقيت بين بين، حتى يحصل المقصود للدود الذي يخرج من البيض، وكيف تأكل منه الذرية وهي في عيشة راضية مرضية، فانظر هذه الحكم الستة في الزنابير التي تعيش في سقوفنا وحيطاننا ونحن غافلون والله يقول: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥]

العجيبة السادسة: زنبور يلسع دودة

لبعض الزنابير طريقة عجيبة في قتل الحشرات التي أعدها لصغاره، فإنه يختار دودة لها نحو ١٣ حلقة، ومعلوم أن لكل حلقة مركزاً عصبياً، ولا بد من لسعها في جميع هذه المراكز، وأهمها ما بين الحلقة الثالثة والرابعة، فإنه في الدود أشبه بالمخيخ في الإنسان، فإن هذا المخيخ إذا أصيب مات الإنسان

حالاً، يعلم ذلك الزنبور علماً حقاً إجمالياً بالغريزة، فيأتي إلى الدودة ويقاتلها، وتدافعه مرات كثيرة، حتى إذا أخذت تضعف عن المقاومة رفعها إلى أعلى وطرحها على الأرض، ثم لسعها فيما بين الحلقة الثالثة والرابعة، فتخرّ صريعة مخدرة، ثم يبقى الزنبور ساكناً مما حلّ به من التعب، حتى يستعيد قوته، فينقض عليها ثانية، وهي خاشعة، فيلسعها فيما بين الحلقة الثالثة والثانية، ثم فيما بين الحلقة الثانية والأولى، ثم يطير حولها مدة، ويعود إليها ويلسعها فيما بقي من الحلق، فتخشع خشوعاً تاماً مخدرة ساكنة، وتبقى حية على الأغلب لتكون غذاء لصغار الأولاد.

العجيبة السابعة: الحشرات الصائدة بلونها المشبهة الزهرة

كل فلاح في بلادنا المصرية وغيرها رأى حشرة تطير بين الأشجار يسميها الناس «فرس النبي» ويسميها الترنسفاليون والإفرنج «الجندب المصلي»، ويسميها غيرهم «فرس الشيطان»، وهذه الدابة قادرة على الاحتيال بما يحير الألباب، فهي تتلون بلون ما تقع عليه، فهي خضراء على الورق الأخضر حمراء على الزهر الأحمر، كثيرة الألوان على الزهر المتلون، وربما رأيتها على غصن من الأغصان أشبه بزهرة من الزهرات، بحيث لا يفرق الناس ولا الحشرات ما بينها وبين زهرات تلك الشجرة، حتى إذا جاءت ذبابة بقربها انقضت عليها فقنصتها.

ومن عجيب أمرها أن حيلتها تتم بكمالها، فإذا تشكلت بشكل الزهرة وهي على الغصن صارت من الشجرة في جميع أطوارها، فحركاتها الطبيعية معدومة، فهي أبداً ساكنة، وإذا هبت الرياح والعواصف والزعازع تحركت كأنها زهرة تلعب بها الرياح كما تلعب بغيرها، وهذا يفهم من قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون: ١٧]، وقوله في هذه السورة: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[هود: ٥٦]، ولقد تقدم قريباً في هذه السورة ما جاء في العلم الحديث أن ألوان الحيوان إنّما جاءت لحمايته ولبقاء حياته.

العجيبة الثامنة: الحباحب

وتعريف الحباحب أنه ذباب يطير في الليل، له شعاع في ذنبه كالسراج، وهذا النوع في العلم الحديث ظهر منه أنواع كثيرة تشترك كلها في الإضاءة بأشعة تشعّ من بؤرة في ذنبه، وليس لها مظهر إلاّ بالليل كالقمر والنجوم.

وقال العلامة «شوتز»: إن للذكر منها بؤرتين، واحدة منهما وراء الأخرى، وكل منهما مركبة من طبقتين: عليا يشعّ منها النور، وسفلى يظن أنها تعكسه إلى ما حول الحشرة، ويقال: إن الأنثى لا تضيء، وقد وجدت الأنثى في إيطاليا كالذكر في الإضاءة.

وأعظم الحباحب ما وجدت في جزائر الهند الغربية بأمريكا الوسطى يسمونها «ذبابة الصباح» لأنها تنير كالمصباح، وأهل تلك الجزائر في كوبا وجامليكا وسان دومينيكو يستخدمونها كالمصباح، والسياح يستخدمون هذه الحشرة لإضاءة السبل، فيعلقون واحدة أو اثنتين في أحذيتهم فتضيء الطريق أمامهم، وهي كما تكون هدى للمسافرين جعلها النساء زينة لهن وجمالاً في كوبا يغرسنها في شعورهن بين الضفائر بدل الحلي من ألماس وعقيق وذهب، وهذه تكسب نساء كوبا جمالاً وبهجة وحسناً يفوق الجواهر المعدنية والأحجار الثمينة.

وأهل تلك البلاد ينتفعون بهذه الحشرة في الاستضاءة ليلاً للخياطة، فلو رأيت ثم رأيت جماعة من هؤلاء وقد علقوا قنديلاً في سقف البيت بيتهم، وليس فيه إلاَّ تلك الحباحب، والضوء منثور عليهم وهم يخيطون، وهم فرحون بلا كهرباء ولا نار، ولكن بالحباحب السارّة للناظرين، وهذا من سر قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾[النور: ٣٥].

العجيبة التاسعة: صاحب السفينة

إن في الحيوان لعجباً وأيّ عجب، فبينما تراه ذا فقرات كالإنسان وذوات الأربع والسمك والطير وأكثر الحيوانات والزحافات ترى منه ما ليس له فقرات ولا عظم له البتة، وهذه الحيوانات تسمى بالحيوانات الرخوة.

فانظر كيف كان العمود الفقري والعظام عليها مدار القوة والحركة، فأما هنا فقد انعكس الوضع وأعطي بدلاً من الهيكل العظمي كساء خارجياً تتصل به العضلات للحركات الانتقالية، وهذا الكساء الخارجي الذي قام مقام العمود الفقري والعظام إما أن يكون جلدياً وإما أن يكون كالغضروف، وإما أن يكون كالعظام، وهو عبارة عن كساء كلسي، وإما أن يكون أصلب من العظم وهو الصدف، وهذه الحيوانات تسمى ذوات الأصناف، ومن أنواعها:

(١) القوقع الذي منه الحلزون المعروف في البحار، ومنه الأبواق الكبيرة الهائلة، وهذا الكساء إما مستدير كالصحن، وهو طبقة أو طبقتان مثل «أم الخلول» و«الكندوفلي» و«البطلينوس»، وقد يكون هرمي الشكل كالأبواق، وقد يكون حلزونياً، وقد يكون مستطيلاً كالأنبوب.

والذي يهمنا في هذا المقام أن نذكر هذا الحيوان الذي نحن بصدده فإنه من الحيوانات ذوات الصدف، والصدف هنا في هذا الحيوان كالسفينة يستخدمها كما نستخدمها نحن، إنه يعوم بها فوق الماء في بحر الهند خصوصاً بجوار «جزيرة ملقا»، وقد أعطي ثمانية أصابع، منها اثنان يجعلهما كشراع السفينة ينشرهما في الهواء، وبهما تسير السفينة كما يريد، وهو يحولهما نحو الريح كما يحبّ، وأما الأصابع الست الباقية فإنها جعلت كالمجاديف يرسلها على الجانبين، وبها تسير السفينة بقوة التحريك، ويسيرها الشراعان بقوة الهواء الضاغط عليهما، وهما منشوران غشائيان، فاعجب لسفينة حقيقية لم تلتصق بجسم الحيوان، لها شراعان غشائيان كأنهما من نسيج القطن أو الكتان، والمجاديف تحيط بها، والنوتي يعيش فيها، ومتى طرأ عليه خطر أو أحسّ بأيّ مؤذ، قبض المجاديف والشراعين، واختفى في الصدفة وغاص في قاع البحر، ونجا من الخطر الداهم ﴿ وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾[القصص: ٦٨].

العجيبة العاشرة: سمك يطير

إن من السمك ما يعيش في مياه الولايات المتحدة والبرازيل وفي البحر الأحمر يبلغ نحو شبر، ألوانه جميلة زاهية سماوية وفضية، وله زعانف بها يطير في الجو أسراباً مسافات طويلة، ثم يخوض في الماء ويعود فيطير. ومن عجب أن هذه الموهبة العجيبة والنعمة العظيمة ـ وهي تمتعه بالهواء في جو السماء، وسعادته بولوج ماء البحر ـ قد قوبلت بما يناسبها من المهالك، فهو يكون فريسة السمك الكبير في البحر إذا غطس في الماء، وتصيده طيور البحر إذا علا إلى الجو، وانظر قوله تعالى:

﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾[الرحمن: ٧ـ٨]، فقد وزنت النعمة بالنقمة ليعتدل العمل ويقوم الأمر بالقسط، فإذا أعطي السمك الطيار نعمتين فقد سلطت عليه نقمتان ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[فصلت: ٤٦] وإنَّما يضع الموازين القسط.

العجيبة الحادية عشرة

الحيات التي لا سم لها أكثر من ذوات السم والثعبان الذي لا سم له ولكنه يبتلع الإنسان

قرأت في قصة «روبنصن» السويسري المترجم، بقلم المرحوم صديقي صالح بك حمدي حماد قال: إن الحيات السامة تبلغ نحو مائة صنف من الحيات، أما الحيوانات التي ليست بسامّة فهي تقرب من أربعمائة نوع، ثم قال: إن الأصناف السامة تعيش عادة في الأحراش الكثيفة والمستنقعات الدائمة، والسم الذي فيها لا يكون إلاَّ من تعاطيها الحشائش السامة والأبخرة الخبيثة والروائح الكريهة في الهواء الفاسد في تلك المستنقعات، وكذلك ما ينبعث من الأراضي الرطبة التي لم تزرع، فذلك كله يحدث السم في تلك الحيات، ومتى أصلحت الأرض التي تأوي إليها تلك الهوام وزرعت وعمرت بالمساكن والقرى، اختفت منها تلك الأنواع، ومن أهم الحيات التي لا سم لها «البوا» وهو عظيم الجثة يختطف الرجل والحمار، كما اتفق لروبنصن أن حماره كما في قصته الخيالية اختطفه ذلك الثعبان العظيم، وابتلعه من قبل رجليه، حتى إذا انتهى إلى رقبته ضربه روبنصن وأرداه بالبندقية فخر صريعاً.

وأقول: إن المسافرين الذين يجوبون الأقطار التي يسكنها، يعرفون طبعه، وأنه يقتنص الإنسان من جهة رجليه، فإذا نام الرجل منهم وسع ما بين رجليه، فإذا جاء ذلك الثعبان وابتلع رجل النائم، استيقظ حالاً وسلّ مديته، وقطع بها حلقومه فيموت حالاً ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾[هود: ٦٦].

العجيبة الثانية عشرة: العصفور الخياط

ما لي أرى أمة الإسلام قد نامت نومة عميقة؟ لماذا لا يدري المسلمون العلوم التي بها أمر الله؟ يا عجباً، كيف يعتني الإنجليز في متحفهم البريطاني بأنواع العش الذي يخيطه ذلك العصفور؟ ليستيقظ عقل الشبان لما في هذا العالم من الجمال، وأمة الإسلام نائمة عاكفة على الجهالة في النوم العميق، إن نوعاً من العصافير التي أنعم عليها بطول ذيولها، تخيط أعشاشها خياطة يحار فيها الناس بلا إبرة ولا آلة خائطة، فيعمد العصفور إلى ورقة شكلها أشبه بالرمح وهي في غصنها ثابتة، ويأتي العصفور بورقة أخرى أصغر منها ويخيطها عليها بقطع من عيدان دقيقة على نسق عجيب، فإذا فرغ العصفور من الخياطة عمد إلى القطن فحشاه به، وذلك قبيل وضع الأنثى، فتضع عليه بيضها، ومتى فقس عاشت الفراخ أيامها الأولى على ذلك الفراش الناعم في بيت معلق في الهواء يتحرك بأخف النسيم.

العجيبة الثالثة عشرة: العصفور النساج

إن من العصافير نوعاً يصنع عشه كهيئة الجراب، قد نسجه من قطع القش، وأقامه بين الأغصان، وهو كروي أو إهليلجي أو مخروطي، وله فتحة يدخل منها العصفور إلى أفراخه، وفي الجدار من دقة الصنع وحسن الصورة العملية ما يدهش أولي الألباب.

العجيبة الرابعة عشرة

العصفور الذي يبني بيته ويصنع له باباً يقفله عند الحاجة فهو أرقى من بعض المتوحشين
والعصفور الذي يحبس زوجته

إن هذا العصفور يبني عشه في أواسط أفريقيا ، فيفتح باب عشه ويقفله متى أراد ، وقد رأى العلماء من الناس من لا يصنعون لمنازلهم أبواباً .

وذكر العلامة « جبرون » في كتابه المسمى « طيور الهند » أن بعض العصافير إذا آن زمن التفريخ استعدت له كما يستعد الناس زمن الحمل ، فترى النساء يحضرن اللفائف قبل الوضع ، وترى اللبن يتقاطر إلى ثدي المرأة شيئاً فشيئاً ، فهذا النوع إذ ذاك يحبس ذكره أنثاه في عشها ويقفل عليها باباً من الطين ، وفيه ثقب لا يسع إلاّ منقارها لتلتقط به الطعام ، وليدخل منه الهواء ، أما الأنثى فإنها لا تأكل إلاّ ما يحضره لها الذكر ، فتلتقطه بمنقارها ، والعصافير في هذا أشبه ببعض الناس ، إذ يتجنبون المرأة أيام نفاسها ، وهذه الأنثى لا تزال محبوسة حتى يتم الإفراخ ، وبعد ذلك يتعاون الزوجان على كسر ذلك السجن .

العجيبة الخامسة عشرة : العصفور الذي يصنع عشاً كالجيب

ذكر العلماء ـ ومنهم الرحالة « سونراث » الرحالة الشهير ـ طيرا يجعل عشه كالقنينة الكبيرة أو كالجرة ، ويتخذ له مكاناً في داخله عند مدخله ، ليكون حارساً لها وحافظاً لأولادها ، وذلك لأن الأنثى إذا آن زمن وضع البيض اختفت في عشها لا تخرج منه حتى يتم التفريخ .

فيا عجباً ، نوعان من العصافير اتفقا أن أنثى كل منهما تبقى محصورة بطبعها جاثمة على بيضها ، وأحد الذكرين يحميها بأن يسد عليها بالطين والآخر يحميها بأن يحرسها في باب عشها حتى لا يفاجئها خطر ، وهذان النوعان من العصافير أشبه أولهما الناس حين يتخذون الحصون ردءاً يتقون بها الخطرات ، والثاني أشبه الناس حين يفتحون حصونهم ويوقفون جنودهم وهم شاكو السلاح .

ومن العجيب أن النوع الثاني الذي نحن بصدد الكلام عليه إذا أراد الزوجان سياحة أو خروجاً لغرض ، ضرب الذكر بجناحيه باب العش فينطبق على ما فيه من الفراخ حتى يرجعا وهما آمنان على الأفراخ . فانظر كيف قام الصنف الثاني بالطريقتين ، فإحداهما حين وجود أنثاه ، وثانيتهما عند خروجهما من المكان ، فيجعل العش حصناً للذرية حتى يرجعا إلى المكان .

العجيبة الملحقة بالخامسة عشرة : كيف تعيش جماعات هذا النوع من العصافير

إن جماعات هذه العصافير تعيش أسراباً ، وتكون أعشاشها مدينة عامرة حول جذع شجرة ضخم ، وقد يجتمع حول ذلك الجذع نحو ٣٠٠ عش صغير ، وقد نقل بعض العلماء عشاً من هذه من أفريقيا ، وقد حملها بضعة رجال ، ونقلت في مركبة خاصة في سكة الحديد ، ومن نظر إليها من بعد خالها سقوفاً معلقة بجذوع الشجر والعصافير تلعب فوقها .

العجيبة السادسة عشرة : العنقاء

هل العنقاء موجودة؟ كلا . هذا هو الرأي المعروف في العالم الإنساني ، ولكن الذي ظهر وتحقق الآن أن العالم الأرضي كان فيه حيوانات كبيرة من سائر الأنواع ثم انقرضت ، فمنها « الماموث » وهو

الفيل العظيم الجثة لم يبق إلاّ آثاره، وقد عثر الأستاذ «أوين» في زيلاندة الجديدة على عظام من طيور ونقلها إلى كلية الجراحة في لندن فوجدوا فيها هيكل عظم لطائر كبير ارتفاعه عشرة أمتار، وأدقّ عظامه وأصغرها لا ينقص عن فخذ الإنسان القوي، وهذا الحيوان يسمى «الدينورنيس»، وقد انقرض من أجل غير بعيد، وسكان زيلاندة يتناقلون خبره فيما بينهم، فأيّ مانع يمنع أن تكون العنقاء قد انقرضت من بلاد العرب، وبقي الناس يتناقلون أخبارها، وأصبحت خرافة، وليس ينقص تحقيقها إلاّ العثور على بقايا عظامها، كما عثر على طير زيلاندة.

ويا ليت شعري أيّ عظمة للعنقاء، وأيّ غرابة فيها بعد ما تبيّن أن هناك طيوراً هائلة بقيت آثارها الآن، وهي أعظم من العنقاء، وأن هناك في متحف باريس بيضة لطائر منقرض يسمى «ابيورنيس» كما في مداغسكر، وحجم هذه البيضة يزيد على ستة أضعاف بيضة النعام الكبرى، وهي تساوي ١٢٠٠ بيضة من بيض الطيور الصغيرة، وثخانة قشرتها تساوي مليمترين، بحيث لا تكسر إلاّ بالمطرقة، فعلى ذلك تكون قوة منسر فرخ هذا الطائر عند خروجه من البيضة كقوة المطرقة حتى يتيسر له الخروج من البيضة بمنقاره.

فإذا سمعنا القزويني يقول: العنقاء أعظم الطير جثة وأكبرها خلقة تخطف الفيل كما تخطف الحدأة الفأر، لم يكن في ذلك بعد، إلاّ أنه مبالغ فيه، ويكون ذلك حيواناً انقرض أشبه بما ظهر اليوم في العالم كما تقدم.

ويقول علماء طبقات الأرض: إنها كانت في غابر الدهور أوفر حرارة وأقوى حيوانات، وكان نباتها وحيوانها أعظم جداً من النبات والحيوان اليوم، وكلما مرت عليها دهور صغرت حيواناتها.

ويقول علماء الأرواح: إن الأرضين التي حول الشمس مثل أرضنا، تكون الأجسام فيها أعظم في أول أمرها، فإذا جاء دور انحلالها، أخذت المخلوقات التي فيها تصغر أجسامها، ولكن عقول العقلاء فيها تقترب من عالم الأرواح وتكون أكثر صفاء وأجمل أخلاقاً وأحسن علماً ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: ٢١٦].

العجيبة السابعة عشرة: الحرباء

هذا الحيوان وديع جبان، يعيش في الأقاليم الحارة مثل أفريقيا وإسبانيا وأمريكا، وهو من رتبة الورل، رأسه كبير بالنظر إلى جسمه وظهره ذو أسنان وذنبه ولسانه طويلان، وطول لسانه يساوي طول بدنه، وفي هذا الحيوان ثلاث عجائب أصلية: لسانه، وتغير ألوانه، وطول أناته وصبره. أما لسانه فهو عدّة حربه يقوم مقام المدافع والأساطيل والجيوش لفتح المدن لقصد تحصيل الغذاء.

لعمري لم يحارب الناس ولم يجمعوا الجيوش إلاّ لصد العدو أو جرّ مغنم، وكل ذلك لمقصد الحياة، فهذا الحيوان إذا جثم على غصن يوقع في وهمك أنه مائت، ذلك لأنه يبقى زمناً طويلاً لا حراك به، وليس له رائد إلاّ عيناه يقلبهما ليراقب حشرة طائرة، ومتى مرّت به فما هو إلاّ كلمح البصر حتى يختطفها به ويبتلعها ويتغذى بها. ذلك أن لسان هذا الحيوان مكسوّ في آخره بمادة لزجة متى لامست حشرة التصقت بها بسبب تلك المادة، ولهذا الحيوان أربع أرجل لكل رجل خمس أصابع، وهذه الأصابع حزمتان متقابلتان، وبهذه الأرجل وأصابعها يتشبث بالأغصان، وإذا انتقل فإنّما يكون ذلك

بطء وحذر، فلسانه وصبره هما عدته لاجتلاب الغذاء، أما عدته لدفع الأعداء فهو تغير ألوانه، إن لون هذا الحيوان يتغير تبعاً لما يحيط به، وقد قالوا: إنه يغير لونه كيفما أراد في أي وقت شاء، وذلك ليشاكل ما يحيط به من المخلوقات، فإن كان بجانب شجرة صار أخضر مشاكلة لها، ذلك ليكون بمأمن من مفاجأة العدو المغير، فلولا اللون وتغيره لأصبح فريسة الحيوانات القانصة، ولكان ذلك مفزعاً للحشرات فلا تقترب منه، وهذا الحيوان إذا أخذه الإنسان باليد صار أبرش واكمد لونه وظهر في جسمه بقع سود وحمر وما بينهما، وإذا غضب اشتدت سمرته حتى يصير أسود اللون، وقد تمثلوا في الحزم بالحرباء، ومن أمثالهم أيضاً: «أصرد من عين الحرباء» أي: أبرد، يضرب لمن أصابه برد شديد، لأن العرب تعتقد أن عين الحرباء تدور مع الشمس ويستقبلها بعينه ليستدفئ بها، ولذلك شبه ابن الرومي الرقيب بالحرباء، قال:

ما بالها حسنت وإن رقيبها ... أبداً قبيح قبح الرقباء

ما ذاك إلاّ أنها شمس الضحى ... أبداً يكون رقيبها الحرباء

فانظر كيف كان الصبر والأناة وسكون الحركات سبباً لاقتراب الحشرات منه، وكيف طال لسانه حتى يختطفها، وكيف انتهى بمادة لزجة فالتصقت بها الحشرات، وكيف تفنن في ألوانها ليشاكل ما حوله دفعاً للملمات وطلباً للخيرات، فاقرأ: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون: ١٧]، واقرأ: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[الحجر: ٢١]، واقرأ: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[الأعلى: ١-٣]، فهذه هي الهداية، وهذا هو قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[هود: ٦]، فاقرأ القرآن في هذه العجائب ولا تكن من الغافلين النائمين.

العجيبة الثامنة عشرة: من أهم سلاح بعض الحيوان الجلود المتينة

إن لكل حيوان سلاحاً، فالفيلة بالخرطوم، والإنسان بالعقل والسلاح المشهور، والوحوش بالأنياب، والسباع بالبراثن، والفيران ونحوها بالعدو، والطير بالتحليق في الجو، والثور بالقرون، وما أشبه ذلك. وهناك حيوانات لا سلاح لها إلاّ جلودها، كالتمساح، إنه لا يخترق جسمه الرصاص، وكذا السلحفاة، فإذا مشت ترى عليها قبة قوية متينة، فإذا خافت مما يؤذيها انكمشت وأخفت رأسها وأرجلها في ذلك الحصن الحصين، ومن هذا النوع السرطان والقنافذ وغيرها.

العجيبة التاسعة عشرة: شريعة الغربان

وقد تقدمت في هذه السورة فلا نعيدها.

العجيبة العشرون: الفرس الحاسب المتعلم

كان قدماء العلماء يقولون: إن الحيوان يتقابل مع الإنسان في أوصاف شتى، ففي الهيكل الظاهري كالقرد، وفي الذكاء كالفيل، وفي الأدب كالفرس، وفي النطق كالببغاء، وفي حمل الأثقال كالجمال. فكل حيوان من هذه اقترب من الإنسان بخصلة، ولم يقدر حيوان ما أن يشارك الإنسان في سائر أحواله. ولقد كان الفرنجة في أول نهضتهم يظنون أن القرد وحده قد اختص بالقرب من الإنسان ولكن لما استمروا يجدّون في العلم ألحقوا به الفرس والكلب والهر والفيل.

ولقد كان العالم الألماني المسمى «هرفون أوستين» يقيم في شمالي برلين متفرغاً لدرس طبائع الحيوان مدة ١٤ سنة، ووجه عنايته إلى فرس عنده، وعلمه فنجح خير نجاح، وقد سمى هذا الحصان «حنا النبيه»، ولقد علمه على أحدث طريق تعليمي مدرسي بالطباشير والألواح السود وبالخرز وبالروائح العطرية والألوان، وعلمه الحساب بالأرقام، فعلمه الجمع والطرح والضرب والقسمة والكسور العشرية وغير ذلك. ولما شاع أمر هذا الفرس شكلت لجنة من علماء الحيوان فامتحنوه، فأقر العالم «هرشيلنس» أشهر علماء الحيوان في برلين أن هذا الحصان يقرأ الخط ويعرف الأعداد والنقود وكم الساعة دقائق وساعات، وأجوبته على مسائل الحساب بالضرب على الأرض بحافره، وإذا أراد تأكيد الجواب ضرب الأرض بحافره الأيسر ورفس رفساً شديداً، ولما غالطه أستاذه إذ قال له اثنين واثنين عبارة عن خمسة، ضرب بحافره الأرض أربع مرات، ومع كل منها ضربة بحافره الأيسر، وسألوه في عملية حسابية طويلة فأجاب ولم يخطئ، وملؤوا قفة خرقاً بألوان مختلفة وسألوه عن كل واحدة بألوانها فكان يجيب ولا يخطئ، وسألوه كم عدد الذين يتقلدون النظارات، وعن السيدة التي على رأسها قبعة خضراء، فأجاب ولم يخطئ.

واللجنة لما رأت هذه النباهة أخرجت الأساتذة الذين سألوه، وابتدأ غيرهم في السؤال، فقدم أحدهم له ريالاً، وقال: متى الساعة؟ فلم يجبه. وقال بعضهم: نظف معلفك بخرقة وأنا أزيد في علفك فالتفت يميناً وشمالاً حتى وقع نظره على خرقة أمام الأستاذ «شيلنس» فالتقطها بفيه وأسرع إلى الإصطبل وأخذ يمسح معلفه بتلك الخرقة حتى نظفه تماماً ثم أعاد الخرقة، ولقد أتوا له بثلاثة أسلاك في واحد أربع كرات، وفي الثاني ست، وفي الثالث ثلاث كرات، وعلقوها بين يديه وطلبوا منه جمعها، فضرب الأرض بحافره ١٣ ضربة، وهو يعرف الحروف بالأعداد، فلكل حرف عنده عدد، وأتوا له بصحيفة عليها رقم خمسة، وسألوه: كم واحدة من هذه تساوي عشرين، فضرب برجله الأرض أربع مرات، وقد ميز أمامهم بين الذهب والفضة والنحاس وجعل للذهب ضربة وللفضة ضربتين، وأروه ساعة وكان الوقت ١١ ونصفاً، فضرب أولاً ١١ ضربة، وصبر قليلاً ثم ضرب ثلاثين ضربة.

وقال العلماء: إن نباهة هذا الفرس تقابل نباهة الإنسان وعمره ١٣ سنة، وكان يوم امتحانه مشهوداً، حضره الأطباء والعلماء وأعضاء الأكاديميات العلمية وكثير من الأمراء والأشراف، وكان أمراً عظيماً. ولما عرف ذلك واشتهر طلب أحد الأمريكان أن يشتريه بمبلغ ٥٧٠٠ جنيه، فلم يقبل صاحبه، وقال: أنا لا أبيعه بأيّ ثمن لأني لا أطيق فراقه، ووقع العلماء والفضلاء ورجال الأكاديميات على الشهادة بما شاهدوه من هذا التلميذ النبيه. ولقد أجمعت جرائد برلين أن «حنا النبيه» يمثل أعظم حادث يتعلق بعلم النفس في المملكة الحيوانية.

هذه هي العجائب العشرون التي وعدتك بها تذكرة لقوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[هود: ٦] الخ، فبمثل هذا يدرس القرآن، وبمثل هذا فليرتق المسلمون، وبمثل هذا يكون مصداق قوله تعالى: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[التوبة: ٣٣]. بمثل هذا يا أمة الإسلام ترتقون، وعلى ذلك فلتعولوا هو خير مما تقرؤون من العلوم القشرية، فإياكم أن تقفوا على القشور فاخترقوها واطلبوا الألباب.

هذه هي الخزائن الإلهية في الآيات القرآنية ، إنَّما مثل هود كمثل قصر مشيد فيه حجرات فاخرة ، في كل حجرة ما غلا من الثياب وما جمل من المتاع ، وفي داخل تلك الثياب جواهر يتيمة ، كل جوهرة منها في حجرة ، وتلك الجواهر هي عجائب الحيوان كما وضحته عندما مثلت بثمرة الجوز ، فمن اكتفى بالثياب غابت عنه الجواهر ، فلم ينلها وخرج صفر اليدين منها . إن القرآن يقرؤه الناس ويكتفون بظواهر القصص وهم عن الجواهر معرضون ، إنَّما هذه القصص بحر فيه أنواع المخلوقات ، ولكن أجملها وأعلاها وأضوأها وأبهرها الجوهر المكنون في صدفه ، فهاهي ذه الجواهر في القرآن .

لقد ضل قوم انصرفوا عن الجواهر إلى الأصداف ، فقال الله فيهم : ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ واهتدى قوم إلى الجواهر ، فقال الله فيهم : ﴿ وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا ﴾[البقرة : ٢٦] .

إن الكثير من المهتدين سيكونون من الآن إلى مستقبل الأزمان . إن المسلمين سيقوم فيهم جيل جديد يتبعه أجيال ، وسيكون هذا التفسير وما ماثله في أمم الإسلام من أنجع الوسائل لترقية المسلمين ، إني بذلك موقن ، ولولا إيقاني به ما كتبت حرفاً ولا أضعت وقتاً ، ومتى أراد الله أمراً هيأ أسبابه .

وقبل ختام التفسير في هذه السورة أذكر حادثتين : الحادثة الأولى

إنني قرأت في الجرائد هذين اليومين أن الأب « موفيه » الفلكي الشهير ومدير مرصد بورج ، صرّح بنبوءة أحدثت جزعاً ، ذلك أنه تنبأ بوقوع حرب كبرى سنة ١٩١٨ أو أزمة خطيرة في العالم ، وقال : إن الأمم تتأثر بنشاط الأفلاك في حركاتها ومواقع الشمس والنجوم وكذلك الأفراد ، وقد حذر الأب « موفيه » المذكور حينما كان في بروكسل سنة ١٩١٠ حكومات أوروبا من مصاب هائل يوشك أن يعصف بالعالم ما بين سنة ١٩١٤ وسنة ١٩١٨ ، وهاهو ذا الآن يحذر العالم من جديد ، ويقول : إن الاضطراب في مواقع الشمس يؤثر في الجهاز العصبي الإنساني ، كما يؤثر فيه الإقليم ، وهذه المقالة كتبت في جرائدنا يوم ١٢ أكتوبر سنة ١٩٢٤ ، وإنَّما كتبتها لمناسبتها لما نحن فيه .

ألا ترى أن هذا العالم في نظر الحكماء كجسم واحد وحيوان واحد وإنسان واحد ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾[لقمان : ٢٨] ، وإلاَّ فبالله أيّ فرق بين تأثير الزنبور في الدودة كما قدمنا وتأثير الشمس في الأمم والأفراد . إن العالم كشخص واحد ، فالكواكب والأقمار والنجوم لها ارتباط بكل حيوان وكل إنسان . تلك هي الوحدة العامة في العالم ، والمحرك لها نظام واحد لا يختل ، وما قتل الزنابير للدود ولا فتك الآساد بالغزلان والذئاب بالحملان إلاَّ حركات متصلة بالمبدأ الأعلى ، فظاهرها اختلال وباطنها حساب ونظام .

أعمال تطابق غرائز الحيوان وديانات الإنسان

ومن هذا المقام أن ذلك المبدأ الأعلى أوحى إلى أمثال تلك الزنابير ، فقال لها متى اقترب زمان بيضها : أن اقتنصي الذباب ، واصطادي العنكبوت ، واجذبيهما وأمثالهما إلى منزلك المنظم ، وأنزلي عليهما ما لديك من المادة السامة ، واتركيهما ثم بيضي عليهما ، فإذا فعلت ذلك باضت وتركت بيضها ليتغذى دودها الذي سيخرج من البيض مما تحته من هذا المصيد . إن هذه الحادثة التي قدمنا ذكرها وما ماثلها فيما ذكرناه ترينا نظاماً واحداً ، فلكل حيوان نظام تام ليعيش به وليعدّ العدّة لأولاده ، باض الطير فألهم أن يجثم على بيضه أياماً ، ولم يلهم أن يجتذب حشرات لأولاده ، لأن ما في البيضة من

الغذاء كاف، حملت البقرة والشاة والمرأة ولم يحتجن قط إلى ما احتاجت إليه الدجاجة من حضنها بيضها، ولا حشرة الزنبور من إحضار الصيد لأولادها، ذلك لأن اللبن عندها قائم مقام ما ذكرناه.

يا أيها الناس، يا أيها الأذكياء، انظروا كيف تم هذا النظام، كيف ألهم كل حيوان قبل وجود أبنائه بما قصرت فيه الطبيعة، فأحضره لذريته المقبلة. انظروا لهذا النظام، انظروا كيف كان الإلهام مطابقاً للاحتياج، ولا يلهم الحيوان إلاَّ حاجته ويمنع عنه ما ليس إليه حاجة، نعطف على الإنسان وننظر فنجده من أول التاريخ إلى الآن لا يزال يجدّ في العبادة، وينصب التماثيل تارة ويوحد تارة أخرى، وترسل له الأنبياء فيقولون: أيها الناس، هناك عالم آخر فاستعدوا له، فتراهم يعبدون ويوحدون، ومهما سافرت في البلاد واخترقت الطرقات وجبت المدن، لم تجد إلاَّ مآذن شامخة، ومساجد مشيدة، وكنائس مبنية، وبيعاً منصوبة، وآيات مكتوبة، وأذكاراً مقروءة، ودعوات مطلوبة، وأوراداً متلوة، ودروساً مفهومة، وعلوماً مروية، وأحاديث مرفوعة، وكتباً مقدسة مسموعة، ونواقيس مدقوقة، ومؤذنين يؤذنون، وقراء يرتلون، وصوّاماً يجوعون، وقوّاماً بالليل يصلون، أليس ذلك من الاستعداد للعالم الذي ستصل إليه بالوحي والإلهام، كما استعدت الطيور في أعشاشها، والحشرات في أماكنها للذرية المستقبلة، وإذا كان الجراد لا يضع بيضه إلاَّ على بعد مخصوص في مكان مخصوص ثم يتركه ويموت، ويكون هذا الوضع وفق المطلوب، وبه يعيش الجيل الجديد، فكيف لا يكون الإنسان وأنبياؤه قد استعدوا للمستقبل كما استعد أقل الحشرات وسائر الأمهات لمستقبل الأبناء والبنات.

إن صغار العقول من بني الإنسان قد استهزؤوا بالديانات، وقد جهلوا نظام الأرض والسماوات ونظام الذكران والإناث من أنواع الحيوان، وغفلوا عن قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾[هود: ٦]. ثم هو لا يلهمها إلاَّ على مقدار احتياجها، فألهم الإنسان ميعاده كما ألهم الحيوان ما يربي أولاده، هذا هو المعنى من هذه الآية، وهذا هو الذي قصده الأنبياء، إذ استدلوا بهذه على الله وعلى الميعاد، وتمت السورة بقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[هود: ١٢٣] الخ، فهل يصدق الحيوان ويخطئ الأنبياء والإنسان، وهما في النظام سيان، وفي الخلق صنوان، وهل يصدق المفضول والفاضل في بهتان؟ إن العدل ينكر ذلك والميزان.

الحادثة الثانية

إن سيدة من أشراف السيدات اطلعت على ما كتبته هنا في أمر الحباحب، فدهشت وقالت: يا عجباً، إذا كانت هكذا تضيء على الناس، فكيف يكون نور الله؟ ففكرت في نفسي وقلت: إن الحباحب المضيئة من العالم الأرضي، والأرض مشتقة من الشمس، وهذه الحشرة أضاءت أمها الكبرى وهي الشمس، ونسبة ضوء الحباحب إلى ضوء الشمس كنسبة الحباحب نفسها إلى الشمس، إن عقولنا لها نور معنوي، فنورها مستمد من نور معنوي أوسع، ونسبة إدراك عقولنا إلى ذلك العقل العالي المستمد من الله المدبر للعالم كنسبة ضوء الحباحب إلى ضوء الشمس. هاتان الفكاهتان ختمت بهما تفسير هذه السورة. والحمد لله رب العالمين.

تمّ بحمد الله وحسن توفيقه الجزء السادس من كتاب «الجواهر» في تفسير القرآن الكريم

ويليه الجزء السابع، وأوله تفسير سورة «يوسف» عليه السلام



فهرست الجزء السادس
من تفسير الجواهر

تفسير سورة يونس، وهي سبعة أقسام ٣

القسم الأول: في دلائل معرفة الله تعالى، واليوم الآخر، ونعيم الآخرة ٤

فصل في بيان قوله تعالى: «سِتَّةِ أَيَّامٍ» ٦

فصل في قوله تعالى: «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ» ٨

فصل في قوله تعالى: «يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ» ٨

جمال في إشراق شمس المعارف من قوله تعالى: «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ» ٩

الأستيك والكبريت ١٠

آراء نوع الإنسان في أمثال هذا المقام ١٢

الإجابة على هذا السؤال ١٣

فريدة في التدبير العام ١٥

العقول الإنسانية ١٦

القوة القدسية ١٦

مستقبل الأمم على الأرض وواجب المسلمين ١٨

ازدياد الناس على الكرة الأرضية ١٩

واجب المسلمين الذين ألف لهم هذا الكتاب ١٩

فصل في قوله تعالى: «وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ» ٢٠

القمر أصل الشهور والأسابيع ٢٠

فصل في معنى قوله تعالى: «وَالْحِسَابَ» ٢٢

بهجة العلم في هذه الآيات ٢٤

حساب الدرجات الأرضية ومعرفتها وكرويتها ودورانها ٢٤

فصل في الكلام على الخلاف بين الأوائل والأواخر في الأفلاك ٢٥

الشمس وشفاء الأمراض ٣١

الاستشفاء بنور الشمس في المصايف ٣١
تذكرة ٣٣
بيان أن المساحة والميزان والمكيال في بلادنا المصرية تابعات لسير الشمس ٣٣
تذكرة للأمم المصرية وللأمم الإسلامية ٣٦
مذكرة لإصلاح التعليم الثانوي بالمملكة المصرية ٣٦
جمال الكواكب قبسة من عوالم الجنات عجلت في هذه الحياة ٣٨
الكواكب جنات عجلت للمفكرين ولكن أكثر الناس عنها محجوبون........ ٣٩
رياض الجنات التي أعدها الله في هذه الدنيا للعارفين ٤٠
جوهرة في إشراق نور العلم في القلوب بإشراق نور الكواكب ٤٥
تذكرة ٤٧
فصل في قوله تعالى: « إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » وفيه لطائف ٤٨
اللطيفة الأولى: النبات المفترس ٤٨
اللطيفة الثانية: في نبات مائي يسمى عند النباتيين بـ « فاليستيرياسبيراليس » ٤٨
اللطيفة الثالثة: شجرة تفترس إنساناً ٤٩
اللطيفة الرابعة: كيف تظهر صور المخلوقات في فصول السنة الأربعة ٤٩
فصل الربيع ٤٩
فصل الصيف ٤٩
فصل الخريف ٥٠
فصل الشتاء ٥٠
فصل في قوله تعالى: « إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا » ٥٠
مناسبة هذه السورة لآخر التوبة ٥٢
بيان الفارق بين توكل نبينا صلى الله عليه وسلم وتوكل هود في سورته الآتية ٥٤
العقائد لمقاصد ٥٥
القسم الثاني: في أدلة مختلفة على التوحيد؛ من النظر في النفس، والنظر في القرون الخالية ٥٥
لطيفة ٦١
القسم الثالث: في أدلة البعث وأحوال المبعوثين ٦٢
لطيفة في النظر لوجه الله تعالى ٦٥
التقصير في علوم الكائنات يحرم أحياء المسلمين من الغلبة وأمواتهم من النظر لوجه الله الكريم ٦٥
القسم الرابع: في إثبات النبوة، وتقريع الجاهلين وتوبيخهم، مع أدلة إثبات الربوبية ٦٦
غرائب القرآن في سورة يونس وهود ويوسف ٧٤
مقاصد قصص القرآن ٧٦

للتدبير ثمرتان ثمرة علمية، وثمرة عملية ٧٦
ضرب مثل لهذا المقام وهو الاستلذاذ بمشاهد التدبير ٧٧
الثمرة العملية لذلك التدبير ٧٧
كيف يشهد الناس التدبير في هذا النظام ٧٨
لطيفة في قوله تعالى: «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ» وتحقيق هذا المقام ٧٨
القسم الخامس قصة سيدنا نوح عليه السلام ٨٢
حكاية ٨١
القسم السادس قصة سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون ٨٣
لطيفة في موازنة هذه القصة بأحوال الأمة الإسلامية ٨٩
لطيفة في قوله تعالى: «وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ» ٩٠
فرعون موسى قد وجد بدنه وهو بالمتحف المصري ٩٣
نبذة خامسة ردّ اعتراض ٩٦
نظام السماوات عند قدماء المصريين ٩٧
علم الفلك وقدماء المصريين ٩٧
أول من تفطن لرفع الحجاب عن جمال السماء هم قدماء المصريين ٩٨
هيئة السماء في صندوق حتر بطية وهيئة البروج فيه ٩٨
صورة منطقة فلك البروج التي وجدت في هيكل دندره في عصر القياصرة الأول ٩٩
القرآن يأمر بالنظر لكل ما هو محكم الصنع ١٠٠
تذكرة ١٠٠
الفصل الأول في رسم الصورتين المذكورتين وشرحهما ١٠١
الكلام على الشكل الثاني عشر ١٠٣
الجوهرة الأولى ١٠٤
الجوهرة الثانية في فوائد ذلك للمسلمين ١٠٥
حكاية النملة وسيدنا سليمان عليه السلام ١٠٦
ذكرى أيام الشباب وشكر الله تعالى على نعمة العلم والعرفان ١٠٧
الفصل الثاني فيما يجوز من الصور وما يمتنع ١٠٧
ملخص ما تقدم ١٠٩
تذكرة ١١١
الفصل الثالث في الكلام على بناء الأهرام لأنه من أسباب النجاة لبعض أبدان الفراعنة ١١٣
هذا الكوكب هو قبلة المصريين القدماء ١١٤
الكعبة وكوكب الشعرى ١١٦

معجزة للقرآن في هذا الزمان ١١٧
بيان قوله تعالى: «لِتَكُوْنَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً» ١١٧
شكر الله على الحكمة والعلم وأن الإسلام أعتق الإنسانية من الخرافات ١١٨
كيف أعتق الإسلام الأمم من الخرافات ١١٩
لطيفة وذكرى ١٢٠
وجدان المؤلف أيام الشباب والمشيب وكتاب الله تعالى وأمم الإسلام ١٢١
كتاب الله تعالى ١٢٢
أمم الإسلام ١٢٢
تحفة مهداة للمستبصرين في الإسلام والنظر في كتب الفرنج ١٢٣
القسم السابع: في تقرير ما تقدم كله من القصص والدلائل ١٢٣
خاتمة في عجائب هذه السورة وما تقدمها من السور ١٢٦
تفسير سورة هود، وهي أربعة أقسام ١٢٩
آيات الأخلاق، آيات العلوم، آيات الأحكام، آيات النظام العام ١٣٤
القسم الأول: في المقصود من الرسالة ١٣٦
خطاب إلى علماء الإسلام ١٤٠
لطيفة في قوله تعالى: «كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ» ١٤٣
الأغذية والعلوم لا يتمان إلاّ بالتحليل ١٤٩
إن مستقبل الإسلام العلم والحكمة ١٥٠
أبو بكر الصديق والشافعي، وكيف استنتجا من القرآن ١٥٢
لطيفة في قوله تعالى: «وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا» ١٥٣
العجيبة الأولى: قضايا الطير وأحكامها ١٥٣
لطيفة في قوله تعالى: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» ١٥٧
القسم الثاني: تأنيبهم على استبعادهم البعث، والإلماع إلى نقص الإنسان ١٥٨
لطيفة في قوله تعالى: «مَن كَانَ يُرِيْدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» ١٦٣
تحذير ١٦٣
القسم الثالث: في قصص الأمم والأنبياء ١٦٣
قصة نوح عليه السلام ١٦٦
صنع السفينة واستهزاء قومه به ١٦٩
نجاته هو ومن آمن معه ١٦٩
هلاك من عصى من أهله ١٧٠
اللطيفة الأولى: «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ» ١٧١

اللطيفة الثانية : في مقصود هذه القصة ١٧١
مقصود القصة لسائر الفضلاء ١٧٣
اللطيفة الثالثة : الطوفان في العلم الحديث ١٧٣
الطوفان العام ١٧٣
الطوفان الخاص الذي جاء به القرآن والكتب السماوية كما في هذا المقام ١٧٤
جوهرة في معنى قوله تعالى : « مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ » ١٧٦
تشبيه الأرض بدرّة ١٧٨
الكلام على الزنبار ١٧٩
الكلام على الفيران والوطاويط والبوم ١٨٠
الكلام على السمك ١٨٠
الكلام على لون الجمل والأسد ونحوهما ١٨٠
الأرنب والدب والثعلب القطبيات ١٨١
الغنم القطبية والسمور والغراب وألوانها هناك ١٨١
بيان أن هذا معنى قوله تعالى : « مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ » ١٨٢
العرش والرحمة والعلم ١٨٣
التسبيح والتحميد ١٨٤
المتعلمون تعليماً أوروبياً يجهلون حقائق العلم في أوروبا وفي الإسلام ١٨٧
بهجة الأنوار في عجائب الحيوان ١٩٠
حياة الأرضة ١٩١
نظرتي في هذه الدنيا ١٩٢
إذن ما نتيجة هذا النظام ١٩٣
شرف درس الحيوان ونظام الدنيا ١٩٤
فائدة هذه المباحث في آياتنا ١٩٦
وحدة هذا الوجود ١٩٦
موازنة بين حياة وموت الحيوان ونظيرهما في الإنسان ١٩٨
عجائب القرآن وعجائب الطبيعة التي نزل لفهمها القرآن ٢٠٠
العجيبة الأولى : حكمة القرآن ٢٠٠
العجيبة الثانية : المادة والكلام ٢٠١
وحدة الوجود والإنسان عالم صغير ٢٠١
شمس هذا العقد الثمين ٢٠٢
قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام ٢٠٣

ياقوتة مضيئة على لسان شعيب عليه السلام ٢٠٧
القسم الرابع : في طريق هداية الأمم إلى الفلاح ٢١٠
مصداق هذه الآية في تاريخ الأندلس وفي الدولة العباسية بغزوة التتار........ ٢١٤
التتار في الشرق........ ٢١٥
مصداق هذه الآية في الأمم الإسلامية اليوم ٢١٦
لطيفة في قوله تعالى : « فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا »........ ٢٢١
لطيفة في أهم العلوم التي كان يرمي إليها الأنبياء في هذه السورة ٢٢٢
خزائن الجواهر في سورة هود........ ٢٢٤
العجيبة الأولى : لغات الحيوان ٢٢٥
العجيبة الثانية : نظار النمل ٢٢٥
العجيبة الثالثة : لغة النحل ولغة النمل متقاربتان........ ٢٢٥
العجيبة الرابعة : حكاية نملة ٢٢٦
العجيبة الخامسة : الزنابير وتناسلها ٢٢٦
العجيبة السادسة : زنبور يلسع دودة ٢٢٦
العجيبة السابعة : الحشرات الصائدة بلونها المشبهة الزهرة ٢٢٧
العجيبة الثامنة : الحباحب ٢٢٧
العجيبة التاسعة : صاحب السفينة ٢٢٨
العجيبة العاشرة : سمك يطير ٢٢٨
العجيبة الحادية عشرة : الحيات التي لا سم لها أكثر من ذوات السم والثعبان الذي لا سم له ٢٢٩
العجيبة الثانية عشرة : العصفور الخياط........ ٢٢٩
العجيبة الثالثة عشرة : العصفور النساج ٢٢٩
العجيبة الرابعة عشرة : العصفور الذي يبني بيته ويصنع له باباً يقفله ٢٣٠
العجيبة الخامسة عشرة : العصفور الذي يصنع عشاً كالجيب ٢٣٠
العجيبة السادسة عشرة : العنقاء........ ٢٣٠
العجيبة السابعة عشرة : الحرباء........ ٢٣١
العجيبة الثامنة عشرة : من أهم سلاح بعض الحيوان الجلود المتينة ٢٣٢
العجيبة التاسعة عشرة : شريعة الغربان ٢٣٢
العجيبة العشرون : الفرس الحاسب المتعلم ٢٣٢
ذكر حادثتين : الحادثة الأولى : نبوءة الأب موفيه ٢٣٤
أعمال تطابق غرائز الحيوان وديانات الإنسان ٢٣٤
الحادثة الثانية : في ما كتبته هنا في أمر الحباحب ٢٣٥